

المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام

الحقيقة الكاملة

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام

الحقيقة الكاملة

الطبعة الأولى

1440هـ – 2019م

تقديم

بقلم أ. د. علي القره داغي

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

هذا جزء من عنوان كتاب جديد: المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام)، الحقيقة الكاملة، للعالم المحقق الموفق أخي العزيز فضيلة الدكتور علي محمد الصلابي الذي خاض في موضوع يُعدُّ من أكثر المسائل تعقيداً وخلافاً حتى على مستوى النصارى أنفسهم، لكنه استطاع بفضل الله وتوفيقه إياه أن يجد بغيته في كتاب الله الذي أنزله شفاءً ورحمة وتبياناً لكل شيء، وأنه نزل لبيان الخلاف الذي حدث بين الأمم السابقة، فقال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ **[النحل: 39]** فالله تعالى قد بيَّن من خلال كتابه الحقائق التي اختلف فيها السابقون والمعاصرون.

وليس هذا الإقدام على مثل هذه الموضوعات الكبيرة غريباً على المؤلف الذي تعايش مع القرآن الكريم بكل جوانحه، وجعل رسالتيه العلميتين (الماجستير، والدكتوراه) في التفسير الموضوعي، كما أن مؤلفاته الكثيرة النافعة في السيرة والتاريخ ساعدته في إنجاز هذا الكتاب، بل هذا المشروع العظيم.

وإذا كان شرف العلوم بشرف موضوعها، فإن هذا الكتاب نال شرفين عظيمين هما:

شرف المؤلَّف فيه، وهو سيدنا عيسى ابن مريم (عليه السلام) الذي هو من أعظم الأنبياء والمرسلين، بل هو من أولي العزم، وأن أتباعه لايزالون يشكلون أكبر نسبة بين الأديان السماوية حيث تصل إلى 31%.

والشرف الثاني: هو أن مصدر المعلومات له هو القرآن الكريم الذي أولى عناية منقطعة النظير لكل ما يتعلق بسيدنا عيسى (عليه السلام)، حتى سميت ثالثة سورة باسم آل عمران، وسورة أخرى من أعظم السور باسم والدته مريم (عليها السلام)، وسورة ثالثة عظيمة باسم

«المائدة»، وهي التي طلبها حواريو عيسى (عليه السلام) بالإضافة إلى ما ذكر ما خصّه القرآن الكريم لبني إسرائيل ولأسرة عيسى (عليه السلام) من السور والآيات العظيمة.

فقد استثمر المؤلف الكريم تخصصه التاريخي العلمي في بيان الجذور التاريخية للوطن الذي ولد فيه عيسى (عليه السلام)، وهو فلسطين، فخصَّص المبحث الأول لتأريخ فلسطين، وما يتعلق به سياسياً واجتماعاً وفكرياً، كما خصَّص المبحث الثاني لحديث القرآن الكريم عن عيسى (عليه السلام) فأطال النَّفس فيه، وأفاض بفيوضات مباركة وإشراقات عميقة واستنباطات رائدة، وتنظيم رائع من حيث حسن التنسيق والتفسير والتنظيم والترتيب، حيث أعطى صورة مستقلة، ومتكاملة عن سيدنا عيسى (عليه السلام).

وأستطيع القول إنه لم يترك آية تتحدث عنه، أو تدور حوله، أو تتعلق به أو بأسرته عن قريب أو بعيد إلا ذكرها وفسّرها أو فصلها، وذكر ما فيها من آراء أو احتمالات إن وجدت، ثم لم يترك ذلك دون موازنة وترجيح، كما خصَّص المبحث الثالث لمعجزات عيسى (عليه السلام).

ومن مميزات الكتاب أنه استكمل أهم ما يتعلق بأتباع عيسى (عليه السلام) حيث خصَّص المبحث الرابع لما جرى بين النصارى وبين الرسول (ﷺ) كما أنه تحدث عن الحوار بين الأناجيل الأربعة حديثاً علمياً موضوعياً مستعيناً بمئات من المصادر والمراجع التي أثرى بها الكتاب أيَّما إثراء.

الكتاب حقيقة متكاملة

إن كل من يقرأ هذا السفر العظيم يصل إلى حقيقة ناصعة وهي أنه أعطى صورة متجانسة متكاملة متوازنة وفق فقه الميزان عن سيدنا المسيح (عليه السلام)، لأنه اعتمد على القرآن العظيم الذيَّ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ **[فصلت: 42]** وعلى السُّنَّة الثانية التي لا ينطق صاحبها (وهو رسول الله (ﷺ)) عن الهوى فقال تعالى : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ **[النجم: 3-4]**.

فالقرآن الكريم ومعه بيانه قد بيَّن الحقيقة الكاملة لسيدنا المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام)، وذلك ليرفع الخلاف حول حقيقته، يقول المؤلف المحقق معبراً عن أهم نتيجة تمخض عنها كتابه «لا يوجد كتاب على وجه الأرض منح السيد المسيح (عليه السلام وأمه البتول وعائلته الكريمة تكريماً وتبجيلاً أعظم من القرآن الكريم، بل إن تكريم القرآن الكريم للمسيح وأمه وعائلته يفوق ـ بلا شك تكريم كل من التوراة والإنجيل الموجودين حالياً، وكان القرآن الكريم بالإضافة إلى هذا التكريم ـ هو المصحح للأخطاء والاتهامات والافتراءات الباطلة التي كانت توجَّه إلى السيد المسيح وأمه الطاهرة على ألسنة اليهود والمسيحيين أنفسهم، بل توصل المؤلف إلى ما ذكره القرآن الكريم من معلومات دقيقة ومفصَّلة تعدُّ «من أوجه الإعجاز الإنبائي والتأريخي والتربوي والعلمي في سرد القرآن الكريم لعدد من المواقف المجددة من سيرة عبد الله ونبيه عيسى ابن مريم (عليه السلام).

وقد اعتمد المؤلف في فهم الصورة القرآنية على السُّنَّة النبوية الثابتة أيضاً، وعلى المصادر المعتمدة في التفسير والشرح والتحقيق في المعاني والمباني، والتدقيق في الاستعمال اللغوي ووجوه الإعجاز البياني.

فقه الميزان في الكتاب

إن ما بيَّنه القرآن الكريم حول سيدنا عيسى عليه السلام وأمه مريم يقوم على الموازين القرآنية المتعلقة بالخالق والمخلوق، والكاشفة عن الحقائق التي تتفق مع الفِطر السليمة والعقول المستقيمة فميزان فقه الخالق أنه واجب الوجود وأنه ليس مخلوقاً ولا محدثاً ولا مولوداً ولا محتاجاً إلى أحد، وأنه لا يأكل الطعام ولا الشراب، ولا يحتاج إلى قضاء الحاجة ونحو ذلك، في حين أن ميزان المخلوق يقوم أنه مخلوق محدث قد خلقه الله تعالى من العدم أصلاً ثم وضع له نظاماً دقيقاً، وأنه مولود، ومحتاج إلخ.

ولذلك نرى أن القرآن الكريم ركَّز على هذه الموازين وفصَّل في كيفية خلق عيسى (عليه السلام) من البداية إلى النهاية، فذكر البداية من حين نذر امرأة عمرانِ ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ **[آل عمران:**

35] حيث تدل هذه الآية على أن سيدنا عيسى (عليه السلام) هو مولود مخلوق من أمه مريم، وأنها مولودة من أمها كل ذلك للتأكيد على أنه عليه السلام لا يختلف عن أي إنسان إلا بأمرين:

أحدهما: أن الله تعالى خلقه دون أب، وإنما بنفخة من عند الله.

والثاني: أنه رسول الله، وكلمته وأنه أكرمه بمعجزات مادية عظيمة، وأن الله تعالى وصفه بصفات عظيمة وحتى داخل الآية السابقة الآيات التي تتحدث عن مريم فإن كل كلمة فيها تدل على أن مريم مخلوقة محتاجة، وقد أعاذتها أمها وذريتها من الشيطان الرجيم، ثم كفالة زكريا لها وما رزقها الله تعالى ومنحها من الكرامات، ثم كفالة زكريا لها، ونحو ذلك. كل ذلك لأجل التأكيد على مخلوقية مريم وأنها ليست بإله، إذن فالأم ليست إلهاً قطعاً، فيأتي القرآن ليبين بالبراهين العقلية القطعية أن ابنها أيضاً ليس بإله، وهنا يأتي تأكيد القرآن الكريم على ذكر عيسى بأنه ابن مريم أي مولود لم يكن موجوداً، وأنه مخلوق وليس خالقاً ولا الهاً ولا رباً بأي معنى من معاني الخلق والألوهية، وهنا تأتي الأدلة القرآنية على ذلك بوضوح في ضوء ما يأتي، وأن عيسى (عليه السلام) وجد ببشارة الملائكة لمريم ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ **[آل عمران: 45]** والخالق واجب الوجود أزلي قديم ليس قبله شيء.

إذا كان هناك غرابة في أن لا يكون لعيسى (عليه السلام) والد فقد بين الله تعالى بأن ذلك يعود إلى قدرة الله تعالى وكلمته الكونية القادرة على أكثر من ذلك، بحيث إذا أراد شيئاً أن يكون ليقول له كن فيكون.

فكون عيسى عليه السلام خلق بدون أب وأنه كلمة الله لا يترتب عليه أبداً القول بأنه إله لأن ذلك لا ينفي عنه كونه مخلوقاً كما أن وصفه بأنه «كلمة الله» أو «كلمة منه» يراد به أن الله تعالى خلقه بكلمة منه دون توافر الأسباب الطبيعية لخلقه من وجود النطفة الأمشاج المكونة من مني الرجل وبويضة المرأة ولذلك كان خلقه مثل خلق آدم الذي خلقه الله تعالى من تراب دون أب وأم، فقال تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدم خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59] فالله قادر على الخلق من العدم، وبالتالي فَخَلْقُ إنسانٍ دون أب أهون عليه تعالى، فقال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27]، ثم إن عيسى كان جنيناً في بطن أمه، وطفلاً في المهد ثم شاباً ثم كهلاً، وقد تعرض للأذى والتعذيب من اليهود وغيرهم، فهو عاش حياة إنسان يتقلب في الأحداث ويتأثر بها وتتغير أحواله بتغير الأزمان، ويتحول من صغر إلى كبر ومن حال إلى حال، كل ذلك برهان قطعي عقلاً ومشاهدة على أنه مخلوق يطبق عليه ميزانه وليس إلهاً كما تدعي ذلك جماهير النصارى.

وبناءً على ما سبق فإن دعوى جماهير النصارى بأن عيسى إله أو ابن إله ضمن الآلهة الثلاثة أو الأقانيم الثلاثة[(1)] دعوى متناقضة مع العقل والمشاهدة، ودعوى يتعارض بعضها مع بعض، فهم يعترفون بكل ما حدث لعيسى (عليه السلام) من الحمل والطفولة والتعذيب، بل إنهم يعترفون بأنه صلب وقتل ـ ونفاهما القرآن الكريم عنه ـ، فكيف يكون إلهاً؟

يعتقد معظم النصارى باستثناء الموحدين منهم أن الإله واحد ذو أقانيم ثلاثة. الأب الخالق لكل شيء، والمالك له، وأقنوم الابن المولود منه، والمساوي له في الجوهر، والأقنوم الثالث أقنوم الروح القدس، وهذه الأقانيم الثلاثة متحدة في الجوهر والإرادة والمشيئة، لكنهم لا يشكلون ذاتاً واحدة، بل هم أشخاص وأقانيم ثلاثة، كل واحد منهم إله كامل مستقل بذاته، فالمسيح إله تجسد بشراً وهو إله أيضاً، وهنا اختلَّت الموازين بشكل فظيع وتناقض لا مثيل له.

وقد ردَّ عليهم كثير من العلماء المفكرين، وقالوا: إن هذه الفكرة جاءت من الحضارة الرومانية، وأن الأناجيل المعترف بها لا تدل بالقطع على التثليث بدليل أن فيها بعض النصوص تدل على أن يسوع المسيح عندما يقوم بمعجزة، وعمل خارق، يتوجه إلى الله أولاً بالصلاة والدعاء متضرعاً بين يديه، وحين ينتهي يتوجه إليه (سبحانه) بالشكر، فقد جاء في إنجيل (مرقس28:2) أن يسوع المسيح إنسان وابن إنسان، وفي إنجيل (لوقا 52:2): أنه ولد وترعرع، ونما، وفي إنجيل لوقا (34.7:35 و 12:6، ومرقس 35:1) أنه يأكل ويشرب كسائر البشر

[1] جاء التثليث حسبما أقرته كنيسة روما بموجب قرار مجمع (نيقية) الذي انعقد سنة 325م حيث جاء فيه «يسوع المسيح (عليه السلام) ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، الذي من اجلنا ـ نحن البشر ومن أجل خلاصنا ـ نزل من السماء وتجسد من الروح القدس».

ويصلي ويكثر من الدعاء متضرعاً ومناجياً جُلّ الليل والنهار، وفي إنجيل لوقا (43.42:4) أنه أرسل نبياً ورسولاً ومعلماً إلى بني إسرائيل.

وفي هذا الصدد يقول كلايد تارنز[(2)]: «إن الاسم الذي أطلقه المسيح على نفسه أنه (ابن الإنسان) وكل ما رواه لنا عنه الإنجيل يقدمه كإنسان عاش واتصف بكل صفات الإنسان، كبر، ونما جسدياً...، كما تألم الاماً جسدية، بكى، ونام، ومات، كل هذه الاختبارات تشهد بكون يسوع إنساناً».

وأما أسفار العهد القديم (التوراة) فتدل بوضوح على أن الأنبياء ليسوا الهة، وليس لهم قدرة على المعجزة إلا بقدرة الله[(3)]

ويظهر من الآيات التي تتحدث عن السيدة مريم وعن عيسى عليه السلام ميزان المعجزات القائم على خرق السنن والأسباب بقدرة الله.

كما يظهر ميزان الوحي الإلهي الذي لا يتأثر بما يحدث في نفسية الرسول، ومن معه، فمع وجود صراع بينهم وبين النصرانيين أتباع سيدنا المسيح (عليه السلام) وما تلقاه الرسول من معظمهم من العنت والجدل وإثارة الشبهات والتشكيك لكن القرآن الكريم أولى كل هذه العناية بسيدنا عيسى (عليه السلام) وبأمه، وجدَّته ووصفه مع أمه بأوصاف عظيمة، فهذا من الأدلة الواضحات على أن القرآن نزل من لدن الحكيم الحميد ربِّ العالمين، وليس من الرسول، وإلا فهو بشر قد تظهر اثار انفعالاته على كلامه.

والخلاصة: أن كتاب (عيسى عليه السلام. ..الحقيقة الكاملة) سفر عظيم يمثل فعلاً الحقيقة الكاملة عن سيدنا عيسى (عليه السلام) وأمه الصديقة مريم من خلال الينبوع الصافي كتاب الله العظيم، وأنه جامع نافع، لا يستغني عن قراءته والتدبر فيه مسلم ولا نصراني، بل ولا كل

---

[2] كلايد تارنز: هذه عقائدنا ص 83 نقلاً عن أحمد علي عجيبة : تأثر المسيحية بالأديان الوثنية، ط1، درا لأفاق العربية، القاهرة 2006م، ص350.

[3] انظر سفر حزقيال (1:37 . 10) وسفر الملوك الأول 17: 12 . 22، ويراجع إبراهيم لوقا: المسيحية في الإسلام ، ط1، دار النشر القبطية، القاهرة ص 129، هيم ماكي: بولس وتحريف المسيحية، ترجمة سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، الكتاب الثالث، وشارل جبيرو: المسيحية نشأتها وتطورها، ترجمة: الدكتور عبد الحميد محمود ، ط10، المكتبة العصرية، بيروت ص39، وعلي زلماط: نفي الوهية عيسى عليه السلام من خلال الانجيل، مقالة في مجلة البيان بتاريخ 2017/2/16م.

من يريد البحث عن الحقيقة المتوازنة القائمة على الميزان الدقيق المأخوذ من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، فالكتاب يجيب عن الأسئلة التي حار فيها معظم النصارى منذ مجمع (نيقية) عام 325م الذي مَزَّق النصارى إلى فرقاء حول طبيعة المسيح، وذلك لأن المؤلف (حفظه الله) جمع جميع الآيات المتعلقة بسيدنا عيسى (عليه السلام) وأمه وأسرته جمعاً واعياً قائماً على الموازين والتدبر والفقه العميق، والفهم الدقيق.

لذلك أوصي بقوة بنشر هذا الكتاب على أكبر مستوى وباللغات الحية في العالم ليعرف الناس جميعاً وبخاصة النصارى موقف القرآن الكريم من هذا الرسول العظيم (عليه السلام) وأسرته.

فجزى الله أخي العلامة الدكتور علي الصلابي على هذه الجهود المباركة الهادئة الهادفة المؤصلة، ونفع الله به وبكتابه هذا وجعله خالصاً لوجهه الكريم وتقبله منه بقبول حسن ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الدوحة 7 شوال 1440هـ كتبه الفقير إلى ربه

أ د. علي محيي الدين القره داغي

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ *﴾

مقدمة:

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ **[آل عمران: 102]**.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ **[النساء: 1]**.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ **[الأحزاب: 70-71]**.

يا ربِّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى.

أما بعد: كان من أقدار الله العجيبة زيارتي إلى إيطاليا بتاريخ 2015/4/29م، بدعوة من منظمة سانت أجيديو (منظمة مجتمع مدني)، وكان يرافقني الأخوان الكريمان عاطف بوكره ووليد اللافي الفرجاني الترهوني، وكان هدف الزيارة الحديث عن إحلال السلام والمصالحة بين الفرقاء في ليبيا، وقد حضر من طرف المنظمة كلاً من:

ـ الأب أنجيلو رومانو.

ـ السيد أندريا ترينتيني.

- المترجمة السيدة أنجيلا الريس.

وحدث اللقاء في إحدى كنائس روما التابعة للفاتيكان، وقد تحدثت فيه عن مفهوم السلام في الإسلام، وتطرقتُ للحديث عن أسماء الله الحسنى ومنها اسم السلام، وأن صلاتنا تبدأ بـ (الله أكبر) وتنتهي بالسلام، وأنَّ من أسماء الجنة دار السلام.

وكانت طبيعة الحديث تدعو إلى بيان موقف السلام عند سيدنا عيسى عليه السلام وأمه الصديقة العذراء البتول عليها السلام، وبدأت في ذكر الآيات ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا *﴾ **[مريم: 16]**.

وعندما وصلت في شرحي لهمَ ﴿يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ **[مريم: 28 - 31]**.

وإذ بالمترجمة تبكي وتفيض عيناها بالدموع، ومن ذلك الموقف جاءتني فكرة - واعتقد أنها ربانية - لماذا لا نخرّج الآيات التي تحدثت عن سيرة عيسى وأمه عليهما السلام من القرآن الكريم، ونصوغها في كتاب منهجي فكري (حضاري) يتماشى مع روح العصر والحوار الإنساني، يعتمد على قول الله عز وجل قبل كل شيء في بيان حقيقة عيسى عليه السلام مصحوباً بخطابٍ عقلاني وأساسٍ منطقيّ، يستهدف الوجدان الإنساني المتعطش لمعرفة حقيقة المسيح عيسى ابن مريم.

ويُعرض هذا الكتاب ويُتَرجم إلى لغات عالمية، لعل الله عز وجل يهدي به أقواماً وشعوباً نحبُّ لهم الخير والسعادة في الدارين.

وقد بدأتُ في جمع المادة وشراء الكتب المتعلقة بسيدنا عيسى عليه السلام، وكل ما له صلة بذلك، وطالعتُ بنهمٍ عجيبٍ ما يتعلَّق بالعقائد النصرانية وجذورها، وتاريخ المجامع الكنسيّة والعهد القديم والجديد من كتبهم المقدسة، وإنجيل لوقا ومتّى ويوحنّا ومرقس وبرنابا، بالإضافة

إلى الرسائل الجامعية حول هذه المواضيع، والاضطهاد الذي تعرَّض له الموحِّدون من النصارى على مرِّ التاريخ، وكذلك الحوارات والمجادلات بين علماء المسلمين والنصارى قديماً وحديثاً.

وعكفتُ على الآيات القرآنية بمنهجية التفسير الموضوعي، وهو في الأصل تخصُّصي حيث إن رسالتي للماجستير كانت حول «الوسطية في القرآن الكريم»، وأما رسالة الدكتوراه فكانت في «التمكين في القرآن الكريم».

وبحثت في تفسير الآيات المتعلِّقة بعيسى وأمه وسيرتهما، ودعوته ومكانته بين الأنبياء والمرسلين، وما ورد من أقوال العلماء في ذلك، وإذ بيّ أكتشف جهلي بتلك السيرة العظيمة المباركة، وقلت في نفسي ألا يستحق بقيَّة عمري أن يُفنى في البحث والتعريف بسِيَر أولي العزم من الرسل وغيرهم من الأنبياء والمرسلين الذين جعلهم الله سادة الأمم وقادة الإنسانية وقدوة المهتدين على مرِّ العصور.

يعدُّ هذا الكتاب بداية لمشروع حضاري كبير، وهو تعريف بني الإنسان بسيرة الأنبياء والمرسلين ودعواتهم من خلال القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وشرح تراجمهم وأخلاقهم وأصول دعوتهم من أحاديث الرسول الصحيحة، وأقوال العلماء الراسخين بأسلوبٍ عصريٍّ يلائم المرحلة التي تمرُّ بها الإنسانية المعذَّبة ببعدها عن هدايات السماء.

إنني أحمد الله العليَّ الكبير أن وفقني للاهتمام بهذه المواضيع، وأحمده وأشكره على نعمه، وأسأله أن يعينني على نفسي، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، ويمدُّني بتسديدي وتوفيقي في الكتابة والمنهجية، والطباعة والنشر،

ويطرَح لها القبول بين الناس، ويجعلها سبباً في هداية الكثير من الحيارى لمعرفة الطريق المستقيم، وأن تصل هذه الأحرف والكلمات والجمل والصفحات إلى العقول والفِطَر، والقلوب والنفوس البشرية، وتكون من الأسباب في إنارة الطريق لها في وسط هذه الدياجير الظلامية من شبهات شيطانية وشهوات إبليسية، وأن تكون سبباً لي ولمن أعانني وأسهم في نشر هذا الخير

في رفقة النَّبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وقد سمّيتُ هذا الكتاب بعنوان (المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الحقيقة الكاملة)، وقد قسمته إلى مجموعة من المباحث.

وتحدثت في المبحث الأول عن الجذور التاريخية للوطن الذي ولد فيه عيسى عليه السلام، فتكلمتُ عن تاريخ فلسطين، وعهود بني إسرائيل كعهد القضاة وعهد الملوك، وعهد الانقسام، وتناولت الحالة السياسية والاجتماعية والحياة الفكرية لهم، وأثر الحضارة الإغريقية والدولة الرومانية على فلسطين وبلاد الشام، وكذلك تحدثت عن الطوائف اليهودية عند ظهور المسيح عليه السلام، وعقائدهم وأفكارهم، كالسامريين والصدوقيين والفريسيين، والقمرانيين، والاسينيين، وعن الهيكل ورجال الدين، وعن مفاهيمٍ لكلماتٍ مهمة في هذا الكتاب، كالنصارى والمسيحية، ولماذا لُقِّب عيسى بالمسيح؟ وما الفرق بين المسيحي والنصراني؟

أما المبحث الثاني فقد سمَّيته (حديث القرآن الكريم عن عيسى عليه السلام)، وجمعت فيه المواضع التي ذكر فيها عيسى عليه السلام وأمه في القرآن الكريم، وتتبعت حديث القرآن عن جدته من أمه وعن عائلة آل عمران، ولماذا ذُكروا في سورة آل عمران، ومن هم آل عمران الذين اصطفاهم الله على العالمين؟

وكان حديثي عن ولادة مريم من المنظور القرآني، وبيَّنت معنى مريم بأنها العابدة الخاشعة الخادمة للربّ، ووضحت دعاء امرأة عمران لله عز وجل

ومناجاتها له وتضرُّعها وانكسارها بين يدي ربها ومخاطبته بأسماء الله الحسنى، الربّ، والسميع، والعليم، واستجابة الله لها، وقبول دعائها، وكيف أن الله عز وجل رعى أبيها . تفيد الآية حسن نمائها ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَناً﴾، واكتمال بنيتها اكتمالاً طبيعياً برعاية ربانية خالصة . وكيف أن الله عزَّ وجل جعل زكريا ليتكفَّل برعاية مريم عليها السلام، وأشرتُ إلى الكرامة التي حدثت لمريم من رزق الله لها بغير حساب، وكذلك توجُّه زكريا بدعائه إلى الله عزَّ وجل بأن يرزقه الذرية الطيبة الصالحة بعدما بلغ من الكبر عتيَّاً، واشتعل رأسه شيباً، وقبول الله لدعائه،

ووقفت على نداء زكريا الخافت وتمهيده البديع للدعاء، وبشارة الله لزكريا وهو في المحراب، وصفات يحيى عليه السلام التي ذكرت في القرآن وبيّنت الحكمة والمناسبة من ذكر قصة يحيى وزكريا عليهما السلام في الحديث عن سيرة مريم، وهو أنه لما ذكر الله تعالى قصة ولادة يحيى بن زكريا من عجوز عاقر وشيخ قد بلغ من الكبر عتياً، وذلك بمقتضى السنن الكونية شيء خارقٌ للعادة لعُقم المرأة وهرم الشيخ، أعقبها بما هو أبلغ وأروع من خرق العادات فذكر ولادة عيسى عليه السلام من غير أب وهي شيء أعجب من الأول بكثير.

وكان حديثي عن اصطفاء الله لمريم على العالمين، هل هي صِديقة أم نَبية؟ وتحدثت عن قنوتها وسجودها وركوعها مع الراكعين، وبشارة الملائكة لها بعيسى عليه السلام وجملة من أوصافه، كونه وجيهاً في الدنيا والاخرة، ومن المقربين، ويكلِّم الناس في المهد وكهلاً، ومن الصالحين، وموقف مريم من هذه البشارة.

ونقلتُ الحوار الذي حدث بين جبريل عليه السلام ومريم الذي ذكره الله في سورة مريم، وشرحته من خلال أقوال علماء التفسير وما فيه من معانٍ وقيم، ودروسٍ وعبر، وقدرة الله المطلقة في خلقه وتدبير شؤونهم، ووضحت ما معنى كون عيسى كلمة الله وروح منه، وما هي الروح؟ وما معانيها في القرآن الكريم؟ وما هو تفسير قوله تعالى ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾

ووصفتُ مولد عيسى عليه السلام من خلال الآيات القرآنية التي بينت عظمة الحدث الجلل، وما مرَّت به مريم عليها السلام من الام جسدية ونفسية حتى وصلت إلى تمنِّي الموت، وما صاحب ذلك الابتلاء من نفحات وبركات ومنح ربانية عالية.

وذكرت حديث عيسى عليه السلام في المهد ودفاعه عن والدته وبراءتها من التهم التي نسبت إليها من خلال قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ **[مريم: 30-33].**

وألقيت الضوء على معاني الآيات القرآنية العميقة التي بيَّنَت حقيقة عيسى ابن مريم عليهما

السلام، ونقلت موقف النجاشي ملك الحبشة من سماعه آيات سورة مريم عندما قرأها عليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ووضحت دور مريم العظيم في تاريخ الإنسانية وأنها مدرسة في الصدق مع ربها ونفسها ودينها، وفي العفة والصبر والاحتساب والعبادة، والابتهال لله عزَّ وجل والاعتماد والتوكل عليه.

وبسطت القول في رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، ووجوب الإيمان بأنه عبد الله ورسوله ودعوته إلى التوحيد، وبشريته، وكيف أن القرآن الكريم جلَّى هذه الحقائق وبينها أحسن بيان، بالاستدلال السليم والنظر القويم والمنطق الواضح والدليل الساطع:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدم خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 59]**.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ **[آل عمران: 79]**.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ **[النساء: 171-172]**.

وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝ قُلْ

أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ **[المائدة: 72-77].**

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **[المائدة: 119-120].**

وغير ذلك من الآيات الكريمة المتعلقة بحقيقةِ ودعوةِ وبشريةِ عيسى عليه السلام.

ووضَّحتُ في هذا الكتاب مكانة عيسى عليه السلام بين الأنبياء والمرسلين، وأن تعاليمه وهي من الله تعالى، وأنه من أولي العزم الذي ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ **[الشورى: 13].**

وبيّنت أصول الشرائع التي دعا إليها، وكذلك أصول الإيمان والأخلاق والفضائل، وكذلك التفاضل بين الرسل، وأكَّدت على حقيقة مهمَّة مفادها أن دين الأنبياء والمرسلين هو الإسلام، وذكرت الحجج والبراهين الدالَّة على ذلك من نوح ومن قبله وإبراهيم ومن بعده إلى خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من خلال الآيات القرآنية الكريمة.

وأشرتُ إلى تصديق عيسى عليه السلام لما بين يديه من التوراة، وأوصاف التوراة في القرآن الكريم وما تعرّض له من التحريف، وإلى نزول الإنجيل عليه وما تعرَّض له من التحريف بعدما رفعه الله إليه.

وقد ذكرت الدراسات المهمة حول الموضوع، وما وصلت إليه من نتائج متعلقة بالأناجيل:

. (التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة) دارسة لـ د.سارة حامد محمد العبادي، وهي

رسالة علمية في كتاب.

. (منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل؛) دراسة مقارنة لـ د. عزّية علي طه، وهي رسالة علمية في كتاب.

.(مصادر النصرانية)، دراسة ونقد لـ د. عبد الرزاق عبد المجيد، وهي رسالة علمية في كتاب.

ووقفتُ عند صفات محمد (ﷺ) في التوراة والإنجيل، وبشارة عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ **[الصف: 6-7]**. وسطوع البشارة به في كتب أهل الكتاب، وذكرت من أسلم من علماء أهل الكتاب بسبب تلك البشارات.

وتحدثت في المبحث الثالث عن معجزات عيسى عليه السلام والحواريين ورفعه إلى السماء، وتحدثت عن المعجزة وشروطها، والفرق بينها وبين الكرامة، وذكرت معجزات عيسى التي ذكرت في القرآن الكريم، كميلاده بلا أب، وتأييده بروح القدس، وتعليمه الكتاب والحكمة، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، والخلق من الطين كهيئة الطير والنفخ فيه بإذن الله، وإخباره عن الغيوب، وكونها معجزات من الله لتأييد عيسى في رسالته ودعوته إلى توحيد الله عز وجل وعبادته وطاعته.

وتكلمت عن الحواريين واستجابتهم لدعوة عيسى عليه السلام ونصرتهم له، وعن نزول المائدة، ثم الاستجواب الكبير لعيسى عليه السلام على رؤوس الأشهاد من رب العالمين يوم القيامة ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ

عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **[المائدة: 116-118].**

وتحدثتُ عن مكر بني إسرائيل بعيسى عليه السلام وحماية الله له ورفعه إلى السماء، وتأكيد الله عز وجل في القرآن الكريم بأن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ **[النساء: 157].**

وبيّنتُ ما جرى ليلة القبض على الشبيه، وترتيب أحداث مسلسل تلك الليلة من خلال ما ذكره المؤرخ الكبير والمفسر الشهير العلامة ابن كثير، وتدبَّرت في الآيات التي تحدثت عن نفي قتل عيسى وصلبه، وإنما الذي قتل هو الشبيه، واستأنستُ بآراء العلماء الراسخين، وتجلَّت لي حقائق ذكرتها في هذا الكتاب، وبينت اضطراب الأناجيل في أحداث مقتل الشبيه، وأن أقربها إلى الصواب إنجيل برنابا، وناقشت فكرة الصلب والفداء ومفهومها في عقيدة النصارى، وختمت المبحث الثالث بالحديث عن نزول عيسى عليه السلام في اخر الزمان والأدلة من القرآن والسنة الصحيحة، والحكمة من نزوله، وبماذا يحكم عليه السلام، وأهم أعماله في تلك الفترة، وكم يبقى في الأرض قبل وفاته؟

وأفردتُ المبحث الرابع لوفد نصارى نجران ومجادلتهم لرسول الله (ﷺ)، ووضحت موقفهم من دعوة النبي (ﷺ) وذهابهم إليه وهيئتهم عند وصولهم، ومجالس الجدل والمناظرات، وأهم الموضوعات التي تمَّ مناقشتها والجدال حولها وما نزل من تلك المحاورات من آيات قرآنية، ودعوتهم إلى المباهلة وامتناعهم من ذلك خوفاً من عذاب الله لما يعلمون من صدق النبي (ﷺ) وصحَّة نبوته، فقد أكَّدت الروايات الواردة عنهم اعترافهم بأنه النبي الذي بشَّرت به الكتب المقدسة لديهم، وطلبوا الصلح مع رسول الله (ﷺ) واستجاب لهم النبي (ﷺ) مجادلة نصارى نجران.

وختمتُ بالدعوة إلى كلمةٍ سواء، التي دعا إليها الله عزَّ وجل في كتابه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ **[آل عمران: 64].**

وأن الأنبياء والمرسلين دعوا إلى توحيد الله وعبادته وطاعته، وعرَّفوا الناس بخالقهم العظيم، وحقائق الكون والحياة والموت والجنة والنار والشياطين والملائكة، وطبيعة الإنسان من خلال الوحي الرباني الذي نزَل عليهم من عند الله عز وجل.

وقد حفظ الله لنا في كتابه العزيز سيرهم وتاريخهم وأصول دعوتهم، ومن بينهم عيسى عليه السلام من خلال الرؤية القرآنية الصادقة المحكمة التي قدمت سيرة عيسى عليه السلام وأمه في أبهى صورةٍ وأروع بيانٍ وأصدق حقيقة.

وفي نهاية هذا الكتاب، رأيت أن أختمه بشرح أعظم آية في كتاب الله عز وجل (اية الكرسي)، وكيف عرَّف نفسه سبحانه وتعالى لخلقه من خلالها، إذ كل ما فيها متعلق بالذات الإلهية العليّةِ، وناطقة بربوبيته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه.

وكان من الطبيعي أن أختم كتابي، بما ورد في القرآن الكريم من وصف الله عز وجل بصفات الكمال، وأنه المتفرد بها وحده دون سواه في سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ **[الإخلاص: 1-4]**. ففي هذه السورة وصف الله سبحانه نفسه بأنه أحد صمد، وهذان الوصفان يدلان على اتصاف الله بغاية الكمال المطلق، و(الصمد) هو المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد.

وحاولت في هذا الكتاب تبيان الحقيقة الكاملة لعيسى عليه السلام من خلال التفسير الموضوعي لآيات الذكر الحكيم التي جاءت في كتاب الله العزيز (القرآن الكريم).

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الإثنين بعد صلاة العصر الموافق لـ 20 جمادى الاخرة 1440هـ الموافق لـ 25 فبراير 2019م في مدينة إستانبول عند الساعة الخامسة والأربعين دقيقة.

والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يُكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلبٍ خاشع منيب أمام خالقي العظيم، وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرئاً من حولي وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي.

فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي، لتبلَّد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع، ولجفَّت العواطف، ولتحجَّرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان.

اللهم بصِّرني بما يرضيك واشرح صدري، وجنبني اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك يا الله بأسمائك الحسنى وصفاتك العُلى أن تثيبني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد.

اللهم اجعله لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقبول، والنفع العظيم لبني الإنسان، ونرجو من كل من يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه.

قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ **[النمل: 19]**.

والحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربِّه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمَّد محمَّد الصَّلاَّبِيّ

غفر الله ولوالديه ولجميع المسلمين

حُرِّر في: 20 جمادى الاخرة 1440 هجرية

الموافق لـ 25 فبراير 2019 ميلادية

المبحث الأول

الجذور التاريخية للوطن الذي ولد فيه عيسى عليه السلام

ولد عيسى عليه السلام بأرض الجليل من مناطق فلسطين أو «جليل الأمم» كما سمّاها الإسرائيليون[4]فيما بعد؛ لأنّها كانت إقليماً مفتوحاً لجميع الأمم الشرقية

والغربية، أيّ في مدينة بيت لحم، والتي تبعد قرابة 100كم جنوبي القدس.

ولذا من المهم التعريف بجغرافية هذه المنطقة والأحداث التي مرَّت بها قبل بعثة عيسى عليه السلام. ومعنى الجليل بالعبرية «الدائرة»، ويعنون بها الإحاطة؛ لأنّها اتسعت للكثير ممن يحال بينهم وبين الإقامة في بلاد أخرى من فلسطين، ولا سيما الجنوب حيث اليهودية[5].

وتقع الجليل في الجزء الشمالي من فلسطين بين البحر الأبيض المتوسط وبحيرة طبرية، جنوب ما يعرف بلبنان، وكانت طبرية هي العاصمة السياسية لهذه المنطقة، أما قراها التي اشتهرت في الإنجيل فهي كفر ناحوم والناصرة ـ حيث نشأ عيسى عليه السلام ـ ونايين، ومجدل[6].

أولاً: تاريخ فلسطين:

---

[4] الإسرائيليون: ولد يعقوب عليه السلام بأرض كنعان، ورزق باثني عشر ولداً، هم أبناء إسرائيل، لهذا يقال لنسلهم بنو إسرائيل، وكان منهم أربعة أنبياء، هم: لأوي ويوسف وبنيامين ويهوذا، وموسى عليه السلام من نسل لأوي. وكان يعقوب عليه السلام كما وصفه القران الكريم صاحب حكمة وذكاء، كان هو وأبناؤه يسكنون جنوب بلاد الشام، وكان عددهم سبعة وستون رجلاً عدا النساء. (انظر: د. عبد الناصر قاسم الفرا، الهيكل المزعوم بين الوهم والحقيقة، مجلة علوم سياسية، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، ص 8.

وفي ديوان العبر عند ابن خلدون: «الخبر عن بني إسرائيل وما كان لهم من النبوة والملك وتغلبهم على الأرض المقدسة بالشام وكيف تجددت دولتهم بعد الانقراض وما اكتنف ذلك من الأحوال قد ذكرنا عند ذكر إبراهيم وبنيه صلوات الله وسلامه عليهم ما كان من شأن يعقوب بن إسحاق واستقراره بمصر مع بنيه الأسباط، وفي التوراة أن الله سماه إسرائيل، و«إيل» عندهم كلمة مرادفة لعبد، وما قبلها من أسماء الله عز وجل وصفاته، والمضاف أبداً متأخر في لسان العجم، فلذلك كان «إيل» هو اخر الكلمة وهو المضاف، ثم قبض الله نبيه يعقوب بمصر لمئة وسبعة وثمانين سنة من عمره وأوصى أن يدفن عند أبيه، فطلب يوسف من فرعون (حاكم مصر) أن يطلقه لذلك فأذن له، وأمر أهل دولته بالانطلاق معه، فانطلقوا وحملوه إلى فلسطين فدفنوه بمقبرة ابائه، فهي التي اشتراها إبراهيم من الكنعانيين، ورجع يوسف إلى مصر وأقام بها إلى أن توفي لمئة وعشرين سنة من عمره، ودفن بمصر وأوصى أن يحملوا شِلْوه معهم إذا خرجوا إلى أرض الميعاد وهي الأرض المقدسة». ينظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، المقدمة الأولى، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ 1988م، ج2/ص 58.

[5] بسمة أحمد جستنية، تحريف رسالة المسيح عليه السلام عبر التاريخ أسبابه ونتائجه، دار القلم، دمشق، ط1، 2000م، ص21.

[6] لمرجع السابق، ص21. وانظر: هنري. .س عبودي، معجم الحضارات السامية، لبنان، جروس برس، ط2، 1411هـ، 1990م، ص320 ـ 835.

تاريخ فلسطين تاريخ حافل، ففي الألف الثالثة قبل الميلاد هاجر إلى هذه المنطقة ـ والتي سميت فلسطين فيما بعد ـ أفواج من القبائل العربية، فكان الفينيقيون، وهم شعب سامي منبته لا يزال غير محدَّد بصورة دقيقة، أسبق الجماعات هجرة إلى هذه المنطقة، وقد وجدوا على شاطئ البحر المتوسط شمال غرب فلسطين مكاناً جيداً للاستقرار، فأقاموا به وأنشأوا أهم مدنهم: صيدا وصور.

وإلى الجنوب من الفينيقيين نزلت قبائل عربية واستقرت هذه القبائل على ضفة الأردن الغربية نحو البحر المتوسط في المنطقة الوسطى من فلسطين، وسُمّيت هذه المنطقة باسمهم، فأصبحت تدعى «أرض كنعان». وقد شملت أرض كنعان مدن عدة، أهمها السامرة والتي أصبحت فيما بعد حوالي عام 880 ق.م عاصمة مملكة إسرائيل[7].

وفي سنة 1200 ق.م نزلت بالساحل المطلِّ على البحر المتوسط جماعات من جزيرة «كريت» وكانت تسمى قبائل «فلستين»، نزلت بين «يافا» و«غزة» واختلط الكنعانيون بهم، وأطلقوا عليهم اسم «فلسطينيين» وأصبحت المنطقة كلها تعرف باسم فلسطين[8].

وفلسطين في المنطقة التي يذكر أهل الكتاب أن إبراهيم الخليل عليه السلام هاجر إليها، مع العلم أنهم لم يذكروا أنه هاجر بسبب أذى قومه له ومحاولتهم قتله بعد أن دعاهم إلى عبادة الله، وفي فلسطين رُزق بإسماعيل ثم بإسحاق عليهما السلام، ورزق إسحاق بيعقوب عليه السلام وهو إسرائيل الذي ينسب إليه بنو إسرائيل[9].

وظل بنو إسرائيل ـ أبناء يعقوب بن إسحاق عليه السلام ـ في أرض فلسطين يتنقلون في جنباتها على عادة الرعاة، ويعيشون فيها حياة البداوة كما قال عز وجل حكايةً عن يوسف

---

[7] معجم الحضارات السامية، ص454.

[8] تحريف رسالة المسيح، ص22.

[9] إسرائيل: كلمة عبرية مركبة من كلمتي «إسر» و«إيل»: إسر ومعناها القوة والغلبة، وإيل: معناها الإله أو الله، ومعناها في نصوص العهدين القديم والجديد يصرع أو يجاهد الإله ـ تعالى الله عن ذلك ـ وترد كذلك بمعنى قوة الله، أما مفهومها الإسلامي كما ذكره المفسرون فهو بمعنى عبد الله أو صفوة الله. والقران الكريم أقر الاسمين ليعقوب عليه السلام، وقد أطلق هذا الاسم كذلك على المملكة الشمالية لفلسطين. يُنظر: عبد الشكور محمد أمان، بنو اسرائيل وموقفهم من الذات الإلهية والأنبياء، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، السعودية، 1402هـ، ص129. وانظر في: الشوكاني، فتح القدير، دار ابن كثير/دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1414هـ، 73/1 ـ 84. وفي: معجم الحضارات السامية، ص78.

عليه السلام ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ **[يوسف: 100]**.

واستمر بهم هذا الحال إلى أن انتقلوا إلى مصر فاستوطنوها زمن يوسف عليه السلام حتى خرجوا منها بعد ذلك بزمنٍ طويلٍ مع موسى عليه السلام، بعد أن أوحى الله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ **[الشعراء: 52]** فخرج بهم وكان أن حكم

الله عليهم بالتيه بعد ذلك، وذلك جزاء تخاذلهم عن قتال أهل الأرض المقدسة[10].

وصل موسى عليه السلام إلى أرض «مواب» شرقي الأردن، وصعد إلى قمة جبل قبالة «أريحا» ونظر إلى الأرض التي أشار إلى بني إسرائيل بدخولها، ومات موسى عليه السلام على أرض «مواب» ولم يدخل الأرض المقدسة[11].

وخلف موسى عليه السلام يسوع ـ كما يسميه أهل الكتاب ـ «يوشع بن نون» الذي اختاره موسى قبل موته لقيادة بني إسرائيل وهو الذي عَبَرَ بهم إلى أرض كنعان ـ فلسطين ـ بعد انقضاء التيه المحكوم على بني إسرائيل، وذلك في حدود القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وكان هذا أول استقرار لبني إسرائيل، واستيطان لفلسطين[12].

ثانياً: عهود بني إسرائيل:

مرَّت حياة بني إسرائيل في فلسطين بثلاث عهود متميزة:

1 ـ عهد القضاة:

كان حكام اليهود فيه في هذه الفترة قضاة من الكهنة، ولم يكن في بني إسرائيل ملوكاً في تلك الأيام، وقد دوّن تاريخ هذه الحقبة في سفر القضاة.

---

[10] سعود بن عبد العزيز الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط1، 1418هـ 1997م، ص 32 ـ 33.

[11] المقريزي، تاريخ الأقباط، تحقيق: عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، نسخة عن مطبعة التوفيق، مصر، 1898م، ص43.

[12] تحريف رسالة المسيح، ص24.

2. عهد الملوك:

هو العهد الذي بدأ فيه الحكم ملكياً، وقد قصّ الله علينا خبر أول ملوكهم في قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ **[البقرة: 246].** فجعل الله عز وجل عليهم طالوت ملكاً، ويسمَّى في كتبهم شاؤول، وخلفه داود عليه السلام في زعامة اليهود، واتخذت مدينة القدس عاصمة للملك ثم خلف النبي داود ابنه النبي سليمان عليه السلام في ملكه، وكان عهدهما أزهى العهود التي مرت على بني إسرائيل.

3. عهد الانقسام «زوال ملك بني إسرائيل»:

هو العهد التالي لسليمان عليه السلام، حيث انقسمت مملكته إلى مملكتين، مملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها القدس، ومملكة إسرائيل في الشمال وعاصمتها نابلس في الجليل، وكان بين الدولتين عداء وقتال، وكان يحدث في بعض الفتوحات من تاريخهما توافق وتفاوت وكانت تقع على الدولتين حروب من قبل جيرانهم، كما أن الدولتين وقع حكامهما وشعبيهما في عبادة الأصنام في كثير من فترات تاريخهما[13].

ثم تسلط الأعداء عليهم، ثم كان زوالهم، وذلك باستيلاء الاشوريين على دولة إسرائيل عام 722 ق.م والقضاء عليها، ثم سقطت دولة يهوذا في الجنوب بيد الفراعنة عام 603 ق.م تقريباً، وبعد ذلك، جاء حاكم بابل الكلداني بختنصّر، واسترجع منطقة الشام وفلسطين وطرد الفراعنة منها، وزحف مرة أخرى على دولة يهوذا التي تمردت عليه، فدمرها ودمر معبد أورشليم وساق شعبها مشياً إلى بابل، وهو ما يسمى بالسبي البابلي، وكان ذلك نهاية دولة يهوذا في حدود عام 586 ق.م.

ثم سقطت دولة بابل في يد الفرس في عهد ملكهم قورش سنة 538 ق.م الذي سمح

---

[13] أحمد شلبي، اليهودية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط8، 1988م، ص69 . 70. وانظر: محمد عبد الحليم مصطفى أبو السعد، دراسة تحليلية لإنجيل مرقس تاريخياً وموضوعياً، مطبعة الجبلاوي، مصر، ط1، 1404، ص49.

لليهود بالعودة إلى بيت المقدس وبناء هيكلهم وعين عليهم حاكماً منهم من قبله.

واستمر حكم الفرس من 538 . 332 ق.م، فجاء إلى بلاد الشام وفلسطين الإسكندر المقدوني اليوناني، واستولى عليها وأزال حكم الفرس، ودخلت منطقة اليهود تحت حكم اليونان في نهاية القرن الرابع ق.م، إلى منتصف القرن الأول ق.م، حيث زحف بعد ذلك على البلاد القائد الروماني بومبي سنة 63 ق.م وأزال حكم اليونانيين عنها، فدخل اليهود تحت حكم الرومان وسيطرتهم، وفي زمانهم ولد المسيح عليه السلام[14].

ثالثاً: الحالة السياسية والاجتماعية:

خضعت فلسطين للسياسة الرومانية منذ سنة 13 ق.م، فانتهجت في أول الأمر نظام الحماية وأوكلت ظاهر السلطة إلى ملك محلي من اليهود لضمان ولائه.

وتجدر الإشارة إلى أن من اليهود من استقبل حكم الرومان بصدر رحب، وتعاونوا معهم في حكم البلاد، أما البعض فقد اعتبروا وجودهم أمراً يجب محاربته ومن هذه الجماعة ظهرت أحزاب ساهمت في تطوير النصرانية.

وفي عهد أغسطس إمبراطور روما (ت: 14م)، أحاطت الامبراطورية الرومانية في تلك الفترة بالبحر المتوسط كله وببلاد أوروبا الواقعة غرب نهر الراين إلى البحر الأسود، وحكمت الأناضول «تركيا» وبلاد الرافدين والشام ومصر والشمال الأفريقي كله، أيّ أن المجتمع النصراني ولد في مكان التقى فيه عالمان: الشرق والغرب، والساميون والرومان، والإغريق واليهود وغير اليهود[15].

وقد تولى الحكم في منطقة فلسطين رجل متهور هو «هيرودوس الأكبر» بين سنتي 4 . 37م، ثم ما لبثت روما من سنة 6م أن أخضعت المنطقة كلها لحكمها المباشر، فضمت مقاطعتي اليهودية في الجنوب والسامرة في الوسط في ولاية واحدة[16].

---

[14] تحريف رسالة المسيح، ص25.

[15] جون لوريمر، تاريخ الكنيسة في العهود الأولى، دار الثقافة، القاهرة، د.ت، ص3.

[16] تحريف رسالة المسيح، ص26.

وبعد موت هيرودوس الأكبر خلفه أبناؤه الثلاثة على حكم فلسطين معتَمَدين من قبل الحكومة الرومانية، فاحتفظ أنتيباس (4 ق.م ـ 39م) أحد أبناء هيرودوس الأكبر ـ بمقاطعته المشتملة على منطقة الجليل في شمال فلسطين، والتي عاصمتها طبرية على مقربة من الناصرة حيث نشأ عيسى عليه السلام، ووقعت مشارف الشام في حصة فيليب (4 ق.م ـ 34م) [17].

وقد حكم أرخيلاوس منطقة اليهودية والسامرة (4 ق.م ـ 6م)، والتي تشمل منطقة بيت المقدس، وتولى الإمبراطورية الرومانية بعد أغسطس الروماني طيباريوس ودام ملكه سنتين وعشرين يوماً، وقد خضعت منطقة فلسطين وما حولها تحت حكم هؤلاء العديد من الاضطرابات، أما هيرودوس الأب فلم يكن محبوباً من الشعب؛ نظراً لخضوعه للرومان من جهة، ولطغيانه من جهة أخرى، وظل رجال الدين اليهودي يرون فيه الوثني المحبذ للهلنستية، وفي عهده هَدم الهيكل الذي بناه اليهود زمن عزرا، ثم جدد بناءه على الأسس التي كانت له زمن سليمان عليه السلام[18]. وقد عرف هيرودوس بالعنف والشراسة، وكان لا يتردد في قتل أي شخص تحوم حوله الشبهات أو يهدد بقلب نظام الحكم، وكان يضطهد أعضاء السنهدرين (طائفة يهودية) بطريقة بشعة لمجرد شعوره بشيء من النفوذ والسلطة منهم[19].

وعندما مات هيرودوس ترك مملكته منهارةً اجتماعياً واقتصادياً، ومقسمة سياسياً بين أبنائه الثلاثة، مما ساهم في إشعال الثورات والاضطرابات بعد موته، وقامت في البلاد تحالفات وتيارات وطوائف مختلفة من اليهود ما بين مغالية ومعتدلة، وقد أسهم كل ذلك في تدمير أورشليم سنة 70م.

---

[17] تحريف رسالة المسيح، ص26.

[18] الهيكل المزعوم: إن بناء سليمان للهيكل هو مجرد أكذوبة من أكاذيب اليهود، والدليل على ذلك: أنه لا يوجد مصدر موثوق به يثبت بناء سليمان عليه السلام لهذا الهيكل، فالقران الكريم قصَّ علينا قصة داود وسليمان عليهما السلام في عدة مواضع، وذكر قصة سليمان مع بلقيس والهدهد والنملة ومع الجن، وبعض هذه الأحداث تبدو أقل أهمية من الهيكل! فلماذا لم يتكلم القران الكريم عن الهيكل؟ إذا كان بهذه القدسية والجلالة التي يذكرها اليهود؟!.

ونبين معنى كلمة الهيكل فهي: كلمة هيكل في اللغة العبرية تعني: «بيت همقداش» أي بيت المقدس، وتعني «هيخال» أي البيت الكبير، وتعني «هرهابيت» أي جبل البيت، وتعني «بيت يهوه» بيت الإله يهوه ويهوه هو إله اليهود، وهذا يعني أن الهيكل هو بيت الإله، وحسب الرواية اليهودية وحسب اراء بعض المؤرخين، قام سليمان عليه السلام ببناء الهيكل فوق جبل موريا أو فوق هضبة الحرم، وللهيكل منزلة خاصة في قلوب وعقول اليهود، وحسب ما يزعمون يُعدُّ الهيكل أهم مكان للعبادة، ويدّعون أن سليمان عليه السلام بناه لهم ولديانتهم التي يدعونها، وسليمان عليه السلام يبرأ منهم ومما يفترونه عليه وعلى الله. ينظر: د. عبد الناصر قاسم الفرا، الهيكل المزعزم بين الوهم والحقيقة، مجلة علوم سياسية، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، ص 60.

[19] المرجع نفسه، ص27.

وأما عهد أرخيلاوس الذي حكم اليهودية، فكان من السوء بحيث كثرت شكوى اليهود ضده للإمبراطور الروماني، الذي عزله وولى مكانه بيلاطس البنطي ـ الروماني الأصل ـ والياً على اليهود سنة 26م، واستمرت ولايته عشر سنوات ثم عزل عنها، وكان على الجليل وقتها انتيباس الذي كان أشد من أخيه، وهو الذي قتل يحيى بن زكريا عليه السلام[20]، بسبب فتواه بتحريم زواجه من امرأة لا تحل له، ونقل صاحب العهد الجديد أن عيسى عليه السلام سماه بالثعلب لذكائه[21].

وفي تلك الفترة ترك كثير من الشعب اليهودي تمسكه بالناموس وتأثروا باليهود الذين اندمجوا في الأمم الخاضعة للإمبراطورية والذين يَفدون إلى فلسطين والقدس للحج، حتى قادة الدين أنفسهم تخلوا عن مراكزهم وتمسكهم بالناموس، وهو ما دعا الفريسيين إلى المناداة بالعودة إلى الشريعة، وزاد من ترقُّب الأسينيين للمسيح الموعود[22].

وحدثت اشتباكات عدة بين الرومان ووفود الحجيج القادمة من القدس، وامتدت الاشتباكات إلى أماكن كثيرة لا سيما بين السلطتين وبين جماعة سمّوا بـ (الغيورين) تميزوا بتعصب وطني في رفض الوافد (المستعمر) الأجنبي ودفع الجزية وتعصب ديني في محاولة تطهير الهيكل من غير اليهود[23].

وكانت منطقة فلسطين في حالة هيجان وثورة ضد السلطات الرومانية، كما ذهب إلى هذا أكثر الدارسين، لا سيما في عهد صيباريوس في حين بعض الدارسين يرى خلاف ذلك.

وباستثناء الصَّدوقيين المتعاونين مع الإمبراطورية الرومانية (الاستعمار الروماني) كانت الأحزاب الأخرى ضد الرومان في نزاع مستمر وعنيف[24]. ونتيجة لكل هذه الاضطرابات تعمقت فكرة انتظار المخلص الموعود، وهو ما صعّد من حدة الاضطهاد بينهم وبين الرومان[25].

---

[20] العبري غريغوريوس الملطي، تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت. لبنان، د.ت، ص26.

[21] القس فهيم عزيز، المدخل إلى العهد الجديد، دار الثقافة، القاهرة، د.ت، ص27.

[22] القس حنا الخضري، تاريخ الفكر المسيحي، دار الثقافة، القاهرة، ط1، د.ت، ص101 ـ 110.

[23] المرجع السابق، ص110 ـ 112، 216.

[24] المرجع نفسه، ص213 ـ 215.

[25] تحريف رسالة المسيح، ص28.

وقد ولد المسيح عليه السلام في أواخر عهد هيرودوس الأكبر، وعاصر فترة حكم أبنائه فيما بعد بكل ما في تلك الفترة من الأحداث.

لقد كانت الحالة السياسية في فلسطين في عصر المسيح من أسوء ما يكون، وأبلغ منها في السوء الحالة الاجتماعية، وذلك بسبب السلطة المعلقة التي كانت بيد الحكام حيث ضاع النظام مع القانون، فحدث تفاوت كبير بين الحكام والمحكومين، فكانت الثروة والترف والطغيان من ناحية، والفقر والهوان من ناحية أخرى، إضافة إلى الضرائب التي كانت تجبى لحساب روما، وانحصر هدف رجال الدين في جمع الأموال، وخلا المجتمع من الترابط والتالف، وانتشرت العصبية بين الناس، وظهرت الفوارق الطبقية[26].

رابعاً: الحياة الفكرية:

من المنطقي حينما نبدأ الحديث عن السيد المسيح عليه السلام أن نتحدث عن عصره بظروفه وملابساته؛ لأن رسالة الرسول ليست بمعزل عن هذه الظروف التي جاءت أساساً لإصلاحها، ومن ثم يتفق الرسل جميعاً في هذا الجوهر، وهو (تصحيح العقيدة) ثم يختلفون بعد ذلك اختلافات (نوعية) حسب المرض الاجتماعي الذي استشرى بسبب فساد العقيدة عند كل أمة، وقد اختلف هذا المرض من مجتمع إلى آخر[27].

ومن ثم وجدنا كثيراً من الباحثين قد درسوا البيئة التي ظهر فيها عيسى عليه السلام ونشأ بها، لكي يثبتوا أن عيسى عليه السلام تأثر بهذه البيئة وبالأفكار المتداولة فيها، فكانت تعاليمه نتاجاً لمجموعة هذه الأفكار والمعتقدات السائدة في زمنه، وهذه النظرة توحي إلى بشرية رسالة عيسى عليه السلام[28]، وأنه لم يتلقّ هذه التعاليم من وحي إلهي، وذلك لعاملين أساسيين وهما:

العامل الأول: أن التعاليم الإلهية التي جاء بها عيسى عليه السلام كانت مناسبة لهذه البيئة،

---

[26] تحريف رسالة المسيح، ص28.

[27] عبد الغني عبود، المسيح والمسيحية والإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1984م، ص18. وانظر: محمد علي عبد المعطي أحمد، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، جامعة الأزهر، كلية الدعوة الإسلامية، 2006. ص264.

[28] بشرية رسالة عيسى: أي أن الرسالة التي دعا إليها المسيح عيسى عليه السلام هي صناعة بشرية من أفكاره ومعتقداته جمعها من حوله ولم يتلق تعاليمها من وحي بعثه الله إليه كما غيره من الأنبياء .

وجاءت علاجاً لمشكلاتها، فبينما كانت تسيطر الأجواء المادية في ذلك المجتمع جاءت تعاليم عيسى عليه السلام روحية سامية لتعالج ذلك الاستغراق المادي[29].

العامل الثاني: أنه ما من شك أن الأفكار والمعتقدات السائدة في تلك البيئة وما حولها كان لها أثر كبير على العقيدة المسيحية بعد عيسى عليه السلام، ومن هنا كانت ضرورة دراسة العصر أو البيئة التي ظهر فيها المسيح عليه السلام؛ لأنها غذّت المسيحية بأفكار وفلسفات جديدة كان لها أثر في تلويث المسيحية بألوان مختلفة، وهذا العصر أو تلك البيئة كانت تنازعها عوامل ثلاثة: هي (الحضارة الإغريقية) التي شكلت عقل الإنسان، و(الدولة الرومانية) التي حددت له مؤسساته التي تعيش بينها، وأطّر الحياة في هذه المؤسسات، ثم (الدين اليهودي) الذي جاءت المسيحية أساساً لإصلاحه بعد أن صار عامل تخريب في العقل وفي أطر الحياة معاً[30].

1 . الحضارة الإغريقية:

هي واحدة من حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط، وهو يشمل حضارات: مصر، وما بين النهرين (أي ما بين دجلة والفرات)، والإغريق، والرومان[31].

وأصحاب هذه الحضارات هم اليونانيون الذين كانوا يمثلون أمة عظيمة القدر بين الأمم وسمّوا بذلك أي (الإغريق) لتغلغل حضارتهم وتأثيرها بين أعضاء الجماعات اليهودية في مصر وبرقة، وسوريا واسيا الصغرى وفلسطين، وقد استمرت طيلة العصر الروماني، كما بينت ذلك في ثنايا البحث[32].

ومن الثابت أن الحضارة الإغريقية قد بدأت متأخرة عن حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط الأخرى إلا أنه كان لموقعها الاستراتيجي في منطقة البحر الأبيض المتوسط أثره البارز

---

[29] محمد أحمد الحاج، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، دار القلم /الدار الشامية، دمشق/بيروت، 1413هـ، ص35.

[30] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص365.

[31] المرجع السابق، ص365.

[32] المرجع نفسه، ص365.

في الاتصال بالبلاد ذات الحضارات القديمة في هذا البحر (في شمال فلسطين) تماماً، كما اتصلوا بالحضارات الشرقية والجنوبية لحوض البحر، واكتسبوا من هذه الحضارات الشيء الكثير، وكان على رأس هذه الحضارات التي استفادوا منها الحضارة المصرية القديمة[33].

وقد أخذوا منها الكثير من معارفهم الدينية والفلسفية والعلمية، كالفلك والطب والزراعة والهندسة والفنون الجميلة وفنون العمارة والنحت والتصوير، وما يتجاوز الفن الرفيع إلى أشياء أخرى تسمى الفنون التطبيقية وتمسّ الحياة اليومية، وقد تمس السياسة أيضاً[34].

وكان كثير من فلاسفة الإغريق المشهورين (أفلاطون مثلاً) قد تلقى تعليمه في جامعات مصر، وقد زار مصر كثيرون من عظماء اليونان المشهورين أمثال (فيثاغورس) و(ديمقريطس)، وبالرغم من ذلك فقد استطاعت بلاد اليونان أن تسبق غيرها من البلاد التي أخذت حضارتها عنها خاصة في مجال الفلسفة؛ وذلك لأن هذه البلاد لم تحكمها دولة عريقة، ولم تكن فيها إلى جانب الدول الحاكمة دولة من دول الكهنة التي تتأصل في البلاد، وتتوارث فيها أسرار المعرفة والبحث في أصول الخلق والحياة، أو في المسائل الإلهية التي يتأثر بها الكهان ورؤساء الدين[35].

وغير صحيح ما يثيره البعض ـ عن جهل أو سوء نية وقصد ـ من أن حياة الإغريق قد نمت وازدهرت لأنهم قد أبعدوا الدين جانباً عن حياتهم العامة، على عكس ما فعلته المجموعات التي سبقت اليونانيين عن طريق الحضارة، ثم تخلفت عنهم على نفس الطريق، ومن ثم فقد رفعوا من شأن العقل وصبغوا تعاليمهم بالصبغة المدنية[36].

ربما من الصواب ما راه ول ديورانت من أن الحضارة الإغريقية كانت حضارة دينية كغيرها من الحضارات التي سبقتها والتي لحقت بها حيث كانت قوانين اليونان ترى المروق من الدين (الامتناع عن عبادة الالهة اليونانية) جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام، وهذا هو القانون الذي

---

[33] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص 366.

[34] طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة، 1996م، ص 17.

[35] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص 367.

[36] المرجع السابق، ص 367.

حُكمَ به على سقراط بالموت[37].

وهكذا نجد مع ول ديورانت أن الحياة في بلاد اليونان لم تكن حياة دنيوية كما يصفها المؤرخون، بل كان للدين فيها شأن كبير في كل مكان إلا أنه كان ذا طابع فردي لا طابع (قومي) عام، بمعنى أنه لم يكن للدولة دين رسمي يتمسك به الجميع أو عقائد ثابتة مقررة، ولم يكن قوام الدين هو الإقرار بعقائد معينة بل كان قوامه الاشتراك في الطقوس الرسمية، وكان في وسع أي إنسان أن يؤمن بما شاء من العقائد على شريطة ألا يكفر بالهة المدينة أو يسبها[38].

ولقد كانت هذه الفردية الدينية وما تبعها من فوضى دينية؛ نتيجة احتكاك الإغريق بالشرق وتأثر بعضهم بالمفاهيم الدينية السائدة فيه، فكان سبباً عجّل بتفكيك المجتمع اليوناني ثم سقوطه سريعاً تحت ضربات الرومان. ومع ذلك فقد خلّف الإغريق من بعدهم ما كان ذا أثر فعال في صياغة شكل الحياة في الإمبراطورية الرومانية ذاتها، وما كان ذا أثر فعال في الدين المسيحي نفسه[39]. ويمكن إجمال ذلك في النقاط الاتية:

. تمزيق الكيان الإنساني الواحد بالإعلاء من شأن بعض المواهب التي منحها الله للإنسان والحط من شأن بعضها الاخر، فلقد أعلى الإغريق . على سبيل المثال . من شأن العقل، وحطوا من شأن الجسد، فحقّروا العمل اليدوي والجري وراء الثراء، ورفعوا من شأن المحارب السياسي والمسؤولين عن الزراعة، وحرموا العبيد وغيرهم ممن يزاولون الحرف اليدوية من حقوق المواطنة والتمتع بالديمقراطية[40].

. ترتب على ذلك أن كان هناك تمايز صارخ بين الإغريق وغير الإغريق في داخل حدود مجتمعهم الإغريقي أو في خارجه، ففي داخل حدود بلادهم نجد أرسطو ينظر إلى العبد على أنه الة بشرية، ويظن أن الاسترقاق سيبقى حتى يأتي اليوم الذي تؤدي فيه الآلات التي تدور

---

[37] ول ديورانت، قصة الحضارة، تقديم محيي الدين صابر، ترجمة زكي نجيب محمود، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس . دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت، 91/5.

[38] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص 368.

[39] المرجع نفسه، ص 368.

[40] جورج سول، المظاهر الاقتصادية الكبرى، ترجمة راشد البراوي، مكتبة النهضة المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر، القاهرة . نيويورك، ص 18 . 19.

بنفسها جميع الأعمال الحقيرة، وأما خارج اليونان فقد كانت الروح الإنسانية لليونانيين وطنية قومية، ولذلك كانوا استعماريين من الطراز الأول، وقد ساعدهم على ذلك تجارتهم الدولية التي أدت إلى ظهورهم وظهور حضارتهم التي شهد بها التاريخ[41].

. المادية الغليظة: ظهر الميل إلى تجسيد المجردات برغم الاشتغال بالفلسفة، ومن ثَمَّ ساد عندهم قبول التفسير المادي للوجود والإنسان، وانعكست هذه النزعة المادية الوثنية على فكرة الألوهية عند الإغريق، فإنه «ليس ثمة دين يقرب الهته من الادميين قرب الهة اليونان[42]. فكان اليونانيون يؤمنون بأن الهتهم يأكلون ويشربون ويلعبون ويلهون ويخوضون المعارك فيَغلبون ويُغلبون، ويتألمون ويفرحون ويحزنون، والويل لمن تعرض لهم أو أغضبهم، فإن غضبهم شديد ولذلك حكم على سقراط أن يشرب السمّ ومات شهيد الجهر بالحقيقة؛ لأنه أفشى أسرار الوحدانية وخلود الروح، واعتبروه كافراً بالآلهة إلى جانب هذا كانوا يعتقدون أن الأرض لا السماء هي موطن الالهة اليونانية[43].

ولذلك عبدوا الهة شتى فهناك الهة للحِرَف والمهن المختلفة، والهة للحرب، والهة مستمدة من الطبيعة، كما عبدوا رَمْزَي الإخصاب الرئيسين في الرجل والمرأة، وعبدوا بعض الحيوانات، كما عبدوا الموتى[44].

2 . الدولة الرومانية:

سادت في أثينا كل علل (أمراض) الحضارة التي تنتج عادة من (شيخوخة) الحضارة واقترابها من الأفول، وفي الوقت الذي كانت عوامل الانهيار تدب في جسد المجتمع الإغريقي، كانت عوامل البناء تدب في جسد شاب مجاور هو جسد المجتمع الروماني المتمثل في الدولة الرومانية، التي بلغت أقصى اتساع لها في عهد المسيح، ودخل في حوزتها اسم العالم المعمور[45] كله ما عدا

[41] قصة الحضارة، 68/2.

[42] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص 370.

[43] المرجع نفسه، ص 370.

[44] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص 370.

[45] العالم المعمور: الأرض ومن عليها من البشر.

الشرق الأقصى، وأصبح من رعاياها أناس مختلفون في الجنس واللغة والعقيدة، فشوهدت في روما والإسكندرية، ونابلس وبيت المقدس كل عبادة يدين بها البشر، وبلاد الرومان (إيطاليا اليوم) مجاورة لبلاد الإغريق (اليونان اليوم) على نفس الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط، وعلى خط العرض نفسه تقريباً، ومن ثمّ كان هذا القرب من الموقع ممرّاً سهلاً لانتقال ديانة اليونان إلى الرومان، إلا أن مدارس الديانة الرومانية بنيت على الأخلاق وإن كان اليونانيون قد ألّهوا الأخلاق والفضائل إلا أن الديانة الرومانية تغالت في هذا الشأن فكانت لا تعرف إلها معيناً وما اعترفت بوجود إله أو الهة، وإنما كان جلّ همهم أن يلقنوا أبناءهم الأخلاق والفضائل منذ نعومة أظفارهم، وبهذا يمكن أن يقال: إن فلسفة الديانة الرومانية وليدة الفلسفة اليونانية[46].

وبالرغم من هذا التأثر الروماني ـ الذي لا ينكر ـ بالحضارة اليونانية إلا أن الرومان استطاعوا في النهاية أن يضعوا لغتهم الواضحة على هذه الحضارة لتكون

حضارتهم هم في النهاية ابتداء من المفاهيم الدينية وانتهاء بأنماط الحياة اليومية وهياكل هذه الحياة[47].

فمن حيث الفكرة الدينية: لم تكن (الفردية الدينية) التي رأيناها سمة الحياة الدينية عند الإغريق ـ لم تكن تصلح منذ البداية للرومان ـ فإن الفردية تصلح للإغريق كمفكرين، ولكنها لا تصلح للرومان كمحاربين، والمفكر بطلب الحرية، ولكن المحارب يطلب مع الحرية جماعة يحارب بها ولها [48].

ومن ثم احتلت الأسرة في الفكر الديني الروماني منزلة لم تنزل عنها عبر تاريخ الرومان الديني، فقد كانت الأسرة رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة، والالهة من جهة أخرى، وكانت هي المركز الذي يلتف حوله الدين والخلق والنظام الاقتصادي وكيان الدولة بأجمعها، كما كانت

[46] محمد فؤاد الهاشمي، الأديان في كفة الميزان، دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر، 1986م، ص 33.

[47] المرجع السابق، ص 33.

[48] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص 371.

هي المنبع الذي تستمد منه هذه المفهومات كلها [49].

وفكرة الألوهية: عند الإغريق فكرة مادية حسية بينما كان الرومان يراها في بعض الأحيان معنويات مجردة كالصحة أو الشباب، وكان الرومان يعتقدون بأن بعض الالهة يتقمص الحيوانات المقدسة كالحصان أو الحيوان الذبيح أو الإوز المقدس[50]. وقد استخدمت روما (إيطاليا) نظاماً من الكهنوت محكم الوضع، وكان الأب في منزله كاهناً، ولكن الصلوات العامة كان يرأسها جماعات من الكهنة، ويرأسها كلها حبر أعظم.

وقبل ظهور المسيحية: كان الأباطرة قد بدؤوا يجدون لهم مكاناً في هذا الفكر الديني الروماني، ففي الاحتفالات الدينية كان الإمبراطور يرأس الاحتفالات وهو الكاهن الأكبر لدين الدولة.

وبتولي الإمبراطور أغسطس الحكم في القرن الأول قبل الميلاد اتخذ الدين الروماني شكلاً مهماً اخر، وذلك هو العبادة الشخصية للإمبراطور نفسه، فقد كان أغسطس ـ على حد تعبير ول ديورانت ـ من أكبر المنافسين لألهته، وكان قيصر قد ضرب به المثل في هذا التنافس، ذلك أن مجلس الشيوخ اعترف بألوهية قيصر بعد عامين من مقتله، وما لبثت عبادته أن انتشرت في أنحاء الإمبراطورية[51].

وهكذا خلَّف الرومان لمن بعدهم إلى جانب ما خلَّفه الإغريق فكرة (تأليه الإنسان)، وخلفت كلتا الدولتين تلك المؤسسات والهياكل والتنظيمات التي صارت تنظم الحياة الدينية الرومانية، والتي انتقلت إلى الحياة الدينية المسيحية، مع الانحراف الكبير والخطير عن الديانة النصرانية التي بعث الله بها عيسى عليه السلام كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

---

[49] قصة الحضارة، 122/1.

[50] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص 372.

[51] المرجع نفسه، ص 372.

خامساً: الطوائف اليهودية عند ظهور المسيح عليه السلام:

إن أهم فرق اليهود في هذه الفترة ـ مبعث المسيح عليه السلام ـ لدى الباحثين المعاصرين: السامريّون، والصدوقيون، والفريسيون، والقمرانيون، والاسانيون [52].

وكلها باستثناء السامريين فرق ظهرت في الفترة الوسيطة بعد الأسر البابلي، ويرى بعض الكتاب أن معظم فرق اليهود التي ظهرت قديماً وفي الفترات المتأخرة انقرضت دون أن تترك اثاراً مكتوبة كثيرة حتى يعرفها المتأخرون معرفة دقيقة وأن أكثر فرقتين عرف عنها بشيء من التفاصيل هما: الفريسيون والقمرانيون.

أما الفريسيون، فالمعرفة لهم جاءت عن طريق الحاخامات الذين حافظوا على كثير من أخبارها، وخاصة في دواوين كتب التلمود، وأما المعرفة بجماعة

القمرانيين، فتعود إلى اكتشاف مخطوطات البحر الميت فصارت بهذا الاكتشاف من فرق اليهود المعروفة بعد أن ظلت لحوالي ألف سنة لا يكاد يعرف عنها شيء.

ولكل فرقة من الفرق اليهودية السابقة مذهبها حول الاعتراف بأسفار العهد القديم والأحاديث الشفوية التي يزعمون نسبتها إلى موسى عليه السلام المضمَّنة في التلمود، أو إنكار بعض هذه الأصول ورفض الأخذ بما فيها من أحكام وتعاليم، ولكل منها مذهبه في انتظار المسيح الموعود[53].

---

[52] يوسيفوس، التاريخ اليهودي، مكتبة الكتب المسيحية، بيروت، 1872م، ص 264 ـ 286.

[53] السكسي، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الثانية، 1417هـ، ص89 ـ 90.

وفيما يلي عرض لهذه الفرق[54]، بما يُعرِّف بها ومعتقداتها بشكل عام في الفترة التي بعث فيه المسيح عليه السلام:

1 . السَّامريون:

سُمُّوا السامريون نسبة إلى منطقة السامرة في فلسطين، وكانت السامرة مدينة تمثل عاصمة مملكة إسرائيل، ثم غلب اسم سامرة على شعب تلك الدولة، فصار يطلق عليهم اسم «سامريون». وهي أقدم الفرق المذكورة انفاً، ويقال لها: الفرقة الشمالية؛ لأن أتباعها كانوا في شمال فلسطين، وهم خليط من اليهود والاشوريين كانوا يسكنون مملكة إسرائيل القديمة.

وكان يهود دولة يهوذا يعتبرون السامريين فرقة خارجة عن اليهودية[55]، ومن أهم ما يتميز به السامريون في عقيدتهم:

- إيمانهم بموسى عليه السلام وإنكارهم نبوة من عداه من أنبياء بني إسرائيل.
- اعترافهم بالتوراة فقط ويضيفون إليها سفر يوشع بن نون عليه السلام، وينكرون ما عدا ذلك من الأسفار والكتب التي يعزوها اليهود إلى الأنبياء وغيرهم، كما لا يعترفون بالتلمود ولا يقبلونه.
- اعتقاد أن الجبل المقدس هو جبل (جرزيم)، وهذه كانت من أهم نقاط الاختلاف بين اليهود والسامريين.

ويقال أيضاً إن السامريين اعتقدوا بعض الاعتقادات الباطنية التي حرموا إفشاءها لغيرهم، وهذه ملاحظة مهمة؛ لأن أخبار النصارى تقول بأن الفرق النصرانية الباطنية التي يقال لها الفرق: الغنوصية جاءت من قبل السامريين الذين ادعوا اتباع المسيح عليه السلام، على حد تعبير الأستاذة بسمة جستنية [56].

---

[54] تحريف رسالة المسيح، ص 34. وانظر: أحمد شلبي، اليهودية، ص 215 . 218، وعند: عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص 25 . 28. محمد شاهين، النصرانية، ص 20.

[55] محمد شاهين، النصرانية، ص 35.

[56] تحريف رسالة المسيح، ص 35.

وهم يؤمنون بالخلاص الروحاني على يد المسيح المنتظر أو الرسول الموعود، ويعتقدون أنهم وجدودهم جديرون باسم الإسرائيليين، إذ هم الذين ينتسبون إلى يعقوب عليه السلام، وقد استمرت السامرية إلى يومنا هذا، وإن كانوا فرقة صغيرة في أرض فلسطين[57].

2 . الصدوقيون:

هم أتباع صدوق الذي يقول أهل الكتاب: إنه كان يتولى الكهنة في عهد سليمان عليه السلام، وهم من أقوى فئات اليهود بعد الأسر البابلي اقتصادياً وسياسياً بسبب نفوذهم في الهيكل.

وكانت علاقتهم مع الدول الأجنبية الحاكمة الفارسية ثم الرومانية من أحسن العلاقات، وكانت تراعي مصالح الحكام الأجانب في كثير من الأمور وهم من أكثر يهود فلسطين تأثراً بالفلسفة الهيلينية [58] بل إن الكاهن الصدوقي جاسون (175 ق.م ـ 172 ق.م) الذي كان كاهناً أيام المملكة السلوقية أراد أن يحول بيت المقدس إلى مدينة هيلينية بتغيير اسمها إلى أنطاكيا القدس، ويؤسس فيه معاهد ومدارس هيلينية.

وكانت الصدوقية فرقة صغيرة من حيث عدد أتباعها، ولكنها كبيرة من حيث ثرواتهم ونفوذهم في الاقتصاد والسياسة.

وأما عن عقائدهم فقد لاحظ بعض الباحثين أنه هناك تشابهاً بين اعتقادات الصدوقيين واعتقادات السامريين، إلا أن الصدوقيين اهتموا كثيراً بالهيكل والعبادات التي تقام فيه لأنهم كانوا مشرفين عليه، ومن وجوه التشابه بينهم وبين السامريين أن الصدوقيين رفضوا كتب الأنبياء الذين جاؤوا من بعد موسى عليه السلام، وقالوا: إن التوراة وحدها هي مصدر اليهود، ولم

---

[57] محمد شاهين، النصرانية، ص 19.

[58] الهيلينية والهلنستية: وهي الفكر الناتج عن الثقافة والحضارة اليونانية القديمة البحتة، فعندما غزا الإسكندر الأكبر بلاد الشرق وحمل معه هذه الثقافة والحضارة الهيلينية امتزجت هذه الحضارة بحضارات الشرق الروحية، وكان نتيجة هذا التزاوج بين الحضارتين الإغريقية والشرقية ولادة الحضارة «الهيلنستية»، ولذلك قال البعض بأن الحضارة الإغريقية مرت بمرحلتين، الأولى: المرحلة الهيلينية وهي الحضارة اليونانية الكلاسيكية وشملت بلاد اليونان، والثانية: المرحلة الهيلنستية وشملت البقاع التي تألفت منها الإمبراطورية اليونانية. ينظر: عبد المنعم الحنفي، المعجم الفلسفي، القاهرة، الدار الشرقية، ط1، 1410هـ، ص 368.

يعترفوا بالتلمود، ولا بالروايات الشفوية التي يرويها غيرهم، وهم لا يؤمنون بالبعث والاخرة والثواب والجزاء فيها، وعرفوا بالتساهل في الشرائع، ومع أنهم رفضوا روايات اليهود الشفوية وكتب الأنبياء، إلا أنهم كان لهم كتاب خاص دونوا فيه فتاواهم وقضاياهم وأحكامهم وأظهروا الارتياب في أخبار اخر الزمان وما تعلق بمبعث المسيح عليه السلام، وتجاهلوها ولم يُعجبهم اهتمام الطوائف بهذه الأمور، وعندما أرسل الله المسيح عليه السلام، بادر الصدوقيون إلى تكذيبه، وكانوا أشد أعداء المسيح ومنهم حنانيا وقياف [59].

3 . الفريسيون:

من أهم الفرق اليهودية، لأنها تنتسب إلى اليهودية المتأخرة . يهودية الحاخامات . التي يدين بها جلّ اليهود بعد مبعث المسيح عليه السلام.

والفريسيون كلمة آرامية تعني المعتزلة؛ لأنهم فارقوا الجماعة ولم يكونوا على رأس جمهور الأحبار، وقيل غير ذلك [60]، ويرى بعض الباحثين أن الفريسيين كانوا جزءاً من الطائفة الحاصدية[61] ثم اعتزلوها[62].

وقد ملكوا مناصب نفوذ في مجلس السبعين الذي ترأس على شؤون اليهود واليهودية منذ الأسر البابلي إلى تدمير الهيكل سنة 70م، وهذا ما يفسر قوة تأثيرهم قبل مبعث المسيح عليه السلام بسبب المناصب القوية التي تولوها.

واستمر نفوذهم ولم ينقطع، ولما ولد المسيح عليه السلام كان الفريسيون من أقوى فئات مجلس السبعين، وزاد نفوذهم كثيراً أيام الحكم الروماني عندما لم يشتركوا في الثورة الكبرى ضد الرومان من سنة 66 . 70م.

---

[59] محمد شاهين، النصرانية، ص 13 . 14.

[60] تحريف رسالة المسيح، ص 37.

[61] الطائفة الحاصدية (الحصيدية): أصحاب مذهب في الباطنية اليهودية، وهو غنوص لا شك فيه، وقيل صحيح الاسم الحسيدية بمعنى التقوية، لكنا نرى أن الحصيدية مشتق من الحصيد بالآرامية والعربية، وهو أسافل الزرع الذي تبقى ولا يتمكن منها المنجل، والحصيديون هم البقية الصالحة التي لم تتمكن منها ديانات ولا عادات الأغراب ولم تصرفها عن عبادة الله على ملة اليهود. ينظر: عبد المنعم حفني، الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية، دار المسيرة، بيروت، ط1، 1400هـ، ص 94 . 95.

[62] عبد المنعم حفني، الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية، دار المسيرة، بيروت، ط1، 1400هـ، ص 95.

وبعد فشل اليهود وتدمير الهيكل اقتربوا من الرومان واستأذنوهم في تأسيس معهد فريسي لتعليم اليهودية في جنوب فلسطين، وأصبح هذا المعهد من أهم مراكز اليهودية بعد تدمير الهيكل، ومن أهم المجامع العلمية، وذهب البعض إلى أن الفريسيين كانوا هم الزعماء المفكرين للشعب اليهودي زمن عيسى عليه السلام، وإن كان بعض الباحثين يرى أنه لم يكن بين أفرادها من هم في رتبة الرؤساء والوجهاء [63].

وهم يؤمنون بالأنبياء والرسل المتأخرين الذين جاؤوا بعد سيدنا موسى وهارون عليهما السلام، ويؤمنون بالملائكة والشياطين والبعث والحساب والجزاء [64]، واختلفوا في مسائل القضاء والقدر، ووقفوا منها موقفاً شبيهاً بموقف المعتزلة عند المسلمين.

وقد آمنوا بروايات شفوية ينسبونها إلى سيدنا موسى عليه السلام تقابل التوراة وتفسيرها، وهي التلمود لكنهم مع إيمانهم هذا اعتقدوا أن رواية الفريسيين هي الرواية الصحيحة وهي التي يجب على اليهود الأخذ بها، واستوجبوا تقليد عامة اليهود للحاخامات أصحاب هذه الرواية، بل إنهم جعلوا الحاخامات هم مراجع الدين وأقاموها مقاماً أعلى من الكهنة. وقد كانوا في ذلك ينتظرون المسيح المخلُص في عالم الروح، أي مسيحاً ليس له سلطة الدولة [65].

ولم يرفض الفريسيون الهيكل، وإنما جعلوه أمراً ثانوياً في دين اليهود من غير الضروريات، ولم يكن ذلك تقليلاً لشأنه ولكنهم رأوا أن التمهيد لمجيء المسيح الذي ينتظرون لا يكون إلا بالدراسة والعبادة وتطبيق الشرع في حياتهم اليومية، ولذلك رفضوا قبول بعض الفرق لضرورة الجهاد كأساس للاستعداد لمجيء المسيح.

وكانوا في عصر الميلاد ينقسمون إلى فريقين؛ فريق يتبع الحكيم (هلل) الذي قدم إلى فلسطين من بابل، والفريق الاخر يتبع الحكيم (شماي) وهو أقرب

إلى التحرج لدرجة رفض الراغبين في دخول الدين من غير اليهود، وقد رفضوا الهيلينية وعلى

---

[63] محمد شاهين، النصرانية، ص 13 . 14.

[64] بطرس عبد الملك وآخرون، قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة، القاهرة، د.ت، ص 15.

[65] محمد شاهين، النصرانية، ص 15.

العكس من ذلك تشربوا قدراً كبيراً من مذهب الثنائية الفارسي ومذهب مناجاة الأرواح أو اتصال أرواح الأحياء بأرواح الأموات والعلم الاخروي[66]، ولعلنا نلاحظ تأثير هذا على بولس فيما بعد حيث كان منهم.

وكانت العداوة بين الفريسيين والنصارى الأولين عداوة شديدة كما سنعرف، وكانوا من أهم الفرق اليهودية التي أعلنت محاربة المسيح عليه السلام بكل ما لديها.

4 . القمرانيون (جماعة وادي قمران):

وجدت هذه الجماعة في وادي قمران على الشاطئ الشمالي الغربي من البحر الميت، وهو ليس بعيداً عن بيت المقدس، بل هو أقرب مناطق البحر الميت إلى فلسطين «القدس الشريف».

وتتحدث هذه الجماعة عن نفسها أحياناً بأنها تمثل جند الله المرابطين أو كتيبة الله، ويعتقد القمرانيون بموسى ويوشع بن نون عليهما السلام، ويبيتون على الاستعداد الدائم للجهاد في سبيل الله، وكانوا يستفتحون برسول اخر الأيام الذي ينتصرون به على جميع الأمم.

وأحياناً يسمون أنفسهم بالفقراء؛ ولذا زعم بعض الباحثين أن جماعة وادي قمران هي الجماعة الأبيونية، وهي من الطوائف اليهودية التي كانت في عصر المسيح عليه السلام[67].

ومما يدعو إلى التحفظ في هذه الأمور أن طوائف اليهودية منذ القرن الثاني قبل الميلاد حتى تدمير الهيكل الثاني سنة 70م كانت كثيرة ومتنوعة ومتنازعة، الأمر الذي يجعلنا لا نستطيع التأكيد على انتسابها للفرق التي يذكرها العلماء لا سيما والآسانيون لم تكتشف كتب لهم حتى تتم المقارنة.

وكانت حرمة الشرع الموسوي لدى القمرانيين عظيمة، وقد أوجبوا على جميع أتباعهم دراسة

---

[66] تحريف رسالة المسيح، ص 39.

[67] الجماعة الأبيونية: فرقة من اليهود المتنصرين، تواجدت في العصور الأولى للمسيحية، عرفوا بهذه التسمية العبرانية الأصل التي ربما تعني الأغمار، لأنهم كانوا من نكرات اليهود، وربما قيل هذا الاسم هو الذي أطلقوه على أنفسهم بمعنى أنهم الفقراء إلى الله، وبوصفهم يهوداً كانت الشريعة تلزمهم ولكنها لم تلزم المسيحيين من غير اليهود. ينظر عبد المنعم حفني، الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية، المرجع السابق، ص 43.

الشرع دراسة دقيقة وصحيحة على أيدي أئمتهم، وهم يؤمنون بالملائكة والقضاء والقدر والبعث والحساب، ويوافقون في كل هذا الأصول الصحيحة التي دعا إليها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام، وهو خير دليل على أفضليتهم على طوائف اليهود الاخرين وأمثالها في غير وادي قمران.

ويبدو أنه كان لهم ـ من خلال نصوصهم ـ أتباع كثيرون في بيت المقدس، وفي سائر مدن اليهود في فلسطين في ذلك الوقت.

وذهب بعض الباحثين أن جماعة النصارى الأولى التي كانت في بيت المقدس تحت رئاسة يعقوب العدل وبطرس ويوحنا الحواري ـ منذ رفع المسيح عليه السلام حوالي سنة 64هـ كانوا على صلة وثيقة بجماعة وادي قمران، والتشابه بين جماعة وادي قمران والجماعة النصرانية الأولى في بيت المقدس والشام كبير.

وأشار بعض الباحثين إلى التشابه بين يعقوب العدل ـ إمام النصارى الأول ـ بعد رفع المسيح والمعلم أو الهادي العدل المذكور في مخطوطاتهم، ومن المهم أن نذكر أن جماعة وادي قمران اعتبرت وجودها في البادية وجهاً من وجوه استعدادها لقبول المسيح عليه السلام ورسول اخر الزمان الذي يأتيهم من قبل البادية، وذلك كما يصرحون عملاً منهم بقول النبي أشعياء[68].

5 . الآسانيون:

يرى بعض الباحثين أن هذه الفرقة كانت أيام ظهور المسيح عليه السلام من أهم فرق اليهود وأكثرها نشاطاً، حتى من يكتب عن الفكر الديني الإسرائيلي إبان ظهور النصرانية لا يخلو من ذكر هذه الفرقة بين الفرق.

ولكن المعلومات عن هذه الفرقة يكتنفها الغموض من البداية، لندرة من كَتب عنهم من القدماء، فهي لا تتجاوز عشرين فقرة لدى المؤرخ يوسيفوس، كذا الحال بالنسبة للكتابات النصرانية القديمة[69].

[68] حسن ظاظا، الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، دار القلم، دمشق /دار العلوم والثقافة، بيروت، 1407هـ، ص 221.

[69] الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، ص 221.

والشائع بين العلماء أن الكلمة (الانسينيون) معناها الأطباء، وأن أصلها ارامي هو كلمة (اسيا) بمعنى الطبيب والمداوي، وكما يقول العرب (الاسي)، وهناك أقوال أخرى[70].

ويميل أكثر الباحثين إلى الربط بين كون الاسينيين أطباء وبين المسيح ومعجزاته، ويبدو أنهم ما كانوا يبيحون للعالم الخارجي أن يعرف عنهم الكثير.

والظاهر أنه كانت لهم فلسفة دينية وأخلاقية عملت فيها تيارات أجنبية غير يهودية منها الفلسفة الفيثاغورية، ومنها التنظيم الديني المجوسي الفارسي القائم على تقديس النور وربطه بالخير، ومنها رواسب وبقايا من العقائد المصرية الفرعونية، لا سيما ما يتصل منها بتقديس الشمس إلى جانب المعتقدات النابعة من كتب اليهود المقدسة بطبيعة الحال[71].

وقد أشارت الدكتورة بسمة أحمد جستينة إلى أن النذريين أو المنذورين الذين وهبوا أنفسهم ونذروها لحياة القداسة وخدمة الله لم يكونوا طائفة منظمة مثل أصحاب النِّحل[72]، بل كانوا احاداً متفرقين وهؤلاء تكاثروا قبل مولد المسيح؛ لأنه وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حسب التقويم العبري وهو الموعود الذي كان منتظراً لبعثة المسيح الموعود، وكان النبي يحيى عليه السلام يُعدّ عَلَماً من أعلامهم[73].

وهؤلاء النذريون كانوا أهل صلاح، فكانوا قوة ذات بال في عصر الميلاد، وخاصة أنهم يؤمنون بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح عليه السلام، ويترقبون ظهوره دون أن تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود[74].

إذن هذه كانت أهم الفرق الرئيسية لليهود عند ظهور المسيح عليه السلام.

---

[70] المرجع السابق، ص 221.

[71] الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، ص.ص 221 ـ 235. وانظر: محمد شاهين، النصرانية، ص 15.

[72] أصحاب النحل: أي أصحاب الديانات والمناهج العقدية لأمة خاصة، سواء كانت حقاً أم باطلاً. وفي حديث قتادة بن النعمان: كان بشير بن أبيرق يقول الشعر ويهجو به أصحاب النبي (ﷺ) وينحله بعض العرب، أي بنسبه إليهم من النحلة وهي النسبة بالباطل، ويقال: ما نحلتك أي ما دينك؟ ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (نحل).

[73] تحريف رسالة المسيح، ص 42.

[74] تحريف رسالة المسيح، ص 43.

6 . الهيكل ورجال الدين:

الهيكل هو الذي بناه سليمان عليه السلام ليكون مقراً للعبادة، ثم جاء البابليون بعد حوالي أربعة قرون وهدموه، ثم أمر (قورش) الفارسي[75] بإعادة بنائه سنة 536م، وجاء الملك (هيرودوس) بعد خمسة قرون فجدد بنائه، وتمّ ذلك في عصر الميلاد.

وأما عن وضع الهيكل وسلطان الكهنة في عصر الميلاد، فكان ينتظمهم تنظيماً طبقياً يتكون من طبقة عليا هم رجال الدين، وطبقة دنيا هم الكَتَبَة أو فقهاء الشريعة، أما عن طبقة رجال الدين فكانت تعمل على انتظام العبادة في المعبد وتشرف على تقديم الذبائح، وإن كانت لا تعتني بدراسة الشريعة أو تعليمها، بل توجه كل ثمارها إلى حفظ النصوص وممارسة الطقوس وخاصة في الحفلات السنوية التي تَفِدُ فيها على القدس أفواجاً من الحجيج، وكانوا حريصين على تأثيرهم في الشعب إلا أنهم كانوا في نفس الوقت تابعين للرومان خاضعين لحكمهم[76].

وأما الكتبة أو فقهاء الشريعة فكانوا يسجلون الأشعار الدينية لطالبيها، وانكبوا على شرح الكتاب المقدس أحياناً، وهم في عملهم هذا . شرح الكتاب المقدس . لم يسلموا من التأثر بالمذاهب الثنوية[77]، والنظريات اليونانية في الإله والكون والإنسان[78].

بل إن بعض الكتّاب ذهبوا إلى أنهم كانوا مسؤولين عن التفسيرات الدقيقة للتوراة، ولم يكن لهؤلاء الكتبة نصيب من وظائف الهيكل، وكانوا جميعاً من الفريسيين إذ هم الذين يعترفون بالأسفار الحديثة ويعتمدون عليها في العبادات والمعاملات، ولما ولد المسيح كانت وظائف

---

[75] قورش الفارسي: هو أول ملوك فارس، حكم في الفترة من 560 . 529 ق.م، واسمه كورش بن كمبوجيه بن كورش بن جيشبيش بن هخافيش، أحد أعظم ملوك الفرس الأخمينية، استولى على اسيا الصغرى وبابل وميديا، حكم من (550 . 529 ق.م) وقتل في ماساجت ودفن في باساركاد.

[76] محمد شاهين، النصرانية، ص 20 . 21.

[77] المذاهب الثنوية: الثنوية هم الذين يقولون بأصلين للوجود، مختلفتين تمام الاختلاف، كل منهما له وجود مستقل في ذاته، ودون هذين الأصلين لا يمكن فهم طبيعة الكون الذي تتصارع فيه القوى المتضاربة، التي ينتمي بعضها إلى أحد المبدأين، وينتمي سائرها إلى المبدأ الآخر، مما يعني أن حقيقة الوجود تنطوي على انقسام داخلي وتقابل ضروري دائم بين أصلين، لكل منهما قوانينه وأطواره الزمنية الخاصة به، وقد ظهر هذا المذهب منذ القديم لدى الإغريق فأثر على أعظم فلاسفتهم كأفلاطون وأرسطو. الخطيب، معجم الفلسفة، حرف الثاء.

[78] تحريف رسالة المسيح، ص 43.

الهيكل محصورة في مجلس (السنهدرين)[79].

وقد سلب هذا المجلس في عصر المسيح حق الحكم في الجرائم الكبرى، وكانت أحكامه في تلك الأيام معلقة على إقرار الحاكم الروماني يُقرها أو ينقضها، وكان موقفهم مما يشاع في ذلك الوقت عن قرب المسيح المنتظر هو عدم الترحيب بذلك لما في ذلك من الاعتراف بفساد الزمن كله، وفي هذا اتهام لهم بالفساد[80].

سادساً: مفاهيم لكلمات مهمة:

1 . النصارى:

جمع نصران ونصرانة، قال ابن بريٍّ: هذا في الأصل دون الاستعمال، وإنما المستعمل في الكلام: نصراني، ونصرانيّة بياء النسبة؛ وهم أتباع المسيح عليه السلام. والنصرانية هي الديانة التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام.

ويقول الإمام الشهرستاني: النصارى أمة عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته عليه السلام، وهو المبعوث حقاً بعد موسى عليه السلام.

والنصرانيّ هو من تعبد بدين النصرانية، وسُمّوا بهذا الاسم نسبة إلى قرية الناصرة بفلسطين من أرض الجليل التي بعث فيها المسيح والتي انطلق منها يبلغ دين الله إلى الناس، ومن ثم أطلق على المسيح يسوع الناصري.

وقيل: سُمّوا نصارى؛ لأنهم نصروا المسيح، فقد جاء في تفسير الألوسي: النصارى اسم لأصحاب عيسى عليه السلام، وسموا بذلك لأنهم نصروه، أو لنصر بعضهم لبعض[81].

---

[79] السنهدرين أو السنحدرين أو السنهدريم: كلمة من أصل إغريقي معناها الاجتماع أو المحكمة، وأطلقت على محكمة اليهود، وأفرادها من الصدوقيين ومنهم الكهنة الكبار، وانضم إليهم الفريسيون بصورة لاحقة. وفي مطلع الميلاد كان أعضاؤها يتألفون من واحد وسبعين عضواً، ومن أشهر أعضائها جمالائيل أستاذ بولس، يُنظر: معجم الحضارات السامية، ص 495. وانظر: محمد شاهين، النصرانية، ص 21.

[80] تحريف رسالة المسيح، ص 44.

[81] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص 88.

وهم في الأصل اثنا عشر رجلاً يقال لهم الحواريون، وسيأتي الحديث عن الحواريين لاحقاً بإذن الله.

والتعريف الاصطلاحي للنصارى: هم أتباع ديانة المسيح ابن مريم سواء كانوا متمسكين بديانتهم أو مفرطين[82].

وقد أطلق على أتباع عيسى عليه السلام في القرآن والسُّنة: النصارى، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ **[البقرة: 62].**

وفي السُّنة قوله (ﷺ):«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[83]. ف «ينصرانه» نسبة إلى النصرانية، والمنتسبون إليها يسمّون نصارى[84].

2 . المسيحية:

يسمون النصارى أنفسهم بالمسيحيين نسبة إلى دين المسيح عليه السلام، ويسمون ديانتهم بالمسيحية، ولم ترد هذه التسمية في القرآن ولا السنة، وأول إطلاق هذه التسمية عليهم قيل: في القرن الثالث الميلادي، وقيل: قبل ذلك في عام 42م في أنطاكية، ويرى البعض أن ذلك كان من باب الشتم لهم[85].

ولذلك إنهم فرقة مخالفة للمجتمع الذي ظهر فيه عيسى عليه السلام وأتباعه حيث سيطرة الرومان الوثنيين وعداء اليهود الشديد لعيسى عليه السلام وأتباعه وسعيهم لدى الرومان في قتله، ولذلك فالأولى أن يسموا بما سماهم القرآن (النصارى) [86].

---

[82] سليمان بن عبد الله بن صالح الرومي، دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية، مكتبة الرشد . ناشرون، الرياض، ط1، 1428هـ 2007م، 17/1.

[83] أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، رقم 1385.

[84] دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية، المرجع السابق، 17/1.

[85] المرجع نفسه، 17/1.

[86] دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية، 18/1.

3 . لماذا لقب عيسى بالمسيح؟

لما أراد الله خلق عيسى عليه السلام، أرسل جبريل عليه السلام إلى مريم عليها السلام يبشرها بذلك، وذكر لها أن الله سيجعلها تنجب ولداً اسمه عيسى ولقبه المسيح، وذكر لها بعض صفاته وهذا قبل النفخ فيها وحملها به. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ **[آل عمران: 45-46]** ، فاسمه عيسى، ولقبه المسيح وصفته أنه ابن مريم عليهما السلام.

وعيسى اسم علم أعجمي، ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، ويسميه النصارى (يسوع) ومعناها عندهم المخلِّص، ونحن نستخدم الاسم الذي سماه الله به، والذي أخبرنا عنه في القرآن، ولقب عيسى عليه السلام هو (المسيح)، وذكر هذا اللقب إحدى عشر مرة في القرآن الكريم، وهو على وزن فعيل مشتق من المسح، وذهب بعضهم إلى أن مسيح بمعنى اسم الفاعل (ماسح)، بينما ذهب آخرون إلى أنه بمعنى اسم المفعول (ممسوح)، فما معنى هذا اللقب؟ ولماذا لقب عيسى عليه السلام به، سواء كان بمعنى اسم الفاعل (ماسح) أو كان بمعنى اسم المفعول (ممسوح)[87].

قال الإمام الراغب الأصفهاني: المسح: إمرار اليد على الشيء، وإزالة الأثر عنه[88]. وقيل: سمي عيسى عليه السلام مسيحاً لكونه ماسحاً في الأرض، أي ذاهباً فيها، وقيل: سمي مسيحاً لأنه كان يمسح ذا العاهة فيبرأ[89].

وقال بعضهم: عيسى ابن مريم هو المسيح؛ لأنه مسحت عنه القوة الذميمة من الجهل والشره والحرص وسائر الأخلاق الذميمة[90].

---

[87] صلاح الخالدي، مواقف الأنبياء من القران، دار القلم، دمشق، ط1، 2010م، ص 377.

[88] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القران، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق /الدار الشامية، بيروت، ط1، 1412هـ، ص 767 . 768.

[89] مواقف الأنبياء من القران، ص 378.

[90] المفردات في غريب القران، ص 767 . 768.

فإذا كان (المسيح) بمعنى اسم الفاعل (ماسح) فإن عيسى عليه السلام لقب به لأنه كان يمسح الأرض بالسياحة والسير فيها، أو لأنه كان يمسح بيده على المريض فيبرأ، وإذا كان (المسيح) بمعنى اسم مفعول (ممسوح)، فإنه لقب به لأن الله مسحه بالبركة[91].

فكان ممسوحاً مباركاً، ونرى أن لقبه جمع بين اسم الفاعل واسم المفعول ويكون صيغة مبالغة على وزن (فعيل).

- من المعاني الممسوح الأخمص من القدم، أي: أن قدمه مخموصة قطعة واحدة وليس فيها التجويف الداخلي في القدم.
- من المعاني: الذي مسحة من الجمال، ولذلك قال النبي (ﷺ) عن جرير بن عبد الله «كأن فيه مَسْحَةٌ من مَلَك»[92].
- أما معنى المسيح عند النصارى فهو المكرّس للخدمة والفداء، «سُمّي يسوع المسيح؛ لأنه معززٌ ومكرسٌ للخدمة والفداء، ووعد بمجيئه حالاً بعد السقوط[93]».

ونسب عيسى عليه السلام إلى أمه مريم (عيسى ابن مريم)؛ لأنه لا أب له، وذلك للرد على مزاعم النصارى حول تأليه عيسى عليه السلام، فهم يقولون: عيسى ابن الله، والقرآن يكذبهم قائلاً لهم: إنه ابن مريم، وأمه تعرفونها عن يقين، فكيف ابن الله؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً[94].

4 . الفرق بين المسيحي والنصراني:

إنَّ المتأمل من كتابات الدارسين للنصرانية والمسيحية يدرك أن ثمة إجماعاً بوجود فرق جوهري بين المسيحي والنصراني، لكن الاختلاف بين المهتمين بقوة المسألة يبدأ عند تحديد التسمية التي تصدق على الأتباع الحقيقيين لنبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام. ويمكن حصر الموقف

---

[91] مواقف الأنبياء من القران، ص 378.

[92] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (19180).

[93] قاموس الكتاب المقدس، ص 860.

[94] مواقف الأنبياء من القران، ص 379.

من المسألة في اتجاهين:

الاتجاه الأول: يرى أصحاب هذا الاتجاه أن «النصارى هم الأتباع الحقيقيون لنبي الله عيسى عليه السلام، ويستدلون بشهادة القرآن الكريم عند قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ **[آل عمران: 45-46]**.

فقد سمّى القرآن الكريم بنص هذه الآية من استجاب لدعوة المسيح عليه السلام ونصره وازره بالنصارى[95].

وتقوية للحجة يلفت أصحاب هذا الاتجاه الانتباه إلى مسألة مفادها: أن أهل الإنجيل يفضلون صفة النصراني على المسيحي حتى إنك لا تكاد تجد في الإنجيل نصاً يسمي أتباع السيد المسيح بالمسيحيين، بل لا تجد ذكراً إلا (للنصارى) باعتبارهم يمثلون أنصار عيسى عليه السلام وأتباعه الحقيقيين[96].

الاتجاه الثاني: ينطلق أصحاب هذا الاتجاه للاستدلال على أن المسيحيين هم أتباع السيد المسيح حقاً من الدّلالات اللغوية للفظة المسيح، فالمسيحي لغة تتضمن معاني الانتساب للسيد المسيح عليه السلام، كما أن فريقاً من القسيسين يفضلون اسم المسيحي على النصراني، وقد صرح القسّ حموئيل مشرقي أنه من نكد الدنيا على المسيحيين أن أطلق عليهم منذ الفتح الإسلامي اسم نصارى على خلاف الحقيقة، ثم بين أن اسم نصارى يطلق على فرقة من اليهود امنت بعيسى عليه السلام على أنه رسول المسيح المنتظر لا أنه المسيح المنتظر، أما المسيحيون فهم الذين ـ حسب قوله ـ آمنوا بعيسى على أنه الإله، أو ابن إله[97].

والكلمة الحق في النصرانية هي ما جاءنا من الله عز وجل في كتابه القرآن الكريم، فنجد أن

---

[95] د. نور الدين عادل، مجادلة أهل الكتاب في القران الكريم والسنة النبوية، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 2007م، ص 88.

[96] المرجع السابق، ص 88.

[97] د. نور الدين عادل، مجادلة أهل الكتاب في القران الكريم والسنة النبوية، ص 90.

الله عز وجل سمى أتباع المسيح عليه السلام:

حواريين: قال تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ **[الصف: 14]**.

مؤمنين من النصارى: قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ **[المائدة: 82-83]** [98].

* * *

[98] المرجع السابق، ص 91.

المبحث الثاني

حديث القرآن الكريم عن عيسى عليه السلام

إنّ عيسى عليه السلام نبي الله هو من أولي العزم من الأنبياء، كما ذكره القرآن الكريم، معجزة بحد ذاته، منذ أن حملت به والدته البتول مريم إلى ولادته وفي حياته كاملة، حيث كان مولده آية ربانيّة ورحمة إلهيّة للبشر أجمعين، وقد ضلّ أقوام عن الهدى وانحرفوا عن منهج الله تعالى وعقيدة التّوحيد، فظنّوا بعيسى عليه السّلام ما ليس فيه ولا يليق به من الصّفات الإلهيّة، فتارة يقولون أنّ الله هو المسيح ابن مريم، وتارة يقولون أنّه ابن الله عز وجل، وتارة أخرى أنّه ثالث ثلاثة، تعالى الله وتنزّه عما يقولون ويفترون، لذلك تناول القرآن الكريم وفي مواطن كثيرة الحديث عن عيسى عليه السّلام.

وقد يتساءل الإنسان بصرف النظر عن ملّته أو نحلته: كيف نجعل القرآن الكريم والسنة التي تعدُّ مكمِّلة وموضِّحة له، ومصدراً للحديث عن دعوة نبي الله عيسى عليه السلام، وقد أنزل عليه كتاب كما أنزل القرآن؟

هناك عدة عوامل وأسباب تبرز ذلك وتسوّغه، أذكر منها:

1 . أن الله جل وعلا قد وصف هذا الكتاب بأنه مصدِّق لما قبله من الكتب ومهيمناً عليه كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ **[المائدة: 48]**، ويقول في حق رسوله (ﷺ): ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ **[النجم: 3-4]**.

2 . من الناحية التاريخية نجد أن التاريخ لا يسعفنا بالمعلومات الأساسية المؤكدة عن دعوة المسيح عليه السلام؛ وذلك لأسباب عدة منها بُعد العهد واضطراب الروايات التاريخية، بل من المؤكد أن لتدخل العنصر البشري دوراً في هذا حتى اختلط الحابل بالنابل، وتعسر تمييز الطيب من الخبيث، والحق من الباطل.

3 . أن الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام لا وجود له اليوم حتى في الأوساط النصرانية، فكيف نحد عن وحي سماوي وهو القرآن الكريم إلى مؤلفات بشرية، وهي الموسومة اليوم بالأناجيل؟

4 . أن القرآن الكريم مع السنة النبوية الصحيحة في الحقيقة وحدهما المصدران . علمياً وتاريخياً . اللذان صورا لنا بدقة عالية تاريخ الرسالات الإلهية كلها من أول الأنبياء آدم عليه السلام وحتى اخرهم وخيرهم محمد (ﷺ)، بل ليس في الوجود . على الإطلاق . كتاب إلهي أو بشري له من الاحترام العلمي القائم على التواتر وحفظ النصوص وسلامتها غير هذا الكتاب العظيم[99]. الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تولى حفظه من لا يؤوده حفظ السماوات والأرض سبحانه وتعالى.

وأما الأناجيل التي يعترف بها النصارى اليوم، فليس لها حظ من الثقة التاريخية، ولا نصيب من الاحترام العلمي اللازم بسبب ما شوهها من الاختلافات والتناقضات والأخطاء العلمية والتاريخية، وسيأتي في هذه الدراسة ضرب أمثلة لكلها إن شاء الله.

5 . إن هذه الأناجيل قد تعرضت لانتقادات عنيفة قديماً وحديثاً، سواء ممن أسلموا من النصارى أو من الذين بقوا على نصرانيتهم ولم يرضوا بغيرها ديناً، فمن الصنف الأول المستشرق الفرنسي (ألفونس إتيان دينيه) [100]الذي قال: أما أن الله قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة قومه، فالذي لا شك فيه أن هذا الإنجيل قد ضاع واندثر ولم يبق له أثر أو أنه قد أبيد[101].

ومن الصنف الثاني (الدكتور نظمي لوقا) حيث يقول: وأعني بالمسيحية هنا ما جاء به المسيح عليه السلام من نصوص كلامه لا ما ألحق بكلامه وسيرته من التأويل[102].

6 . نجد أن للقران الكريم مكانته العلمية حتى في الأوساط النصرانية، فنجدهم يقرّون . مع

---

[99] متولي يوسف شلبي، أضواء على المسيحية، الدار الكويتية للطباعة والنشر، الكويت، ط1، 1388هـ/1968م، ص 17.

[100] ألفونس إتيان دينيه: رسام ومستشرق فرنسي، أسلم في الجزائر عام 1913م، وأصبح اسمه ناصر الدين دينيه، وتوفي عام 1929م.

[101] ناصر الدين دينيه، أشعة خاصة بنور الإسلام، المكتب الفني، 1960م، ص 51.

[102] نظمي لوقا، محمد الرسالة والرسول، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط1، 1959م، ص 58.

كفرهم به ـ بجودة مصدريته، ودقة أخباره، وبتواتره المنقطع النظير، وخلوه مما اتسمت به كتبهم من التناقض والأخطاء والتغيير والتبديل والإضافة والحذف.

يقول إميل درمنغم[103]: «وللمسيح في القرآن مقام عالٍ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس وهو رسول الله الذي خاطب الله جهراً عن مقاصده، والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول إن عيسى كلمة الله أو روح الله ألقاها إلى مريم، وأنه من البشر، فهو يذم مذهب القائلين بطبيعة واحدة في المسيح، ومذهب القائلين بألوهية المسيح وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية لا النصرانية الصحيحة» [104].

ويقول واشنطن إيرفنغ[105]:«كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه، حتى إذا ظهر المسيح اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل ثم حلَّ القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل» [106].

فعلى ضوء ما تقدم نخلص إلى حقيقة علمية ثابتة، وهي أنه لا يوجد مصدر آخر ـ غير القرآن الكريم مع السنة النبوية الصحيحة ـ يمكن الوثوق به فيما نحن بصدده.

وأما الروايات التاريخية المضطربة سواء في داخل الأناجيل أو خارجها فلا يمكن اعتبارها أو الاستناد إليها في هذا المقام، وهذا ما أكده بعض علماء التاريخ من غير المسلمين فقالوا: ظاهرة عيسى عليه السلام لم تثر انتباه المؤرخين المعاصرين له، مما يجعل ـ من وجهة نظر تاريخية ـ أي سيرة تكتب عنه تجميعاً هامشياً لأحداث ومعطيات متناقضة، تحيط بفراغٍ لا يكاد يسكنه سوى ظل يكاد لا يدرك[107].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الآيات القرآنية التي تتحدث عن النصرانية ونبيها وكتابها عموماً،

---

[103] إميل درمنغم:مستشرق فرنسي، عمل مديراً لمكتبة الجزائر لفترة من الزمن، وله مؤلفات عديدة.

[104] إميل درمنغم، حياة محمد (ﷺ)، تحقيق عال زعيتر، دار العالم العربي، ط3، 2016م، ص 131 ـ 132.

[105] واشنطن إيرفنغ:مستشرق وكاتب قصصي أمريكي، عدّه بعضهم أبا الأدب الأمريكي، وكانت وفاته عام 1859م.

[106] واشنطن إيرفنغ، حياة محمد، ترجمة وتعليق: علي حسن الخربوطلي، دار المعارف، مصر، ط1، 1960،ص 69.

[107] الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، ص 23.

لا تتجاوز مائتين وعشرين آية، أي ما يمثل 3,5 % من مجموع الآيات القرآنية، خلافاً لما يتوهمه كثير من كتاب النصارى من أن غرض القرآن الأساسي هو مهاجمة العقائد النصرانية أو تضليل النصارى، بل إن هذا العدد المذكور إنما ورد في ثمان وعشرين سورة فقط بعضها لا يحتوي أكثر من آية أو ايتين، مع وجود تماثل بين بعضها والبعض الاخر[108].

7 . مواضع ذكر عيسى عليه السلام وأمه في القرآن الكريم:

لا يوجد كتاب على وجه الأرض منح السيد المسيح عليه السلام وأمه البتول وعائلته الكريمة تكريماً وتبجيلاً أعظم من القرآن الكريم، بل إن تكريم القرآن الكريم للمسيح وأمه وعائلته يفوق بلا شك تكريم كل من التوراة والإنجيل الموجودين حالياً، وكان القرآن الكريم بالإضافة إلى هذا التكريم هو المصحح للأخطاء والاتهامات والافتراءات الباطلة التي كانت توجه إلى السيد المسيح وأمه الطاهرة على ألسنة اليهود والمسيحيين أنفسهم.

ففي القرآن الكريم توجد سورة آل عمران، وهي اسم عائلة المسيح عليه السلام، ولفظة (آل) كلمة تخاطب بها العائلات الكريمة الطيبة، وهذه السورة هي ثاني أطول سورة في القرآن الكريم وهناك سورة أخرى باسم مريم، وهو اسم السيدة العذراء، والدة المسيح عليهما السلام على حين أنه لا يوجد في القرآن الكريم اسم لعائلة نبي الإسلام محمد (ﷺ)، إذ لا توجد سورة تحمل اسم (بني هاشم) أو (بني عبد المطلب) ولا توجد سورة تحمل اسم (آمنة بنت وهب) والدة الرسول الكريم(ﷺ)[109].

إن الوثيقة التاريخية الوحيدة الصادقة التي لا يعتريها اللبس ولا الغموض ولا التحريف، وتتمتع بمصداقية مطلقة ما جاء من حديث واضح وقصة صادقة عن عيسى عليه السلام وأمه وعائلته وعقيدته ودعوته وأنصاره وقومه وحقيقته في القرآن الكريم.

وسيتبين لك من الاستعراض العلمي المؤيد بالدليل والبرهان والحجة أوجه الإعجاز الإنبائي والتاريخي والتربوي والعلمي في سرد القرآن الكريم لعدد من المواقف المجددة من سيرة عبد الله

[108] عبد الرزاق عبد المجيد، مصادر النصرانية دراسة ونقداً، دار التوحيد للنشر، الرياض، ط1، 2007م، ص 49 . 53.

[109] بسام عجك، الحوار الاسلامي المسيحي المبادئ التاريخ الموضوعات الأهداف، دار قتيبة للطباعة، دمشق، ط1، 1418هـ 1998م، ص 72.

ونبيه عيسى ابن مريم عليه السلام.

وهذه المواقف تشهد للقران الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، كما تشهد لرسول الله (ﷺ)، بأنه لا يمكن أن يكون قد استقى هذه الحقائق من كتب العهدين القديم والجديد، وذلك للاختلاف الكبير بين ما جاء عن حقيقة هذا العبد الصالح في تلك المصادر، وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن هناك من الوقائع القرآنية مالم يرد له ذكر في أيّ من كتب العهدين القديم والجديد.

وذلك من مثل معجزة كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد، ونطقه للعبودية الكاملة لله تعالى وتنزيه الخالق العظيم عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله، ومعجزة المائدة التي أنزلها الله تعالى على الحواريين من السماء استجابة لطلبهم ولدعاء المسيح عليه السلام بذلك، ثم معجزة إنقاذه هو من بين أيدي اليهود الذين لم يمكنهم الله تعالى من تعذيبه أو إهانته أو إذلاله وإهدار كرامته كما تصف الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى اليوم. فالقرآن الكريم يؤكد أن الله تعالى رفع عبده عيسى إليه لحين عودته الثانية إلى الأرض ليكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويصلي وراء إمام المسلمين، كما أخبر بذلك المصطفى (ﷺ)[110].

وهذا وجه من أوجه الإعجاز الإنبائي والتاريخي في كتاب الله لا نجده في كتاب غيره[111].
هذا وقد ورد اسم عيسى عليه السلام خمساً وعشرين مرة في القرآن، وورد اسم أمه مريم رضي الله عنها أربعاً وثلاثين مرة في القرآن، ثلاثاً وعشرين مرة مقرونة باسم عيسى (عيسى ابن مريم)، وإحدى عشرة مرة مجردة عن عيسى عليه السلام[112].

مواضع ذكر مريم عليها السلام في القرآن الكريم:

ورد اسم مريم مجرداً عن عيسى عليه السلام في سورة آل عمران ست مرات أثناء الحديث

---

[110] البخاري، كتاب المظالم، رقم 2476.

[111] زغلول النجار، الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القران الكريم، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2013م، 894/2.

[112] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشق، ط1، 1419هـ 1998م، 164/4.

عن ولادتها وكفالة زكريا عليه السلام لها، ومخاطبة الملائكة لها، وتبشيرها بعيسى عليه السلام.

وورد اسمها مجرداً في سورة النساء مرتين في سياق ذم اليهود لكفرهم واتهامهم لمريم، وفي تقرير حقيقة كون عيسى كلمة الله، ألقاها إلى مريم.

وسورة مريم التي حملت اسمها تحدثت بالتفصيل عن قصة بشارتها وحملها لعيسى عليه السلام ورد اسمها مجرداً مرتين فيها، من بداية عرض قصتها، عندما أتت قومها تحمل ابنها، فاستغربوا ذلك منها وأنكروه عليها.

وورد اسمها في سورة التحريم مرة واحدة منسوبة إلى أبيها (مريم ابنة عمران) في مقام الثناء عليها لإيمانها وتصديقها وقنوتها.

تحدثت سورة آل عمران عن بداية قصة مريم رضي الله عنها منذ أن حملت أمها بها، ونذرت أن يكون ما في بطنها لله وتقبلها الله ورعاها، وقد أختلف الصالحون فيمن يكفلها وهي الطفلة الصغيرة فألقوا أقلامهم مقترعين، فكانت من نصيب زكريا عليه السلام زوج أختها، وتكفل زكريا بها ونشأت فتاة مؤمنة صالحة في كفالته وكان الله يكرمها برزق مستمر عندها، وسألها زكريا عن مصدره وسط استغرابه فأجابت بأنه من عند الله فدعا ربه أن يرزقه غلاماً.

وقد ورد هذا في آيات (35 . 38) من السورة، وسيأتي شرحه وتفصيله في حينه بإذن الله.

ثم تحدثت آيات السورة عن تبشير الملائكة مريم رضي الله عنها، بأن الله قد اصطفاها على نساء العالمين وعليها أن تقنت وتركع وتسجد لله وبشرتها الملائكة أيضاً بأن الله سيهبها ابنها عيسى عليه السلام وسيجعله نبياً رسولاً، ولما استغربت مريم من ذلك أخبرتها الملائكة بأن هذا أمر الله والله يخلق ما يشاء.

وقد ورد هذا في آيات (42 . 48) من السورة.

وتحدثت سورة مريم عن حمل مريم بعيسى عليه السلام، وبدأت الآيات بلقطة ابتعاد مريم عن أهلها نحو الشرق، فلما كانت بعيدة عنهم وحيدة أرسل الله لها جبريل عليه السلام، فتمثل

أمامها رجلاً بشراً سوياً، وصارحها بأنه رسول من الله ليهبها غلاماً زكياً، فاستغربت وسألت عن كيفية إنجابها الولد وهي الفتاة العذراء العفيفة، فأخبرها أن هذا أمر الله ونفخ جبريل فيها فحملت بعيسى ووضعته تحت نخلة ووجَّهَها إلى أكل الرطب، وشرب الماء والصيام عن الكلام وحملت ابنها وذهبت إلى قومها ففوجئوا بابنها، ولما سألوها عنه، أشارت إليه، فالجواب عنده، فازداد استغرابهم وبلغت دهشتهم ذروتها عندما سمعوه يتكلم ويقدم نفسه إليهم ويخبرهم أنه عبد الله، وأنه سيكون رسولاً.

وقد ورد هذا في آيات (16 ـ 34) من السورة.

وحديث القرآن عن مريم رضي الله عنها في السور الأخرى إشارة سريعة، فمعظم قصة مريم كانت في سورتي آل عمران ومريم[113].

مواضع ذكر عيسى عليه السلام في القرآن الكريم:

أما عيسى ابن مريم عليه السلام فقد كان الحديث عن قصته في سور: مريم وآل عمران والمائدة والنساء والصف والحديد والزخرف.

ـ في سورة مريم تداخل الحديث عنه مع الحديث مع أمه رضي الله عنها، وكأن القصتين قصة واحدة، الآيات (16 ـ 34)، وعقبت الآيات على ذلك بتقرير وحدانية الله، وأنه ليس له صاحبة ولا ولد، الآيات (34 ـ 40).

ـ في سورة آل عمران ورد اسم عيسى عليه السلام خمس مرات، وتداخلت قصته مع قصة أمه أيضاً، حيث بشَّرت الملائكة مريم بعيسى، وذكرت بعض صفات عيسى ورسالته إلى بني إسرائيل، وبعض آياته ومعجزاته لهم، ولما كذبه بنوا إسرائيل آمن به أتباعه الحواريون ولما كان عيسى في خطر مباشر عصمه الله منه ورفعه إليه، وذلك في الآيات (48 ـ 57). وانتقلت آيات السورة بعد ذلك إلى جدال النصارى وإقامة الحجة عليهم، وتعليم الرسول (ﷺ) ما يقوله

---

[113] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 164/4.

لهم في محاجته لهم، لإفحامهم وإبطال كفرهم، وذلك في الآيات (58 ـ 74).

ـ أما آيات سورة المائدة، فقد تكفلت بنقاش النصارى بشأن عيسى عليه السلام في مواضع عديدة من السورة، وفي حديثها عن قصة عيسى عليه السلام، عرضت مشهد المائدة التي أنزلها الله عليه وعلى الحواريين في الآيات (112 ـ 115)، وعرضت آيات السورة مشهداً من مشاهد يوم القيامة يذكر الله فيها عيسى عليه السلام بفضله عليه، ويتبرأ فيه عيسى من عبادة النصارى له في الآيات (109 ـ 111 ـ 116 ـ 120) [114]. وقد ورد اسم عيسى عليه السلام في السورة ست مرات.

ـ تحدثت آيات سورة النساء عن سوء موقف اليهود من عيسى عليه السلام، حيث افتروا على أمه مريم وأرادوا قتل عيسى عليه السلام وصرحت الآيات بأن الله عصمه منهم وأنهم ما قتلوه ولا صلبوه وإنما شبه لهم، ولقد رفعه الله إليه، وسيؤمن أهل الكتاب به قبل موته، وأثنت الآيات على الراسخين في العلم من مؤمني أهل الكتاب المتبعين لمحمد (ﷺ)، وقد ورد هذا في الآيات (156 ـ 162)، وورد اسم عيسى عليه السلام في السورة ثلاث مرات.

ـ أشارت آيات سورة الصف إلى عيسى عليه السلام مرتين؛ مرة في تبليغه الدعوة لبني إسرائيل وتكذيبهم له في الآية (6)، ومرة في انحياز الحواريين له ونصرتهم لدينه في الآية (14).

ـ أشارت سورة الحديد إلى رسالة عيسى عليه السلام وإلى ابتداع الرهبان الرهبانية من بعده في الآية (27).

ـ أشارت سورة الزخرف إلى نبوة عيسى عليه السلام وعبوديته، وقد ردَّت على النصارى في عبادتهم له في الآيات (57 ـ 65).

وما سوى هذا كان حديث بعض السور مجرد ذكر اسم عيسى عليه السلام ضمن الأنبياء، أو ذكر شريعته ورسالته، وقد ورد اسمه في سورة البقرة ثلاث مرات، وفي سورة الأنعام مرة، وفي

[114] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 166/4.

سورة الأحزاب مرة، وفي سورة الشورى مرة.

من خلال هذا العرض الموجز نرى أن القرآن لم يتحدث عن عيسى عليه السلام إلا من خلال حمل أمه به وولادتها له، وهذا في سورتي آل عمران ومريم، ومن خلال دعوته لبني إسرائيل وسوء استقبالهم له حيث لم يتبعه إلا الحواريون، وهذا في سورة آل عمران والمائدة والصف، ومن خلال تخطيط اليهود لقتله، لكن الله حماه منهم وهذا في سورة النساء، ومن خلال عرض مشهد لساحة العرض هي الاخرة يتبرأ فيه عيسى من عابديه النصارى وهذا في سورة المائدة. وما سوى هذا هو نقاش للنصارى، وإبطال لكفرهم بالله وتأليههم لعيسى عليه السلام، وإثبات أنه عبد الله ورسوله، وكان النقاش والجدال في سورتي آل عمران والمائدة على وجه الخصوص[115].

هذا وقد أورد القرآن وصف عيسى عليه السلام أحياناً، وهو (المسيح)، وأحياناً يورد (المسيح) مجرداً، وأحياناً يورده مقروناً باسم أمه (المسيح ابن مريم). حيث وردت كلمة المسيح إحدى عشرة مرة في القرآن الكريم:

. في آل عمران مرة.

. وفي النساء ثلاث مرات.

. وفي المائدة خمس مرات.

. وفي التوبة مرتان.

هذه هي مواضع ذكر عيسى عليه السلام وأمه مريم في القرآن الكريم.

أولاً: عائلة المسيح عليه السلام في القرآن الكريم:

1 . من هم آل عمران؟ ولماذا ذكروا في الآية:

[115] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 167/4.

مريم هي ابنة عمران بنص آيات القرآن الكريم:﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ **[التحريم: 12]**، وورد اسم (عمران) ثلاث مرات في القرآن الكريم:

— الأولى: (آل عمران) في قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدم وَنُوحًا وَآل إبراهيم وَآل عمران عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ **[آل عمران: 33-34]**.

— الثانية: (امرأة عمران) والد مريم في قوله تعالى:﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ **[آل عمران: 35]**.

— الثالثة: (ابنة عمران) في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ **[التحريم: 12]**.

فمن هم آل عمران الذين ورد ذكرهم في السورة الثالثة ـ حسب ترتيب المصحف ـ التي حملت اسمهم آل عمران؟

2 ـ من هو عمران الأول؟ ومن هو عمران الثاني؟

هناك شخصان من بني إسرائيل، كل منهما اسمه (عمران)، وبينهما فترة زمنية طويلة تمتد عدة قرون.

عمران الأول: هو عمران والد نبي الله موسى ونبي الله هارون عليهما السلام.

والدليل على أن والد موسى اسمه عمران ما أخرجه الحاكم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي (ﷺ) قال: «موسى بن عمران صفيُّ الله» [116]، وما أخرجه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ) : «مررت ليلة أسري بي على موسى بن عمران عليه السلام» [117]، فنسب رسولنا(ﷺ) موسى عليه السلام إلى أبيه عمران.

وقد أشار القرآن إلى أسرة عمران الأول: امرأته وتصرفها عندما أنجبت ابنها موسى، وابنته

[116] أخرجه الحاكم في المستدرك، 576/2.

[117] أخرجه مسلم، رقم 165. وانظر: الأحاديث الصحيحة، رقم 182.

التي أمرتها بمراقبة تابوت أخيها موسى، وهارون شقيق موسى فهؤلاء الخمسة الصالحون هم أفراد أسرة عمران، ولا ندري هل كان لعمران أولاد غير المذكورين في القرآن أم لا؟

. عمران الثاني: هو والد مريم رضي الله عنها. حيث أشار القرآن إلى حمل امرأته بمريم ونذرها لله، كما أشار إلى شقيق لمريم اسمه (هارون) وهو غير هارون النبي شقيق موسى عليه السلام وسنتحدث عنه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وذكر رسول الله (ﷺ) أن عيسى ويحيى عليهما السلام هما أبناء الخالة، وهذا معناه أن زكريا عليه السلام كان متزوجاً أخت مريم.

وهذا معناه أن أسرة عمران الثاني المذكورة في القرآن والحديث مكونة من خمسة أشخاص أيضاً، عرفنا أسماء ثلاثة منهم وهم عمران الأب، وهارون الابن، ومريم الابنة، أما اسم امرأة عمران وابنته الأخرى فهذا من مبهمات القرآن.

وإذا كان عمران الأول قد عاش في مصر زمن الفراعنة في بداية تاريخ بني إسرائيل، فإن عمران الثاني قد عاش في بيت المقدس في آخر تاريخ بني إسرائيل وبينهما عدة قرون[118].

3. من هم آل عمران الذين اصطفاهم الله على العالمين؟

من هم آل عمران الذين اصطفاهم الله على العالمين؟ هل هم آل عمران الأول والد موسى أم هم آل عمران الثاني والد مريم؟

ذهب بعض العلماء إلى أن (آل عمران) هم ذرية موسى وهارون ابني عمران الأول عليهما السلام، اللذين ظهر منهما معظم أنبياء بني إسرائيل.

وذهب آخرون إلى أن (آل عمران) هم مريم وابنها عليه السلام وأمها وأخوها رضي الله عنهم.

[118] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 168/4.

. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدم وَنُوحًا وَآل إبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ **[آل عمران: 33-34].**

يبين سبحانه وتعالى وحدة الإنسانية التي ماكان يسوغ معها خلاف إلا ممن ضل سبيل الهداية ووحدة النبوة والرسالة الإلهية التي وحدت بها شريعته تعالى، وماكان يسوغ بعد هداية الله تعالى خلاف إلا إذاكان الضلال، ثم بين سبحانه من يجتبيهم ومن يصطفي ويحب من عباده وكيف يحبونه هم ويخلصون لذاته العلية بأن يسلموا وجوههم له سبحانه وتعالى ويحررون أولاده لعبادة الله تعالى[119].

قال الإمام ابن كثير في التفسير: يخبر الله أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم عليه السلام، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه الجنة، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة، واصطفى نوحاً عليه السلام، وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض، واصطفى آل إبراهيم، ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد (ﷺ)، واصطفى آل عمران، والمراد بعمران هذا هو والد مريم ابنة عمران، أم عيسى عليه السلام[120].

وآل عمران اصطفاهم الله وهم من آل إبراهيم، ولكنهم خُصُّوا بالذكر من باب ذكر الخاص بعد العام تشريفاً وتكريماً، ولأن السياق سوف ينتقل إلى الحديث عنهم بشيء من التفصيل[121].

كان عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمنه، وكان رجلاً صالحاً، وكانت له زوجة صالحة طيبة طاهرة خيرة تقية وفية مطيعة لزوجها ومطيعة لربها، وكان من نتاج هذا الزواج المبارك، إكرام المولى عز وجل لهم بمريم عليها السلام[122].

. ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾: أي عالم، أي: اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه، وقد

---

[119] محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، القاهرة، 2008م، 1192/3.

[120] زهرة التفاسير، 597/4.

[121] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2001م، ص 597/2.

[122] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 597/2.

فضلهم بما آتاهم من النبوة والكتاب في معظمهم وفي مريم: بحملها وولادتها من غير مماسة بشر، مع طهارتها وانقطاعها لعبادة ربها وإمدادها في مصلاها برزق الله في غير أوانه، واختيارها أن تكون أماً لعيسى الذي شاء الله أن يكون بغير أب[123].

. ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *﴾؛ أي ذرية يشبه بعضها بعضاً في الخير والفضيلة والنية الصالحة والعمل الصالح والإخلاص والتوحيد التي كانت سبباً في، وهذه الذرية هي التي ذكرها الله في سياق الكلام عن إبراهيم بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ **[الأنعام: 84-87]**[124].

. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *﴾: أي سميع لأقوال، عليم بضمائرهم وأفعالهم، يصطفي من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلاً، وسميع لكل قول مجيب لصالح الدعاء وخالص الرجاء، عليم بأحوال العباد مطلع على مكنون الفؤاد. وفي الآيتين توجيه وإرشاد إلى وجوب اتباع الأنبياء والاقتداء بهم والسير على طريقهم ففيه الصلاح والفلاح[125].

4 . ولادة مريم:

. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ **[آل عمران: 35-36]**.

ذكر الله نشأة عيسى ببيان نشأة أمه، بياناً لبطلان ما يعتقده النصارى فيه من أنه ابن الله

[123] عبد الله شحاته، تفسير القران الكريم، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000م، 1557/2.

[124] المرجع السابق، 1557/2.

[125] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، ص 599/2.

تعالى عن ذلك، وأسلوب القرآن عند رَدِّ وإبطال عقيدة، أن يبين أصلها فينقضه لتُنْقَضَ هي تبعاً. فالجدال في فروع أصولها خاطئة لا يوصل إلى حق، فيزعمون أن عيسى ابن الله، تعالى الله، وعيسى له أم وأمه مريم، ومريم لها أم وأب، ولهما أمهات واباء إلى آدم، فمن أين أتت بنوته لله؟

ولذا ذكر الله الزوجية بين امرأة عمران وعمران، فقال: إشارة إلى الأبوة والأمومة ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ [آل عمران: 35] ، وذكر الله اسم مريم، ولم يذكر اسم أمها، لأن نسب عيسى يرجع إلى مريم ثم أبيها، لا يرجع إلى أمها، والناس تنسب إلى آبائهم، واسم مريم: حَنَّة، فعيسى هو ابن مريم بنت عمران، ولا يقال: عيسى ابن مريم بنت حنّة، وإنها ذكرت مريم، لأن عيسى نسب إليها لعدم الأب، ولما كان لمريم أب تركت الأم حنة وذكر الأب عمران، ولما كانت أم مريم لا أثر لها في نسب عيسى قال ﴿ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾[126].

وقد ذكر الله الأحوال التي اكتنفت الحمل بالبتول مريم وولادتها وتربيتها، ويلاحظ القارئ أن العبادة والنسك أظلاها وهي جنين في بطن أمها إلى أن بلغت مبلغ النساء، واصطفاها الله لأمر جليل خطير، فأمها وهي حامل بها نذرت ما في بطنها لما تحرك الحمل في أحشائها أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى، منقطعاً لعبادته وخدمة بيت المقدس، والمحرر: هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ولا يشغله شاغل عن عبادة الله تعالى[127].

فقد أرادت امرأة عمران أن يكون ما في بطنها منذوراً لله، موقوفاً على عبادة الله خالصاً لدين الله، محرراً من كل قيد يقيّده في هذه الحياة، وأرادت لمولودها أن يحقق الحرية الحقيقية، وذلك بتحريره من قيود الذل والاستعباد المعنوي وأن لا يتقيد بالأهواء والشهوات والملذات، وأن لا تستعبده الدنيا وما فيها، وأن لا ينشغل بما فيها عما أوجبه الله عليه وكلفه به، وأن يستعلي على كل القيود التي تقيده وتعيق عبادته.

فإن كان المؤمن هكذا فهو الحر المحرر الخالص لله، وإن لم يكن كذلك فهو عبد الدنيا

---

[126] عبد العزيز الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القران، مكتبة دار المنهاج، الرياض، ط1، 2017م، 582/2.

[127] القرطبي، الجامع لأحكام القران، مؤسسة الرسالة، بيروت. لبنان، ط1، 1427هـ 2006م، ص 66/4.

والشهوة وأسير الهوى والضرورة[128].

وهذه القصة عن جدة عيسى عليه السلام من أمه تكشف لنا عن قلب (امرأة عمران) أم مريم، وما يعمره من إيمان ومن توجه إلى ربها بأعز ما تملك، وهو الجنين الذي تحمله في بطنها خالصاً لربها، محرراً من كل قيد ومن كل شرك، ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه، والتعبير عن الخلوص المطلق بأنه تحرر تعبير موحٍ، فما يتحرر حقاً إلا من يخلص لله كله ويفرّ إلى الله بجملته وينجو من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل قيمة، فلا تكون عبوديته إلا لله وحده فهذا هو التحرر إذن، وما عداه عبودية وإن تراءت في صورة الحرية.

فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء ما في ذات نفسه أو في مجريات حياته أو في الأوضاع والقيم والقوانين والشرائع التي تصرف هذه الحياة، لا تحرر وفي قلب الإنسان تعلق أو تطلع أو عبودية لغير الله وفي حياته شريعة أو قيم أو موازين مستمدة من غير الله. فالصورة الوحيدة للتحرر هي تحقيق التوحيد والعبادة الخالصة لله، كما بينت جدة عيسى عليه السلام في مناجاته ودعائها للسميع العليم.

وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران، بأن يتقبل ربها منها نذرها . وهو فلذة كبدها . ينمّ عن التوجه الخالص لله وبكليتها والتحرر من كل قيد، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه، ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ **[آل عمران: 35]** [129].

- ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ **[آل عمران: 35]**؛ السميع، المجيب لصالح الدعاء والعليم بكل قصد وفعل[130].
- ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾؛ لتضرعي ودعائي .
- ﴿الْعَلِيمُ *﴾؛ بما في ضميري وقلبي .

---

[128] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 175/4.

[129] سيد قطب، في ظلال القران، دار الشروق للطباعة، القاهرة، ط32، 2003 م، 392/1.

[130] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 601/2.

- . ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾؛ لجميع المسموعات التي من جملتها تضرعي .
- ﴿الْعَلِيمُ *﴾؛ لكل المعلومات التي من زمرتها في ضميري لا غير[131].
- ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾ السميع، العليم بنيتي، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكراً أم أنثى[132].
- يعني أنك أنت يا رب «السميع» لما أقول وأدعو «العليم» لما أنوي في نفسي ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾، لا يخفى عليك سرُّ أمري وعلانيته[133].
- ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾ تسمع دعائي وتعلم نيتي، هذا وهي في البطن قبل وضعها[134].

5 . ولادة امرأة عمران بأنثى:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ **[آل عمران: 36]**. لقد كانت تنتظر ولداً ذكراً، فالنذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للصبيان، ليخدموا الهيكل وينقطعوا للعبادة والتبتل، ولكن ها هي ذي نجدها أنثى فتتوجه إلى ربها في دعاء حزين ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، فهي تتجه إلى ربها بما وجدت وكأنها تعتذر أن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بالمهمة.

. ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ تنهض الأنثى بما ينهض به الذكر في هذا المجال وهذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة مناجاة من يشعر أنه منفرد بربه ويحدثه بما في نفسه وبما بين يديه ويقدم له ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ يملك تقديماً مباشراً لطيفاً، وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم، حال الود والقرب والمباشرة والمناجاة البسيطة العبارة التي

---

[131] المرجع السابق، 601/2.

[132] ابن كثير، تفسير القران العظيم، 16/2.

[133] تفسير الطبري، تقريب وتهذيب، ص 330.

[134] السعدي، تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص 2044.

لا تكلف فيها ولا تعقيد، مناجاة من يحس أنه يحدث قريباً ودوداً سميعاً مجيباً[135].

وقد تحدث العلماء عن معاني عميقة في الآيات السابقة في تفسيرهم لبعض الآيات: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾

. والهدف من هذه الجملة التأكيد على علم الله بما، وعلم الله بما في بطنها عندما نذرت نذرها، وعلم الله بما ستحمل وتضع قبل أن تحمل وتضع.

إن الله هو الذي قدر أن يرزقها أنثى، لحكمة يريدها، وهو العالم بذلك، وعلم الله شامل لكل شيء محيط بكل شيء، يعلم الأشياء قبل وقوعها، ويوجدها وفق علمه بها، فمعنى جملة: الله أعلم بالمولود الذي ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، وأنه أنثى، وأنه جاء على غير ما توقعته وأرادته[136].

. وهي أيضاً ليست من كلام امرأة ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾، وإنما هي تقرير لحقيقة قاطعة أراد الله بيانها في هذا الموضوع، وهذه الجملة خاصة بالسياق الذي وردت فيه، وهو نذر ما في بطن امرأة عمران للعبادة والخدمة والوقف.

والمعنى: ليس الذكر كالأنثى في هذا المجال، لأن خدمة بيت الله، والتفرغ لعبادة الله في بيت الله لا يتساوى فيه الذكر والأنثى، فهو يحتاج إلى مزيد من الجهد، والقوة والجلد والتحمّل والصبر، يبذل فيه صاحبه كثيراً من الطاقة البدنية. وليس الذكر كالأنثى في هذا المجال، فالأنثى قد لا تقدر على أداء ذلك بصورة جيدة، فالذكر أكثر قوة وطاقة وجلداً من الأنثى.

ولا نرى أن تُعمم هذه الجملة لتشمل جميع مجالات ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ بين الرجال والنساء، ولا نرى استنطاق هذه الجملة لتدل على التفضيل المطلق للرجال على النساء في كل شيء.

ولا يوجد نصٌّ صريح في تفضيل الذكور على الإناث تفضيلاً ذكورياً، لذكر أفضل باعتباره

[135] في ظلال القران، 393/1.

[136] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 176/4.

ذكراً من الأنثى لا يوجد نصّ على ذلك، بل القرآن صريح في اعتماد التقوى أساس التفضيل والتفاضل والتكريم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ **[الحجرات: 13]**. أكرمكم عند الله أتقاكم، سواء كان ذكراً أم أنثى، واللطيف في المعنى اللغوي لكل من الذكر والأنثى أنه قائم على أساس التفريق المعنوي بينهما.

إن معنى (الذكر) قائم على الشدة والقوة واليبوسة، ومعنى (الأنثى) قائم على الليونة والنعومة، فالله حكيم في خلق كل من الذكر والأنثى، فلم يجعلهما متماثلان في كل شيء وفي موضوع الشدة والصلابة جعل الذكر أقوى من الأنثى، الذكر هو الأشد والأمتن والأقوى والأصلب، ليؤدي رسالته في الحياة، والأنثى هي الأكثر ليونة وسهولة، هي المتكسرة الرقيقة اللطيفة لتؤدي وظيفتها وتكون مطلوبة مرغوباً فيها، وصدق الله القائل (وليس الذكر كالأنثى)[137].

- و(مريم) اسم الأنثى الوحيد المذكور في ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا﴾، أما النساء الأخريات فإنهن يذكرن بألقابهن وكناهن فيقال: (أم موسى) و(أخت موسى) و(امرأة فرعون) وهكذا[138].

ومعنى (مريم) في لغتهم ـ كما جاء ـ العابدة وهي تتمنى أن تكون وليدتها عابدة خاشعة لرب العالمين وإذا كانت سمتها ساعة ولادتها بهذا الاسم، فهذا يدلُّ على امتلائها ووعيها بالغاية التي تريدها من مولودها منذ أن كانت تحنُّ للولد وتتضرع إلى الله أن يرزقها إياه، ولهذا عجلت وأعلنت اسمها تفاؤلاً وأملاً[139].

وفي هذه التسمية أشارت إلى عزمها على إمضاء نذرها ورجائها أن يكون عند الله مقبولاً، والسعي في التقرب إليه سبحانه وتعالى وإظهار أنها غير راجعة في نيتها، وإن كان ما وضعته أنثى، وأنها وإن لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه[140].

---

[137] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 176/4.

[138] المرجع السابق، 178/4.

[139] فاروق حمادة، اباء وأبناء ملامح تربوية في القران الكريم، دار القلم، دمشق، ط1، 1997م، ص 235.

[140] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 607/2.

- ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ **[آل عمران: 36]** زال الحديث موصولاً عن مناجاة امرأة عمران لربها وتضرعها إليه أن يقبل وليدتها ويجعلها مباركة، ويحفظها من الشيطان الرجيم، فالمولى سبحانه وتعالى خير حافظ، وهو سبحانه أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين، وفي هذه الدعوة التي توجهت بها امرأة عمران لربها إشارة إلى حرصها ورجائها في أن يحفظ الله لها بنتها ويرعاها حتى تشب وتكبر وتكون لها ذرية، ولقد استجاب الله تعالى لها[141].

وعندما ننظر في الآيات التي سجلت دعاء امرأة عمران فإننا ندرك منها صفاء روحها، وعظمة إيمانها وحرارة اتصالها بالله، يظهر ذلك في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ **[آل عمران: 35]**، وفي قوله: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ **[آل عمران: 36]**، و(ذريتها) محصورة في ابنها عيسى عليه السلام، لأن ظاهر السياق القرآني على أن مريم لم تتزوج وأنها أنجبت عيسى بأمر من الله، وعيسى عليه السلام رفع إلى السماء ولم يتزوج، فليس له ذرية ولا نسل.

وقد استجاب الله دعاء امرأة عمران فأعاذ مريم من الشيطان الرجيم، وأعاذ ذريتها ـ ابنها عيسى ـ من الشيطان الرجيم أيضاً[142]، لم يكن للشيطان سبيل لمريم وابنها عيسى، ولم يكن له سلطان عليهما، فحفظها الله من وساوسه ونزغاته، بل إنه لم يمسّ مريم حين ولادتها، ولم يمس عيسى أيضاً حين ولادته، وصرح بهذه الحقيقة رسولنا (ﷺ)[143].

فقد قال (ﷺ):«ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسّ الشيطان غير مريم وابنها»، ثم قرأ أبو هريرة راوي الحديث قول الله ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ **[آل عمران: 36]**[144].

لقد سألت امرأة عمران ربها أن يحفظ الوليدة ابنة الأطهار الأبرار من مكائد الشيطان

---

[141] المرجع السابق، 607/2.

[142] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 179/4.

[143] المرجع السابق، 180/4.

[144] البخاري، رقم 3431. وانظر: مسلم رقم 2366.

وتسويله لتتم النعم بخلوصها لرب العالمين، وزادت من مناجاتها في مقام أنسها بربها أن يتعدى حفظه ورعايته وصونه وكرامته هذه الوليدة البريئة الطاهرة لتشمل ذريتها، مهما امتدت عروقها وتتابعت أغصانها وفروعها فهي حلقات بيت صالح، وللصالح اثاره التي تدرك الذرية ولو بعد حين، فاستجاب الله عز وجل دعاء امرأة عمران كاملاً غير منقوص وزادها نعائم على نعائمه ولم يجعل للشيطان من ساعة ولادتها إليها من سبيل[145].

وقد أرشدنا الرسول (ﷺ) إلى تحصين ذريتنا من الشيطان الرجيم، فالإنسان إذا ما جاء أهله، ومجيء الأهل مظنة حصول الولد، فيقول الإنسان إذا جاء أهله «اللهم جنبي الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه»[146].

6 . تقبُل المولى عز وجل لمريم وإنباتها نباتاً حسناً:

لقد علم الله تعالى إخلاص امرأة عمران في ندائها لربها فقد كانت عارفة بأسرار النداء والدعاء فنادت ربها قائلة: ﴿رَبِّ﴾ فهي طلبت من الرب التربية من البداية إلى، وكان في دعائها تضرع وانكسار لنفسها بين يدي ربها حيث كان نذرها بناء على أن يكون ذكراً يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك فجبر الله قلبها وتقبل الله نذرها، وصارت هذه الأنثى أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم ما يحصل بالذكر[147].

وكانت الإجابات الإلهية والنفحات الربانية والمواهب اللدنية التي تنتظر هذه الوليدة السعيدة، فأوحى الله عز وجل إلى نبي الله زكريا أن تقبلوا هذه الوليدة في رحاب البيت المقدس، خلاف غيرها من الإناث لخدمته وللتفرغ للعبادة في جنباته، فيه طاهرة مصون مصطفاة على النساء وهذا من استجابة دعاء الله لامرأة عمران، بأن قبل ما تمنته من انقطاع وليدها لله ومرافقة الصالحين العابدين، ولم يقبل قبلها أنثى في هذا.

---

[145] د. فاروق حمادة، اباء وأبناء ملامح تربوية في القران الكريم، ص 237.

[146] البخاري، رقم 3283.

[147] السعدي، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2000 م، 218/1.

وجعل نشأتها خير نشأة في خلْقها وخُلُقها، فقد رزقها الله شكلاً جميلاً ومنظراً بهيجاً، وسلكها في سلك أهل السعادة من العباد الصالحين، وقرنها في طفولتها بالأولياء المتبتلين، فلم تعرف للشر طريقاً ولا للزيغ مدخلاً، ومن نشأ هذه النشأة الحسنة، وترعرع في هذا الجو الإيماني فأنى له إذا كبر أن ينحرف أو يزيغ.

وهذه الآية الكريمة قاعدة من قواعد التربية القرآنية في العناية بالأطفال من ولادتهم، وحمايتهم في نشأتهم وطفولتهم حتى يرسخ الإيمان في قلوبهم والعمل الصالح في جوارحهم، وأن يعيشوا في أتراب لهم صالحين وقرناء طاهرين، لينبتوا نباتاً حسناً وليسبق الخير إلى قلوبهم وعقولهم، حتى إذا ما جاء الشر قلَّ أن يجد له مكاناً وموضعاً، وكم في هذه الآية الكريمة ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ **[آل عمران: 37]**. من أثر ندي في القلب يوحي إلى قلب كل أب بمعاني العناية والرعاية، والحرص على الأبناء والذرية، ومن تمام العناية والنشأة الحسنة، والرعاية الصالحة أن كفلها زكريا وهو زوج خالتها على الأشهر، أو زوج أختها كما جاء في رواية، ففي حديث الإسراء والمعراج: «فإذا أنا بابن الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا» [148]، ويطلق على القول الأول بتوسع.

وقد قال الإمام مالك وغيره: إن أمها أسلمتها إليهم بعد إرضاعها وبقائها في حجرها مدة يدفع مثلها إلى الغير، وإليه مال ابن كثير وجمهور المفسرين، أن أمها حين وضعتها لفتها في خروقها، ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العبّاد المقيمين به، وكانت ابنة إمامهم وحَبْرهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيما بينهم كل يريد أن يفوز بهذه الزلفى، ويحظى بهذه القربة إلى الله تعالى، فمِنَنُ عمران عليهم كمعلم وحبر كثيرة، وهي تمتُّ إلى أصل جليل وشجرة مباركة، فالعناية بها ليست كالعناية بغيرها، وجاء الوحي بقبولها في البيت المقدس، كل هذه الأمور وغيرها جعلتهم يتنافسون على الفوز بهذا الشرف العظيم، حتى اقترعوا بينهم كما قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ **[آل عمران: 44]**.

---

[148] البخاري، أحاديث الأنبياء 467/6.

وكان في قدر الله تعالى أن تكون في كفالة النبي زكريا، وخالتها زوجه، وقد جاء في الحديث الشريف: «الخالة بمنزلة الأم» [149]، فعطف خالتها كبير ورعايتها لشؤونها في جانب المرأة تامة، أما كفالة زكريا فلتقتبس من عمله وصلاحه ولتطمئن، وتأمن على نفسها اطمئناناً تاماً، وفي هذا تعليم للآباء، ليختاروا لأبنائهم وبناتهم مربين ومعلمين ومعلمات من الصالحين والصالحات الأكفاء.

إن امرأة عمران بصلاحها وصلاح بيتها كانت تتمنى الولد الصالح، وليس أي ولد، وتوكلت على ربها في ذلك وفي غيره من شؤونها.

إن هذه الآيات التي أخبرتنا عن امرأة عمران في رغبتها للولد تكشف لنا معلم من معالم طريق الصلحاء الأتقياء أنه يهيؤون أولادهم في مهمات الحياة الراقية وقممها العالية، ومقاصدها الغالية، وعلى رأسها خدمة الدين وتبليغ الدعوة في استمرارها وبقائها، ولا يهيؤونهم لما هو فائت عاجل، مما يستوي فيه الإنسان والعجماوات، ولما ولدت الأنثى لم تسخط ولم تتذمر بل رضيت وليس الرضى أن لا تحس بالبلاء، بل الرضى أن لا تعترض على الحكم والقضاء.

والرضى سكون القلب إلى أحكامه، وموافقة القلب بما رضي الله تعالى به واختاره، وأفادتنا هذه الآيات البينات الحرص على اختيار الصالح الحسن من الأسماء، لما نتوسمه ونرجوه من البنات والأبناء، ليشب الناشئ، وهو عارف بما أراده منه أبواه.

وقد كان العرب يسمون أولادهم صخراً وحرباً وأمثالها، ويسمون خدمهم بنافع وأفلح وبركة، ولما سئلوا عن ذلك قالوا: إن أولادنا لأعدائنا، وخدمنا لنا، ولهذا نُسميهم كل بما هو له.

مدت امرأة عمران أكفها إلى الله بصالح الدعاء لولدها وذريتها، ودعاء الوالدين له شأن عظيم عند الله، وكل هذه الدرجات مراقي عالية في التربية القرآنية.

وعلمتنا هذه التوجيهات الربانية أن نحرص بكل ما نستطيع على إنبات أبنائنا وبناتنا النبات الحسن، وأن يكون ذلك نصب أعيننا في غدوتنا ورواحنا وليلنا ونهارنا[150].

---

[149] البخاري، كتاب الصلح 304/5.

[150] فاروق حمادة، اباء وأبناء ملامح تربوية في القران الكريم، ص 241.

قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ **[آل عمران: 37]**، والقبول هو: أخذ الشيء برضا والحسن شيء فوق الرضا، ستلمحه في تربية مريم العذراء وهو ليس قبولاً عادياً، ولكنه قبول حسن ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ **[آل عمران: 37]**.

فالإنبات الحسن يحمل ملحظين في حياة مريم عليها السلام:

أولهما: أنها كانت تحت التربية الربانية منذ بدايتها الأولى في بطن أمها، كما يرعى الفلاح نباته بالعناية والنماء.

ثانيهما: أن إجابة الله لامرأة عمران دليل على إخلاصها، لأن الله اختص مريم بالتربية التي هي من خصائص الربوبية، من الإنبات الحسن، وكفالة زكريا لها[151].

وفي قوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾، جاءت الفاء هنا للتعقيب؛ لبيان سرعة استجابة المولى عز وجل لدعائها وسرعة تحقيقه لرجائها فهو من المؤمن قريب ولدعائه مجيب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ **[البقرة: 186]**، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ **[غافر: 60]**[152].

وفي قوله تعالى مع قبولها عند الله قبولاً ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَناً﴾، فقد أكرمها الله وأنعم عليها بأن أنبتها نباتاً حسناً، قال ابن كثير: جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً[153]، وقد رباها الربّ عز وجل تربية حسنة في عبادة وطاعة لربها[154]. والآية تفيد حسن نمائها وسلامتها واكتمال بنيتها اكتمالاً طبيعياً برعاية ربانية خالصة.

---

[151] محمد متولي الشعراوي، مريم والمسيح، جمع وإعداد: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص 52.

[152] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 608/2.

[153] تفسير ابن كثير، 359/1.

[154] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 610/2.

7. كفالة زكريا لمريم عليهما السلام:

بعد أن تقبل المولى عزَّ وجل مريم عليها السلام وأنبتها نباتاً حسناً، فجعل لها من يقوم بشأنها ويعنى بأمرها ويهتم بإصلاحها، قيض لها نبياً من الأنبياء هو زكريا عليه السلام، فكان كفالته لها نعمة من الله ورحمة قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ **[آل عمران: 37]**. ولكن كيف تمت تلك الكفالة؟

لقد تمَّ هذا الأمر بتوفيق من الله عز وجل بعد أن تنافس الأحبار والرهبان وتنازعوا على كفالة مريم، كل يرجو ويطلب لنفسه أن ينال هذا الشرف، وأن يحظى بذاك المقام، فمريم عليها السلام بنت إمامهم ومعلمهم عمران عليه السلام، الرجل الصالح الذي مات دون أن تكتحل عيناه برؤية البنت، وحرصاً على هذا الشرف ووفاء للمعلم والمربي والمصلح والإمام كان تنافسهم وتسابقهم الذي وصل إلى حد النزاع والاختصام على كفالة مريم عليها السلام.

قال تعالى:﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ **[آل عمران: 44]**.

فقد كان كل واحد منهم شديد الحرص على كفالة تلك اليتيمة، ولما لم تجتمع لهم كلمة ولم يتفق لهم رأي فكل واحد يريد أن يستأثر بهذه الكرامة، وكان أولى بهم أن يتركوا كفالتها لنبي الله زكريا عليه السلام، ولما طال جدالهم حول من يكفلها اتفقوا على أن يقترعوا فيما بينهم فمن فاز في القرعة فقد فاز بالكفالة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾. وعن عباس رضي الله عنهما قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾: اقترعوا فجرت الأقلام مع الجِرْيَةِ وعالَ قلمُ زكريا الجِرْيَةِ فكفلها زكريا[155].

قال ابن حجر: وعال قلم زكريا: أي ارتفع على الماء وفي إحدى الروايات (وعلا)، و(الجِرية)

---

[155] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق وتصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ، ص 345/5.

بكسر الجيم والمعنى: أنهم اقترعوا على كفالة مريم أيهم يكفلها فأخرج كل واحد منهم وألقوها كلها في الماء فجرت أقلامهم مع الجرية إلى أسفل وارتفع قلم زكريا فأخذها[156].

وسواء جرى قلم زكريا وسبق أقلامهم أو جرت أقلامهم وثبت قلمه أو علا بقلمه وسبح على الماء وغاصت أقلامهم أو العكس، على أي حال كان الاقتراع، فالمهم أن زكريا عليه السلام فاز بالقرعة وتولى كفالة مريم عليها السلام[157].

وفي قوله ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ على أن الفاعل هو الله تعالى والهاء لمريم أي: جعل زكريا لها، فزكريا وإن كان قد أقبل على كفالتها، فإن الذي هداه إلى ذلك ووفقه ويسر له ذلك الأمر هو الله عز وجل[158].

فقد جعل الله سبحانه وتعالى كفالتها لزكريا، وجعله أميناً عليها، وكان زكريا رئيس الهيكل اليهودي من ذرية هارون الذين صارت إليهم سدانة الهيكل[159].

وكان نبياً كريماً عليه السلام، ولأن الله يعدّها لأمر عظيم ولهذا عاشت مريم طفولتها وشبابها عند زكريا عليه السلام، واقتبست منه العلم والمعرفة واقتدت به في العبادة والذكر واستفادت منه الخلق والسلوك، فنشأت نشأة إيمانية صالحة وكانت عابدة ذاكرة زاهدة مقبلة على الله متصلة به، ومضت السنوات ومريم في كفالة زكريا، حتى صارت فتاة بالغة، واعية ناضجة، وهي مقبلة على عبادتها واتصالها بالله وذكرها له[160].

وقد كانت كفالة زكريا عليه السلام لأمرين:

أولاً: كرامة لمريم عليها السلام:

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا

---

[156] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 612/2.

[157] الشرقاوي، المرجع نفسه، 612/2.

[158] الشرقاوي، المرجع نفسه، 612/2.

[159] في ظلال القران، 393/1.

[160] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 185/4.

قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ **[آل عمران: 37].**

قام نبي الله زكريا عليه السلام بكفالة مريم، وجعل مقامها في بيت المقدس، في أشرف مكان: وهو المحراب[161].

وقد أكرمها الله إكراماً حيث كان يرزقها رزقاً خاصاً، وهي عابدة معتكفة في المحراب، ورأى زكريا عليه السلام ذلك: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ **[آل عمران: 37]** وكلمة (كلما) تدل على التكرار، أي أن الرزق كان يأتي مريم وهي في المحراب متفرغة فيه للعبادة والذكر والصلاة والمناجاة، والله يكرمها بتقديم الرزق لها بخارقة ليست مألوفة ولا معروفة.

وكلما دخل عليها زكريا المحراب يجد عندها ذلك الرزق وهو يعلم أنه لم يقدمه هو لها وهو المتكفل بتقديم الطعام لها، فيتعجب من ذلك، ويسألها أي من أي مصدر ووجه جاءك هذا ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ إنه يعلم أن هذا الرزق لم يأتها من عند الناس، وسيكون من عند الله، وسؤاله ليسمع الجواب منها، وهو عالم به.

فتجيبه بصراحة قائلة أي: الله هو الذي ساق لها ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وأوصله إليها وهي في المحراب، بدون سعي ولا تحصيل.

قال الحسن البصري: كان زكريا إذا دخل على مريم المحراب وجد عندها رزقاً من السماء، من الله، ليس من عند الناس، ولو أن زكريا كان يعلم أن ذلك الرزق من عنده لما سألها عنه[162].

وعَقَّب القرآن على جواب مريم بالتذكير بحقيقة ﴿حِسَابٍ *﴾، فهذه الجملة ليست من تمام جواب مريم، بل هي خبر من الله يخبرنا فيه أنه يسوق الرزق إلى من يشاء من خلقه بغير حساب ولا إحصاء ولا عدّ يحسِبه عليه.

إن الله لا يحصي ولا يحاسب عبده على ما يرزقه إياه؛ لأن إخراج ذلك الرزق لا ينقص

---

[161] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 613/2.

[162] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 186/4.

خزائنه سبحانه، فالذي يحسب ويحاسب ويعد ويحصي هو الذي يخشى النقصان من رزقه[163].

وتقديم الرزق إلى مريم وهي في المحراب إثبات للكرامة التي ساقها الله تعالى لها؛ لأنه كان بطريقة خارقة غير مألوفة، ومريم ليست نبيّة لنعتبر هذه الخارقة معجزة، فالمعجزات مختصة بالأنبياء، وإذا وقعت الخوارق من الله لغير الأنبياء سميت كرامات، وهذا دليل قراني على إمكانية الكرامة للأولياء، بل على وقوعها وحدوثها، وهناك أدلة قرآنية أخرى على إثبات الكرامة للأولياء الصالحين، كما حصل لأصحاب الكهف الصالحين، ونحن نثبت الكرامات للأولياء، كما نثبت المعجزات للأنبياء ونؤمن بحصولها لهم، وأنها من فعل الله تكريماً لهم، وشرطنا في قبولها ذكرها في آية صريحة أو في حديث صحيح مرفوع ولا نلتفت إلى كلام الذين ينكرون الكرامات للأولياء؛ لأنه يتعارض مع كلام الله وكلام رسوله (ﷺ).

وكلمة في قوله نكرة ﴿رِزْقًا﴾، وهذا التنكير والتنوين يدل على التعميم والشمول، وهو مقصود، فالرزق الذي كان يأتيها به الله يشمل جميع ما تحتاجه من الطعام والمأكولات كما أن هذا التنكير يدل على الإبهام، حيث لم يذكر شيء من أصناف الرزق المقدم لها، وهو يدعونا إلى عدم الخوض في تحديد أصناف ذلك الرزق، من اللحوم والخضار والفواكه والمأكولات والمشروبات؛ لأن هذا لا دليل عليه، ولا فائدة منه، فلنبق الكلمة على إبهامها اللطيف الجميل[164].

ويكفي معرفتنا أنها كانت مباركة يكثر من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقاً حتى ليعجب كافلها ـ وهو نبي ـ من فيض الرزق، فسألها: كيف ومن أين هذا كله؟ فلا تزيد على أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله وتفويض الأمر إليه كله.

وفي قوله: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ **[آل عمران: 37]** ، هي كلمة تصور حال المؤمن مع ربه واحتفاظه بالسر الذي بينه وبينه، والتواضع في الحديث عن هذا السر لا التنفج به والمباهاة، كما أن ذكر هذه الظاهرة غير المألوفة التي تثير عجب نبي الله

[163] الخالدي، المرجع السابق، 187/4.

[164] المرجع السابق، 187/4.

زكريا، هي التمهيد للعجائب التي تليها من ميلاد يحيى وميلاد عيسى، وعندئذ تحركت في نفس زكريا الشيخ الذي لم يوهب ذرية، تحركت تلك الرغبة الفطرية القوية في النفس البشرية، الرغبة في الذرية في الامتداد في الخلف، الرغبة التي لا تموت في قلوب العباد والزهاد، الذين وهبوا أنفسهم للعبادة ونذروها للهيكل، إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لحكمة عليا في امتداد الحياة وارتقائها[165].

ثانياً: زكريا يتوجه إلى المولى عز وجل بالدعاء أن يرزقه ذرية صالحة:

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ **[آل عمران: 38]**. وإن المعنى: في ذلك المكان الذي رأى فيه ما رأى من كرامات مريم، دعا زكريا ربه لقد طمع في ذلك الظرف بالولد مع كبر سنّه من المرأة العاقر، فرجاً أن يرزقه الله منها الولد، مع أنه عجوز وامرأته عاقر، فرغب في الولد، وسأل الذرية الطيبة.

ومعنى : من ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾

ومعنى : ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾

ومعنى : ﴿طَيِّبَةً﴾

والذرية: تطلق على الواحد والجمع وهي هنا بمعنى الواحد، وزكريا طلب من الله ولداً فقط؛ لأن الله قال عن طلبه في آية أخرى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ **[مريم: 5]**، ولم يقل (أولياء).

وكان دعاء زكريا عليه السلام ربه في سورة آل عمران مجملاً، لكنه مفصل نوعاً ما في مطلع سورة مريم، قال تعالى: ﴿كهيعص ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ **[مريم: 1-6]**.

[165] في ظلال القران، 393/1.

وافتتحت سورة مريم بخمسة من الحروف المقطعة، التي افتتح الله بها بعض السور، ثم جاء الحديث بعد ذلك مباشرة عن دعاء زكريا عليه السلام، وخاطب الله نبيه محمد (ﷺ)، بأنه سيذكر له رحمته بزكريا عليه السلام. ووصف الله زكريا بالعبودية لله ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾، وهذا وصف للتكريم والتشريف؛ لأن مقام العبودية لله هو أعلى المقامات وأشرفها[166].

والعبودية لله تعالى مقام كريم ودرجة سامية يوصف بها المقربون، والعبودية لله تعالى غنىً ورفعةً وعز، وأما العبودية لغيره ـ سبحانه ـ فهي فقر وذل وضَعَة فما أسوأ أن يكون الإنسان عبداً لشيطان، عبداً لشهواته، عبداً لهواه، عبداً للمال، عبداً للمنصب والمال والسلطان، يبيع في سبيل ذلك دينه ومبادئه[167].

1 ـ نداء زكريا الخافت:

يناجي زكريا عليه السلام ربه بعيداً عن عيون الناس، بعيداً عن أسماعهم في عزلة يخلص فيها لله، ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا *﴾، ويكشف له عما يثقل كاهله ويكره صدره ويناديه في قرب واتصال ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، بلا واسطة ولا حرف النداء وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء، ولكن المكروب يستريح إلى البثّ، ويحتاج إلى الشكوى، والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر، فيستجيب لهم أن يدعوه وأن يبثّوه ما تضيق به صدورهم ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ **[غافر: 60]** ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر، ليستشعروا صلتهم بالجانب الذي لا يضام من يلجأ إليه، ولا يخيب من يتوكل عليه[168].

2 ـ تمهيد بديع للدعاء:

يمهد زكريا عليه السلام في مناجاة ربه بتمهيد جميل بديع للدعاء، يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ

---

[166] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 114/1 ـ 115.

[167] عادل أحمد صابر الرويني، تأملات في سورة مريم، دار النوادر، سوريا، 2011م.

[168] في ظلال القران، 2302/4.

مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ **[مريم: 4-7].**

ويشكو زكريا إلى ربه وهن العظم وحين يهن العظم يكون الجسم كله قد وهن، فالعظم هو أصلب ما فيه وهو قوامه الذي يقوم به ويتجمع عليه، ويشكو إليه والتعبير المصور يجعل الشيب كأنه نار ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد، ووهن العظم واشتعال الرأس شيباً كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذي يعانيه زكريا ويشكوه إلى ربه وهو يعرض عليه حاله ورجاءه.

ثم يعقّب عليه بقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ **[مريم: 4]** ، معترفاً بأن الله قد عوّده أن يستجيب إليه إذا دعاه، فلم يشق مع دعائه لربه وهو في قنوته وقوته، فما أحوجه الان في هرمه وكربته أن يستجيب الله له ويتم نعمته عليه، فإذا صور حاله، وقدم رجاءه ذكر ما يخشاه، وعرض ما يطلبه، إنه يخشى من بعده، يخشاهم ألا يقوموا على تراثه بما يرضاه، وتراثه هو دعوته التي يقوم عليها، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل البارزين وأهله الذي يرعاهم. ومنهم مريم التي كان قيّماً عليها وهي تخدم المحراب الذي يتولاه. وماله الذي يحسن تدبيره وإنفاقه في وجهه، وهو يخشى الموالي من ورائه على هذا التراث كله، وهو يخشى ألا يسيروا فيه سيرته[169].

وللإمام ابن كثير في التفسير توجيهات لطيفة في ذلك:

ـ الأول: خشي أن يتصرّف مواليه من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته فاستجاب الله له.

ولم يخش من وراثة مواليه له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى هذه الدرجة، ومن أن يأنف من وراثة عصباته له، فسأل ربه أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم.

ـ الثاني: لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجاراً، يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع

[169] في ظلال القران، 2302/4.

مالاً ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

. الثالث: لم يترك زكريا عليه السلام مالاً، لأن الأنبياء لا يورثون في أموالهم، فإن تركوا أموالاً فإنها تكون صدقة، ودليل ذلك ما رواه البخاري

ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله (ﷺ) قال «لا نورَث، ما تركنا فهو صدقة»[170].

ولذلك أراد زكريا عليه السلام بالوراثة في النبوة، ثم إن قول زكريا عليه السلام عن الولي الوارث هو كقول الله تعالى عن ورثة سليمان لابنه داود عليهما السلام قال تعالى : ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ **[مريم: 6]** ،وقال تعالى :﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ **[النمل: 16]**.

وقد بين العلماء في قصة سليمان عليه السلام أن وراثته لأبيه كانت وراثة في النبوة والملك، وهنا يريد زكريا عليه السلام ولياً ابناً، وارثاً له في النبوة وليس في المال، وعند بعض العلماء: كانت وراثته علماً، وكان زكريا من ذرية يعقوب، وقال البعض الاخر: أراد أن يرثه في نبوته وعلمه[171].

إذن، أراد زكريا عليه السلام أن يهبه الله ابناً ليكون ولياً له، وليرثه في النبوة والعلم، ويرث أنبياء بني إسرائيل، وهم ال يعقوب في النبوة والعلم[172].

3 . ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا *﴾

ولما طلب زكريا عليه السلام من ربه الولد، التفت التفاتة إيمانية أخلاقية سلوكية فقال: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا *﴾، أي: رب اجعل ابني وارثي رضياً، و(رضيّ) بمعنى اسم مفعول (مرضيّ).

---

[170] البخاري، رقم 6730. انظر: مسلم، رقم 1758.

[171] تفسير ابن كثير، 109/3.

[172] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 119/4.

قال ابن كثير في تفسير : أي مرضياً ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا *﴾، وعند خلقِك تحبُّه أنت، وتحببه إلى خلقك[173].

ولا ينسى زكريا النبي الصالح، أن يصوّر أمله في ذلك الوريث الذي يرجوه في كبرهَ ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا *﴾ جباراً ولا غليظاً ولا متبطراً ولا طموعاً، ولفظة (مرضي) تلقي هذه الظلال، فالرَّضيُّ هو الذي يرضى ويُرضي، وينشر ظلال الرضى فيما حوله ومن حوله[174].

إن زكريا عليه السلام يريد أن يكون ابنه الوارث راضياً مرضياً رضياً، وأن تبنى شخصيته على الرّضى، وعندما يكون رضياً سيكون فرحاً سعيداً مسروراً، وستكون علاقته بالآخرين قائمة على السعادة واليسر والرضى، سيحبّهم ويحبونه، ويرضى عنهم ويرضون عنه ويألف ويؤلف.

الرَّضيُّ ليس حادّاً ولا عصبيّاً ولا شاكياً، ليس معقداً ولا مكتئباً ولا حزيناً.

الرَّضيُّ سهل المعاملة واسع الصدر، حليم النفس، حسن الخُلق[175].

4 . حليلة زكريا عليه السلام (من امرأة عاقر إلى زوج حامل):

كان الله عند حسن ظن زكريا، فاستجاب له، وكتب له الولد برحمته، وأجرى له معجزة خارقة، فامرأته عاقر لا يمكن أن تنجب في المنطق البشري القائم على الأسباب والعادات، ولكنها ستحمل وتضع بأمر الله إن أراد الله ذلك وهو فعَّال لما يريد.

وأشارت إلى هذه الحقيقة آيات سورة الأنبياء، قال تعالى:﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ **[الأنبياء: 89-90]**.

نادى زكريا ربه قائلاً أي ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ تذرني وحيداً لا ولد لي ولا وارث، يرثني في

[173] المرجع السابق، 119/4.

[174] في ظلال القران، 2302/4.

[175] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 119/4.

النبوة والعلم، وقال : هذه جملة حالية تفيد ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ *﴾، فهو يريد ابناً وارثاً يرثه ويرث من ال يعقوب ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، والوراثة المقصودة هنا هي الوراثة في النبوة والعلم، فأراد بقوله لربه أي أنت خير من يبقى بعد كل من ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ *﴾، وأنا أعلم أنك لا تضيع دينك ولكنني أريد أن لا تقطع فضيلة القيام بأمر الدين عن عقبي من بعدي، فارزقني وارثاً يقوم بذلك.

استجاب الله دعاء زكريا عليه السلام، وكانت الاستجابة سريعة ﴿فَاسْتَجَبْنَا﴾، وعبَّر عن الاستجابة بحرف الفاء، الدال على الترتيب مع التعقيب الفوري، وقد وهب الله له يحي بعدما أصلح له زوجه أصلح له زوجه بعد أن جعلها قادرة على الإنجاب ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾، وكانت هذه معجزة خارقة، لأنها كانت عاقراً من قبل، والان سوف تحمل وتنجب بأمر الله وإرادته.

وتعبير القرآن عن امرأة زكريا قبل الحمل وبعده عجيب لطيف معجز، فقبل الحمل أخبر أنها امرأة عاقر ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾، وبعد الحمل أخبر أنها زوج له ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ فالمرأة العاقر هي التي في رحمها مرض، أو داء يحول بينها وبين الحمل والإنجاب، وعندما يعاشرها زوجها فإنها تعقر ماءه، وتقطعه وتقضي على حيواناته المنوية ولا تفرز بويضة للإخصاب، وبذلك يذهب ماء زوجها سُدى بسبب هذا المرض. وإن زكريا عليه السلام يعلمُ أن امرأته عاقر وعندها داء أو افة في رحمها، وعاش معها سنوات عديدة، لم تحمل منه ولم تنجب، ولما استجاب الله دعاء زكريا عليه السلام أزال عقدة امرأته وعقرها، وقضى على الافة والداء الذي فيها والذي كان يقضي على ماء زوجها ويحول بينها وبين إفراز «البويضة»[176].

واللطيف في التعبير القرآني أنه عدل عن كلمة (امرأة) إلى كلمة (زوج)، فلما كانت عاقراً أطلق عليها امرأة ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾، ولكنها لما حملت أطلق عليها زوج . فلما كانت عاجزة عن الحمل كانت (امرأة) ولما أصبحت قادرة على الحمل صارت (زوجاً) لزكريا عليه السلام، وهذا يدلنا على عدم الترادف في المصطلحات القرآنية فالزوج والمرأة ليسا بمعنىً واحد،

[176] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 124/4.

وهو حليلة الرجل مطلقاً.

لقد أطلق القرآن الكريم على حليلة الرجل امرأة له: إذا كان هناك عدم انسجام بينهما لسبب ماديّ أو معنوي نفسي، فإذا كانت لا تنجبُ فهي امرأة للرجل، لوجود خلل مادي بيولوجي، وإذا كان أحدهما مسلماً والاخر كافراً فهي امرأة له، كما قال القرآن: امرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة فرعون، أما إذا كان بينها وبينه انسجام مادي ومعنوي فهي زوج له وهو زوج لها، لأن المزاوجة تقوم على الاقتران والانسجام بينهما.

فلما أصلح الله حليلة زكريا عليه السلام وصارت قادرة على الحمل لم تعد مجرد امرأة له، وإنما أصبحت زوجاً تؤدي وظيفتها الزوجية (بيولوجياً)، وتحقق رسالتها الزوجية (عملياً)، وتحمل لزوجها في رحمها ابنه، وبذلك تحقق الاقتران، والتزاوج بينهما على أحسن وأفضل صورة[177].

5 . بشارة الله لزكريا عليه السلام في المحراب:

بشر الله تعالى نبيه زكريا عليه السلام باستجابة دعوته، قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ **[آل عمران: 39-40].**

لقد استجيبت الدعوة المنطلقة من القلب الطاهر، الذي علق رجاءه بمن يسمع الدعاء، ويملك الإجابة حين يشاء، وبشرت الملائكة زكريا بمولود ذكر اسمه معروف قبل مولده (يحيى)، وصفته معروفة كذلك: سيداً كريماً، وحصوراً يحصر نفسه عن الشهوات، ويملك زمام نزعاته عن الانفلات، ومؤمناً مصدقاً بكلمة تأتيه من الله، ونبياً صالحاً في موكب الصالحين.

لقد استجيبت الدعوة، ولم يحل دونها مألوف البشر الذي يحسبونه قانوناً، ثم يحسبون أن مشيئة الله سبحانه مقيدة بهذا القانون، وكل ما يراه الإنسان ويحسبه قانوناً لا يخرج عن أن يكون أمراً نسبياً ـ لا مطلقاً ولا نهائياً ـ فما يملك الإنسان وهو محدود العمر والمعرفة، وما يملك

[177] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 124/4 . 125 . 126.

العقل وهو محكوم بطبيعة الإنسان هذه، أن يصل إلى قانون نهائي ولا أن يدرك حقيقة مطلقة.

فما أجدر الإنسان أن يتأدب في جناب الله، وما أجدره أن يلتزم حدود طبيعته وحدود مجاله، فلا يخبط في التيه بلا دليل، وهو يتحدث عن الممكن والمستحيل، وهو يضع لمشيئة الله المطلقة إطاراً من تجاربه هو ومن مقرراته هو ومن عمله القليل.

ولقد كانت الاستجابة مفاجئة لزكريا نفسه . وهل زكريا إلا إنسان على كل حال . واشتاق أن يعرف من ربه كيف تقع هذه الخارقة بالقياس إلى مألوف البشر؟ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ **[آل عمران: 40]**

كذلك فالأمر مألوف مكرر معاد حين يرد إلى مشيئة الله وفعله الذي يتم دائماً على هذا النحو، ولكن الناس لا يتفكرون في الطريقة، ولا يتدبرون في الصنعة، ولا يستحضرون الحقيقة.

كذلك بهذا اليسر وبهذه الطلاقة يفعل الله ما يشاء، فماذا في أن يهب لزكريا غلاماً وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر؟

إنما هذه مألوفات البشر التي يقررون قواعدهم عليها، ويتخذون منها قانوناً، فأما بالقياس إلى الله، فلا مألوف ولا غريب، كل شيء مرده إلى توجيه المشيئة، والمشيئة مطلقة من كل القيود.

6 . زكريا عليه السلام يطلب آية من الله عزَّ وجل:

إن شدة لهفة زكريا عليه السلام على تحقيق البشرى، ولدهشته المفاجئة على نفسه، إن ايته أن يحتبس لسانه ثلاثة أيام إذا هو اتجه إلى الناس، وأن ينطلق إذا توجه إلى ربه وحده بذكره وتسبيحه، قال تعالى: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ **[آل عمران: 41]**.

ويسكت السياق هنا وتعرف أن هذا قد كان فعلاً، فإذا زكريا يجد في ذات نفسه غير المألوف في حياته وحياة غيره، لسانه هذا هو لسانه، ولكنه يحتبس عن كلام الناس وينطلق

لمناجاة ربه، أي قانون يحكم هذه الظاهرة؟ إنه قانون الطلاقة الكاملة للمشيئة العلوية، فبدونه لا يمكن تفسير هذه الغريبة كذلك رزقه بيحيى وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر[178].

كانت الآية العجيبة والمعجزة الباهرة في لسان زكريا عليه السلام، إن قومه يعرفون أنه متكلم بفصاحة وطلاقة ويعلمون أنه لا عيب في لسانه، ولكن بعد ما بشِّر بالولد فوجئوا به لا يكلمهم إلا بالرمز والإيحاء والإشارة، واستمر الأمر على هذا ثلاثة أيام بلياليها.

كان زكريا عليه السلام في هذه الأيام الثلاثة على حالتين:

الحالة الأولى: عندما يخلو بنفسه ويكون وحيداً ليس معه أحد ولا يسمعه أحد، عند ذلك ينطلق لسانه بذكر الله وتسبيحه ويسمع نفسه وهو يسبح الله ويذكره.

الحالة الثانية: عندما يخرج على قومه، ويريد أن يكلمهم ويخاطبهم فإنه يعجز عن ذلك حيث يحبس لسانه عن الكلام بطريقة لا إرادية، عند ذلك يخاطبهم عن طريقة الرمز والإيحاء والإشارة.

وعندما يرى قومه ذلك كانوا يتعجَّبون، فما الذي حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام؟ وما الذي جرى له؟ ولم يكن إمساك لسانه عن الكلام عندما يواجه الناس بسبب مرض أو خرس وإنما بمعجزة من الله، فهو سويٌّ صحيحٌ فصيحٌ متكلم، ولكن الله كان يمسك لسانه عن الكلام بطريقة لا إرادية، لا دخل لزكريا في ذلك.

لم يستطع أن يكلم الناس ثلاث ليالٍ سويّاً، أي: اعتقل لسانه من غير مرض ولا خرس، وهو صحيح وهو في ذلك يسبح ويقرأ التوراة، فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم إلا عن طريق الإيماء والإشارة، وهذا يدل على أنه الرمز والإيماء بالعين أو اليد صور من صور الكلام، ونوع من أنواع التعبير، فالذي لا ينطلق لسانه وإنما يستخدم حركات رأسه أو عينه أو شفتيه أو يده، فإنه يعبّر بهذه الحركات الرمزية عما في نفسه، ويفهم السامع منه كما يفهم منه إذا نطق بلسانه.

---

[178] في ظلال القران، 395/1.

وقد جمعت آية آل عمران بين حالتي زكريا عليه السلام وهو يعيش المعجزة الربانية خلال الأيام الثلاثة صمته عند مواجهة الناس، ونطقه عندما يخلو إلى نفسه: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ **[آل عمران: 41]**.

وأمره الله بالإكثار من ذكره في هذه الأيام الثلاثة، وأخبره أنه لا يحبس لسانه عن تسبيح الله ولا يُمنع من ذكره، وذكرت الآية طرفي النهار، فإذا سبّح الله في طرفي النهار بالعشي والإبكار، فقد ذكره وسبّحه طيلة النهار[179].

والعشي: من وقت زوال الشمس بعد الظهر إلى أن تغيب، والإبكار: من وقت طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وزكريا عليه السلام رغم منعه من الكلام إلا أنه يواصل ذكر الله عز وجل ويأمر الناس به حيث يشير إليهم بما يفهم منه دوام الذكر، وزكريا عليه السلام أنعم الله عليه بالصمت، وفي الصمت فكرة وعبرة، كما أنعم الله عليه بتوفيقه إلى الذكر، فاجتمع له الذكر مع الفكر، وذكر الله عز وجل من أسنى المقامات وأجل القربات ومن أفضل الأعمال ومن أسمى الأحوال، والذكر مطلوب في كل حال حتى يصير المؤمن على صلة بالله، وزكريا يواصل ذكر الله حتى وهو ممنوع عن الكلام، فالذكر من أيسر العبادات ومن أعظمها أجراً، وفي الحديث الشريف «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[180].

ويواصل زكريا عليه السلام دعوة قومه إلى ذكر الله تعالى، وحين يمتنع عن الكلام فإن الإشارة توصل إلى المطلوب ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ **[مريم: 11]**، أي: أشار إليهم أن يداوموا على التسبيح في جميع الأوقات[181].

7. صفات يحيى عليه السلام كما ذُكرت في القرآن الكريم:

قدم زكريا عليه السلام بقومه الآية الأولى، وبعد انقضاء الثلاثة أيام، أخبرهم أن الله هو

---

[179] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 140/4.

[180] رواه البخاري، كتاب الدعوات، رقم 6406.

[181] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 641/2.

الذي حبس لسانه عن الكلام أمامهم، وأنه كان يطلق لسانه بذكر الله وتسبيحه عندما يغيب عنهم، وأنه جعل هذا آية له، تمهيداً لآية أخرى أكبر وهو الولد الذي سيمنحه له.

وسمع أتباعه المؤمنون منه أخبار المعجزة القادمة، فازداد إيمانهم بالله وقدرته على خرق العادات والمألوفات، وحقق الله لزكريا عليه السلام معجزته، وحملت منه امرأته العاقر، وانقضت شهور الحمل التسعة، وأنجبت مولودها، وسماه أبوه (يحيى) منفّذاً أمر الله بتسميته[182].

وقد أخبر الله عن بعض صفات يحيى عليه السلام بقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ **[آل عمران: 39]**.

. معنى اسم (يحيى): سمّي يحيى؛ لأن الله أحياه بالإيمان والنبوة، وقال بعض العلماء: سمّي بذلك؛ لأن الله أحيا به الناس بالهدى، وقيل: سمّي بذلك لأن الله أحيا به رحم أمه[183].

. معنى : بمعنى مسمًّى: فهو اسم مفعول: أي لم نجعل شخصاً قبل يحيى مسمّى بهذا ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا *﴾، ولم تلد النساء العواقر ولداً مثله، ولم يُسمَّ باسمه أحدٌ قبله[184].

وجاء في تفسير قوله تعالى في ذكر صفات يحيى عليه السلام:

أ . (مصدقاً بكلمة من الله):

والمراد بكلمة الله التي يصدقها يحيى قولان للمفسرين:

الأول: كلمة تأتيه من عند الله، لأنه نبيّ، والله يعطي أنبياءه ما يشاء من كلماته وكتبه، فلعل هذه الكلمة كتاب من الله أنزله إليه فآمن وصدَّق به، ولعلها أحكام من الله أمره بها، فآمن وصدَّق بها والتزمها.

والثاني: كلمة الله هي عيسى ابن مريم عليه السلام فقد صرّح القرآن الكريم بأن عيسى عليه السلام كلمة من الله.

[182] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 143/4.

[183] المرجع نفسه، 129/4.

[184] المرجع نفسه، 131/4.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ **[آل عمران: 45]**. وكان عيسى معاصراً ليحيى، وكلاهما كان نبياً عليهما السلام، ولما بعث الله عيسى نبياً، كان يحي هو أول من آمن بعيسى وصدَّقه وصدَّق به، وشهد أنه عبد الله ورسوله، وأن الله بعثه نبياً رسولاً، ولا تعارض في الحقيقة بين القولين، بل هما يتكاملان، فيحيى نبي كريم عليه السلام، واتاه الله كلمات منه، وكان هو أول من صدَّقها وصدَّق بها واتبعها.

ب . (سيداً):

جعله الله سيداً شريفاً في قومه، سادهم بالنبوة والعلم والعبادة والحلم، وفسرها الصحابة والتابعون بهذا المعنى.

وقال العلماء في تفسير معنى السيد أقوالاً منها:

- السيد هو الحليم التقيّ.
- سيداً في العلم والعبادة.
- هو الكريم على الله.
- هو الذي لا يغلبه الغضب.
- السيد هو الفقيه العالم.
- السيد هو الشريف[185].

وهذه الأقوال ليست متعارضة، فكلُّها مرادة وينطبق عليها كلها معنى السيد، وكلها تحققت في يحيى عليه السلام، ولقد جعل الله يحيى عليه السلام سيداً شريفاً، سيداً في الحلم والتقوى، وسيداً في العلم والعبادة، وسيداً في الفقه والكرم.

ت . (حصوراً):

الحصور: هو الذي لا يأتي النساء، إما من العنَّة، وإما من العفة والاجتهاد في إزالة الشهوة، والثاني هو المراد في الآية، لأنه بذلك يستحقُّ المحمدة[186].

---

[185] تفسير ابن كثير، 341/3.

[186] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القران، ص 238 . 239.

فيحيى عليه السلام منع نفسه عن النساء برغبته وإرادته وجاهد نفسه في عدم الرغبة فيهنّ، ولم يكن فيه عنَّة تمنعه من معاشرة النساء، فإن هذا نقص ينزَّه عنه الأنبياء[187].

والمقصود أن مدح يحيى عليه السلام أنه كان حصوراً ليس معناه أنه لا يأتي النساء، بل معناه أنه حصور من الفواحش والقاذورات، وتسامى بغريزته وشهوته، فلم يفكر في النساء ولم يتزوج النساء مع قدرته على ذلك لو أراد.

ث . (نبياً صالحاً):

ومن صفات يحيى عليه السلام أنه نبي صالح، وهذه الآية نصّت على نبوة يحيى عليه السلام حيث سيجعله الله نبياً ويجعله من الصالحين ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ *﴾

وهذه بشارة ثانية لزكريا عليه السلام، فقد بشره الله قبلها بأنه سيرزقه بيحيى وبشَّره فيها بأنه سيجعله نبياً من الصالحين، وهي أعظم من البشارة الأولى.

ولما كانت امرأة زكريا حاملاً بابنها يحيى، كان زكريا يوقن أن ما بطنها ولداً، وأنه سيكون نبياً من الصالحين بناءً على هذه البشارة.

هذه صفات يحيى الأربعة الواردة في سورة آل عمران[188].

. وفي موقع آخر من كتاب الله عز وجل يخبرنا الله بصفات يحيى عليه السلام، وهو شاب، ففي سورة مريم أخبرنا الله عز وجل عن يحيى عليه السلام بعدما صار شاباً كبيراً، وبعدما بعثه الله نبياً قال تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ **[مريم: 12-15].**

ويعدُّ هذا أول موقف ليحيى عليه السلام في انتدابه ليحمل الأمانة الكبرى.

---

[187] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 145/4.

[188] الخالدي، المرجع نفسه، 146/4 . 147.

ج. ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾:

والكتاب هو التوراة الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، فقد أبقاه الله كتاباً لأنبياء بني إسرائيل من بعده، وأمر الله يحي عليه السلام أن يأخذ كتاب الله

الذي معه بقوة، وأن يتدبَّره بقوة، وأن يطبق وينفذ ما فيه بقوة، وأن يدعو إليه بقوة، وليس المراد بالقوة هنا القوة الجسمية البدنية، وإنما المراد بها القوة المعنوية، قوة الفهم والعلم، وقوة الالتزام والانضباط، وقوة الأداء والعمل، وقوة الدعوة والبيان.

ح. ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾:

وليس المراد بالحكم هنا القيادة والزعامة والرئاسة، فلم ينقل لنا أن يحيى عليه السلام كان حاكماً على بني إسرائيل، وإنما المراد بالحكم الفهم والعلم والجدّ والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير، والصبي هو ما كان قبل البلوغ[189].

خ. ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾:

وقد منَّ الله على يحيى عليه السلام بأنه اتاه الحنان من عنده، وهذه استجابة منه لدعوة زكريا عليه السلام، فلما طلب زكريا عليه السلام الغلام سأل ربه أن يجعله رضياً ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا *﴾ فاستجاب الله دعوته ومنح يحيى الحنان ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾، والحنان هو رقة القلب ورحمته بالآخرين وإشفاقه عليهم، وهذه نعمة عظيمة أنعم الله بها على يحيى عليه السلام فجعله حنوناً صاحب حنان يحبُّ الاخرين ويرفق بهم ويشفق عليهم.

د. ﴿وَزَكَاةً﴾ :

الزكاة هنا هي الطهارة من الذنوب والمعاصي، وتطهير النفس وتزكيتها ومجاهدتها، والإقبال على الطاعة والعبادة[190].

---

[189] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 148/4.

[190] المرجع السابق، 150/4.

والمقصود أن الله اتى يحيى عليه السلام الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع، كي يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس، فيطهرها ويزكيها[191].

ذ ـ ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾:

كان يحيى عليه السلام تقياً عابداً لله خائفاً منه مؤدياً لفرائضه، مجتنباً محارمه، متسارعاً في طاعته. وقوله ﴿وَكَانَ تَقِيًّا *﴾، هو نتيجة للصفات السابقة التي وصف الله بها يحيى عليه السلام، وثمرة لما اتاه الله منذ أن كان صبياً اتاه الله الحكم والفهم والعلم، واتاه الحنان والرحمة والإشفاق، واتاه الزكاة، والتزكية والطهارة، ونتيجة لكل ذلك صار يحيى عليه السلام تقياً عابداً خاشعاً، موصولاً بالله، مراقباً له، يخشاه ويرجوه في سرّه وجهره، وليله ونهاره[192].

ر ـ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾:

كان يحيى عليه السلام برّاً بوالديه، وذكر برّهِ بوالديه مقصود هنا؛ لأن والديه كبيران عجوزان، وهما بحاجة إلى برِّ ابنهما بهما؛ لتقدمهما في العمر وحاجتهما إلى المساعدة وحسن المعاملة، لا سيما أنهما رزقا بابنهما على كبر.

وهذه من النعم العظيمة التي ينعم الله بها على الوالدين الكبيرين، عندما يوفّق أبناؤهما إلى البرّ بهما؛ لأنهما في عمرهما المتقدِّم يحتاجان إلى ذلك البرِّ والإحسان.

ز ـ ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾:

وبعدما وصف الله يحيى عليه السلام بوصفين إيجابيين، نفى عنه وصفين سلبيين ونزهه عن نقيصتين فقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ **[مريم: 14]**

(جبَّاراً): صيغة مبالغة من التجبُّر وهو التكبُّر والاستعلاء والتعالي والانتفاش على الناس

---

[191] في ظلال القران، 2304/4.

[192] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 151/4.

وظلم الاخرين، واحتقارهم واضطهادهم.

(عصيًّا): بمعنى صاحب المعصية.

وعندما ننظر في هذه الآية الكريمة التي أخبرت عن يحي عليه السلام، فسوف نرى التناسب والتناسق والتقابل في الصفات المذكورة له ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ **[مريم: 12-14].**

اتى الله يحي عليه السلام أمرين، وأنعم الله عليه بنعمتين وهما: الحنان والزكاة، ووصفه بوصفين إيجابيين، هما ثمرة الحنان والزكاة، وهما: كان تقياً لله، وكان برّاً بوالديه. ونفى عن أمرين قبيحين، يتناقضان مع ما سبق، فلم يكن جباراً ولا عصياً، وهذه كلها ثمرة للحكم الذي اتاه الله إياه وهو صبياً ﴿وآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا *﴾، وهذا كلّه تطبيق وتنفيذ لأمر الله له ﴿يايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ .

س. ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾:

وهذا خبر من الله سبحانه عن السلام الذي أضفاه على يحي عليه السلام، و(سلام): نكرة، والتنكير للتكثير والتفخيم والتعظيم، أي أن الله جعله مغموراً بالسلام المبارك في حياته كلّها.

وأبرزت الآية السلام الذي تغشاه في مواطن ثلاثة، هي بحاجة إلى السلام من الله، أكثر من غيرها من المواطن؛ : أضفى الله عليه السلام يوم ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾، ولذلك لم يمسّه الشيطان بسوء،: أضفى الله عليه السلام والأمان يوم موته فجعله منعَّماً في ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾، وعصمه من فتنة القبر، وأجاره من عذاب القبر، : أضفى الله عليه السلام والأمان يوم القيامة، فأمّنه من الفزع في ذلك اليوم الذي يفزع فيه الآخرون، وأجاره من عذابه.

وأوحش ما يكون الإنسان في أماكن ثلاثة: يوم يولد، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت، فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم، فأكرم الله يحي

عليه السلام وخصَّه بالسلام عليه في هذه المواطن ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ **[مريم: 15]**[193].

وقد أشار الرسول (ﷺ) إلى فضل ومنزلة يحي وزكريا ابنَي الخالة عليهما السلام، روى الترمذي عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ):«الحسنُ والحُسَينُ سيّدا شبابِ أهلِ الجنَّةِ؛ إلا ابنَي الخالةِ عيسى ابنَ مريمَ ويحيى بنَ زكريا، وفاطمةُ سيدةُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ؛ إلا ما كان من مريمَ بنتِ عِمرانَ»[194].

واعتبر رسول الله (ﷺ) يحي وعيسى عليهما السلام سيدي شباب أهل الجنة، وإذا كان عيسى عليه السلام قد رُفع إلى السماء في سنِ الشباب كما سيمرُّ معنا، فيبدو أن يحي عليه السلام قد توفي وهو في سن الشباب أيضاً، مما جعلهما سيدَي شباب أهل الجنة، وقد أخبرنا رسول الله (ﷺ) أنه لما عُرج به إلى السماء ليلة المعراج شاهد ابني الخالة عيسى ويحي عليهما السلام في استقباله في السماء الثانية.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الإسراء والمعراج الطويل: «... ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيْ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ، صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ...»[195].

وهكذا كان زكريا ويحي عليهما السلام من اخر أنبياء بني إسرائيل، ولم يأت نبيٌّ بعدهما لبني إسرائيل إلا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام[196].

8 ـ الحكمة والمناسبة من ذكر يحي بن زكريا عليهما السلام:

لما ذكر الله تعالى قصّة ولادة يحي بن زكريا من عجوز عاقر، وشيخ قد بلغ من الكبَر عتيّاً،

[193] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 153/4.

[194] سنن الترمذي، رقم 3768. وانظر: الأحاديث الصحيحة، رقم 68.

[195] مسلم، كتاب الإيمان، رقم 162.

[196] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 160/4.

وذلك بمقتضى السُّنن الكونية هو شيء خارق للعادة؛ لعقم المرأة وهرم الشيخ، أعقبها بما هو أبلغ وأروع في خرق العادات، فذكر ولادة عيسى عليه السلام، من غير أب وهي شيء أعجب من الأول بكثير[197].

ثالثاً: اصطفاء الله تعالى لمريم عليها السلام على العالمين:

ما زال السياق يواصل الحديث عن نعم الله عز وجل على آل عمران، وكيف اصطفاهم المولى عز وجلّ وفضلهم، حيث بدأ السياق بالحديث عن امرأة عمران واستجابة المولى لدعائها، وقبوله سبحانه لنذرها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ **[آل عمران: 42-43].**

وانتقل السياق إلى الحديث عن مريم عليها السلام ونشأتها الصالحة في رعاية الله وعنايته، وكفالة زكريا عليه السلام التي كانت توفيقاً من الله لمريم ولزكريا عليه السلام الذي دعا المولى بأن يرزقه الولد بعد أن رأى كرامةً لمريم واستجاب الله دعوته ورزقه بيحيى عليه السلام الذي جمع الله عز وجل له محاسن الصفات ومحامد الأخلاق، ثم يعود السياق مرة ثانية إلى مريم عليها السلام وإلى اصطفاء الله عز وجل لها.

1 . في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾

أي أن الله اختارها لهذا المقام الأسمى حيث جعلها من بيتٍ صالح، وقبلها قبولاً حسناً، وأنبتها نباتاً حسناً، وجعل زكريا لها كافلاً، وأجرى الكرامة على يديها إكراماً لها وإحساناً إليها، وهذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد اصطفاها أي اختارها؛ لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس،

---

[197] محمد الحجار، من قصص التنزيل، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1، 1999م، ص 504.

وفي حقيقة اصطفائها عدة وجوه:

- منها أنه قبل تحريرها مع أنها كانت أنثى، ولم يحصل مثل هذا لغيرها من الإناث.
- منها ما وقع لها من الكرامة حيث كان رزقها يأتيها من عند الله.
- منها أنه فرَّغها لعبادته وخصَّها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة.
- منها أنه أسمعها كلام الملائكة شفاهاً[198].

وفي قوله: (وإذ قالت الملائكة)، أي: اذكر وقت قول الملائكة لمريم، وهذا التذكير لرسول الله (ﷺ) ولكل إنسان في الوجود يريد أن يعرف قصة مريم واصطفائها وتطهيرها وقيامها بعباد الله وشكره، وفي المصدر الأصيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه . القرآن الكريم . بيَّن الله عزَّ وجل أنه أرسل ملائكة لتخبر مريم باصطفائها، كما أرسل ملائكة من قبل لزكريا لتبشره بيحيى عليهما السلام ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ **[آل عمران: 39]**.

ولا غرابة في خطاب الملائكة لمريم، مع أنها ليست نبيّة؛ لأن هذا كان بأمر الله، فالله يرسل الملائكة لتخاطب الأنبياء، وهذا معروف وقد يرسل ملائكة لتخاطب صالحين وصالحات كما خاطبت امرأة إبراهيم عليه السلام، وأزالت استغرابها من حملها بإسحاق وهي عجوز عقيم.

والمهم أن مريم عليها السلام رأت أمامها ملائكة، ولعلها رأتهم بعد ما تحولوا من صورتهم الملائكية إلى صورة بشرية، وأخبرت الملائكة مريم باصطفاء الله لها وتطهيرها واصطفائها على نساء العالمين[199].

2 . مريم ﴿وَطَهَّرَكِ﴾

في قوله: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾، أي طهرك من الأخلاق الرذيلة، وأعطاك الصفات الجميلة[200]،

---

[198] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 641/2.

[199] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 189/4.

[200] ابن كثير، قصص الأنبياء، دار المعرفة، بيروت. لبنان، ط1، 2000م،ص 553.

وطهرك من الأكدار، والأدناس والأقذار والرذائل.

وللطهارة مراتب أربع:

المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث والفضلات.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

المرتبة الرابعة: تطهير السرّ عما سوى الله تعالى، وهي طهارة الأنبياء صلوت الله عليهم، والصديقيين[201].

والمقصود بطهارة مريم هو طهارتها بالإيمان الكبير العظيم العميق بالله عز وجل والطاعة لله سبحانه وتعالى، وطهارتها من الكفر والمعصية، وطهارتها بالأخلاق الحميدة والصفات الحسنة من الأخلاق الذميمة والصفات القبيحة، ومن مسيس الرجال بأي حال من الأحوال، ومن تهمة اليهود حيث برأها المولى من افتراءاتهم، وجاءت براءتها على لسان المسيح عليه السلام وهو في المهد[202].

3. ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ *﴾

الاصطفاء الأول: بمعنى الاجتباء والانتقاء، فالله اجتبى مريم وانتقاها من بين النساء، وأخذها من بينهم وجعلها محلاً لتحقيق أمره ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾

والاصطفاء الثاني: ثمرة للاصطفاء ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ *﴾، ونتيجة له، فعندما اجتبى الله مريم واختارها من بين نساء العالمين، فقد فضلها على باقي نساء العالمين.

فلا تكرار في الحقيقة في الآية؛ لأن الاصطفاء في المرّة الثانية ليس بمعنى الاصطفاء في المرة

---

201 الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت. لبنان، ط1، د.ت، ص 125/1.

202 الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 150/2.

الأولى، بل هو ثمرة له، وقد اصطفى الله مريم وانتقاها من بين النساء، ونشأها نشأة حسنة وأنبتها نباتاً حسناً وأسبغ عليها نعمه وتوفيقه ورعايته وألهم أمُّها أن تنذرها له وهي في بطنها، ليجعلها خالصة له محررة له وهيَّأ لها الحياة والعيش تحت كنف ورعاية نبيٍّ كريم هو زكريا عليه السلام، وقدَّم لها الرزق المنوَّع الشامل وهي في المحراب تكريماً لها.

ولم تتوفر هذه الأمور لأي امرأة غيرها، مهما بلغت من الصلاح والتقوى وهذا هو الاصطفاء الأول لها، القائم على الانتقاء والاجتباء، وبما أن الله اصطفاها وانتقاها، فقد صفَّاها وخلَّصها من الشوائب، وطهرها من الأدناس والأرجاس (وطهَّرك). واصطفاها الله على نساء العالمين، وفضّلها عليهن جميعاً في إنجابها الولد بدون أب، حيث خصَّها وحدها بهذه الآية الباهرة، والمعجزة الخارقة[203].

ودلالة هذا الاصطفاء العظيم أمران مهمان:

أ. القرآن الكريم كلام الله:

وردت هذه الشهادة لمريم في القرآن الكريم، مع أن الرسول (ﷺ) كان يخوض معركة فكرية شديدة مع النصارى، ليدل أن القرآن كلام الله، ومظهر من مظاهر الإنصاف والعدل في الإسلام، والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى، وذلك لما لابس مولد عيسى عليه السلام من شبهات، لم يتورّع اليهود أن يُلصقوها بمريم الطاهرة، معتمدين على أن هذا المولد لا مثال له في عالم الناس، فيزعمون أن وراءه سرّاً لا يشرف.

وهنا تظهر عظمة هذا الدين، ويتبين مصدره عن يقين، فها هو محمد (ﷺ) رسول الإسلام تلقى من أهل الكتاب ـ ومنهم النصارى ـ ما تلقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات، وها هو ذا يحدّث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة، وتفضيلها على «نساء العالمين»، بهذا الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الافاق وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزّون بمريم، ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد، وبالدين الجديد.

[203] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 192/4.

أيُّ صدق؟ وأيُّ عظمة؟ وأية دلال على مصدر هذا الدين، وصِدق صاحبه الأمين؟ إنه يتلقى (الحق) من ربه عن مريم وعن عيسى عليهما السلام، فيعلن هذا الحق، في هذا المجال، ولو لم يكن رسولاً من الله الحق ما أظهر هذا القول في هذا المجال بحال[204].

ب . مريم أفضل نساء العالمين:

إن ظاهر القرآن الكريم والأحاديث النبوية يقتضيان أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى اخر امرأة تقوم عليها الساعة، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة بنت محمد (ﷺ)، ثم خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ثم اسية بنت مزاحم، وقد بيَّنا الآيات الدالة على اصطفاء الله لمريم، أما أحاديث الرسول (ﷺ) فمنها:

. قوله (ﷺ):«حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، واسية امرأة فرعون»[205].

. قال رسول الله (ﷺ):«كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، واسية امرأة فرعون، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[206].

إن أهل الكمال من الرجال كثير لا يحصى عددهم، ولم يكمل من النساء غير هذه الأربع، ومع ذلك لم يبلغوا مرتبة النبوة.

ومعنى الكمال: التناهي في الفضائل، والبرّ والتقوى والإحسان، وغير ذلك من الأخلاق والرفيعة والصفات الحميدة.

والكمال في شيءٍ ما يكون حصوله للكمال أولى من غيره، والنبوة ليست أولى للنساء؛ لأن مبناها على الظهور، والدعوة إلى الله مع الاختلاط بجميع طبقات الشعب، على اختلاف عناصرها، وتباين مشاربها، ومناهجها، وحالهن: الاستتار، ولا تكون النبوة في حقهنَّ كمالاً،

[204]في ظلال القران، 395/1 . 396.

[205] أخرجه الحاكم في المستدرك، 595/2.

[206] البخاري، رقم 3411.

بل الكمال في حقهنَّ ـ الصدِّيقيَّة ـ وهي مرتبة عظيمة قريبة من النبوة[207].

وفي الحديث السابق شهد رسول الله (ﷺ) لمريم بكمالها ورجاحة عقلها، ومقتضى ما نصَّ القرآن الكريم عليه أنها حازت المرتبة الأولى في الفضل[208].

وبعد أن ذكرنا اصطفاء مريم عليها السلام من الله تعالى وتفضيلها على النساء أجمعين، يتبادر إلى الأذهان التساؤل التالي:

هل مريم صديقة أم نبية؟

الصحيح في هذه المسألة أن مريم عليها السلام ليست نبية، وإنما هي صدِّيقة، والدليل على ذلك ما يلي:

ـ ظاهر النص الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ **[يوسف: 109].**

ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ **[الأنبياء: 7].**

ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ **[النحل: 43].**

والحكمة من تخصيص الرجال بالنبوة دون النساء، أن النبوة عبء ثقيل وتكليف شاق، لا تتحمله طبيعة المرأة بتركيبها البيولوجي والنفسي، ولهذا كان جميع الأنبياء من الذكور؛ لأن مهام الرسالة مضنية، تحتاج إلى مصابرة ومجاهدة، وتتطلب الكفاح والسفر، وخوض المعارك وتحمُّل

---

[207] محمد الحجار، من قصص التنزيل، ص 514.

[208] عمر سليمان الأشقر، قصص التوراة والإنجيل في ضوء القران والسنة، دار النفائس، بيروت. لبنان، ط1، 1432هـ 2011م، ص 325.

المشاقّ[209].

ولم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة وصفها بالنبوة، وإنما جاء وصفها بأوصاف أخرى تدل على صلاحها وطهرها وصدّيقيَّتها قال تعالى:﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ **[المائدة: 75]** ، وإنما قيل لها صديقة؛ لكثرة تصديقها بآيات ربها وتصديقها ولدها فيما أخبرها به ووضعت بصدق وعد ربها ووصفت بصدق وعد ربها، وهو ميثاق الإيمان.

والقصد من وصفها بأنها صدّيقة نفيٌ أن يكون لها وصف أعلى من ذلك، وهو وصف الألوهية؛ لأن المقام لإبطال قول الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فجعلوا مريم الأقنوم الثالث، فهو نفيٌ لألوهية المسيح وأمه وهما من البشر فكانا يأكلان الطعام، ويتبع ذلك خروجه، فهذا كناية عن الغائط والبول[210].

ووصفت بالصدِّيقة لكمال إخلاصها وانقيادها لله عز وجل ظاهراً وباطناً، والتعبّد بطاعته سبحانه وتعالى في كل حركة وسكون مع إخلاصٍ عظيم في القصد لله عز وجل.

4 . قنوت مريم وسجودها وركوعها مع الراكعين:

بعد هذه المنزلة الرفيعة والمكانة العالية التي أكرم المولى عز وجل بها مريم، يأمرها سبحانه ـ عن طريق خطاب الملائكة الكرام لها ـ بأن تجتهد في العبادة شكراً لله تعالى على هذه النعم والمواهب ومواصلةً للسير في طريق الهدى والصلاح[211]. قال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ **[آل عمران: 43]**.

والقنوت: هو لزوم الطاعة مع الخضوع، وعلى هذا: فمدار القنوت على الطاعة ولزومها

---

[209] علي الصّلابيّ، الإيمان بالرسل والرسالات، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 2011م، ص 54.

[210] محمد مصطفى الزحيلي، شرعة الله للأنبياء في القران الكريم والسنة، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 2018م، ص 619.

[211] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 659/2.

والعبادة والاجتهاد فيها مع الإخلاص والخضوع والخشوع لله رب العالمين[212].

وتكرير النداء (يا مريم) للتنبيه والإشارة إلى أهمية ما يرد في ثناياه، وفي النداء هنا باسم مريم ومعناه العابدة ما يدل على التشريف والتكريم، والمعنى: يا من اسمها مريم ـ العابدة ـ عليك أن تجتهدي في عبادة الله عز وجل.

والآية الكريمة أمر من المولى عز وجل لمريم عليها السلام أن تجتهد في العبادة، وأن تداوم على الطاعة وتكثر السجود وتركع مع الراكعين حتى تزداد قرباً من رب العالمين، فالصلاة صلة بين العبد وربه وهداية ورحمة وشفاء وعصمة وفضل من الله ونعمة وقرب وحب، ونور وشفاء لما في الصدور، ومعراج إلى الله عز وجل، تُرفع الدرجات، وتُحطُّ الخطايا.

ولكلِّ ركن من أركان الصلاة حكمه البالغة وأسراره الحكيمة، فالصلاة خشوع وخضوع وقيام وقعود وركوع وسجود، وقال رسول الله (ﷺ) «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[213]. فكانت حياة مريم عليها السلام طاعة وعبادة، وخشوع وركوع، وحياة موصولة بالله تمهيداً للأمر العظيم الخطير[214].

5 . ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ **[آل عمران: 44]**.

في ذلك إشارة إلى مجموع الأخبار الواردة من الآيات السابقة من نذر امرأة عمران لما في بطنها لله، إلى ميلاد مريم وكفالة زكريا لها، إلى بشارته يحيى، إلى كلام الملائكة لمريم.

هذه الأخبار من أنباء الغيب واعتبرتها الآية غيباً لأنها وقعت في ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾، وحدثت قبل قرون من حياة الرسول (ﷺ) وبما أنه لم يكن موجوداً عند حدوثها

[212] المرجع نفسه، 660/2.

[213] صحيح مسلم (482/215).

[214] في ظلال القران، 396/1.

فهو غيب بالنسبة له، والله هو الذي أوحى بهذه الأنباء لرسوله (ﷺ) وأخبره بها، وهذا يثبت نبوة محمد (ﷺ) ووجه دلالتها على النبوة والوحي: أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعلمون أن محمداً (ﷺ) أميٌّ، لا يكتب ولا يقرأ وهذا معناه أنه لم يعلم بهذه الأخبار من الكتب، ولم يصاحب أحبار ورهبان أهل الكتاب فكيف علم بهذه الأخبار الخفيَّة التي لا يعلمها إلا عدد قليل من الأحبار والرهبان.

إن الله هو الذي أوحى إليه بها، فهو رسول الله (ﷺ)[215]. وقال الله لمحمد(ﷺ): ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ **[آل عمران: 44]** وهي إشارة إلى ما كان من تسابق سدنة الهيكل إلى كفالة مريم، حين جاءت بها أمها وليدة إلى الهيكل وفاء لنذرها وعهدها مع ربها، والنص يشير إلى حادث لم يذكره «العهد القديم» ولا الجديد المتداولان، ولكن لا بد أنه كان معروفاً عن الأحبار والرهبان حادث إلقاء الأقلام ـ أقلام سدنة الهيكل ـ لمعرفة من تكون مريم من نصيبه.

والنص القرآني لا يفصل الحادث ربما اعتماداً على أنه كان معروفاً لسامعيه أو لأنه لا يزيد شيئاً في أصل الحقيقة التي يريد عرضها على الأجيال القادمة، فلنا أن نفهم أنهم اتفقوا على طريقة خاصة ـ بواسطة إلقاء الأقلام ـ لمعرفة من هي من نصيبه، على ما نصنع في «القرعة» مثلاً، وقد ذكرت بعض الروايات أنهم ألقوا بأقلامهم في نهر الأردن، فجرت مع التيار إلا قلم زكريا فثبت، وكانت هذه هي العلامة بينهم، فسلموا بمريم له.

وكل ذلك من الغيب الذي لم يكن الرسول (ﷺ) حاضره، ولم يبلغ إلى علمه، فربما كان من أسرار الهيكل التي لا تفشى ولا تباح للإذاعة بها ـ فاتخذها القرآن في مواجهة كبار أهل الكتاب وقتها ـ دليلاً على وحي من الله لرسوله الصادق، ولم يرد أنهم ردوا هذه الحجة، ولو كانت موضع جدال لجادلوه، وهم قد جاؤوا للجدال[216].

وهكذا نرى القرآن الكريم يعطي الصورة الصحيحة بعلم في دقائق حال عيسى ونشأته

---

[215] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 182/4.

[216] في ظلال القران، 396/1.

وأمه، وهذا معين للباحثين عن الحقيقة في معرفة قصة عيسى عليه السلام الصحيحة بعكس الأناجيل التي يؤمن بها النصارى فإنها متعارضة ومتناقضة، وفي بعضها ما يؤكد افتراءات اليهود على السيدة مريم، ففي إنجيل لوقا ومتّى حديث عن نسب عيسى عليه السلام وأنه عيسى ابن يوسف النجار، وإن ورد الاختلاف في أسماء وأعداد أجداده إلا أن الأناجيل متفقة على أن عيسى ابن يوسف النجار، وأن يوسف النجار كان خطيباً لمريم قبل ميلاد المسيح، وأنه تزوجها وأنجب منها أولاداً اخرين كانوا بمثابة الإخوة لعيسى، وقصة يوسف النجار في الأناجيل متقاربة ومختلفة، وفي حين أثنى القرآن على مريم ووفاها حقها، فإن الأناجيل لم توضح مكانتها عند الله، في حين يبين القرآن الكريم طهارتها وشرف أصلها واصطفائها[217].

إن ما ورد في الأناجيل في شأن عيسى عليه السلام، وفي شأن مريم متضارب متناقض بعيد عن الحقيقة منحرف عن الصواب، حتى شرّاح الأناجيل قد أصابتهم الحيرة ووقعوا في أخطاء وتناقضات وهم يشرحون الأناجيل، وقصة يوسف النجار قصة متضاربة متناقضة مدسوسة مكذوبة، وليس له أي صلة بمريم عليها السلام[218].

ولم يكن لعيسى إخوة لا ذكور ولا إناث، وهذه التخرُّصات ليس لها سند من التاريخ، وعيسى ولد من مريم العذراء التي لم يكن لها زوج[219].

وهذا التباين بين ما ورد في الأناجيل وبين ما ذكره القرآن الكريم عن مريم ونشأتها وطهرها وعفتها وحملها بالمسيح عليه السلام من غير أب لقدرة الله وحكمته يرد على مزاعم المستشرقين بأن قسماً كبيراً من أخبار القرآن الكريم مقتبسٌ من كتب اليهود والنصارى، فالقرآن كتاب الله تعالى الذي نزل بالحق على رسول الله (ﷺ) الذي جاء بالحق، والذي لا ينطق إلا بالحق، والقرآن مهيمن على الكتب السابقة وهو محفوظ من التحريف والتبديل[220].

. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **[آل عمران: 62].**

---

[217] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 664/2.

[218] المرجع نفسه، ص 665/2.

[219] محمد علي البار، دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية، دار القلم، دمشق، ط1، 2006م، ص 101.

[220] الشرقاوي، المرجع نفسه، 665/2.

. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ **[الحجر: 9]**.

. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ **[النساء: 82]**.

إن النبي (ﷺ) أخبره الله عز وجل أن مريم البتول، أم عيسى عليه السلام كانت أفضل النساء، واختارها الله وفضلها على نساء العالمين، وبين ذلك لمن حوله، وحديث القرآن الكريم على مريم ومكانتها وتفضيلها وقصة ابنها المسيح دليل على أن القرآن الكريم كلام الله.

وتوجد صورة في القرآن الكريم باسم سورة مريم، وهي السورة التاسعة عشر من القرآن الكريم، واسم هذه السورة إنما هو تكريم لمريم، أم المسيح عيسى عليه السلام، ومثل هذا التكريم أيضاً لم يسبغ على مريم في إنجيل المسيحيين، ولو أننا تصفحنا (66) سِفراً للبروتستانت، و(73) سفراً للروم الكاثوليك فإننا لا نجد أياً منها قد عنون تكريماً لمريم ولابنها المسيح عليه السلام، وسنجد كتباً من الإنجيل بعنوان: متّى أو مرقُس أو لوقا أو يوحنا أو بطرس أو بولس، وستجد عناوين لأشخاص أقل أهمية وشهرة، ولكنك لن تجد واحداً بعنوان عيسى أو بعنوان مريم.

ولو كان محمد (ﷺ) هو مؤلف القرآن لما تعذَّر عليه أن يقدم اسم أمه امنة مع اسم مريم أو المسيح، ولما تعذَّر عليه أن يقدم أيضاً اسم خديجة زوجته الوفية أو اسم فاطمة ابنته المحبوبة، ولكن كلا ثم كلا؛ لأن القرآن ليس من صنع يديه[221].

6 . بشارة الملائكة لمريم عليها السلام بعيسى عليه السلام وجملة من أوصافه:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ **[آل عمران: 45-46]**.

[221] أحمد ديدات، المسيح في الإسلام، ترجمة وتحقيق: محمد مختار، دار الفضيلة للنشر، الرياض، السعودية، 1988م، ص 27.

بعد أن اصطفى الله عز وجل مريم عليها السلام وطهرها وأمره بالاجتهاد في العبادة والمداومة على الطاعة، وأوصاها بالإخلاص، والخشوع والخضوع له سبحانه، تهيأت بذلك مريم عليها السلام للمعجزة الكبرى والآية العجاب وهي حملها بعيسى عليه السلام على خلاف العادة دون أب.

وكما بشرتها الملائكة بأنها المصطفاة الطاهرة جاءتها بشارة أخرى وهي أن المولى عز وجل اصطفاها لتلك المهمة العظيمة الشأن[222].

أ . ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ [آل عمران: 42]

جاءت البشارة عن طريق جمع من الملائكة الكرام، وفي سورة مريم أتاها جبريل عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ **[مريم: 19]**، ولا مانع من تكرار البشارة، بشرتها الملائكة أولاً وعلى رأسهم جبريل، ثم تمثَّل جبريل عليه السلام في صورة بشرية فأعاد بشارتها، فأعادتها لتعجُّبها، زيادة في الاطمئنان واليقين واستفساراً عن كيفية تحقق هذه البشارة العجيبة[223].

ب . ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾

وسمَّى الله عيسى عليه السلام بأنه كلمته في هذه الآية (بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم)؛ لأن عيسى خُلق ووجد بكلمة الله (كن) حيث أراد أن يخلقه خلقاً خاصّاً مباشراً، فقال له (كن)، وهذه هي الكلمة الإلهية، فكان ووجد كما أمر الله وهي الكلمة الواردة في قوله تعالى:﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[يس: 82]**، لقد خلق الله عيسى عليه السلام بكلمة (كن)، وعبر عنه بأنه كلمة منه كما خلق آدم بكلمة (كن)[224].

وأحال القرآن الكريم المستغربين من خلق عيسى على خلق آدم الذي خلقه الله بكلمة

---

[222] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 667/2.

[223] المرجع نفسه، 668/2.

[224] السمين الحلبي، الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط3، 2011م، ص 173/2.

(كن) دون أب أو أم، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدم خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 59]**.

و(من) في قوله (بكلمة منه): حرف جر وهي ليست للتبعيض، بل هي لابتداء الغاية، أي أن هذه الكلمة من عند الله، أي: ابتدأت من عند الله وهي كلمة (كن).

وفي قوله تعالى (بكلمة منه) لفظة (من) ليست للتبعيض، إذ لو كان كذلك لكان الله متجزِّأً متبعِّضاً متحمِّلاً للاجتماع والافتراق، وكل من كان كذلك فهو محدَث، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل المراد من كلمة (من) ههنا ابتداء الغاية؛ وذلك لأنها في حق عيسى عليه السلام لما لم تكن واسطة الأب موجودة، صار تأثير كلمة الله تعالى في تكوينه وتخليقه أكمل وأظهر، فكان كونه كلمة الله مبدأً لظهوره ولحدوثه، هذا معنى (من)، ومعنى كونه (كلمة) لا ما يتوهّمه النصارى والحلولية[225].

وكلمة الله التي ألقاها إلى مريم هي عيسى ابن مريم (اسمه المسيح ابن مريم) [226]، فالمسيح سمّي بكلمة الله؛ لأنه وجد من غير أب بكلمة (كن) على خلاف أفراد بني آدم، فكان تأثير الكلمة في حقّه أظهر وأكمل[227].

ج. ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾

المسيح لقب، وعيسى هو الاسم، وابن مريم الوصف، ولقب عيسى هو المسيح، وورد هذا اللقب إحدى عشرة مرة في القرآن الكريم، ونرى أن لقبه (مسيح) جمع بين اسم الفاعل واسم المفعول، فمجموع الماسح والممسوح يكون (مسيحاً) صيغة مبالغة من المسح، فعيسى عليه السلام كان ماسحاً يمسح بيده على المريض فيبرأ ويشفى، وكان ممسوحاً مسحه الله بالبركة، وباركه وكونه ماسحاً وممسوحاً جعله مسيحاً عليه السلام. وأما معنى المسيح عند النصارى فهو

---

[225] فخر الدين الرازي، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة، دمشق، ط1، 1401هـ 1981م، 49/8.

[226] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 202/4.

[227] الالوسي، روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ، 160/3.

المكرّس للخدمة والفداء[228].

وعيسى معناه السَّيد، وقيل: مشتق من العيس، وسُمّي به لأنه لونه عليه السلام كان أبيضاً مشرّباً بالحمرة[229] وعيسى أي: الخالص الذي يكون من شيء واحد لم يختلط بغيره، فكان خلْقه من شطر أمه فقط، دون أن يختلط هذا

الشطر بشطر اخر من رجل فيكون أبا له ككل البشر[230].

وابن مريم لقب لعيسى عليه السلام، ووردت جملة (ابن مريم) ثلاث وعشرين مرة في القرآن ينسب عيسى فيها كلها إلى أمه مريم.

إن القرآن الكريم حريص على تمييز عيسى عليه السلام بالكلمات الثلاثة لما رافق خلقه وولادته وحياته من معجزات؛ ليؤكد على بشريته وينقض مزاعم النصارى حول ألوهيته، ونسبته إلى أمه مقصودة ومرادة؛ ليكذب من زعم أنه ابن الله، فالقرآن يبين لهم: أنه ابن مريم وأمه معروفة، أنتم تعرفونها عن يقين، فكيف صار ابناً لله مع أنه ابن مريم؟[231]

إنَّ ولادة عيسى عليه السلام من غير أب تبين قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه الفاعل المختار المريد، وأنه لا يتقيد في تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التي نرى العالم يسير عليها، فالأسباب الجارية لا تقيد إرادة الله لأنه خالقها ومبدعها ومدبرها والأشياء لم تصدر عن الله كما يصدر الشيء عن علّته، والمسبَّب عن سببه من غير أن يكون للعلة إرادة في معلولها، بل كانت بفعله ـ سبحانه ـ وبإرادته التي لا يقيدها شيء.

وخلق عيسى من غير أب بلا ريب إعلان لهذه الإرادة الأزلية بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية، وفي عصر ساده نوع من الفلسفة أساسها أن خلق الكون كان مصدره الأول كالعلة عن معلولها، فكان عيسى آية الله على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يتقيد بالأسباب الكونية، وأن

---

[228] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 203/4 ـ 204.

[229] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 670/2.

[230] عبد المجيد العرابلي، أحبك أيها المسيح، دار يافا العلمية للنشر، الأردن، ط1، 2009م، ص 22.

[231] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 205/4.

العالم كان بإرادته، ولم يكن سبحانه بمنزلة العلة من المعلول تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

إن ولادة عيسى عليه السلام من غير أب إعلان لعالم الروح بين قوم أنكروها... فلما جاء عيسى من غير أب وكان إيجاده من روح مخلوقة، كان ذلك إعلاناً لعالم الروح بين قوم أنكروها ولم يعرفوها، فكان هذا قارعة قرعت حسَّهم ليدركوا الروح وكان آية معلمة لمن يعرف الإنسان، بأنه جسم لا روح فيه[232].

كما أن خلق عيسى عليه السلام من غير أب صورة مكملة للصور الأربع التي ضربها الله أمثلة ناطقة بقدرته العظيمة على الخلق، وهي:

الصورة الأولى: الخلق من العدم، فمن التراب أوجد الله سيدنا آدم عليه السلام أبا البشرية، وهو مثال واحد لم يتكرر في الخلق.

الصورة الثانية: إيجاد أنثى من ذكر، لا أم لها فأوجد الله سبحانه زوج آدم. وادم عزب ليس له زوج. وهو مثال واحد، لم يتكرر في الخلق.

الصورة الثالثة: إيجاد ذكر من أنثى لا أب له، فأوجد الله سبحانه وتعالى سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ومريم عذراء ليس لها زوج وهو مثال واحد لم يتكرر في الخلق.

الصورة الرابعة: إيجاد الأبناء والبنات من زوجين ذكر وأنثى وهي الصورة المتكررة، وسنة الله في الخلق[233].

د. ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾

ومن صفات عيسى عليه السلام المذكورة في هذه الآيات: (وجيهاً في الدنيا والاخرة)، إنه ذو وجه ومنزلة عالية وذو شرف وكرامة عند الله في الدنيا وحفظه وحماه من أعدائه، وفي الاخرة

[232] عبد الرحمن حللي، رسالات الأنبياء: دين واحد وشرائع عدة دراسة قرانية، مركز نماء للدراسات والبحوث، بيروت. لبنان، ط1، 2015م، 280/2.

[233] محمد عبد المجيد لاشين، أنباء الرسالات السماوية، دار الافاق العربية، القاهرة، ط1، 2009م، ص 326.

حيث جعله في أعلى منازل الجنة مع سائر المرسلين، يقال هذا وجيه: إذا كان شريفاً يقدره الآخرون[234].

كما أن تعرض اليهود له بالأذى والاضطهاد لم ينقص من قدره ولم يقدح في وجاهته ومنزلته، فالأنبياء هم أشرف خلق الله وأكرمهم وأعزهم، وقد تعرضوا للأذى والاضطهاد، فلم يزدهم ذلك إلا عزة ورفعة وكرامة وإباء، وعزيمة ومضاء وإيماناً وتسليماً ويقيناً وتثبيتاً[235].

هـ . ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ *﴾

عيسى عليه السلام من عباد الله المقربين، الذين قربهم الله منه وأعلا منازلهم عنده، والمقربون هم السابقون الذي يسبقون أصحاب اليمين إلى الجنة، ومنازلهم في الجنة أعلى من منازل أصحاب اليمن، والمرسلون هم أئمة المقربين السابقين[236].

و . ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾

عيسى عليه السلام سيكلم الناس في المهد، فور ولادته وذلك عندما يفاجؤون بمريم تحمله، وتذهب بهم الظنون كل مذهب، فينطقه الله وهو ابن ساعات ويكلم الناس ويقدم نفسه إليهم، ويبرئ أمه من كل تهمة[237]. وإثبات براءتها وبيان عبوديته ونبوَّته وبركته وبرُّه بأمه، ونفي كونه جباراً شقياً، فهو برٌّ رحيم رفيق حليم[238].

كما أنه سيكلمهم في حال كهولته (وكهلاً) الكهولة في الأربعين وقيل ثلاث وثلاثين، والكهل ما اجتمعت قوته وكمل شبابه، وذكر هنا كلامه في الكهولة لتشير أمُّه بأنه سيبلغ مبلغ الرجال، وقيل لبيان فصاحة كلامه وبلاغته في المهد وفي الكهولة على السواء، وقيل إشارة إلى أنه سيرفع إلى السماء ثم ينزل إلى الأرض في اخر الزمان فيكلم الناس ومن فوائد كلامه في

---

[234] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 205/4.

[235] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 670/2.

[236] الخالدي، المرجع نفسه، 205/4.

[237] الخالدي، المرجع نفسه، 206/4.

[238] الشرقاوي، المرجع نفسه، 672/2.

الكهولة أيضاً: هداية الناس إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم[239].

ي. ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ *﴾

وأما سمته والموكب الذي ينتسب إليه (ومن الصالحين) [240]، معدود فيهم، والصالح: من صلحت سريرته وعلانيته بالإخلاص لله، فختم الله تعالى أوصاف عيسى عليه السلام بالصلاح، وهو رتبة من أعظم المراتب وأشهر المقامات، والصلاح يقتضي المواظبة على الطاعات حتى الممات[241].

ويكون الإخبار عن صفات وأحوال عيسى عليه السلام هكذا: إن الله يبشرك بعيسى المسيح وجيهاً في الدنيا والاخرة ومقرَّباً عند الله في الدنيا والاخرة، ومكلِّماً الناس طفلاً في المهد، ومكلِّماً الناس كهلاً شيخاً وصالحاً من الصالحين[242].

وهكذا بشَّرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى ابن مريم، فتضمنت نوعه، وتضمنت اسمه ونسبه، وظهر في هذا النسب أن مرجعه أمه، ثم تضمنت البشارة صفته ومكانه من ربه[243].

وعرفت مريم رضي الله عنها صفات ابنها عيسى عليه السلام في هذه البشارة قبل ولادتها له، وذكر هذه الأحوال والصفات والتقلبات والتغيرات على عيسى عليه السلام يؤكد على بشريته[244].

فهو عليه السلام منذ أن خلقه الله مولوداً طفلاً صغيراً إلى كهولته، يتقلب في الأحداث ويتأثر بها ويتغير بمرور الأزمنة والأيام عليه، ويتحول من صغر إلى كبر ومن حالٍ إلى حال، ولو كان إلهاً أو ابناً لله ـ كما زعم النصارى الكافرون بالتوحيد ـ لما حصل له ذلك، ولقد أخبر الله

[239] المرجع السابق، 672/2.

[240] في ظلال القران، 398/1.

[241] محمد صالح المنجد، تفسير الزهراوين البقرة وال عمران، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 2016م، ص 557.

[242] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 206/4.

[243] في ظلال القران، 398/1.

[244] الخالدي، المرجع نفسه، 206/4.

عز وجل عن حالات عيسى عليه السلام التي يتقلَّب بها في عمره، كتقلُّب بني آدم في أعمارهم صغاراً وكباراً، إلا أن الله خصَّه بالكلام في المهد آية لنبوَّته، وتعريفاً من الله للعباد بمواقع قدرته[245].

7 . موقف مريم من هذه البشارة:

قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 47]**.

ولما سمعت مريم البشارة من جبريل عليه السلام بأنها ستنجب عيسى فوجئت ودُهشت واستغربت إنها فتاة عذراء، ولم تتزوج، فمن أين يأتيها ذلك الولد؟ ولقد صارحت جبريل باستغرابها؟ تركت جبريل وتوجهت إلى الله وناجته ونادته: (رب) أي: يا رب يا الله. (أنَّى): اسم استفهام بمعنى (كيف) ويدل على المفاجأة والدهشة. (يكون): فعل مضارع ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، و(ولد) فاعل للفعل (يكون) التام. (ولم يمسسني بشر): الجملة في محل نصب حال: أي: وحالي أني لم يطأني بشر ولست ذات زوج ولا عزمت أن أتزوج[246].

وجاءها الجواب يردّها إلى الحقيقة البسيطة التي تخفى عن البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسبَّبات، لعلمهم القليل ومألوفهم المحدود:

. ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 47]**

وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب وتزول الحيرة، ويطمئن القلب، ويعود الإنسان على نفسه يسألها في عجب: كيف عجبتِ من هذا الأمر الفطريّ الواضح القريب، وهكذا كان القرآن ينشئ التصور الإسلامي لهذه الحقائق الكبيرة، بمثل هذا اليسر الفطري القريب، وهكذا يجلو الشبهات التي تعقّدها الفلسفات المعقَّدة، ويقرُّ الأمر في القلوب وفي العقول سواء[247].

---

[245] المرجع السابق، 207/4.

[246] تفسير الزهراوين البقرة وال عمران، ص 558.

[247] في ظلال القرآن، المرجع السابق،1/ 398.

﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ **[آل عمران: 47]** أي: كهذا الخلق الذي تجدينه في أن يكون لك ولد من غير أن يمسَّك رجل، وهو إبداع بخلق الله تعالى، ويبدع ما يشاء ويريد إبداعه، وهذه الجملة السامية تفيد أموراً منها:

أن هذا النوع من التكوين، وهو إنجاب من غير أبٍ هو في قدرة الله تعالى؛ لأنه الخالق المبدع، وما هو غريب عليكم هو في قدرته سبحانه، لأن من خلق الخلق الأول وخلق السنن الكونية وغيرها قادر على تغييرها، لأنه مبدعها ومنشئها.

أن خلق عيسى أمر من الله تعالى، وعيسى ليس إلا مخلوقاً من مخلوقاته، فهو أبدعه كما أبدع غيره من المخلوقات، فليس إلهاً ولا ابن إله.

أن خلق الله تعالى بمشيئته وإرادته، وهذا فيه إشارة إلى السبب الذي من أجله خلقه الله تعالى من غير أبٍ، وهو أن المخلوقات لا تصدر عن الله صدور المعلول عن علّته، ولكنها توجد بإيجاده، وتنشأ بإبداعه ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ **[الأنعام: 101]** وفي ذلك ردّ علميٌّ على أهل الفلسفة المادية التي تقول إن العالم نشأ عن العقل الأول نشوء المعلول عن علّته، ثم أشار سبحانه إلى عظيم قدرته[248]، بقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *﴾، أي أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يوجد أمراً لا يوجده إلا بكلمة (كن)، وعبَّر سبحانه عن الإيجاد بـ(قضى)؛ للإشارة إلى أن إيجاده للأشياء ليس إلا من قبل الحكم عليها بالوجود، فإذا حكم بالوجود في أمر نفذ حكمه، وحكمه هو أن يقول (كن)، فيترتب على ذلك أن يكون.

وهل الأشياء حقيقة تنشأ بمجرد الإرادة الإلهية أم أنَّ هذا تصوير لسهولة الخلق؟

الظاهر أن هذا بيان لسهولة ذلك على خالق الخلق وبارئ النسم، فهو تمثيل لبيان قدرة الله عزَّ وجل الشاملة، وسهولة الإنشاء عليه سبحانه وتعالى، ونفاذ إرادته في خلقه، ولذلك جاءت الإجابة في مثل هذا المقام بهذا المعنى في سورة مريم، فقد قال الله تعالى في الإجابة عن استغرابها

الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث 206/4.

[248] محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، 1225/3.

في تلك الصورة: ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آية لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ **[مريم: 21].**

وهذا التعبير الكريم صريحٌ في أن السياق لبيان سهولة مثل هذا الخلق على خالق الخلق، ويفيد أيضاً أن المقصود بيان أن الله سبحانه فعَّال لما يريد، وهو على كل شيء قدير، ربنا لا ترهقنا من أمرنا عسراً [249].

وهكذا أخذت مريم رضي الله عنها البشارة من جبريل عليه السلام وصارت على يقينٍ بأن الله سيهبها ولداً وما بقي إلا تنفيذ هذه البشارة، وتحقيق ما وعدها الله به[250].

وتمضي الآيات بعد ذلك في سورة آل عمران لتواصل الحديث عن صفات المسيح عليه السلام ونعم الله عليه، وتأييده له بالمعجزات التي تدل على نبوته كما تدل على بشريته وعن حقيقة الرسالة التي جاء بها، ويطوي السياق الحديث عن مريم عليها السلام وينتقل للحديث عن المسيح ابن مريم وعن موقف الناس من دعوته، وقد ورد الحديث عن مريم في سور أخرى في مقدمتها سورة مريم التي واصلت الحديث عنها بمزيد من التفصيل، وسميت بذلك الاسم تشريفاً وتكريماً لمريم عليها السلام وفيما يلي ننتقل لقصة مريم من خلال سورة مريم[251].

8 . الحوار بين جبريل ومريم قبل النفخ:

قال الله عزَّ وجل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آية لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ **[مريم: 16-21].**

---

[249] محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، 1226/3.

[250] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 211/4.

[251] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 673/2.

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ﷺ): ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، والمراد في الكتاب هنا القرآن الذي أنزله الله عليه، أي: اذكر يا محمد للناس في آيات القرآن التي أنزلتها عليك، قصة مريم وحملها بعيسى ووضعها له، واتل عليهم هذه الآيات وأسمعهم إياها.

وذكرك لهذه الآيات دليل على أنك رسول الله، وأن الله هو الذي أنزلها عليك، فلولا إنزالها عليك من الله لما علمت بها، لأنك أمّيٌّ لم تتعلمها من أحد ولم ترد في كتب النصارى على ما وردت في القرآن، وهذا الحديث يدل على إثبات نبوة محمد وتقرير حقيقة أن القرآن كلام الله تعالى[252].

أ. أين كانت مريم حين جاءها جبريل بصورة بشرية؟

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، خرجت مريم من عند أهلها وابتعدت عنهم وانفردت من دونهم وذهبت إلى مكان جهة الشرق، أي شرق بيت المقدس، وإنما توجهت إلى ذلك المكان لتعتكف وتختلي في العبادة، ففي الخلوة رياضة للنفس وسموٌّ بالروح وشد للهمة وصفاء للقلب وزيادة قرب من المولى عز وجل[253].

وجاءها الملَك في هذا المكان الطاهر المبارك حيث البركات والرحمات والنفحات[254].

ب. ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾

لما ذهبت إلى ذلك المكان الشرقي، اتخذت حجاباً ساتراً يسترها عن أهلها وعن الناس الاخرين، حتى لا يشغلها شيء عن العبادة وعن رؤية أنوار الحق.

ج. ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾

هو جبريل عليه السلام، أرسله المولى ليبشرها بعيسى عليه السلام عندما كانت في ذلك

[252] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 213/4.

[253] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 677/2.

[254] الشرقاوي، 677/2.

المكان الشرقي وحيدة تخلو إلى نفسها، وتشتغل في أورادها وأذكارها ومناجاتها، شاء الله أن يحقق البشارة السابقة التي بشرها بها جبريل عليه السلام، وأن ينفذ لها وعده بإنجابها الولد، وكان ذلك بعدما اتخذت حجاباً في ذلك المكان الشرقي[255].

والإضافة في (روحنا) للتشريف والتعظيم وبيان أن جبريل عليه السلام رسول رب العالمين[256]، وأطلق القرآن الكريم على جبريل عليه السلام (روحاً) في أكثر من آية:

منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ **[الشعراء: 192-194]** .

ومنها قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ **[القدر: 3-4]**، وعطف في الآية (الروح) على الملائكة، مع أن جبريل أحد الملائكة من باب عطف الخاص على العام، لإبراز أهمية هذا الخاص.

. منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آية مَكَانَ آية وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ **[النحل: 101-102]**، والكلام في الآية عن إنزال القرآن على رسول الله (ﷺ)، وأطلقت الآية على جبريل عليه السلام أنه (روح القدس)، أي: الروح الأمين المقدس المطهرّ، الذي هو منزَّه عن كل مخالفة أو ذنب أو معصية.

وإضافة جبريل إلى الله في قوله (روحنا) من باب تكريمه وتعظيمه، وذلك كإضافة الرسول إلى الله في مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **[المائدة: 19]**، والمراد بقوله (رسولنا) هنا محمد (ﷺ)[257].

---

[255] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 218/4.

[256] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 677/2.

[257]الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 219/4.

د . ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا *﴾

تمثل جبريل عليه السلام لمريم وهو صورة شاب سويّ الخلق، لتستأنس به ولا تنفر منه، ولتتفهم كلامه ولأنها لا تطيق رؤيته بصورته الأصلية[258].

وتحوُّل الملك جبريل عليه السلام إلى بشر سوياً، دليل على قدرة الملائكة على التحوُّل من صورتهم الملائكية إلى صورة بشرية، وأنهم يفعلون ذلك بإذن الله ومشيئته سبحانه، وأنهم عندما تنتهي مهمتهم التي كلفهم الله بها يعودون إلى صورتهم الملائكية الحقيقية.

وعندما يتحولون إلى الصورة البشرية فإنهم يتمثلون في صورة رجال، وليس في صورة نساء، كما جاءت الملائكة إبراهيم ولوطاً عليهما السلام، وعدم تمثلهم في صورة نساء ليؤكدوا على تكذيب الكفار الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً[259].

هـ ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا *﴾

ها هي مريم في خلوتها، مطمئنة إلى انفرادها ولكن ها هي ذي تُفاجأ مفاجأة عنيفة، إنه رجل مكتمل سوي، ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ **[مريم: 17]**، وها هي تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفاجؤها رجل في خلوتها، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستشير مشاعر التقوى في نفس الرجل، والخوف من الله والتحرج من رقابته في هذا المكان الخالي: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ **[مريم: 18]**، فالتقي ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان. وهنا يتمثل الخيال تلك العذراء الطيبة البريئة ذات التربية الصالحة، التي نشأت في وسط صالح وكفلها زكريا بعد أن نذرت لله جنيناً وهذه هي الهِزَّة الأولى[260].

ونظراً لعفافها وطهرها وورعها، فإنها تعوذت بالله تعالى من تلك الصورة الجميلة الفائقة

---

[258] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 678/2.

[259] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 220/4.

[260] في ظلال القران، 2305/1.

الحسن ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾، فجعلت الله تعالى معاذاً لها منه، وجعلت جانب الله تعالى ملجأً مما هم به، وهذه موعظة له، وذكرت صفة الرحمن لأنها أرادت أن يرحمها الله بدفع من حسبته أجنبياً عليها، وأكدت قولها بالتذكير له بالموعظة بأن عليه أن يتقي ربه وهذا أبلغ وعظ وتذكير وحث على الحمل بتقواه بصيغة الشرط لتهييج خشيته، ليكون ممن يتقي الله تعالى[261].

وهذا دليل على أن التعوذ بالله أو بالرحمن هو من شرعة الله تعالى، وهو من سمات المسلمين المؤمنين والمتقين وعباد الله الصالحين، بالاستعاذة بالله تعاذ من كل أمر، والتعوُّذ من الشيطان الرجيم الذي يرافق الإنسان ويسعى لغوايته وإفساده المتعوّذ من ذلك ويحفظه الله من مكائده وغوايته[262].

و. مفاجأة مريم عليها السلام من هدف جبريل ومهمته:

وبينما كانت مريم عائذة بالله تناشد التقوى في قلب هذا الرجل، وهي تحت تأثير الغمرة المفاجئة، هزَّ الرجل مسامعها هزّة ثابتة أعنف، وذلك عندما صارحها بهدفه منه، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ **[مريم: 19]**، أخبرها أنه رسول من الله، أرسله الله إليها وهو مكلف بمهمة محددة إنه يريد أن يهبها غلاماً.

فهي قد سبق علمها بذلك، ولكن لعلها مع الهزة المفاجئة والخوف الشديد والخجل البالغ من رؤية الرجل الغريب أمامها نسيت ذلك، وسيطر عليها الفزع والتوتر والقلق والخجل، وبما أنه صارحها بأنه سيهب لها غلاماً زكياً. والزكي هو الطاهر من الذنوب، والمطهَّر من الخبائث والمعاصي والنقائص. فلا بدَّ أن تستعلي على خجلها وهي العذراء البتول العفيفة، ولا بدَّ أن تصارحه فهذا الموقف لا ينفع فيه إلا المصارحة[263].

---

[261] محمد مصطفى الزحيلي، شرعة الله للأنبياء في القران الكريم والسنة، ص 606.

[262] المرجع نفسه، ص 606.

[263] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 222/4.

ز . تعجُّب مريم عليها السلام من البشارة:

قال تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ **[مريم: 20].**

علمت مريم عليها السلام وأيقنت أن هذه البشارة صادقة، وأن الذي بين يديها ملك مرسل من عند الله تعالى، ولكنها تعجبت وتساءلت عن كيفية تحقيق هذه البشارة العجيبة؛ لأن العادة أن الولادة لا تكون إلا عن حمل من رجل، والحمل إما أن يكون من زواج شرعي أو طريق غير شرعي، وهي عليها السلام لم يمسسها بشر بزواج، وحاشاها أن تكون بغياً، والبغيّ: هي الفاجرة التي تبغي الرجال في الحرام[264].

ح . جواب جبريل عليه السلام عن سؤال مريم التعجُّبي:

قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آية لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ **[مريم: 21].**

. ﴿قَالَ كَذَلِكِ﴾

أي الأمر كما تقولين من أنك غير متزوجة ولست بغياً.

. ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾

فالمولى عز وجل هو القادر، وقدرته مطلقة وإرادته محققة، لا يحدُّها حدود، ولا تقيدها قيود، ومن خلق آدم من غير أم ولا أب وخلق حواء من أحد أضلاع آدم: فهو قادر على خلق عيسى من أم دون أب.

. ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آية لِلنَّاسِ﴾

اللام في (لنجعله) لام التعليل، والهاء فيها ضمير يعود على عيسى عليه السلام، أي: خلقنا عيسى بهذه الكيفية لنجعله آية للناس على قدرتنا المطلقة وإرادتنا النافذة ليعرفوا من هذه الآية

[264] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 682/2.

أن ما ألفوه واعتادوه في حصر التناسل عن طريق التزاوج بين الذكر والأنثى، إنما يقيدهم هم، ولكنه لا يقيدنا نحن، فنحن نفعل ما نشاء.

. ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾

وخلقناه هكذا لنجعله رحمة منا للناس، فسوف نبعثه نبياً رسولاً، والرسول رحمة منا للعالمين.

. ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾

هكذا أبلغ جبريل عليه السلام المتمثل في صورة بشر سوي مريم بالأمر وأزال استغرابها، بالإحالة على قدرة الله النافذة المطلقة وانتهى كل شيء وعلقت الآية على ذلك بقولها ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾، أي: وكان خلق عيسى أمراً مقضياً مفروغاً منه[265].

وبذلك انتهى الحوار بين الروح الأمين وبين مريم العذراء، ولم تفصل لنا الآيات كيفية نفخ جبريل في مريم؛ لأن هذه كيفية غيبية، غير قابلة للقياس بالمقاييس العقلية التي تقيس بها عقولنا الأحداث وتحللها، فهو فوق مستوى عقولنا ومداركنا وتصوراتنا، وكأن هذه الجملة ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ تدعونا إلى تجاوز الخوض في نفخ جبريل في مريم، وعدم الوقوف عنده، بل الانتقال منه إلى مشاهد القصة اللاحقة، فالأمر قد قضي وجبريل نفخ في مريم وحملت بعيسى وانتهى كل شيء. وهناك آيات أخرى ذكرت لنا أن جبريل عليه السلام نفخ في مريم، فحملت بعيسى، لكن هذا النفخ مجمل غير مفصل[266]. وهذا يأتي لاحقاً بإذن الله تعالى.

9 . وقوع النفخ في مريم عليها السلام:

بعد أن سكنت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله، وأيقنت أن تلك إرادة الله وحكمته نفخ فيها روح القدس فحملت بعيسى عليه السلام.

ولقد طوى السياق القرآني في سورة مريم الحديث عن نفخ روح القدس عليه السلام في

[265] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 225/4.

[266] المرجع السابق، 226/4.

مريم، وجاء الحديث عن النفخ في سورة مريم وسورة التحريم، وفي ذلك إشارة إلى الوحدة القرآنية، فكل آية لها سياقها الذي ينتظم مع سابقها ولاحقها، وكل آية لها صلتها بموضوع السورة ولها اتصالها بالسياق العام للقران الكريم، وحين تجمع الآيات المتفرقة في الموضوع الواحد نجد أنفسنا أمام نسيج فريد، وبناء محكم متلائم وموضوع متكامل[267].

وصدق المولى تعالى إذ يقول: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ **[هود: 1]**.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ **[الزمر: 23]**.

وقال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ **[الأنبياء: 91]**. أخبرنا الله أن جبريل عليه السلام نفخ في مريم من روح الله فحملت بعيسى عليه السلام، وورد ذلك في معرض الثناء على مريم رضي الله عنها، والإشارة بعفتها وإحصانها.

وقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آية لِلْعَالَمِينَ﴾ **[الأنبياء: 91]**، وهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن نعم الله ورحمته بالأنبياء والهم، وفيها بيان لما كانت عليه مريم من العفة والطهارة، وأن الله عز وجل قد أرسل إليها جبريل فنفخ فيها لتحمل بولد من غير أب، لتكون وابنها آية للعالمين، وبين القرآن الكريم بأن مريم محصنة لنفسها وفرجها ومتسامية ومستعلية على الضعف والشهوة وارتفاعها إلى منازل المقربين عند الله، وانشغالها بالعبادة والذكر وسعادتها بمناجاة الله والاتصال به، فقد أحصنت مريم فرجها عليها السلام، فكانت عفيفة طاهرة.

والثناء على مريم بأنها أحصنت فرجها، والشهادة لها بعفتها وطهارتها، لتكذيب اليهود الذين اتهموها في عرضها وقالوا فيها قولاً عظيماً، وهذه الشهادة لها في القرآن دليل على أن

---

[267] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 685/2.

القرآن كلام الله، وأن محمداً هو رسول الله (ﷺ)[268].

وأما في سورة التحريم، فقد قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ **[التحريم: 12].**

وهذه السورة تعالج بعض الأمور التي حدثت في بيت النبوة، بين أمهات المؤمنين، وفيها يوضح المولى عز وجل أن قرابة النسب لا تغني عن قرابة الدين، فالعبرة بالإيمان والعمل الصالح، وفيها نماذج للمرأة الصالحة مع الزوج الصالح، حيث يذكر المولى عز وجل موقف امرأة نوح وامرأة لوط وهما زوجتان كافرتان كما تأتي نماذج للمرأة الصالحة، فيذكر المولى عز وجل امرأة فرعون، ثم يذكر مريم ابنة عمران، وكما أن إيمان نوح ولوط ومكانتهما عند الله وقرابتهما من المرأتين لم تشفع لهم كذلك، فإن كفر فرعون لم يغير امرأته لأنها كانت مؤمنة محسنة عابدة، صادقة صابرة صامدة، ومريم عليها السلام بنت عمران نشأت في بيت صالح وكانت عفيفة شريفة، اختارها المولى عز وجل لتكون وابنها آية للعالمين[269].

التوفيق بين (ونفخنا فيها، ونفخنا فيه):

ولما أراد الله تحقيق وتنفيذ وعده أرسل الروح الأمين جبريل عليه السلام فنفخ فيها، فحملت بعيسى عليه السلام، وفي سورة الأنبياء قال تعالى فعبر بالضمير المؤنث لها في ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾، وهذه الهاء تعود على مريم التي أحصنت فرجها؛ لأن صياغة الآية هكذا ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ **[الأنبياء: 91] .**

وفي سورة التحريم قال تعالى: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ **[التحريم: 12]** فعبر بالضمير المذكر (فيه)، والهاء تعود على الفرج (فرجها)، وهو مذكر في اللفظ والمعنى، أحصنت مريم ابنة عمران فرجها، فنفخنا في فرجها من روحنا.

وذهب بعضهم إلى أن المراد فتحة ثوب مريم، وليس فرجها هي، وقالوا إن معنى أنها صانت

---

[268] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 229/4.

[269] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 686/2.

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، فلم يمسه أحد ولم يمسَّ فتحته التي عند عنقها أحد واعتبروا هذا مبالغة في الثناء عليها والشهادة بعفتها وطهارتها، فإذا كانت قد أحصنت فرج ثوبها، ولم يقترب أحد من فتحته، فإحصانها لفرجها الحقيقي من باب أولى، وقال هؤلاء إن جبريل قد نفخ في (فرج ثوبها)، أي أمسك بفتحة الثوب ونفخ فيه، وذهبت النفخة إلى جسم مريم، ودخلت رحمها فحملت بعيسى، والقرآن الكريم قال (فنفخنا فيه)، وقال (فنفخنا فيها)، والأصل حمل النفخ على ظاهره.

فالراجح أن جبريل عليه السلام نفخ في فرجها، فذهبت النفخة إلى رحمها وحملت بعيسى، نقول بهذا ولا نخوض في كيفية النفخ، فهذه كيفية غيبية، لا نخوض فيها؛ لأن النصوص لم تذكرها، ولم تبينها، ولا تناقض بين قول الله تعالى (فنفخنا فيها) و(فنفخنا فيه).

إن قوله (فنفخنا فيها) وارد في سورة الأنبياء، وهي سورة مكية، وهو يخبر أن النفخة كانت في مريم، أي في بدنها، وهذا تعبير عام، وأما قوله (فنفخنا فيه) فهو وارد في التحريم وهي سورة مدنية، وهي نازلة بعد سورة الأنبياء والأخبار فيها أن النفخة كانت في فرجها، وهذا تعبير خاص، إذن (نفخنا فيها) ذكر للعام أولاً، (ونفخنا فيه) ذكر للخاص بعد ذلك، فلا تعارض بين الآيتين، فجبريل عليه السلام نفخ في بدن مريم، وكانت نفخته في فرجها على التخصيص[270].

ومما سبق يتضح لنا أن جبريل عليه السلام بعد أن بشر مريم بعيسى عليها السلام وأنه سيولد بقدرة الله عز وجل دون أب، قام جبريل بمهمة نفخ الروح لتحقيق الآية العجيبة[271].

10 . معنى كون عيسى (كلمة الله وروح منه).

أ . وصف القرآن الكريم المسيح بأنه ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾

تعلق النصارى بهذه الأوصاف في تبرير عقائدهم، فزعموا بأن الكلمة التي وصف بها المسيح

[270] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 231/4.

[271] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 689/2.

هي الذات الإلهية، وأوّلوا قوله تعالى أي: أنه جزء من روح الله انتقلت إلى المسيح وحلت ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، وهذه القضية من أخطر القضايا التي احتدم حولها النقاش بين المسلمين والنصارى، وعليه نرى من الضروري أن نبين المقصود الحقيقي للوصف القرآني للمسيح، ونبدأ أولاً بتحديد معنى الكلمة والروح كما وردت في القرآن الكريم. ويرى العلامة الرازي بأن المقصود بالكلمة في الآية الكريمة السابقة يحتمل خمسة أوجه:

ـ أنه خلق بكلمة الله، وهو قوله تعالى (كن) من غير وساطة الأب، فالمراد بها كلمة التكوين، فكلمة (كن) تدل على التكوين وقدرة الله عند إرادته إيجاد الشيء، وقد خلق المسيح بهذه الكلمة، وإلى هذا جمهور المفسرين، بأنه حصل بكلمة (كن) من غير مادة معتادة.

ـ أنه تكلم في المهد، واتاه الله الكتاب في تلك السن، فكان في كونه متكلماً صبياً، فتسمى كلمة بهذا التأويل.

ـ إن الكلمة كما أنها تفيد المعاني والحقائق، كذلك عيسى كان يرشد الناس إلى الحقائق والأسرار الربانية.

ـ بشَّرت بقدومه كتب الأنبياء الذين سبقوه، فلما جاء قيل: هذا هو الكلمة.

ـ إن الإنسان قد يلقب بفضل الله، ولطف الله، فكذا عيسى يسمى كلمة الله[272].

وأما معنى (الكلمة) في قوله ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾، فهي كلمة الله التي يخلق بها المخلوقات، وهي (كن) [273]، وأقرب تفسير لهذه العبارة، أنه سبحانه خلق عيسى بالأمر الإلهي الكوني المباشر، الذي يقول عنه في مواضع شتى من القرآن الكريم: إنه (كن، فيكون)، فلقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم، فخلق عيسى في بطنها من غير نطفة أب ـ كما هو المألوف من حياة البشر غير آدم ـ والكلمة التي تخلق كل شيءٍ من العدم، لا عجب من أن تخلق عيسى

[272] عبد القادر بخوش، أديان العالم المقارن، دار الضياء للنشر، الكويت، ط1، 2014، ص 195. وانظر تفسير الرازي، مفاتيح الغيب، 211/8.

[273] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 235/4.

عليه السلام في بطن مريم من النفخة التي يعبّر عنها بقوله (وروح منه)[274].

إن عيسى عليه السلام بالكلمة كان، وليس هو عين الكلمة، فالكلمة التي ألقاها الله عز وجل إلى مريم حين قال له: (كن) فكان عيسى بـ (كن) وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكن كان، فالكن من الله قوله وليس الكن مخلوقاً، وعيسى بالكن كان، ولذلك هو مخلوق من الله تعالى[275].

ب . ما هي الروح؟

ينبغي أن نقف هنا وقفة قصيرة لنقدِّم دراسة عن الروح متصلة بقوله تعالى: (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا). وقد وردت (الروح) في القرآن الكريم بمعان منها:

1 . الروح بمعنى الوحي: كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ **[الشورى: 52]**.

وقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ **[النحل: 2]**.

وقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ **[غافر: 15]**. ويسمى الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

2 . تعني الروح القوّة والثبات والنصر يؤيد الله بها من يشاء من عباده المؤمنين:

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ **[المجادلة: 22]**.

3 . من معاني الروح جبريل عليه السلام وهو أمين الوحي وأحد رؤساء الملائكة الأربعة:

---

[274] ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي بن حسن بن ناصر وعبد العزيز بن إبراهيم العسكر وحمدان بن محمد الحمدان، دار العاصمة للنشر، الرياض، السعودية، ط2، 1999، 270/1.

[275] في ظلال القران، 817/2.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ **[الشعراء: 192-194].**

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ **[مريم: 17].**

4 . قوله تعالى عنه أنه (روح القدس):

قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ **[النحل: 102].**

وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ **[البقرة: 87].**

5 . من معاني الروح أنه ملك عظيم يقوم يوم القيامة مع الملائكة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ **[النبأ: 38].**

وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ **[القدر: 4].**

وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ **[المعارج: 4].**

6 . وتعني الروح الرحمة وقدرة الله وحكمه وأمره وفرجه:

كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ **[يوسف: 87].**

7 . تعني الروح الرزق الحسن الطيب الهنيء، أو الغفران.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ **[الواقعة: 88-89].**

8 . قد تعني الروح أيضاً ما تقوم به الحياة، أي: سرّ الحياة وإضافتها إلى الله للتشريف.

كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ **[السجدة: 9].**

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ **[الحجر: 29]** [276].

وقيل عن الروح إنها أمر من أمر الله، وخلق من خلق الله، وقد سأل عنها اليهود رسول الله(ﷺ)، فأنزل الله عزَّ وجل قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ **[الإسراء: 85]**، والآية السابقة واضحة الدلالة على أن هذه القوة التي تحدث الحياة في الكائن هي من علم الله، وأن الله سبحانه خصَّ نفسه بمعرفة كنهها، وهو وحده الذي يمنحها فتدبُّ الحياة أو يأخذها فتصبح الأجسام هامدة[277].

ج . ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾

و(من) في قوله وقوله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ ليست للتبعيض؛ لأن روح الله لا تتبعض ولا تتجزأ ولا تنقسم إلى أبعاض وجزئيات وأقسام، وإن (من) هنا ابتداء الغاية، فهي من عند الله سبحانه وتعالى.

ومن غريب ما يُحكى أن واحداً من النصارى ناظرَ علي بن الحسين بن واقد المروزي، وقال له: في كتاب الله (القرآن) ما يشهد أن عيسى جزء من الله، وتلا هذه الآية (وروح منه)، فعارضه ابن واقد بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **[الجاثية: 13]** ، وقال له: لو صح كلامك للزم أن تكون جميع هذه الأشياء في السماوات والأرض جزءاً من الله، وهذا مستحيل، فسكت النصراني وانقطع، ثم أسلم.

وحال عيسى كحال آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدم

---

[276] المستشار محمد عزت الطهطاوي، الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق، دار القلم دمشق، الدرر الشامية بيروت، ط1، 1413هـ، 1993م، ص 185 . 186 . 187.

[277] أحمد شلبي، المسيحية: مقارنة الأديان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط8، 1984، ص 44.

خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 59]**.

وقال تعالى عن خلق آدم ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ **[ص: 71-72]** ، ولم يقل أحد بأن آدم إله؛ لأن الله نفخ فيه من روحه[278].

وفي قوله تعالى (وروح منه) إضافة الروح إلى الله هي إضافة أعيان منفصلة عن الله، فهي إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه، لكنها تقتضي تخصيصاً وتشريفاً يتميز به المضاف عن غيره، بمعنى أنها روح خَيْرِيَّة مطيعة لله تعالى[279].

ولم يقتصر القرآن الكريم على إضافة المسيح فقط إلى الله، بل إنه أضاف إلى الله الأمور الاتية، وكلها إضافات إليه تعالى إضافة تشريف:

- روح آدم عليه السلام في قوله للملائكة عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ **[الحجر: 28-29]**.
- الناقة معجزة صالح عليه السلام إلى قومه ثمود، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ **[الشمس: 11-13]**.
- بيت الله الحرام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ **[البقرة: 125]**.
- عبد الله وهذا في قوله تعالى:﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ **[الجن: 19]**.
- ما سخره الله لبني آدم مما في السماء والأرض وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **[الجاثية: 13]**[280].

---

[278] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 739/2.

[279] الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق، ص 184.

[280] الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق، ص 185.

ويتبين إذن أن المقصود بالكلمة والروح غير ما قصده النصارى، المسيح بأمرٍ من الله (كن) خلق بنفخ الملك المعبّر عنه بالروح، وأن ذلك ليس ميزة خصَّ بها المسيح .كما يدعي النصارى . ترفعه إلى رتبة الألوهية قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 59]**[281].

فما صحَّ وما استقام أن المسيح وهو بشر اصطفاه الله لتبليغ الرسالة إلى قومه الإسرائيليين وأعطاه الكتاب الذي يرشدهم إلى عبادة ربهم، وأعطاه الحكمة وحسن التصرف في الأمور، وأعطاه الله النبوة العاصمة من الخطأ، ثم يتنكر لربه الذي اختاره للهداية، فيقول للناس: كونوا عباداً لي إشراكاً مع الله أو إفراداً، ولكن يقول لهم كونوا علماء عاملين كاملين في العلم والعمل، لأنكم تعلمون الناس الكتاب وتدرسونه فأولى بكم أن تتبعوه ولا تحيدوا عنه.

كما أنه ما صح وما استقام أن يأمرهم أن يتخذوا الملائكة . ومنها روح القدس . والنبيين أرباباً، فلا يليق به وهو رسول من عند الله أن يأمرهم بالكفر إذ هم مسلمون، أي مخلصون ومنقادون لربهم، ولكن نتج كل ذلك بخلطهم الحق بالباطل، وتحريفهم آيات التوراة والإنجيل وسوء تأويلها[282].

قال تعالى مؤنباً لهم: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ **[آل عمران: 79-80]**.

إنَّ إضافة الروح إلى الله في قوله تعالى ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، هي إضافة تشريف وتكريم وتفضيل، ولما كان من معاني الروح الرحمة والنعمة من الله على عباده، لذلك كان المسيح رحمة من الله لقومه ونعمة عظيمة منه عليهم إذ كان يرشدهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والاخرة، فسمّي

[281] عبد القادر بخوش، أديان العالم المقارن، ص 196.

[282] الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق، ص 173.

روحاً من الله[283] قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ **[النساء: 171]**.

11 . مريم تلد عيسى عليه السلام:

قابل جبريل عليه السلام مريم، وهي منفردة عن أهلها منتبذة منهم مكاناً شرقياً، ونفخ فيها نفخة بأمر الله وكان في النفخة كلمة الله الأزلية (كن) وفيها روح من عند الله، وشاء الله أن يتخلق الجنين في رحمها بتلك النفخة، فحملت بعيسى عليه السلام.

وقد أشارت آيات القرآن بإيجاز إلى مشهد ولادة مريم الفتاة العذراء لابنها عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ۝ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ **[مريم: 22-26]**.

أ . ﴿ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾

أي مكاناً بعيداً عن قومها حتى لا يتعرضوا لها بسوء، أي: تنحّت بالحمل إلى مكان بعيد وذهبت إلى ذلك المكان القصيّ، رغبة منها في المبالغة في الابتعاد عن أهلها، لأنها خشيت الفضيحة، وخافت من كلامهم ونظراتهم واتهامهم، وتوقعت استغرابهم ودهشتهم.

وهذا الاستغراب أمر طبيعي، فهي فتاة عذراء بتول طاهرة صالحة يعرف أهلها صلاحها وطهارتها وها هي تحمل في بطنها جنينها، فمن أين جاءها؟ وهل يصدقون روايتها بأنه نفخة من الله، وأنه لم يمسّها رجل؟ فلعلّها أحبَّت أن تبتعد عن قومها وأن تنفرد بجنينها إلى ذلك المكان القصيّ، لتسلم من اتهامات البشر وتنجو من نظراتهم[284].

---

[283] المرجع السابق، ص 171.

[284] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 240/4.

وهذا المكان القصيّ هو شرقي بيت لحم، حيث ولد المسيح عليه السلام فيه، كما ورد في الحديث الذي رواه الإمام النسائي في «السنن»، والبيهقي في «دلائل النبوة» عن أنس بن مالك رضي الله عنه من حديث الإسراء، وفيه يقول: «فقال لي جبريل انزل فصلِّ فصليت، فقال: أتدري أين صليت؟ صليت ببيت لحم، حيث ولد عيسى ابن مريم»[285].

إن المكان القصيّ المذكور في قوله تعالى هو المكان الذي وَلدت فيه مريم عليها السلام ابنَها عيسى عليه ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾، وهذا المكان هو ببيت لحم، كما ورد في الحديث النبوي الشريف[286].

قال العلامة ابن كثير: وهذا هو المشهور، الذي تلقّاه الناس بعضهم عن بعض، ولا يشك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقد تلقّاه الناس، وقد ورد فيه الحديث إن صحّ[287]

و(بيت لحم): مكان قصيّ بالنسبة إلى القدس لأنها تبعد عن القدس حوالي تسعة أميال[288].

والظاهر المتبادر من سياق الآيات أنها وضعته في المكان القصيّ الذي تنحّت إليه أو قريباً منه، وقد كانت في هذا المكان وحيدةً فريدة.

وأما ما ورد أنها فرّت مع يوسف النجار إلى مصر بعد أن علم بأمرها، وقيل إنه حاول قتلها، حيث ظن بها السوء بعد أن رآها حاملاً، فجاءه روح القدس وأخبره بأنها حملت من روح القدس، فإنه منقول عن الإنجيل، وأخبار الإنجيل عن يوسف النجار متناقضة ومتضاربة تشهد ببطلانها وتهافتها، وحين نقارن بين رواية الميلاد في إنجيل متى وفي إنجيل لوقا نجد التضارب والاختلاف حول يوسف النجار، هل كان خطيباً لمريم حيث ولد عيسى أم كان زوجها؟ ومتى علم بحملها؟ وما موقفه من الحمل؟ وهل ظهر له الملك وأخبره عن حقيقة الحمل؟ أم لم يظهر؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التي تدل على وجود التحريف والتزييف في الأناجيل.

---

[285] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 692/2.

[286] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 242/4.

[287] تفسير ابن كثير، 114/3.

[288] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث 242/4.

والذي أراه والله أعلم أن يوسف النجار لم تكن له أدنى صلة بمريم عليها السلام، وأنه لم يختلِ بها، أو يسافر معها، أو يتولى أمرها، أو يخدمها، حاشاها ـ وهي الطاهرة العفيفة الحيية الشريفة ـ أن تكون لها أدنى صلةٍ برجل أجنبي عنها.

والقرآن الكريم والسنة النبوية لم يرد فيهما أي ذكر ليوسف النجار، وما ورد في كتب التفسير فإنه من الإسرائيليات التي مردّها إلى أهل الكتاب، وقد نقلوها عن الأناجيل المحرفة التي تضاربت وتناقضت تضارباً وتناقضاً يدل على ضعفها وزيفها[289].

ب ـ مجيء المخاض لها:

ولما ذهبت مريم إلى المكان القصيّ في بيت لحم، منتبذة بابنها من أهلها، أحسّت هناك بآلام المخاض والطلق والوضع، قال تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ **[مريم: 23]**.

وقد اختلف العلماء بمدة حملها بعيسى، فهل حملته حملاً طبيعياً، استمر مدة تسعة أشهر، كما تحمل النساء، أم كان حملاً خاصاً لم يستمر أكثر من ساعات؟ وممن ذهب إلى أن حملها استمر تسعة أشهر ابن كثير، وحملَ (الفاء) الدالة على التعقيب على ترتيب وتعقيب مراحل الحمل التي يمر بها الجنين، على التفاوت الزمني بينها[290].

قال ابن كثير: الفاء ـ وإن كانت للتعقيب ـ لكن تعقيب على كل شيء بحسبه، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ **[المؤمنون: 12-14]**. فالمشهور الظاهر ـ والله على كل شيء قدير ـ أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن[291].

---

[289] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 693/2.

[290] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 242/4.

[291] تفسير ابن كثير، 114/3.

وذهب آخرون إلى أن مدة حملها كانت سريعة، وهذا قول منسوب لابن عباس رضي الله عنهما، روى الإمام الطبري ونقل ذلك ابن كثير أيضاً أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما هو إلا أن حملت وولدت، فليس بين حملها وولادتها زمن[292].

إن الله عز وجل يقول عن سيدنا عيسى عليه السلام ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آية لِلنَّاسِ﴾ **[مريم: 21]**، أي هو آية في كل شيء، ومن ضمنه مدة حمله، بل إن المعجزة هي في عدم وجود مدة لحمله، وليس كما جرت العادة، وكذلك فإن العقل يؤيد هذا؛ نظراً لكون الحمل يتطلب زمناً، هو الحمل المعروف لدى الناس، أي الذي ينشأ عن علوق النطفة، ثم بتحوُّل النطفة علقة، والعلقة مضغة وهكذا، أما الحمل الخارق فلا يقاس على الحمل المعتاد، وكذلك فمن مرجحات هذا القول: أنه لو ثبت حمل مريم لدى قومها فلربّما كانوا رجموها قبل أن تضع حملها؛ لأن تبرئة السيدة مريم ما كانت إلا بنطق وليدها كما أخبر القرآن[293].

إنَّ الحديث القرآني لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته، فهل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء، وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة، فإذا هي علقة فمضغة فعظام، ثم تكسى العظام باللحم، ويستكمل الجنين أيامه المعهودة؟

إن هذا جائز، فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية، كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتختصر المراحل اختصاراً، ويعقبها تكوّن الجنين ونموّه واكتماله في فترة وجيزة.

وليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين، فلا نجري طويلاً وراء تحقيق القضية التي لا سند لها[294].

وقد مال الدكتور صلاح الخالدي إلى ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما، من أن الحمل

---

[292] تفسير الطبري تقريب وتهذيب، 227/5.

[293] المرجع السابق، 114/3.

[294] في ظلال القران، 2306/4 . 2307.

بعيسى لم يستمرّ أكثر من ساعات، وأنها ما أن حملت به وهي في «المكان الشرقي» حتى انتبذت به إلى «المكان القصي» ـ بيت لحم ـ وهناك ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ **[مريم: 23]** ومما يقوّي ميلنا إلى هذا الرأي التعبير بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب الفوري، والتي ترتب المراحل ترتيباً سريعاً فورياً[295].

في المكان القصي ـ بيت لحم ـ الذي ذهبت إليه نخلة ولما أحست بآلام المخاض اضطرت أن تلجأ إلى تلك ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ **[مريم: 22-23]**، وما كان هناك أحد عندها، وعبر القرآن عن هذه الحالة المثيرة العجيبة بقوله (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة)، أي: جاء المخاض بمريم إلى جذع النخلة واضطرها إلى القدوم إليها، وأكرهها على ذلك، والمخاض: الحامل إذا ضربها الطلق وهذا على معنى التشبيه، كأن الذي في جوفها شيء مائع يتمخض ويتحرك ويضطرب[296].

وكأن الجنين في رحم الأم يضطرب ويتحرك قبل نزوله وكأنه يسبح فيما حوله من السائل الذي تضمن المشيمة، وإضافة الجذع إلى النخلة يشير إلى أنها نخلة حية خضراء نامية، وليس الجذع ساق نخلة يابساً مقطوعاً ملقى على الأرض[297]، وهذا تصوير قراني معجز رفيع بديع.

ج ـ آلام مريم عند الوضع وتمنّيها الموت:

وهناك عند جذع النخلة أخذها الطلق، واشتدّت بها الام المخاض وأطلقت زفرة شديدة موجعة قائلة ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾، وهذه الآية الكريمة تصور لنا من خلال الكلمات الواصفة والكاشفة عن مشهد اخر من مشاهد قصة السيدة مريم، وإننا نكاد نرى من خلال تلك الكلمات المصورة السيدة مريم البتول وهي تواجه آلامها الجسدية والنفسية، فها هي ذي تشق طريقها بحملها لتتوارى بعيداً عن أعين الناس وعن أهلها خوفاً من المواجهة

---

[295] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 244/4.

[296] ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، 1399هـ 1979م، ص 977.

[297] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 248/4.

التي باتت وشيكة بينها وبينه؛ خوفاً من وصمها بما لم تقترفه ولم تتصف به أصلاً في لحظة من لحظات حياتها، تلك كانت آلامها النفسية، لأنها تتيقن أن الناس لن يصدقوا أن مولودها جاء من غير أب.

أما آلامها الجسدية فتتمثل في تلك الالام التي تشعر بها المرأة عند مخاضها، إنها تواجه طلق الولادة وحدها في مكان قصي بعيدة عن أهلها، ولا علم لها ولا خبرة بمثل هذه الأمور، ولا معين لها في شيء ولا تملك من مقومات الحياة شيئاً، لذا فإنها تمنت الموت، فقالت: ﴿ وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾، لقد تمنت الموت خوف العار والفضيحة، وهي الطاهرة البتول التي اصطفاها الله لتكون موضع آية عظيمة من آياته، أو أمناً من خوض الناس في معصية بما افتروا عليها حتى لا تكون سبباً في عذابهم وسخط الله عليهم[298].

﴿ وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾، ولم أك شيئاً ولا يعرف ولا يذكر ولا يُدرى من أنا، فعندما قالت: ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾، فإننا لنكاد نرى ملامحها ونحسّ اضطراب خواطرها ونلمس موقع الألم فيها، وهي تتمنى لو كانت نسياً منسيا[299].

وما هي إلا فترة قصيرة عانت فيها مريم ما عانت من الام المخاض وهي وحيدة فريدة، وهي مستندة إلى جذع النخلة حتى وضعت مولودها عيسى عليه السلام، ومرت فترة قصيرة تستعيد عافيتها وتعود تدريجياً إلى حالتها الطبيعية، وكانت ما زالت على نفس جلستها بجانب جذع النخلة، وما زالت أسيرة هواجسها وأفكارها، وما زالت قلقة منفعلة حزينة مكروبة، وفجأة سمعت من يناديها من تحتها[300].

د ـ ابنها يناديها من تحتها وما صاحب ذلك من نفحات وبركات:

قال تعالى: ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا

---

298 عادل الرويني، تأملات في سورة مريم، ص 128 ـ 130.

299 في ظلال القران، 2307/4.

300 الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 250/4.

فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ **[مريم: 24-26]**.

في هذه الحالة الأليمة التي ألمت بمريم عليها السلام، وفي تلك اللحظات العصيبة التي مرت بها وهي تعاني من الام المخاض والوحدة والوحشة والترقّب لما ينتظرها من قومها حين يجدوا معها هذا الوليد في غمرة هذه الالام الحسية والنفسية تدركها رحمة الله تعالى وجميل ألطافه فيتحول العسر إلى يسر، والضيق إلى سعة، ويولد عيسى وينطقه المولى عز وجل[301]. ويقول لها كما أخبر القرآن ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾.

والراجح أنَّ الذي ناداها هو عيسى وليس جبريل عليهما السلام، وذلك أن الكلام فيما سبق كله عن عيسى وليس عن جبريل، والضمائر السابقة تعود عليه ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ۝ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ **[مريم: 22-24]** ، ودليل ترجيح هذا القول أيضاً أنها لما ذهبت إلى أهلها وهي تحمله، واستغربوا أمرها أشارت إليه، وهي لم تشر إليه إلا ليتكلم نيابة عنها، وهي لم تفعل ذلك إلا لأنه ناطق، وأنه قد تكلم معها من قبل وقد جرّبت ذلك منه[302].

ثم إن كون المتكلم معها ابنها الذي ولدته قبل لحظة أبلغ وأظهر في المعجزة؛ لأن كلامه مع أمه ثم مع أهلها بعد ذلك ليس مألوفاً ولا معتاداً، وإنما هو بأمرٍ من الله، ولنتصور مدى مفاجأة مريم الكبرى وهي تسمع ابنها ـ ابن لحظة ـ يُناديها ويُكلمها ويشدُّ أعصابها ويرفع معنوياتها[303].

إن الله تعالى هو الذي ألهم عيسى عليه السلام أن يقول لأمه هذا القول، وأنطقه بهذا الكلام، وإلا فما أدراه بهذه الخطة العلمية الحكيمة، ولم تمضِ على ولادته إلا لحظات، ففي قوله : (أن) حرف ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي﴾، وما بعدها جملة تفسيرية تفسر لنا نداءه، وتخبرنا بما قاله لها، (ولا تحزني): نهاها عن الحزن ودعاها إلى إزالة ما اعتراها من همّ وكرب، ودعاها إلى الهدوء

---

[301] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 696/2.

[302] تفسير الطبري تقريب وتهذيب، 228/5 ـ 229.

[303] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 252/4.

والطمأنينة وعدم التوتر والقلق والانفعال، فلا تحزني مما حصل، فإن الله معك، يحفظك ويرعاك فها هو الطعام والشراب عندك قدمه الله لك بمعجزة من معجزاته، ولا تحزني في التفكير بمواجهة أهلك فإن الله سيقدم لهم معجزة أيضاً، يعلمون منها براءتك ويوقنون أن الأمر من الله[304].

هـ أنبع الله لها جدول ماء آية وكرامة:

هذا من كلام عيسى لأمه يرشدها إلى (السريّ) الذي جعله الله تحتها ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ **[مريم: 24]** ، وقد اختلف العلماء في المراد بالسري الذي جعله الله تحتها، فقال بعضهم: السري هو عيسى عليه السلام: أي مرتفع القدر، عالي المنزلة، أي: لا تحزني، فإن مولودك الذي تحتك الآن سيكون سرياً عندما يكبر، ويجعله الله رجلاً له منزلة ومكانة[305].

وقيل: السري: هو الجدول ـ النهر الصغير الجاري ـ سُمّي بذلك؛ لأن الماء يسري فيه، وعلى هذا القول عامة المفسرين[306].

ويشير هذا إلى أنه لم يكن في المكان سري ـ جدول ماء ـ من قبل، وإنما فجّر الله لها الماء وأنبعه عندما لجأت إلى جذع النخلة، وجعله يمر من تحتها، ويتابع سريانه وجريانه، وكان هذا خارقة من الخوارق المتتابعة والمعجزات التي أجراها الله، وصاحبت خلق عيسى والحمل به وولادته.

و ـ أثمر الله لها النخلة في غير الموسم آية وكرامة:

بعدما أشار عيسى إلى سري الماء الجاري تحتها، أرشدها إلى النخلة التي تستند إليها قال تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ **[مريم: 25]**.

إن النخلة التي أُلجئت إليها والتي ولدت تحتها والتي أُمرت أن تهز بجذعها إليها، كانت نخلة نامية خضراء حية، ولم يكن إثمار النخلة إثماراً عادياً طبيعياً، ولو كان كذلك لكان ميلاد عيسى

---

[304] المرجع نفسه، 253/4.

[305] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 254/4.

[306] الطبري، جامع البيان في تأويل القران، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2000م، 24/16. وانظر: تفسير ابن كثير، 117/3.

عليه السلام في الصيف؛ لأن وقت نضوج التمر يكون في الصيف وهو موسم جني التمر، ويذهب النصارى إلى أن ولادته كانت في الشتاء في الخامس والعشرين من كانون الأول[307].

ولا تكون النخلة مثمرة في هذا الوقت، ولا يكون البلح رطباً جنياً، إن إثمارها كان إثماراً خاصاً، معجزة من الله سبحانه، حيث أمر النخلة أن تثمر البلح، وأن ينضج البلح ليصبح تمراً، وأن يتحول إلى رطب جنياً، وجرى هذا كله في لحظات، وطالما الأمر أمر الله، فلا غرابة في ذلك، لأنه فعال لما يريد، ويقول للشيء كن فيكون، كما أراده، وإن كل ما أحاط بعيسى عليه السلام كان معجزات خارقة، وليس من الأمور المعروفة.

وإذا كنا قد رجحنا أن إنباع السري كان معجزة من الله، وأنه لم يكن الماء جارياً من قبل، فإن هذا يؤكد أن إثمار النخلة كان معجزة أيضاً، ليتكامل الطعام مع الشراب، فتأكل من الرطب الجني، وتشرب من ماء السَّري[308].

وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آية وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ **[المؤمنون: 50]**. وتنكير كلمة (آية) للتعظيم؛ لأنها آية تحتوي على آيات، ولما كان مجموعها دالاً على صدق عيسى في رسالته جعل مجموعها آية عظيمة على صدقه[309].

وقوله ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ فهو تنويه بهما، إذ جعلهما الله محل عنايته ومظهر قدرته ولطفه، والإيواء: جعل الشيء أوياً، أي ساكناً، و(الربوة): المكان المرتفع من الأرض، والمراد بهذا الإيواء: وحي الله لمريم أن تنفرد بربوة حين اقترب مخاضها لتلد عيسى في معزل من الناس، حفظاً لعيسى من أذاهم، و(ذات قرار): أي مستوية يستقرّ عليها، وقيل: ذات ثمار، والقرار: المكث في المكان، أي صالحة لأن تكون قراراً لاشتمالها على النخيل المثمر، فتكون في ظله، ولا تحتاج إلى طلب قوتها، و(معين): المعين هو الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، أي: ماء معين[310].

---

[307] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 254/4.

[308] قاموس الكتاب المقدس، ص 864.

[309] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 256/4.

[310] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ص 213. 215.

ورعاية الأم لوليدها فطرة الله تعالى، وشرعة الله للبشرية منذ آدم عليه السلام إلى يومنا هذا[311].

ز . سنة الله في الأخذ بالأسباب:

أمر عيسى أمه أن تهزّ جذع النخلة، وأن تميلها إليها، ليتساقط عليها الرطب الجني منها قال تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ **[مريم: 25]**.

لقد أوجد الله لمريم عدة معجزات خوارق، بدون جهد منها، منذ أن كانت متبتلة في المحراب حيث أتاها الرزق المنوع، إلى أن أنبع لها سري الماء وأثمر لها النخلة بالرطب، لقد كان الله قادراً على إنزال الرطب عليها دون جهد ولا حركة منها، ولكنه أراد أن تتحرك هي بحركة مادية خفيفة، أن تلمس جذع النخلة بيديها، والباقي ليس عليها، بل على الله.

هي لم تهز جذع النخلة في الحقيقة؛ لأنها ضعيفة وإنما الله هو هزها وحركها في الحقيقة، هي كانت سبباً مباشراً في تحريك النخلة، عندما وضعت يديها عليها، والله هو المسبب والمقدر، أوجد في النخلة التحريك وأمرها أن تسقط الرطب الجني، فتحركت، وأسقطت.

وهذا درس إيماني عقيدي لها، لتربط بين التوكل على الله، وبين الأخذ بالأسباب، والأهم من هذا أنه درس إيمانيّ عقيدي لنا، لنربط بين الأسباب والمسببات وننسق بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله، فكل مؤمن يعتقد جازماً أن الله هو الضار والنافع، وأنه لا مانع لما أعطى الله، ومعطي لما منع الله، ومن ثم يتوكل على الله، ويفوض أمره إليه، ويوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهذا التوكل والتفويض يوجب عليه أن يأخذ بالأسباب، ويبذل الجهود، ليأتيه ما قدره الله له، وحركة مريم رضي الله عنها دليل على وجوب الأخذ بالأسباب، لتأتي المقادير والأرزاق[312].

---

[311] تفسير الطبري، 15/47 . 49.

[312] محمد مصطفى الزحيلي، شرعة الله للأنبياء في القران الكريم والسنة، ص 608.

ح. تغيُّر في الحالة النفسية لمريم عليها السلام:

وبعدما أمر عيسى عليه السلام أمه أن تهز جذع النخلة أمرها أن تأكل وتشرب: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ **[مريم: 26]**، كلي من الرطب الجني الناضج الطيب الذي تساقطه عليها النخلة، واشربي ماء من الجدول السَّري الذي أجراه الله تحتك، ولا تخشَي جوعاً ولا عطشاً.

إن قوله تعالى فيه إسناد القرار والرضى والسعادة إلى ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾، فقد جعل (عيناً) تمييزاً لكون العين أبرز عضو في الإنسان، تنعكس عليه علامات وآثار الرضى والسعادة، ولهذا يقال: هو قرير العين، أي: هو هادئ ساكن سعيد مطمئن، إن قوله تعالى يدل على الحالة النفسية العالية التي نقل الله مريم رضي الله عنها ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾، فقد كانت قبل الولادة في غاية التوتر والانفعال والقلق، وتجلى هذا في قولها ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ **[مريم: 23]**.

أما بعد الولادة وخروجها منها بسلامة وسماعها مخاطبة وليدها لها، فقد رأت علامات عناية الله بها، وحفظه لها، وهي تعيش في ظلال معجزاته التي قدمها لها، فها هي تأكل الرطب وتشرب الماء من السري، وتأنس برؤية وليدها وتسعد بمخاطبته لها، ولذلك عاشت حالة نفسية عالية متألقة من قرارة النفس، ومن الرضى والسرور والسعادة والطمأنينة، وانعكس هذا كله على كيانها، لكنه كان أبرز ما يكون انعكاساً على عينها[313].

وهكذا أرشد المولود عيسى عليه السلام أمه إلى التعرف السليم السريع وهي ما تزال تحت النخلة: أن لا تحزن وتقرَّ عيناً، وتهزّ إليها جذع النخلة، وتأكل من الرطب الجني، وتشرب من ماء السري، ونفذت مريم ما سمعته من وليدها وأخذت حاجتها من الطعام والشراب، وزال حزنها وقلقها، وكانت قريرة العين مسرورة النفس[314].

ط. فوائد الرطب للنفساء:

في أكل مريم عليها السلام من الرطب إشارة إلى ما أثبت الطب من أهمية الرطب للمرأة

---

313 صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 257/4.

314 المرجع نفسه، 261/4.

النفساء، حيث أثبتت الأبحاث العلمية أن الرطب يحتوي على مادة تقوي عمل عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة للحمل، فتساعد على الولادة من جهة، كما تقلل كمية نزف الدم الحاصل بعد الولادة من جهة أخرى، ويحتوي الرطب على نسب عالية من السكريات هي مصدر الطاقة الأساسي وهي الغذاء المفضل للعضلات، وعضلة الرحم من أضخم عضلات الجسم، وتقوم بدور كبير أثناء الولادة، وإذا كان علماء التوليد يقدمون للحامل في حالة المخاض الماء والسكر، فإن الآية الكريمة قد نصت على إعطاء السوائل ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾، كما أن الرطب يخفض ضغط الدم عند الحوامل فترة ليست طويلة، ثم يعود لطبيعته، وبانخفاض ضغط الدم تقل كمية الدم النازفة، والرطب أيضاً من المواد الملينة للقولون، ومن المعلوم طبياً أن الملّيّنات النباتية تفيد في تسهيل وتأمين الولادة[315].

ي. ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾

تابع وليدها عيسى عليه السلام إرشادها إلى التصرف المناسب عندما تواجه أهلها، فقال لها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ **[مريم: 26]** ، قال عيسى عليه السلام لأمه: اذهبي إلى أهلك أنت تحملينني، فإن شاهدت أحداً من البشر سوء كان من أهلك أو من غيرهم، واستغرب منك لأنك تحملين على حضنك ولداً، وسألك عن سر الأمر فلا تجاوبيه ولا تكلميه، وأعطيه إشارة يفهم منها أنك صائمة عن الكلام، وناذرة أن لا تكلمي أي إنسان، وأحيلي عليّ، وأنا سأتولى الكلام والشرح.

هذا هو المعنى المفهوم من هذه الجملة الشرطية القرآنية: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ **[مريم: 26]**، فمعنى: (فقولي): أشيري لمن يكلمك ويسألك إشارات باليد أو غيرها، يفهم منها أنك صائمة عن الكلام، ممتنعة عن مخاطبة الناس، واعتبرت الآية هذه الإشارات قولاً؛ لأنها تسد مسدّ القول، وتفهم الشخص المقابل المراد، فكأنها قول خارج من الفم، وبعض الإشارات باليدين والعينين واللسان وغيرها قد تعبر عن ما في النفس، وتفهم الشخص المقابل مثل الكلام الخارجي من الفم أو أكثر، ولغة

[315] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 262/4.

الصم والبكم تقوم على الإشارات باليدين، ولتلك الإشارات قاموس خاص، ولكل إشارة رمز جمل معدودة، تشير لمن يسألونها وتفهمهم أنها نذرت للرحمن صوماً.

والنذر هو قربة وعبادة يتقرب بها الناذر إلى الله بأداء المنذور، وذكر النذر في قصة مريم رضي الله عنها دليل على أنه كان عبادة يعرفها المؤمنون السابقون ويتقربون بها إلى الله.

وقوله: عني به الإمساك عن ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾، بدلالة قوله بعده: . والمعنى: أن كل من أمسك عن ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾، وامتنع عن فعله فهو صائم عنه، ومعنى الصوم هو الإمساك عن الفعل مطعماً كان أو كلاماً أو مشياً، فهناك من صام عن الطعام وهناك من صام عن الكلام وهكذا، فالصوم في الآية المذكورة والمقصود به الإمساك عن الكلام، وعلى مريم أن تشير لكل من سألها أنها صائمة عن الكلام، ولذلك لا تكلم أحداً من البشر الإنس (فلن أكلم اليوم إنسيا). (والإنسيُّ): هو الشخص المنسوب إلى الإنس، عكس الجني، المنسوب إلى الجن[316].

لقد جعل الله صوم مريم وصمتها عن الكلام آية لها ودليلاً على براءتها وطهارتها، فبينما صامت هي عن الكلام، وهي القادرة عليه، فقد أنطق الله وليدها عيسى عليه السلام الذي لم تمض على ولادته إلا فترة يسيرة وهو في المهد، فكان كلامه أقوى وأبلغ في إزالة التهمة عنها، كما أن السكوت عن السفهاء وعدم الرد عليهم من أخلاق الصديقة البتول العفيفة الطاهرة المطهرة.

رابعاً: عيسى عليه السلام يكلم الناس في المهد:

أخذت مريم عليها السلام بإرشادات وليدها عيسى عليه السلام، فأكلت من الرطب وشربت من الماء، وبعدما رجعت لها قوتها حملت ابنها معها وتوجّهت إلى أهلها.

1 . مريم تحمل ابنها وتتجه إلى قومها:

[316] الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 745/2.

وهناك كانت الدهشة والمفاجأة لهم وقد صورت الآيات بعض ما جرى:

قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ **[مريم: 27-33]**.

. ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾

أتت مريم رضي الله عنها قومها وأهلها المقربين، وكانت تحمل ابنها عيسى عليه السلام، وكانت في غاية القوة والشجاعة والثقة والطمأنينة؛ لأنها توقن أن الله معها، وتعلم أنها لم ترتكب خطأً، والله هو الذي خلق في رحمها عيسى فلماذا تخشى مواجهتهم، وقد وصلت مريم أهلها، ونظروا إليها وقد سيطرت الدهشة عليهم، إن ابنتهم طاهرة عذراء عفيفة، وهم يعلمون هذا عن يقين، فماذا الذي يرونه منها؟ لقد أنطقتهم الدهشة والمفاجأة بعبارة ساخرة مُتَّهِمِيْنَها[317].

. ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾

كان في عبارتهم اتهام غير صريحٍ لمريم، والذي دفعهم إلى عدم اتهامها بصراحة ـ فلم يقولوا لها: لقد ارتكبت فاحشة الزنا ـ هو إيمانهم بالله وتقواهم لله، وتحرّجهم من قذف الصالحة بالفاحشة، ثم ما عرفت به مريم من صلاح وعبادة وعفاف وطهارة، مما يجعلها بعيدة عن الفاحشة، لكنهم رأوا وليداً على حضنها، وهو أمر غريب مريب يدعو إلى الريبة، فكيف يوفقون بين ما يعرفونه عنها من عفة وطهارة وبين ما يشاهدونه بين يديها؟

اكتفوا بقولهم لها بأنها جاءت بأمر عظيم فظيع، لا يتفق مع ماضيها الذي عهدوه منها،

---

[317] المعجم الوسيط، ص 30. وانظر: الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 265/4.

ولا مع أسرتها التي نشأت فيها، بين والدين صالحين وأخ صالح[318].

ومعنى قولهم لها: لقد جئت بشيء ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، وأحدثت حدثاً عجيباً، وهو الوليد الذي تحملينه، فمن أين لك به؟[319].

2. استقامة أسرتها وهارون شقيق لها:

وقد أشار قومها إلى طهارة منبتها، وعفة أفراد أسرتها واستقامة أخيها ووالدَيها، فقالوا: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ **[مريم: 28]**، فأبوها رجل صالح عفيف ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾، ما كان سيئاً يأتي بالفواحش، وأمها امرأة صالحة عفيفة : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ كانت بغية زانية.

وتوافقت شهادة قومها لأمها بطهارتها وعفتها عندما نفوا عنها البغاء ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾، مع شهادتها هي لنفسها، عندما جاء جبريل عليه السلام لينفخ فيها بعيسى ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ **[مريم: 20]**. فأمّها ما كانت بغياً زانياً، وهي ما كانت بغياً زانياً.

وقد اختلف العلماء في قولهم (يا أخت هارون)، فذهب بعضهم إلى أنه لا يراد بها الأخوة الحقيقية، وإنما الأخوة (التشبيهية)، فأرادوا تشبيهها بهارون شقيق موسى عليهما السلام، تشبيهها به في العبادة والعفة والصلاح، والمعنى: يا شبيهة هارون النبي في العبادة من أين هذا الوليد؟

وذهب الجمهور إلى أن الأخوة هنا أخوة حقيقية، وأنها شقيقة لهارون، وهارون المذكور هنا، ليس النبي الكريم شقيق موسى عليهما السلام، فبينهما عدة قرون، وإنما هو هارون آخر.

والراجح هو قول الجمهور؛ لأنه ورد فيه حديث صحيح عن رسول الله (ﷺ)، روى مسلم والترمذي عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله (ﷺ) إلى نجران، فقالوا:

[318] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 268/4.

[319] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 268/4.

ألستم تقرؤون (يا أخت هارون)؟ قلت: بلى. قالوا: وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ فرجعت إلى رسول الله(ﷺ) فأخبرته فقال «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»[320].

فهذا الحديث الصحيح صريح في أن هارون أخ شقيق لمريم سماه أبواه باسم هارون النبي عليه السلام[321].

3 . استغراب قومها من إشارتها إلى وليدها:

ولما سمعت مريم كلام قومها، عزّ عليها اتهامهم الضمني لها، ولو تكلمت فقد لا يسمعون لها ثم هي ناذرة للرحمن صوماً عن الكلام. وبما أنها سمعت كلام وليدها لها فور ولادته، فإنها أحالت الجواب عليه.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾: أشارت إلى وليدها ، وكأنها تقول لهم لا تسألوني أنا، بل اسألوه وكلموه. ولم ترد الإشارة في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع من القرآن، والإشارة قد تكون باليد أو العين أو الرأس أو غيرها، لتدل على معنى من المعاني.

وفهم القوم إشارتها، إنها تدعوهم لسؤاله هو فزاد استغرابهم وتعجبهم وغيظهم، إنهم يسألونها مستنكرين، وهي تسخر منهم وتقابل سؤالهم بصمت، وتشير إلى وليد لم تمض على ولادته إلا ساعات ليتولى هو الكلام معهم، ولهذا سألوها مستنكرين؟ كيف نسأل طفلاً وهل يفهم سؤالنا؟ وإذا فهم سؤالنا هل يقدر أن يجيبنا؟ ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ **[مريم: 29]** عُهِدَ عن طفل في المهد وُلِد قبل ساعات أو أيام الكلامُ الواضح المفهم. و(كان) هنا تامة بمعنى (وجد) وفاعلها: ضمير مستتر يعود على ابنها (صبياً) حال.

والمعنى: كيف نكلم من وجد في المهد صبياً؟ والمراد بالمهد هنا حجر أمه، لأنهم يشاهدونها

---

[320] المرجع نفسه، 269/4.

[321] أخرجه مسلم، رقم 2135.

وهي تحمله. والمهد والمهاد: المكان الممهد الموطأ[322]. وأما (المهد) فقد ورد في القرآن ثلاث مرات، في سياق الحديث عن عيسى عليه السلام.

وكان عيسى عليه السلام وهو في حضن أمه لم تمض على ولادته إلا عدة ساعات يعي ما يجري حوله وعياً معجزياً، ويسمع كلام القوم إلى أمه سمعاً معجزياً، وكان هذا الوعي والسماع معجزة من الله.

ولما سمع سؤالهم لأمه (كيف نكلم من كان في المهد صبياً)؟ كان يعلم أن أمه لن تجيب على السؤال؛ لأنه هو الذي أمرها ألا تجيب عن أيّ سؤال، فتطوع هو للإجابة، وقدم نفسه إلى القوم وعرفهم على نفسه وعلى ما سيكون منه في المستقبل.

وفتح القوم عيونهم مبهورين مما يشاهدون وأصغوا سمعهم مشدوهين مما يسمعون، وسيطرت المفاجأة على كيانهم كله، أهذه حقيقة أم خيال؟ أحقاً يشاهدون طفلاً يتكلم؟ أحقاً هذا صوت طفل عمره ساعات يدخل اذانهم ومسامعهم؟ أم هم متخيلون واهمون؟

إنها حقيقة قاطعة، وإن كلام هذا الطفل معجزة، يسمعه هؤلاء القوم المؤمنون، فيزداد إيمانهم بالله عزَّ وجل[323].

4 . البداية الإيمانية في بيان الوليد عيسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿شَقِيًّا ۝ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ **[مريم: 32–33]**.

بدأ عيسى عليه السلام كلامه بأن الله وحده هو الإله الرب، لا يشاركه أحد في ألوهيته وربوبيته، وأنه عبد الله، عبد مخلوق، خلقه الله خلقاً خاصاً بمعجزة خارقة، بدون أب، وأنه عبد

[322] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 271/4.

[323] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 272/4.

الله وليس شريكاً له ولا ابناً له[324].

قال الإمام ابن كثير: «أول شيء تكلم به أن نزّه جناب ربه تعالى وبرّأه عن الولد وأثبت لنفسه العبودية لربه»[325].

فالله وحده هو الرب الإله، وكل ما سواه له عبد، وأي خلط بين الإله والعبد يعتبر كفراً بالله وشركاً به، فإذا ما رفع قوم عبداً من عبيد الله وجعلوه ندّاً لله صاروا كفاراً مشركين بالله.

وهذه البداية الإيمانية لعيسى عليه السلام التي بدأ بها وهو طفل في المهد يقرر فيها أنه عبد الله، وأن الله وحده هو الرب، تكذيب مبكر لما سيقوم به ـ بعض الناس ـ فيما بعد عندما ادّعوا أنه ابن الله، وبعدما نصَّ على عبوديته لله تحدث عما سيعطيه الله في المستقبل فقال: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ **[مريم: 30]** ، وهذا على تقدير المستقبل: سيؤتيني الكتاب، ويجعلني نبياً، والمراد بالكتاب هنا الإنجيل، الذي سيؤتيه الله إياه ويجعله مصدقاً للتوراة قبله.

لم يتكلم عيسى الوليد بهذا الكلام من نفسه وإنما كان بإلهام من الله، ألهمه أن يقول هذا القول، وأخبره أن سينزل عليه الإنجيل، وسيجعله نبياً رسولاً.

وإذا كان قوله (إني عبد الله) تكذيباً مبكراً لما سيزعمه ـ بعض الناس ـ من نبوّته لله من بعض فرق النصارى، فإن قوله (وجعلني نبياً) تكذيب مبكر لما سيزعمه اليهود، حيث سيكفرون به وينكرون نبوته ويحاولون قتله.

وقول عيسى عليه السلام بعد ولادته ﴿نَبِيًّا *﴾، هو تطبيق عملي للوعد الذي بشر به جبريل عليه السلام مريم قبل فترة من حملها بعيسى ووضعها له وهو الذي ذكر قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ **[آل عمران: 45-46].**

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ٤٨ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي

[324] المرجع السابق، 272/4.

[325] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 273/4.

قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ٤٩﴾ **[آل عمران: 48-49].**

أ . معنى كون عيسى مباركاً:

تابع عيسى عليه السلام تقديم نفسه بكلامه الواضح المبين: الله بارك وأفاض بركته ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، فصرت مباركاً أين ما كنت ووجدت، و(كنت) هنا: فعل ماض تام، بمعنى (وجدت)، والتاء: ضمير متصل في محل رفع فاعل. و(كنت) فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. والتقدير: أين ما كنت ووجدت فقد جعلني الله مباركاً.

و(مباركاً): اسم مفعول لأنه حلت به البركة من الله. ومع أنها عامة في معناها، شاملة بجميع صور البركة، إلا أن بعض السلف ذكر بعض مظاهر هذه البركة. قال مجاهد: (مباركاً): جعلني نفاعاً، وقال سفيان الثوري: جعلني معلماً للخير حيثما كنت. (وجعلني مباركاً أين ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ كنت: على أن بركته: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان)[326].

ب . ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا *﴾

هذا على ما سيكون في المستقبل: أي سيوصيني بالصلاة والزكاة طيلة حياتي، أي: أوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده التي من أجلِّها الزكاة، مدة حياتي أي: فأنا ممتثل لوصية ربي، عامل عليها منفذ لها. وفي ذلك إشارة إلى أن التكاليف الشرعية لا تسقط عن العبد ما دام حياً عاقلاً.

ج . عيسى بارٌّ بأمه:

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾: وجعلني الله برّاً بوالدتي، والواو: حرف عطف. (وبرّاً): معطوف على (مباركاً). والمعنى: جعلني الله نبياً وجعلني مباركاً، وجعلني برّاً بوالدتي. ومعنى ذلك: التوسع في

---

[326] تفسير ابن كثير، 117/3.

الإحسان إلى والدتي ووصلها. أي: لم يجعلني مستكبراً على الله فيما أمرني به نهاني عنه، ولكنه جعلني متواضعاً له متذللاً في طاعته.

وتشير الآية إلى جانبين: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ **[مريم: 32]**، الجانب الإيجابي في شخصية عيسى السوية عليه السلام، وهو برُّه بوالدته، والجانب السلبي الذي نزّه الله شخصيته السويّة، فلم يجعله جباراً شقياً.

ومن كان عاقّاً لوالديه كان جباراً شقياً عصياً؛ لأنه إذا لم يكن بارّاً بوالديه، فكيف يكون رحيماً بالآخرين؟ ومن لا خير فيه لوالديه لا خير فيه للآخرين، قال بعض أهل العلم: لا تجد عاقّاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ **[مريم: 32]**. ولا تجد سيء الملكة والمعاملة إلا وجدته مختالاً فخوراً، ثم قرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ **[النساء: 36]**.

وإذا وردت كلمة (جباراً) في القرآن وصفاً للإنسان، فإنها لا تكون إلا للذمّ؛ لأنه لا يكون جباراً إلا من كان مختالاً متكبراً وشقياً عاصياً، والإنسان الصالح لا يتجبَّر، لأنه يعلم أن العظمة والجبروت لله، فيتواضع بين يدي الله ويرحم الاخرين من عباد الله.

ولأن وصف الإنسان بأنه جبار ذمٌّ له، فقد نزَّه الله نبيَّه عيسى عليه السلام عنه، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ **[مريم: 32]** ، ونزَّه أيضاً معاصره يحي عليه السلام عنه، حيث أخبره عنه بقوله ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ **[مريم: 14]**، وعيسى عليه السلام ليس جباراً شقياً[327].

د . السلام على عيسى دليل على بشريته:

قال تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ **[مريم: 33]**. وقد أخبر عيسى عليه السلام قوم مريم أن الله أضفى عليه السلام والأمان في المواضع الثلاثة الحرجة

[327] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 275/4.

الخطيرة في حياته: يوم ولادته ويوم موته ويوم بعثه حياً يوم القيامة.

ومعنى الآية: الأمنة من الله عليَّ من الشيطان وجنده يوم ولدت، فلا ينالون مني ما ينالون من المواليد عند ولادتهم. وأمنة من الله عليَّ يوم أموت، من هول المطلع. وأمنة من الله عليَّ يوم أبعث حياً يوم القيامة فلا ينالني الفزع الذي ينال الناس عندما يعاينون أهوال يوم القيامة[328].

قال الإمام ابن كثير: «هذا إثبات منه لعبوديته لله، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ويبعث، كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال الثلاثة التي هي أشقُّ ما يكون على العباد»[329].

وحكمة تعريف السلام وتمييزه في قوله (والسلام عليَّ) وتخصيصه؛ لأن الله تعالى يعلم أن اليهود سيكذبون عيسى عليه السلام، ويكفرون به، ولن يكتفوا بذلك، بل سيحرصون على قتله وصلبه وهذا ما فعلوه به فيما بعد، ولقد حماه الله منهم، ولم يجعل لهم سلطاناً عليه، ولذلك رفعه إليه، ولهذه الحوادث التي وقعت له خصَّه الله عزّ وجل بالسلام الخاصّ، فسلَّمه من اليهود ومكائدهم ومؤامرتهم[330].

وهكذا أنهى عيسى عليه السلام بيانه وقدم نفسه إلى قوم أمه، وذكر عبوديته لله الواحد، وذكر ما سيؤتيه الله من النبوة والكتاب، ومن السمات والمزايا الإيجابية القائمة على برِّهِ بأمه وتواضعه، وعدم تجبُّره وتكبُّره، وما سيضفيه عليه من السلام والأمان في حياته.

وتوقَّف عرض القرآن لقصة ميلاد عيسى عليه السلام عند هذا الحدّ، ولم يتحدَّث عن ردَّة فعل القوم لما سمعوا بيانه وكلامه، ولا عمَّا جرى لمريم رضي الله عنها بعد ذلك[331].

---

[328] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 277/4.

[329] المرجع نفسه، 278/4.

[330] المرجع نفسه، 278/4. وتفسير ابن كثير 230/5.

[331] المرجع السابق، 279/4.

5 . تعقيب القرآن على عرض مشهد ولادة عيسى:

وقد عقَّبت آيات سورة مريم على ذلك بتقرير الحقيقة الإيمانية بشأن عيسى عليه السلام، وتقرير وحدانية الله، وتكذيب النصارى في مزاعمهم، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ **[مريم: 34-40].**

إنَّ هذا التعقيب هو الهدف من ذكر الحمل بعيسى وولادته وكلامه في المهد؛ لأن موضوع هذا التعقيب ثمرة لما قبله[332].

الله قال القول الحقّ بشأن عيسى:

أخبرنا الله في هذا التقرير والتعقيب، أنَّ هذا هو الحقُّ في قصَّة عيسى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ **[مريم: 34].**

الحقُّ في عيسى عليه السلام هو ما قاله الله، أما أهل الكتاب فقد كانوا يمترون ويختصمون ويختلفون فيه وامترت فيه اليهود والنصارى، فأمَّا اليهود فزعموا أنَّه ساحر كذاب، وأمَّا النَّصارى ففرقة زعمت أنَّه إله، وأخرى أنَّه ثالث ثلاثة، وهناك من قال أنَّه ابن الله، وبقيت طائفة على الحقّ وقالت هو عبد الله ورسوله[333].

وقد كذَّب الله من قال من النصارى بأنه ولد الله بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[مريم: 35]**، فكيف يكون عيسى ابناً لله؟ وما ينبغي ولا يصلح لله أن يتخذ ولداً، وهو لا يحتاج إلى الولد سبحانه وتعالى عمَّا يقول

---

332 المرجع نفسه، 280/4.

333 صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 282/4.

النَّصارى علوّاً كبيراً، ولا غرابة في خلق عيسى عليه السلام من غير أب؛ لأنه أراد خلقه، وإذا أراد الله إيجاد شيءٍ، فإنه يوجده بكلمة (كن) فيكون ذلك الشيء ويوجد كما أراد الله.

وبما أن السياق في تكذيب مزاعم وادّعاءات النصارى حول تأليه عيسى عليه السلام، فقد أخبر الله تعالى عن بعض ما قاله عيسى لهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ **[مريم: 36]**.

قال عيسى للنصارى عندما كان بينهم قبل أن يرفعه الله إليه: الله هو ربي وربكم، لا شريك له ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنا عبده ورسوله، ولست ابناً له، وأنا مأمور بعبادته، فاعبدوه، كما أعبده أنا، وهذا هو الصراط المستقيم، ولكن هناك من النصارى لم يأخذوا بقوله، وإنما انقسموا إلى أحزاب مختلفة فيه ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ **[مريم: 37]** [334].

ويلٌ لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ **[مريم: 38-39]**، وويلٌ لهم من ذلك المشهد في يومٍ عظيم، هذا التنكير للتفخيم والتهويل. والمشهد هو الذي يشهده الثقلان من الجنّ والإنس، وتشهده الملائكة في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار. ثم يأخذ السياق في التهكُّم بهم، وبإعراضهم عن دلائل الهدى في الدنيا، وهم في ذلك المشهد أسمع الناس وأبصر الناس ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ **[مريم: 38]**. فما أعجب حالهم، لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلةً للهدى والنجاة، وهم أسمع شيءٍ وأبصر شيءٍ يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي ولإسماعهم ما يكرهون وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يومٍ عظيم[335].

لقد أنذرهم عذاب يوم القيامة ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ **[مريم: 39]** ، حيث سيحاسبون فيه، ثم يحكم الله فيهم بالعذاب الأبدي في جهنم

---

[334] المرجع السابق، 283/4.

[335] في ظلال القران، 2309/4.

فيتحسَّرون حسرةً شديدةً، وأنذرهم وهم في الدنيا حتى تزول الغفلة التي يعيشونها، وحتى يصحوا ويستيقظوا، فيتخلوا عن كفرهم ويؤمنوا بالله[336].

أنذرهم ذلك اليوم الذي لا شكَّ فيه، فكل ما على الأرض ومن على الأرض عائد إلى الله عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ **[مريم: 40]**[337].

وهذه حقيقة إيمانية قاطعة ختم الله بها التعقيب على قصة ميلاد عيسى عليه السلامِ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ **[مريم: 40]**.

وهذا تأكيد لوحدانيّته وأنه لا شريك له، فهو الخالق، وكل ما سواه مخلوق، وعيسى مخلوق من المخلوقين، والله وحده هو المالك للسموات والأرض، والدنيا والاخرة، وهو الذي يرث الأرض ومن عليها من البشر، وهو الذي يفني هذه الدنيا ويأتي بالآخرة، وهو الذي يبعث الناس يوم القيامة ويحاسبهم ويثيبهم أو يعاقبهم[338].

إن القرآن الكريم ذكر قصة عبد الله ورسوله المسيح عيسى ابن مريم بقدْرٍ هائلٍ من الدقّة المتناهية، بعد أن كانت كل من سيرته الشريفة ودعوته الكريمة قد شابها الكثير من التحريف والتشويه، ويعتبر ذلك بحقٍّ وجه من أوجه الإعجاز التاريخيّ في هذا الكتاب العزيز، يشهد له بأنه كلام الله الخالق ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقّاه بالنبوة والرسالة[339].

إن المواقف المحددة التي سردها القرآن الكريم والتي نبينها في هذا الكتاب بإذن الله تعالى تشهد للقران الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق كما تشهد لرسول الله (ﷺ) بأنه لا يمكن أن يكون قد استقى هذه الحقائق من كتب (العهدين القديم والجديد)، وذلك للاختلاف الكبير بين ما جاء عن حقيقة هذا العبد الصالح في تلك المصادر،

---

[336] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 284/4.

[337] في ظلال القران، 2309/4.

[338] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 284/4.

[339] زغلول النجار، الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القران الكريم، 894/2.

وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن هناك من الوقائع القرآنية ما لم يرد له ذكر في أيٍّ من كتب (العهدين القديم والجديد).

وذلك مثل معجزة كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد، ونطقه بالعبودية الكاملة لله تعالى، وتنزيه الخالق العظيم عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصفٍ لا يليق بجلاله، ومعجزة المائدة التي أنزلها الله تعالى على الحواريين من السماء استجابة لطلبهم، ولدعاء المسيح عليه السلام بذلك، ثم معجزة انقاذه هو من بين أيدي اليهود الذين لم يمكِّنهم الله تعالى من تعذيبه أو إهانته أو إذلاله وإهدار كرامته، كما تصف الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى اليوم، فالقرآن الكريم يؤكد أن الله تعالى رفع عبده عيسى إليه[340]، كما سيأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى.

وبعد رفع المسيح عليه السلام اختلف الناس فيما بينهم عليه اختلافاً كبيراً، وظلت اختلافاتهم كامنة زمن الاضطهادات الرومانية، ولكن عندما تنصَّر الامبراطور قسطنطين أدرك وجود الاختلافات الشديدة على حقيقة المسيح عليه السلام بين الكنائس، فدعا إلى مؤتمر نيقية سنة 325م، من أجل استجلاء هذا الأمر.

وفي المؤتمر ظهر من نادى بتوحيد الله الخالق منكِراً فكرة التثليث، ومنهم من نادى بالشرك بالله وادّعى ألوهية المسيح ونادى بالتثليث، وكان على رأس الموحِّدين (اريوس) الذي تبعته كنيسة اسيوط برئاسة (ميليتوس)، وكنيسة القسطنطينية برئاسة (أوسانيوس)، وكنيسة كل من أنطاكية ومقدونية، وبابل، وفلسطين وغيرها، ولم يعارض الإيمان بوحدانية الله إلا بطريرك الإسكندرية ومن وقف بجانبه من مشركي النصارى، وكان عدد المجتمعين من البطاركة والأساقفة في مؤتمر نيقية أكثر من ألفين وثمانية وأربعين، وكانوا على مذاهب متفرقة، وعجب الإمبراطور قسطنطين مما رأى وسمع ثم جنح إلى الادعاء بألوهية المسيح لخلفيته الوثنية، على الرغم من أن اريوس رمى إلى بشريَّة المسيح ونبوته، وذلك بأغلبية سبعمائة صوت من أصوات الأساقفة الحضور، وكانت الاريوسية هي أعلى نسبة حازتها نحلة من النحل التي عرضت في مؤتمر نيقية على كثرة النحل التي عرضت.

---

[340] المرجع السابق، 894/2.

وانطلاقاً من ذلك أقرَّ المجمع الأناجيل الأربع المتداولة بين أيدي نصارى اليوم من بين سبعين إنجيلاً مختلفاً عرضت على المؤتمرين، واعتبر الباقي من تلك الأناجيل نسخاً محرفةً، وتم الأمر بإحراقها. وهذا الاختلاف الذي استمرّ إلى اليوم وتعدّدت بسببه فرق النصارى، ويصفه القرآن الكريم:

. يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ **[مريم: 34-40]**.

. وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ **[الزخرف: 63-65]**.

وهذه الآيات تمثل وجهاً من أوجه الإعجاز الإنبائي والتاريخي في عرض القرآن الكريم لعدد من المواقف المهمة في سيرة عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، وهذه المواقف تناقض كل ما جاء عن هذا العبد الصالح في العهد الجديد، وأما الإعجاز العلمي فيتجسّد فيما أعطى ربنا تبارك وتعالى عبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم من قدرة على إبراء كل من الأكمه والأبرص من الأمراض التي أعيت الأطباء وأعجزتهم، وأما الإعجاز التربوي فيتضح في التأكيد عن فضل التوجه إلى الله تعالى بالدعاء والرجاء مع اليقين بقدرة الله المطلقة على الإجابة، ويتجلى ذلك في ميلاد كل من مريم ابنة عمران... وكان ميلادها استجابة لدعاء أمها الذي لم يتوقَّف ويتَّضح فضل الإيمان بالله وجميل التوكل عليه كذلك في التسليم، بأن الدنيا هي دار ابتلاء واختبار وامتحان، وأن الصراع بين الحق والباطل هو سنة من سنن الوجود في هذه الحياة، وأن الحق لا ينتصر لمجرد كونه حقٌّ، ولكنه يحتاج إلى رجال ونساء يؤمنون به، ويجاهدون من

أجل نصرته ويبذلون النفس والنفيس في سبيل تحقيق ذلك، وهكذا كانت حياة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وحياة كل من أمه والذين آمنوا به واتبعوه على الإسلام العظيم[341].

6. موقف النجاشي من سماعه آيات سورة مريم:

وهذا ما حصل من النجاشي ملك الحبشة لما سمع هذه الآيات من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، روى الإمام أحمد عن أم سلمة رضي الله عنها قصة الهجرة إلى الحبشة، ومما جاء في القصَّة.... لما انتهى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من بيانه قال له النجاشي: هل معك شيء مما أنزل على نبيّكم؟

قال جعفر: نعم. قال النجاشي: اقرأ. فقرأ جعفر مطلع سورة مريم. فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبلَّلها بدموعه، وبكى البطاركة والأساقفة حتى بلَّلوا مصاحفهم بدموعهم، متأثرين بما سمعوا من آيات القرآن.

بعد ذلك قال النجاشي: هذا القرآن الذي سمعناه والذي جاء به موسى يخرجان من مشكاة واحدة، ثم خاطب النجاشي عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة قائلاً: انطلقا من هنا، فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً.

ولما خرج الموفدان القرشيان من مجلس النجاشي قال عمرو بن العاص لابن أبي ربيعة: والله لاتين النجاشي غداً، أعيب المسلمين عنده وأهيّجه عليهم، وأستأصلهم من عنده. فقال له ابن أبي ربيعة ـ وكان أهدأ الرجلين ـ: لا تفعل ذلك، فإن للمسلمين أرحام فينا، وإن كانوا خالفونا في ديننا. فقال ابن العاص: لا بدَّ أن أفعل، وسأقول للنجاشي: يزعم المسلمون أن عيسى ابن مريم عبد.

وفي اليوم التالي غدا عمرو بن العاص على النجاشي فقال له: أيُّها الملك: هؤلاء المسلمون يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل أيُّها الملك إليهم واسألهم عمَّا يقولون فيه.

---

[341] زغلول النجار، الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القران الكريم، 896/2.

أرسل النجاشي إلى المسلمين ودعاهم إلى الاجتماع به مرة ثانية، ليسمع منهم ما يقولون في عيسى ابن مريم عليه السلام. ولما علم المسلمون بذلك خافوا، ونزل بهم من الغمّ ما الله به عليم، وقال بعضهم لبعض: ما تقولون للنجاشي بشأن عيسى ابن مريم؟

فقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: والله لا نقول فيه إلا ما جاءنا من رسول الله(ﷺ)، هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته، ألقاها إلى مريم العذراء البتول. وفي الغد قابل المسلمون النجاشي، فقال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟

فقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: والله لا نقول فيه إلا ما جاءنا من رسول الله(ﷺ)، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

ولما سمع النجاشي كلام جعفر، تناول بيده عوداً من الأرض، ثم قال لمن حوله: والله ما تجاوز عيسى ابن مريم شيئاً مما يقوله المسلمون إلا بمقدار هذا العود. فنَخر البطاركة وغضبوا من كلام النجاشي، ولكنهم لم يجرؤوا على معارضته. فقال لهم: انخَروا ما شئتم فهذا هو الحق[342].

وأنزل الله في النجاشي وأمثاله قوله تعالى:﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ۝ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ **[المائدة: 84-85]**.

إن موقف النجاشي الرائع من سماعه آيات سورة مريم، وما نزل فيه من الآيات، هو دليل على أن النصارى الصادقين يتأثرون عندما يسمعون الآيات ويؤمنون بها ويعتبرونها دليلاً على إثبات نبوة محمد (ﷺ). ولهذا أمر الله محمداً (ﷺ) أن يذكر هذه الآيات للآخرين ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ **[مريم: 16]**[343].

---

[342] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 216/4.

[343] المرجع السابق، 216/4.

7. مريم عليها السلام ودورها في تاريخ الإنسانية:

كان لسيدة نساء العالمين الدور البارز في تفاعل الأحداث بتفاعل عواطفها وانفعالاتها حتى حققت الهدف والمغزى والعبرة التي كانت درساً مهماً في تاريخ الإنسانية، فكانت عوناً وسنداً لنبي الله عيسى عليه السلام، الذي حمل الرسالة ومضى يطوف البلاد يدعو إلى الله بالمحبة والتسامح والسلام، والمتأمل في القرآن الكريم يلحظ الاتي في سيرة مريم عليها السلام:

. ليس في القرآن الكريم سورة باسم امرأة سوى سورة مريم عليها السلام، لا آمنة أمُّ رسول الله (ﷺ) (محمد)، ولا خديجة زوجه، ولا فاطمة ابنته.

. ذكرت مريم (34) مرة في القرآن الكريم[344].

. مريم مكفولة من قبل الله، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ **[آل عمران: 44].**

. مريم مصطفاة، مرة لإنجاب عيسى، ومرة على نساء العالمين، وهي مطهَّرةٌ من كل عيب قال الله تعالى: ﴿وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ **[آل عمران: 42].**

. مريم عفيفة شريفة، قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ **[التحريم: 12]**، وقد شرَّف الله تعالى مريم بنت عمران تشريفاً عظيماً وتكريماً جليلاً؛ لأنها اعتصمت بالعفاف والطهر طوال حياتها، فاستحقت ذلك، وبهذا نرى أن من خضع لله تعالى رفعه، ومن كان مع الله تعالى طاعةً، كان الله معه عزّاً وكرامةً[345].

. مريم وابنها من آيات الله تعالى الدالَّة على قدرته العظيمة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ **[المؤمنون: 50]**، لذا فإن الله تعالى تكريماً ورعايةً

---

[344] أكرم كسّاب، علاقة الإسلام بالنصرانية في القران والسنة عبر التاريخ، مركز التنوير الإسلامي للخدمات المعرفية والنشر، القاهرة، 2007م، ص 17.

[345] هدى عبد اللطيف عريان، الشخصية النسائية في القصة القرآنية، دار غار حراء للطباعة والنشر، دمشق. سوريا، ط1، 2005م، ص 216.

لهما اواهما إلى جهة مرتفعة من الأرض، وهذا إن دلَّ فإنما يدلُّ على أنَّ من سلك طريق الطاعة فهو في رفعة وسموّ، ومن سلك طريق المعاصي فهو في انحطاط ودنو[346].

. مريم من أفضل نساء العالمين، قال (ﷺ): «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وأسية امرأة فرعون» [347]، وفي رواية أخرى، قال(ﷺ): «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، واسية امرأة فرعون» [348].

. مريم من أفضل نساء أهل الجنة، قال (ﷺ) «أفضل نساء أهل الجنَّة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، واسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[349].

. مريم سيدة كاملة، قال (ﷺ): «كمل من الرجال كثير، ولم يكمُل من النساء إلا: مريم بنت عمران، واسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[350].

. مريم لم يمسَّها الشيطان، قال (ﷺ): «كل بني آدم يطعن الشيطان في جبينه بإصبعه حين يولد، غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب» [351]. وفي رواية: «كل بني آدم يمسُّه الشيطان يوم ولدته أمُّه إلا مريم وابنها» [352].

. مريم نذر مقبول، قال تعالى:﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ **[آل عمران: 37]** .

. مريم يأتيها رزقها رغداً في كل وقت وان، قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا

---

346 المرجع نفسه، ص 216.

347 سنن الترمذي، رقم 3888.

348 مسلم، في فضائل الصحابة، رقم 2430.

349 رواه النسائي في الكبرى، رقم: 8297، والحاكم في المستدرك، رقم: 3836، والطبراني في الكبير، رقم: 11928.

350 البخاري، رقم 3411؛ ومسلم، رقم 2431.

351 البخاري، رقم 3286.

352 البخاري، رقم 3431.

زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ **[آل عمران: 37]** .

. مريم مؤيَّدة بالمعجزات: قال تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ **[مريم: 24-25]**.

ويكفي أن نتدبّر في الآيات التي ذكرها الله في سورة مريم وآل عمران؛ لندرك قيمة مريم البتول عليها السلام، نحن المسلمون، فدورها عظيم وأساسي وهادف في القصص القرآني، وقد منحها الله هذه المكانة ليمنحنا قصة هادفة لها بُعد إنساني وعقائدي وإعجازي مليئة بالدروس والعبر العظيمة.

فمن مريم تعلمنا أهمية النذر والطاعة لله تعالى، وأن لا نقنط من رحمة الله، ونلجأ لوجهه الكريم في السراء والضراء.

ومن مريم تعلمنا الصبر والعفة والطاعة وحمل المسؤولية والعمل والسعي لرعاية ابن حمل رسالة سماوية واجهت معه قومها ومجتمعها، فكانت خير نساء العالمين[353].

ومن خلال قصتها تتعلم الإنسانية كيفية مواجهة الصدمات النفسية من خلال تدبُّر قصتها التي جاءت في القرآن الكريم، وذلك باستلهام الدروس والعبر:

. كالاستسلام لقضاء الله وقدره.

. أهمية العزلة المؤقتة.

. الصبر بصدقٍ مع الله على البلاء والمصيبة.

. الخروج من دائرة الحزن، ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾ **[مريم: 24]** .

[353] هدى عبد اللطيف عريان، الشخصية النسائية في القصة القرآنية، ص 219.

. تذكُّر نعم الله تعالى وأنها لا تعدُّ ولا تحصى، ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ **[مريم: 24]** .

. المحافظة على القوة وعدم الاستسلام للضعف،﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ **[مريم: 25]** .

. استدراك الاثار سريعاً، فللصدمات النفسية اثار ينبغي استدراكها سريعاً، أحدها جسدي ويتمثل بأعراض كثيرة منها: اضطرابات الأكل وفقدان الشهيَّة، والاخر معنوي ومنها: الحزن وفقدان السكينة والاطمئنان. وإذا تدبرنا قوله تعالى نجد أن الله الحكيم العليم وجَّه مريم إلى علاج الأمرين: الآثار ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ **[مريم: 26]**، والآثار المعنوية، فكان لعلاج الآثار الجسدية (فكلي واشربي)، وكان العلاج للآثار المعنوية (وقري عيناً) أي: لا تغتمِّي، واتركي عنك ما أحزنك وأهمك، وكوني سعيدة باصطفاء الله لك، مسرورة بما أعطاك فيما تهتمين به وتحزنين هو عين النِّعمة التي ليست لأحد غيرك من نساء العالمين.

. الاستعانة بعد الله بالصمت وتفويض الأمر إليه سبحانه وتعالى[354].

. اليقين بأن مع العسر يسراً، وبعد الضيق فرجاً، فها هي سيِّدة نساء العالمين مريم الطاهرة تباعدت عن الذِّكر حينما اعتزلت وتنحَّت للعبادة، فخلَّد الله ذكرها، وبعدما صدمت بذلك الأمر العظيم، وهو طفل بلا أب، وتمنَّت أن تنسى فلا تذكر قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ **[مريم: 23]** .

خلَّد الله ذكرها في كتابه، وأعلى شأنها، وبيَّن براءتها وجعلها مثالاً يحتذى، وقدوةً لنساء العالمين، ثم بعد ذلك يصبح ابنها نبيّاً رسولاً يجري الله على يديه النور والصلاح، ويؤيده بالكثير من المعجزات، ويحقق العبودية الخالصة لله، ويتعدّى لمن يشكك دعوة الله تعالى للمحبَّة والسلام والتسامح والرفق والرحمة، والحجة والبرهان والدليل[355].

---

[354] فوزية صالح الخليفي، مواجهة الصدمات النفسية من خلال تدبر قصة مريم عليها السلام، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 2015م، ص 20 . 29.

[355] المرجع السابق، ص 30.

لقد كان للسيدة مريم عليها السلام مكانة خاصَّة رفيعة في القرآن الكريم، فقد اصطفاها الله بالتطهُّر، لتقوم بأنبل وأعظم مهمة، وهي مهمة الأمومة في سياق المعجزة الإلهية، فكان لها الدور العظيم والأساسي في محور الأحداث المتعلقة بسيرة عائلتها وابنها، ورسالته التوحيدية الخالصة لله عزَّ وجل.

خامساً: عيسى عليه السلام رسول إلى بني إسرائيل:

شبَّ عيسى عليه السلام وعاش صباه وشبابه طاهراً تقياً، يحفظه الله ويحميه، ويرعاه ويبعد عنه الشيطان ووساوسه، حتى أنزل عليه الوحي وجعله نبيّاً رسولاً، وبعثه إلى بني إسرائيل وأنزل عليه كتابه الإنجيل.

وكانت بعثة عيسى عليه السلام وإنزال الإنجيل تحقيقاً للبشرى التي قدَّمها الله إلى أمه قبل حملها به ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ **[آل عمران: 48-49]** ، وهي تحقيق لما أخبر هو عن نفسه عندما كلَّم قومه وهو في المهد قائلاً ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ **[مريم: 30]**

لقد بعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل فقط، وورد هذا في صريح آيات القرآن الكريم:

- قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ **[آل عمران: 49]**.

- وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ **[الصف: 6]**.

خاطب عيسى عليه السلام بني إسرائيل وصارحهم بقوله . وأخبرهم أنه مصدقاً لما سبقه من ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾، وأنه يبشِّرهم بالنبي الخاتم الذي سيبعث من بعده

وهو (محمد بن عبد الله) (ﷺ).

وبعثة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل فقط؛ لأن كل نبيّ كان يبعث إلى قومه خاصَّة إلا رسولنا محمد (ﷺ) الذي بعثه الله إلى الناس كافَّة، فكل نبي كان يقول لقومه ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾، أما رسولنا (ﷺ) فقد قال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ **[الأعراف: 158]**.

وهذا ما ورد في صريح حديث رسول الله (ﷺ)، حيث روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): «أعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي، كان كل نبيٍّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحِلَّت لي الغنائم ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيُّما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرُّعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة»[356]. والشاهد فيه قوله: «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود».

ومن لطائف التعبير القرآني أن عيسى بلَّغ رسالته إلى بني إسرائيل بقوله ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ولم يقل (يا قوم)، بينما أخبر القرآن في الآية السابقة من سورة الصف أن موسى عليه السلام قال لهم: (يا قوم).

. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ **[الصف: 5]**.

موسى عليه السلام يقول لبني إسرائيل: (يا قوم)، وعيسى عليه السلام يقول لهم: (يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم)، ولم يقل: (يا قوم).

والحكمة في هذا أن الرجل ينسب إلى قوم أبيه، فيقال: هو من بني فلان ويخاطبهم هو قائلاً يا قوم. وهذا متحقق في موسى عليه السلام خلافاً للمسيح عيسى عليه السلام؛ لأنه ابن عمران وأبوه عمران من بني إسرائيل، وأما عيسى فليسوا قومه، بل لا قوم له من البشر،

[356] صحيح مسلم، رقم 521.

لأنه ليس له أب[357].

والخلاصة: أن عيسى عليه السلام كان مرسلاً ومكلفاً بتبليغ رسالة ربه إلى بني إسرائيل، وقد قام عيسى بواجب الدعوة إلى الله على الوجه الأكمل في مدن بني إسرائيل وقراهم.

إن قيام عيسى عليه السلام بدعوة بني إسرائيل وقصر دعوته إليهم ليس فيه أيُّ انتقاص من شأنه ولا أي تقليل لرسالته، فإن دعوة جميع الأنبياء عليهم السلام كانت خاصة إلى أقوامهم وليس في القرآن الكريم ولا في أحاديث النبي (ﷺ) ما يشير أو يدل على أن رسالة الأنبياء أو أحد منهم كانت عامة، وإنما كل نبي أو رسول كان يدعو قومه فقط، باستثناء محمد (ﷺ) الذي كانت رسالته عامة للناس جميعاً[358].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ **[الروم: 47]**.

وكون الأنبياء خصُّوا بأقوامهم لا مجال للاجتهاد فيه، أو الاعتراض عليه لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ **[الأنعام: 124]**.

فهو أعلم بأحوال الناس والبيئات، قد كانت رسالات الأنبياء - ومنهم أنبياء بني إسرائيل - متناسبة مع الزمن والمكان آنذاك، ولهذا وجدنا جميع أنبيائهم لم تتجاوز دعوتهم بلاد العراق أو بلاد الشام أو بلاد مصر، أي أنهم لم يخرجوا من الأرض التي يسكنونها، ولم يوجهوا دعوتهم إلا لأمتهم من بني إسرائيل[359]

لعلم الله أن شرائع الأنبياء ستنسخ بعد بعثة محمد (ﷺ)، وبالنسبة لعيسى عليه السلام فقد بلغ رسالة ربه، ودعا بني إسرائيل إلى وحدانية الله، وعدم الإشراك به بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ

---

[357] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 286/4.

[358] فرج الله عبد الباري، نقض دعوى عالمية النصرانية، دار الافاق العربية، القاهرة، ط1، 2004م، ص 18.

[359] المرجع نفسه، ص 18.

النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: 72] [360].

1 . وجوب الإيمان بأن عيسى عبد الله ورسوله:

إن عيسى عبد الله ونبيه ورسوله عليه السلام، ويجب الإيمان بنبوَّته ورسالته إلى بني إسرائيل، ومن أنكر كونه نبياً رسولاً فقد كفر، ولهذا كان من أسباب كفر اليهود إنكارهم نبوَّة ورسالة عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

وأخبر الله نبيه محمداً (ﷺ) أنه أخذ الميثاق منه كما أخذه من أولى العزم من قبله، ومنهم عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7].

وهذا ما قرَّره رسولنا (ﷺ) حيث روى البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله (ﷺ) قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل» [361].

والإيمان بنبوة عيسى عليه السلام يجب أن يكون إيماناً بالأمور التي ذكرها رسول الله (ﷺ) من أنه: عبد الله ورسوله، وكلمة الله تعالى ألقاها إلى مريم عليها السلام، وروح من الله خلقها في رحم مريم. وقد بينا معنى كونه كلمة وروحاً من الله فيما مضى ولله الحمد [362].

---

[360] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، ص 19.

[361] المرجع نفسه، 286/4.

[362] الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 286/4.

2 . عيسى مقفَّى وخاتم أنبياء بني إسرائيل:

صرَّح القرآن الكريم في أكثر من موضع بأن عيسى عليه السلام «مقفَّى»؛ قفَّى الله به على اثار الأنبياء السابقين وبعثه بعدهم، وهو اخر أنبياء بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ **[البقرة: 87]**.

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ **[المائدة: 46]**.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ **[الحديد: 26–27]**.

ومعنى : اتبعنا على اثار الرسل السابقين ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا﴾ كنوحٍ وإبراهيم . برسلٍ لاحقين جاؤوا بعدهم كموسى وهارون. ومعنى : أتبعنا الرسل اللاحقين كموسى وهارون عليهما السلام برسولنا عيسى ابن مريم عليه ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، واتيناه الإنجيل، وجعلناه اخر أنبياء بني إسرائيل.

وهكذا جعل الله عيسى عليه السلام خاتم أنبياء بني إسرائيل، ولم يبعث بعده رسولاً إلا خاتم الأنبياء والمرسلين والرحمة لجميع العالمين، محمد (ﷺ)[363].

[363] المرجع نفسه، 287/4.

سادساً: دعوة عيسى عليه السلام إلى التوحيد:

بعث الله عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل نبياً ورسولاً، وقامت رسالته على توحيد الله وإفراد الألوهية والربوبية، ودعوة بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده، ومطالبتهم بالإيمان بأنه عبد الله ورسوله، وأنه ابن مريم، فهو رسول بشر عليه الصلاة والسلام.

هذه هي خلاصة دعوة عيسى عليه السلام ورسالته، وهذه هي النصرانية الموحِّدة التي دعا إليها عيسى عليه السلام، وعلى هذا الأساس آمن به الحواريون، واتَّبعه النصارى الموحدون[364].

وبما أن نبوّة عيسى عليه السلام جاءت متممة مكمِّلة لنبوة موسى عليه السلام، فمن البديهي أن تكون قائمة على التوحيد، فالنصرانية الحقَّة لا تقول بوجود إله اخر غير الواحد الأحد، وما يناقض ذلك إنما هو انحراف عن حقيقة دعوة المسيح عليه السلام التي بيَّنها القرآن الكريم[365].

إن توحيد الله عزَّ وجل كان غاية الأنبياء العظمى، كما كان الركيزة الأولى في دعوة عيسى عليه السلام، وقد نصَّ القرآن الكريم على أن عقيدة المسيح عليه السلام هي التوحيد الكامل، فلا يعبد إلا الله، فالله خالق السماء والأرض وما بينهما فلا شريك له، هذا ما أعلنه المسيح منذ اللحظة الأولى لولادته، فلم يشذَّ عيسى عليه السلام عن القاعدة العامة التي جاء بها الأنبياء ومن أجلها. فقد دعا قومه إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وكان ذلك أول ما نطق به وهو في المهد قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ **[مريم: 30]**.

وفي هذا القول من عيسى إشارة واضحة إلى أن الذات الوحيدة التي تستحق العبادة هي ذات الله تعالى وإلا ما اعترف بعبوديته له، ولما كان البعض قد يتوهم من قول عيسى عليه السلام أن هذا الإله مخصوص له لا لأحد سواه، نفى القرآن ذلك وأخبر عمَّا جاء على لسانه

---

364 الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 387/4.

365 سرين محمد صعيدي، إنصاف غير المسلمين ومن أسلم من أهل الكتاب للإسلام وعقيدته وأثره على المجتمعات الغربية، دار الفتح للنشر، عمان. الأردن، ط1، 2017م، ص 117.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ **[مريم: 36]**.

كما أكّد القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام كان دائم القول والتكرار لهذه الحقيقة بين قومه والتذكير بها فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ **[المائدة: 72]**

ويذكر الشيخ رشيد رضا عند تفسيره لهذه الآية أن المسيح عليه السلام أمرهم بالتوحيد الخالص ودعاهم إليه، وحذّر من الوقوع في الشرك، وتوعّدهم عليه ببيان أن الحال والشأن الثابت عند الله تعالى هو أن كل من يشرك بالله شيئاً من ملك أو بشر أو كوكب، أو شجر، أو حجر، أو غير ذلك، فإن الله يحرّم عليه الجنة في الاخرة، فلا يكون له مأوى ولا ملجأ يأوي إليه إلا النار[366].

ومن النظر في الآيات الكريمة السابقة المتعلقة بدعوة عيسى عليه السلام ورسالته، تتبيّن لنا الأمور الاتية:

. أنّه رسول الله إلى بني إسرائيل.

. دعاهم إلى عبادة الله وحذّرهم من الشرك وبين لهم أن الجنة محرمة على المشركين.

. جاء مصدّقاً لما بين يديه من التوراة.

. اتاه الله الإنجيل، وفيه الهدى والنور والحكمة.

. اتاه الله البينات على صدقه وأيّده بروح القدس.

. بيّن لبني إسرائيل بعض الذي اختلفوا فيه.

. أحلّ لهم بعض الذي حُرّم عليهم.

---

[366] محمد رشيد رضا، تفسير المنار تفسير القران الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990م، 400/4.

. بشَّر بمحمد (ﷺ).

وتجدر الإشارة إلى بعض ما ورد في الآيات السابقة، ففي آية البقرة ورد قوله تعالى والمختار أنه جبريل عليه ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ **[البقرة: 87]**، أيده الله به، لإظهار حجته وأمر دينه[367].

وفي سورة آل عمران: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ **[آل عمران: 50]**، فأحلها عيسى عليه السلام بأمر الله له. وفي الزخرف ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ **[الزخرف: 63]**، فقد كان بينهم اختلاف في أمر دينهم ودنياهم، فبين لهم أمر دينهم وأحكام التوراة[368].

1 . بشرية عيسى عليه السلام:

جلَّى القرآن الكريم هذه النقطة أوضح تجلية، وبيَّنها أحسن بيان، وقطع حجَّة النصارى، بالاستدلال السليم، والنظر القويم، والمنطق الواضح، والدليل الساطع.

أ . عيسى كادم في خلق الله لهما:

قال تعالى:﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 59]**.

وسبب نزول هذه الآية مخاصمة وفد نجران من النصارى للنبي (ﷺ)، في أمر عيسى عليه السلام، فإنهم سألوا عن أب عيسى، فصمت رسول الله (ﷺ) فلم يجبهم، فأنزل الله تعالى في ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها هذه الآية: في قدرة ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ ﴾، حيث خلقه من غير أب (كمثل آدم)، خلقه من غير أب ولا أم . فالذي خلق آدم من غير أبوين قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأَولى ﴿ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾، وإن جاز ادّعاء النبوة في عيسى، لكونه مخلوق من غير أب فجواز ذلك من آدم بطريق الأَولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فالدعوى في عيسى أشدُّ بطلاناً وأظهر

367 أحمد الأميري، فقه دعوة الأنبياء في القران الكريم، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2012م، ص 508.

368 المرجع السابق، ص 508.

فساداً[369].

إنَّ ولادة عيسى عليه السلام عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر، ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر؟ وأهل الكتاب الذي كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى . بسبب مولده . ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ بغير أب، أهل الكتاب هؤلاء كانوا يقرون بنشأة آدم من تراب وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنسانيّ، دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى، ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتيَّة، على أن العنصر الذي به صار آدم إنساناً هو ذاته العنصر الذي به ولد عيسى من غير أب، عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك، وإن هي إلا الكلمة (كن)، تنشئ ما تراد له النشأة (فيكون).

وهكذا تتجلّى بساطة هذه الحقيقة، حقيقة عيسى، وحقيقة الخلق كلِّه، وتدخل إلى النفس في يسر وفي وضوح حتى ليعجب الإنسان كيف ثار الجدل حول هذا الحادث وهو جارٍ وِفق السنة الكبرى، سنة الخلق والنشأة جميعاً.

وهذه هي طريقة (الذكر الحكيم) في مخاطبة الفطرة بالمنطق الفطري الواقعي البسيط، في أعقد القضايا التي تبدو بعد هذا الخطاب وهي اليسر الميسور[370].

ب . كونوا ربانيين:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ **[آل عمران: 79]**.

جاء هذا رداً على نصارى نجران الذين زعموا أن عيسى أمرهم أن يتخذوه رباً، فقال لهم سبحانه: ما ينبغي لبشر اختاره الله للنبوة واتاه الكتاب والحكمة، والعلم والفهم، أن يكذب على الله و يأمر الناس بعبادته من دون الله، ولكن جائز أن يقول لهم: كونوا ربانيين أي: علماء

---

[369] تفسير ابن كثير، 357/1.

[370] في ظلال القران، 205/1.

معلمين: بسبب مثابرتكم على تعليم الكتاب ودراسته[371].

والآية الكريمة تُبين أن النبي عبد وأن الله وحده هو الرب، الذي يتجه إليه العباد بعبوديتهم وبعبادتهم، فما يمكن أن يدَّعي لنفسه صفة الألوهية التي تقتضي من الناس العبودية، فلن يقول نبي للناس ﴿كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ **[آل عمران: 79]**

ولكن قوله لهم منتسبين إلى ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾، عباداً له وعبيداً، توجَّهوا إليه وحده بالعبادة، وخذوا عنه وحده منهج حياتكم حتى تخلصوا له وحده فتكونوا (ربانيين)، كونوا (ربانيين) بحكم علمكم بالكتاب وتدارسكم له، فهذا مقتضى الكتاب ودراسته[372].

ج. النهي عن الغلو في الدين:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ **[النساء: 171-172]**.

في الآيتين الكريمتين السابقتين يخاطب القرآن الكريم النصارى من أهل الكتاب، وينهاهم عن الغلو وتجاوز الحدّ في دينهم، وذلك بإسباغ صفة الألوهية على عيسى ابن مريم عليه السلام، إذ هو عبد مجتبى لرسالة ربه، خلقه بكلمة (كن)، فكان، وهو روحٌ من عند الله؛ لأن الله تعالى أرسل به جبريل عليه السلام إلى مريم، ثمَّ يأتي القرآن لتصحيح إحدى أهمِّ عقائد أهل الكتاب، وهي عقيدة التثليث[373].

والثابت من التتبُّع التاريخي لأطوار العقيدة النصرانية أن عقيدة التثليث لم تصاحب النصرانية

---

[371] زاد المسير، 413/1. وانظر: تفسير ابن كثير، 385/1.

[372] في ظلال القران، 419/1.

[373] أحمد الأميري، فقه دعوة الأنبياء في القران الكريم، ص 477.

الأولى، إنما دخلت إليها على فترات متفاوتة التاريخ، مع الوثنيين الذين دخلوا في النصرانية، وهم لم يبرؤوا بعدُ من التصورات الوثنية، والالهة المتعددة، والتثليث بالذات يغلب أن يكون مقتبساً من الوثنيات القديمة[374].

وما تزال فكرة التثليث تصدم عقول المثقفين من النصارى، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق، ومن بينها الإحالة إلى مجهولات، لا ينكشف سرُّها للبشر إلا يوم يتكشَّف سرٌّ من الأسرار، على كل ما في السماوات وما في الأرض[375].

إن عقيدة التثليث سرّ من الأسرار، بل هي أمر مناقض للعقل يحاول النصارى إثبات أنه فوق العقل، فهم يقولون: إن الله تعالى ذو طبيعة ثلاثية لكنه واحد، وإنه ثلاثة «أشخاص»، لهم نفس الطبيعة ونفس الرتبة، ومع ذلك فهم متحدو الذات لا يقبلون التقسيم، وفي الوقت نفسه فإن الإله الابن نجم عن الإله الأب، وعنهما نجم روح القدس[376].

وتمضي الآيات الكريمة لتقدير حقيقة الوحدانية، وتبيين أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق، فعيسى عليه السلام ليس ابن الله، ولن يأنف ويستكبر أن يكون عبداً لله، ومثله الملائكة المقربون، ومن يأنف ويستكبر فإن مصيره إلى الله وسيحاسبه على كفره وعصيانه[377].

إن الغلو وتجاوز الحدّ والحق هو ما يدعو أهل الكتاب إلى أن يقولوا على الله غير الحق، فيزعمون له ولداً ـ سبحانه ـ كما يزعمون أن الله الواحد ثلاثة وقد تطورت عندهم فكرة النبوة وفكرة التثليث حسب رقيّ التفكير وانحطاطه، ولكنهم اضطروا ـ أمام الاشمئزاز الفطري من نسبة الولد لله والذي ترفضه الثقافة العقلية ـ أن يفسروا الإله الواحد في ثلاثة، بأنها صفات لله تعالى في حالات مختلفة، وإن كانوا ما يزالون غير قادرين على إدخال هذه التصورات المتناقضة إلى الإدراك البشري، فهم يحيلونها إلى معميَّات غيبية لا تنكشف إلا بانكشاف حجاب السماوات والأرض، والله سبحانه تعالى عن الشراكة، وتعالى عن المشابهة، ومقتضى كونه خالقاً يستتبع

---

374 المرجع نفسه، ص 477.

375 في ظلال القران، 2/815 ـ 818، بتصرف.

376 في ظلال القران، 2/817.

377 المرجع السابق، 2/818.

بذاته أن يكون غير الخلق، وما يملك إدراك أن يتصور إلا هذا التغاير بين الخالق والخلق، والمالك والملك، وإلى هذا يشير النص القرآني ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ **[النساء: 171]**.

وإذا كان مولود عيسى عليه السلام من غير أب عجيباً في عرف البشر، خارقاً لما ألفوه فهذا العجب إنما تنشئه مخالفة المألوف، والمألوف للبشر ليس هو كل الوجود، والقوانين الكونية التي يعرفونها ليست هي كل سنة الله، والله يخلق السنة ويجريها، ويعرفها حسب مشيئته ولا حدَّ لمشيئته والله سبحانه يقول ـ وقوله الحق ـ في المسيح ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ **[النساء: 171]**.

ـ فهو على وجه القصد والتحديد (رسول الله) شأنه في هذا الشأن بقية الرسل، شأن نوح وإبراهيم وموسى ومحمد، وبقية الرهط الكريم من عباد الله المختارين للرسالة على مدار الزمن.

ـ وأقرب تفسير لهذه ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾، أنه سبحانه، خلق عيسى بالأمر الكوني المباشر، الذي يقول عنه في مواضع شتى من القرآن إنه ﴿كُنْ فَيَكُونُ *﴾

فلقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم فخلق عيسى في بطنها من غير نطفة أب ـ كما هو المألوف في حياة البشر غير آدم ـ والكلمة التي تخلق كل شيء من العدم، لا عجب في أن تخلق عيسى عليه السلام في بطن مريم من النفخة التي يعبر عنها بقوله ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ وقد نفخ الله في طينة آدم من قبل من روحه فكان إنساناً.

كما يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ **[ص: 71-72]** والروح هنا هو الروح هناك.

ولم يقل أحد من أهل الكتاب ـ وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله ـ إن آدم إله، ولا أقنوم من أقانيم الإله ـ كما قالوا عن عيسى تشابه الحال ـ من حيث قضية الروح والنفخة

ومن حيث الخلقة كذلك[378]، بل إن آدم خلق من غير أب وأم، وعيسى خلق مع وجود أم.

وكذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 59].**

ويشهد بذلك العقل البشري ذاته، فالقضية في حدود إدراكه، فالعقل لا يتصور خالق يشبه مخلوقاته، ولا ثلاثة في واحد، ولا واحد في ثلاثة. والولادة امتداد للفاني ومحاولة للبقاء في صورة النسل، والله الباقي غير عن الامتداد في صورة الفانين، وكل ما في السماوات وما في الأرض ملك له سبحانه.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾

ويكفي البشر أن يرتبطوا كلهم بالله ارتباط العبودية للمعبود، وهو يرعاهم أجمعين، ولا حاجة لافتراض قرابة بينهم وبينه عن طريق ابن له منهم، فالصلة قائمة بالرعاية والكلاءة.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً *﴾

وهكذا لا يكتفي القرآن ببيان الحقيقة وتقريرها في شأن العقيدة، إنما يضيف إليها إراحة شعور الناس من ناحية رعاية الله لهم، وقيامه ـ سبحانه ـ عليهم، وعلى حوائجهم ومصالحهم، ليوكلوا إليه أمرهم كله في طمأنينة.

ويصحح القرآن هنا عقيدة النصارى كما يصحح كل عقيدة تجعل للملائكة نبوّة كنبوّة عيسى أو شرعاً في الألوهية كشرعته في الألوهية ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ **[النساء: 172-173].**

لقد عني ـ الرسل والأنبياء ـ ومنهم عيسى عليه السلام بتقرير حقيقة وحدانية الله سبحانه،

---

[378] في ظلال القران، 817/2.

وحدانية لا تلتبس بشبهة شرك، أو مشابهة لصورة من الصور، وعنوا بتقرير أن الله سبحانه ليس كمثله شيء، فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة، ولا خاصيَّة.

وهذه الحقيقة جاء بها الرسل أجمعون، فقررها في سيرة كل رسول وفي دعوة كل نبي، وجعلها محور الرسالة في عهد نوح عليه السلام إلى عهد محمد خاتم النبيين (ﷺ)، تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول وكان من العجيب أن أتباع الديانات السماوية. وهي حاسمة وصارمة في تقرير هذه الحقيقة. يكون منهم من يعرف هذه ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ **[الأعراف: 59]**، وينسب لله سبحانه البنين والبنات، أو ينسب لله سبحانه الامتزاج مع أحد من خلقه في صورة الأقانيم، اقتباسات من الوثنيات التي عاشت في الجاهليات[379].

إنه لا تستقيم تصورات الناس، ولا تستقر مشاعرهم إلا حين يستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم، هو إله لهم، وهم عبيده، هو خالق لهم، وهم مخاليق، هو مالك لهم، وهم مماليك، وهم كلهم سواء في هذه الصلة، لا بنوة لأحد، ولا امتزاج بأحد، ومن ثمَّ لا قرب لأحد إلا بشيء يملكه كل أحد، ويوجه إرادته إليه فيبلغه: (التقوى والعمل الصالح). وهذا في مستطاع كل أحد أن يحاوله، فأما البنوة والامتزاج فأنى بهما لكل أحد؟

ولا تستقيم حياتهم وارتباطهم ووظائفهم في الحياة إلا حين تستقرُّ في أخلادهم تلك الحقيقة: أنهم كلهم عبيد لرب واحد، ومن ثم موقفهم كلهم تجاه صاحب السلطان واحد، أما القربى إليه ففي متناول الجميع، عندئذ تكون المساواة بين بني الإنسان[380].

إنه ميلاد جديد للإنسان على يد الإسلام، ميلاد للإنسان المتحرر من العبودية للعباد، بالعبودية لرب العباد، ومن ثمَّ لم تقم في تاريخ الإسلام كنيسة تستذل رقاب الناس، بوصفها الممثلة لابن الله، أو للأقنوم المتمم للأقانيم الإلهية المستمدة لسلطانها من سلطان الابن أو سلطان الأقنوم.

ولم يقم كذلك في تاريخ الإسلام سلطة مقدسة تحكم (بالحق الإلهي) زاعمة أن حقها في

---

[379] في ظلال القران، 818/2.

[380] في ظلال القران، 819/2.

الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من الله، وقد ظلّ (الحق المقدس) للكنيسة والبابوات في جانب، والأباطرة الذين زعموا لأنفسهم حقاً مقدساً كحق الكنيسة في جانب.

ظل هذا الحق أو ذاك قائماً في أوربا باسم الابن أو مركب الأقانيم[381]، حتى جاء الصليبيون إلى أرض الإسلام مغيرين، فلما ارتدوا أخذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على (الحق المقدس)، كانت فيما بعد ثورات «مارتن لوثر» و«كالفن» و«زنجلي» المسمَّاة بحركة الإصلاح على أساس من تأثير الإسلام ووضوح التصور الإسلامي، ونفي القداسة عن بني الإنسان، ونفي التفويض في السلطان؛ لأنه ليست هناك إلا ألوهية وعبودية في عقيدة الإسلام.

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل في ألوهية المسيح ونبوته، وألوهية روح القدس «أحد الأقانيم»، وفي كل أسطورة عن نبوة أحد لله، أو ألوهية أحد مع الله، في أيِّ شكل من الأشكال.

يقول القرآن كلمة الفصل بتقريره أن عيسى ابن مريم عبد الله، وأنه لن يستنكف أن يكون عبداً لله، وأن الملائكة المقربين عبيد لله، وأن جميع خلائقه ستحشر إليه، وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم، وأن الذين يقرُّون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم[382].

ـ قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ **[النساء: 172-173].**

إنَّ المسيح ابن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبداً لله؛ لأنه ـ عليه السلام ـ وهو نبي الله ورسوله خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان، وهو خير من يعرف أنه من خلق الله، فلا يكون خلق الله كالله، أو بعضاً من الله، وهو خير من يعرف أن العبودية لله ـ فضلاً على أنها الحقيقة المؤكدة الوحيدة ـ لا تنقص من قدره، فالعبودية

[381] مُركب العناصر، وهو قول أصحاب الثالوث، بأن الإله مركب من ثلاثة عناصر.

[382] في ظلال القران، 819/2.

لله مرتبة لا يأباها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء.

وهي المرتبة التي يصف الله بها رسله، وهم في أرقى حالاتهم وأكرمهم عنده، وكذلك الملائكة المقربون، وفيهم روح القدس جبريل، شأنهم شأن عيسى عليه السلام وسائر الأنبياء، فما بال جماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه، ويعرف حقَّ المعرفة؟

﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا *﴾

فاستنكافهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر الله لهم بسلطانه، سلطان الألوهية على العباد، شأنهم في هذا شأن المقرين بالعبودية المستسلمين لله.فأما الذين عرفوا الحق، فأقروا بعبوديتهم لله، وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة . وهذا الإفراز . فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله[383].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ **[النساء: 173]**

وما يريد الله من عباده أن يقروا له بالعبودية، وأن يعبدوه وحده لأنه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادتهم، ولا أنها تزيد في ملكه تعالى أو تنقص من شيء، ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، لتصحَّ تصوراتهم ومشاعرهم، كما تصح حياتهم وأوضاعهم، فما يمكن أن تستقرَّ التصورات والمشاعر، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع، على أساسٍ سليم قويم إلا بهذه المعرفة، وما يتبعها من إقرارٍ وما يتبع الإقرار من اثار[384].

يريد الله سبحانه أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التي بيناها في نفوس الناس، وفي حياتهم، ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ليعرفوا من صاحب السلطان في هذا الكون، وفي هذه الأرض، فلا يخضعوا إلا له، ولمنهجه وشريعته للحياة، وإلا لمن يحكم حياتهم بمنهجه وشرعه دون سواه، يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد، ليرفعوا جباههم أمام كل من عداه،

---

[383] في ظلال القران، 820/2.

[384] في ظلال القران، 820/2.

حين تعنو له وحده الوجوه والجباه، يريد أن يستشعروا العزة أمام المتجبرين والطغاة حين يخرون له راكعين ساجدين، يذكرون الله ولا يذكرون أحداً إلا الله، يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجيء عن صهر ولا نسب، ولكن تجيء عن تقوى وعمل صالح، فيعمرون الأرض ويعملون الصالحات قربى إلى الله، يريد أن تكون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية.

إن تقدير هذه الحقيقة الكبيرة، وتحليق أنظار البشر لله وحده، وتعليق قلوبهم برضاه، وأعمالهم بتقواه، ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه. إن هذا كله رصيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشرية في حياتها الأرضية، وزاد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة تستمتع به الأرض في هذه الحياة، فأما ما يجزي الله به المؤمنين المقربين بالعبودية العاملين للصالحات في الاخرة فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر وفيض من عطاء الله[385].

وفي هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان بالله في الصورة الناصعة التي جاء بها الإسلام، وقرر أنها قاعدة الرسالة كلها ودعوة الرسل جميعاً، قبل أن يحرفها الأتباع، وتشوهها الأجيال، يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلاداً جديداً للإنسان، تتوافر له معه الكرامة والحرية، والعدل والصلاح، والخروج من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده في الشعائر، وفي نظام الحياة سواء.

والذين يستنكفون من العبودية لله، يذلون لعبوديات في هذه الأرض لا تنتهي، يذلون لعبودية الهوى والشهوة، أو عبودية الوهم والخرافة، ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم، ويحنون لهم الجباه، ويحكِّمون في حياتهم، وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيداً مثلهم من البشر، وهم سواء أمام الله، ولكنهم يتخذونهم الهة من دون الله، هذا في الدنيا، أما في الاخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا *﴾

إنها القضية الكبرى في العقيدة السماوية تعرضها هذه الآية في هذا السياق في مواجهة انحراف أهل الكتاب من النصارى في ذلك الزمان، وفي مواجهة الانحرافات كلها إلى اخر الزمان[386].

---

[385] المرجع نفسه، 821/2.

[386] في ظلال القران، 936/2.

2. الله ليس المسيح ولا ثالث ثلاثة:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ **[المائدة: 72-77]**

لقد تسربت المقولات المنحرفة من المجامع الكنسية إلى العقيدة النصرانية التي جاء بها عيسى عليه السلام رسولاً من عند الله، كإخوانه الرسل الذين جاؤوا بكلمة التوحيد خالصة لا يشوبها ظل من الشرك، لأن الرسالات كلها جاءت لتقرير كلمة التوحيد في الأرض وإبطال كلمة الشرك.

ونذكر باختصار ما انتهت إليه تلك المجامع من الاتفاق على التثليث وألوهية المسيح والخلاف فيما بينها بعد ذلك.

. جاء في كتاب (سوسنة سليمان) لنومل بن نعمة الله بن جرجس النصراني: أن عقيدة النصارى التي لا تختلف بالنسبة لها الكنائس وهي أصل الدستور الذي بيّنه المجمع النيقاوي هي الإيمان بإله واحد: أب واحد ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، كل ما يُرى وما لا يُرى، وبرب واحد يسوع، الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله إله حق من إله حق مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء، والذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خطايانا نزل من السماء وتجسَّد من الروح القدس، ومن مريم العذراء تأنس، وصلب عنا على عهد بيلاطس، وتألم وقبر، وقام من الأموات في اليوم الثالث على ما في الكتب وصعد

إلى السماء، وجلس على يمين الرب، وسيأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات، ولا فناء لملكه، والإيمان بروح القدس، الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الابن يسجد له ويمجّده، الناطق بالأنبياء، وقد قال الدكتور «بوست» في «تاريخ الكتاب المقدس»: طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الاب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الاب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير[387].

ونظراً لصعوبة تصور الأقانيم الثلاثة في واحد، وصعوبة الجمع بين التوحيد والتثليث، فإن الكُتَّاب النصارى عن اللاهوت حاولوا تأجيل النظر العقلي في هذه القضية التي يرفضها العقل ابتداء، ومن ذلك ما كتبه القس «بوطر» في رسالة «الأصول والفروع» حيث يقول: قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل حين يكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات وما في الأرض، أما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية[388].

والله سبحانه وتعالى يقول: إن هذه المقالات كلها كفر، وهي تتضمن ـ كما رأينا ـ القول بألوهية المسيح عليه السلام، والقول بأن الله ثالث ثلاثة، وليس بعد قول الله ـ سبحانه ـ قول: والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ **[المائدة: 72-74].**

هكذا حذرهم المسيح عليه السلام فلم يحذروا، ووقعوا ـ بعد أن رفعه الله إليه ـ فيما حذرهم من الوقوع فيه، وما أنذرهم عليه من الحرمان من الجنة والانتهاء إلى النار، ونسوا قول المسيح

[387] في ظلال القران، 944/2.

[388] المرجع نفسه، 944/2.

عليه السلام ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، حيث أعلن لهم أنه هو وهم في العبودية سواء لربوبية الله الواحد، الذي ليس له شركاء.

ويستوفي القرآن الكريم على سائر مقولاتهم الكافرة ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾، ويقرر الحقيقة التي تقوم عليها كل عقيدة جاء بها رسول من عند الله ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

ويهددهم عاقبة الكفر الذي ينطقون به ويعتقدونه (وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم). والكافرون هم الذين لا ينتهون عن هذه المقولات التي حكم عليها الله بالكفر الصراح.

ثم أردف التهديد والوعيد بالتحضيض والترغيب (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) ليبقى لهم باب التوبة مفتوحاً، وليطمعهم في مغفرة الله ورحمته قبل فوات الأوان، ثم واجههم بالمنطق الواقعي القويم، لعله يرد فطرتهم إلى الإدراك السليم مع التعجب في أمرهم في الانصراف عن هذا المنطق بعد البيان والإيضاح[389].

. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ **[المائدة: 75].**

. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ﴾: ليرد على اليهود في تكذيبهم، وعلى النصارى في ادّعائهم إلهيّته.

. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾: رداً على من نسبها إلى، فالصديقة المبالغة في الصدق، فكيف يتصور من النقية التقية العابدة المخبتة أن ترتكب الفاحشة؟ ثم إنه مولود وله أم، فكيف يكون المولود إلهاً؟

. ﴿كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ﴾: دليل حسيٌّ مشاهد سبيل لإنكاره من قبلهم على أنه بشر

---

[389] في ظلال القران، 945/2.

يحتاج إلى الطعام، والمحتاج لا يكون رباً بل مربوباً[390].

وأكل الطعام مسألة واقعية في حياة المسيح عليه السلام، وأمه الصديقة، وهي خصيصة من خصائص الأحياء المحدَثين، ودليل على بشرية المسيح وأمه ـ أو على ناسوته بتعبيرهم اللاهوتي ـ فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مراء فيها، ولا يكون إلهاً من يحتاج إلى الطعام ليعيش، فالله حي بذاته، قائم بذاته، باقٍ بذاته، لا يحتاج ولا يدخل إلى ذاته سبحانه، أو يخرج منها شيء حادث كالطعام.

ونظراً لوضوح هذا المنطق الواقعي ونصاعته التي لا يجادل فيها إنسان بعقل، فإنه يعقب عليه، باستنكار موقفهم والتعجب من انصرافهم عن ذلك المنطق البيّن ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيات ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ *﴾

ولقد كانت هذه الحياة البشرية الواقعية للمسيح عليه السلام، مصدر تعب لمن أرادوا تأليهه ـ على الرغم من تعاليمه ـ فقد احتاجوا إلى كثير من الجدل والخلاف حول لاهوتية المسيح عليه السلام وناسوتيته.

ـ ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ **[المائدة: 76].**

واستطراداً في ذلك المنطق القرآني المبين في زاوية أخرى يجيء هذا الاستنكار (قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم)؟

ويختار التعبير بكلمة (بما) بدل كلمة (من) في هذا الموضوع قصداً ليدرج المخلوقات التي تعبد كلها ـ بما فيها من العقلاء ـ في سلك واحد، لأنه يشير إلى ماهيتها المخلوقة الحادثة البعيدة عن حقيقة الألوهية، فيدخل عيسى ويدخل روح القدس وتدخل مريم، كلهم في (ما) لأنهم بماهيتهم من خلق الله، ويلقي هذا التعبير ظله كذلك في هذا المقام، فيبعد أن يكون أحداً من

---

[390] أحمد الأميري، فقه دعوة الأنبياء في القران الكريم، ص 479.

خلق الله مستحقاً للعبادة وهو لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً.

﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾: فالله الذي يسمع، ومن ثم يضر وينفع، كما أنه هو الذي يسمع دعاء عبيده وعبادتهم إياه، ويعلم ما تكنُّ صدورهم وما يكمن وراء الدعاء والعبادة، فأما ما سواه فلا يسمع ولا يعلم، ولا يستجيب الدعاء.

. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ **[المائدة: 77].**

ينهي هذا كله بدعوة جامعة، يكلف رسول الله (ﷺ) أن يوجهها إلى أهل الكتاب في الآية السابقة، فمن الغلو في تعظيم عيسى عليه السلام جاءت كل الانحرافات ومن أهواء الحكام الرومان، الذين دخلوا النصرانية بوثنيتهم، ومن أهواء المجامع المتناحرة كذلك، دخلت كل تلك المقولات على دين الله الذي أرسل به المسيح عليه السلام، فبلغه بأمانة الرسول وهو يقول لهم ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ **[المائدة: 72].**

وهذا النداء الجديد هو دعوة الإنقاذ لأهل الكتاب، ليخرجوا بها من خضمّ الانحرافات والاختلافات والأهواء والشهوات الذي خاض فيه أولئك الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل[391].

إن المسيح عليه السلام عبد الله ورسوله، وخلق من خلقه، قال له (كن) فكان، وخلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه. ولم يأنف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون، ومن يترفَّع عن عبادة الله يعذبه الله يوم القيامة، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يعطيه من الثواب على قدر عمله ويزيده من فضله وإحسانه. وكيف يكون المسيح إلهاً وهو عبد مخلوق كسائر العباد تنفذ فيه قدرة الله ومشيئته، ويخضع لقهره وسلطانه[392].

[391] في ظلال القران، 946/2.

[392] المرجع السابق، 946/2.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **[المائدة: 17]**.

3 . لعن كفار بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم:

قال تعالى: ﴿عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۞ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ **[المائدة: 79-81]**.

هذا تقرير شامل عن موقف أنبياء بني إسرائيل على مدى التاريخ، ممثّلاً في موقف داود وعيسى عليهما السلام، وكلاهما لعن كفار بني إسرائيل واستجاب الله له بسبب عصيانهم وعدوانهم، وبسبب انحلالهم الاجتماعي، وسكوتهم عن المنكر، يفشو فيهم فلا يتناهون عنه، وبسبب توليهم الكافرين فباؤوا بالسخط واللعنة، وكتب عليهم الخلود في العذاب، وهكذا يبدو أن تاريخ بني إسرائيل في الكفر والمعصية واللعنة عريق، وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم، هم في النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية الله، فسمع الله دعاءهم، وكتب السخط واللعنة على بني إسرائيل. والذين كفروا من بني إسرائيل هم الذين حرفوا كتبهم المنزلة وهم الذين لم يتحاكموا إلى شريعة الله كما مر في المواضع القرآنية المتعددة في هذه السورة وفي السور غيرها، وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لينصرنَّ كل رسول ويعززونه.

. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *﴾

هي المعصية والاعتداء، يتمثلان في كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء، وقد حفل تاريخ بني إسرائيل بالمعصية والاعتداء كما فصّل الله في كتابه الكريم. ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالاً فردية في مجتمع بني إسرائيل ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها وأن يسكت عنها المجتمع ولا يقابلها بالتناهي والنكير.

. ﴿كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ *﴾

إن العصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين، فالأرض لا تخلو من الشر، والمجتمع لا يخلو من الشذوذ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفاً مصطلحاً عليه، وأن يصبحا سهلاً يجترئ عليه كل من يهمُّ به، وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات، ويصبح الجزاء على الشر رادعاً وجماعياً تقف الجماعة كلها دونه وتوقع العقوبة الرادعة عليه، عندئذ ينزوي الشر وتنحسر دوافعه، وعندئذ يتماسك المجتمع فلا تنحل عراه، وعندئذ ينحصر الفساد في أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع، ولا يسمح لها بالسيطرة، وعندئذ لا تشيع الفاحشة ولا تصبح هي الطابع العام[393].

ويبين القرآن الكريم موقف الأنبياء من بني إسرائيل من الفساد المستشري في بني إسرائيل، وكيف وقف نبي الله داود ونبي الله عيسى ضد المنكر، ويبين القرآن الكريم خطورة تولي الذين كفروا عندما قال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ **[المائدة: 80-81]**.

4 . الله تعالى منزّه عن الولد والشريك:

. قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ **[المؤمنون: 91-92]**.

لو قدِّر تعدد الالهة لانفرد كل واحد منهم بما خلق، واستبدَّ به، ولتميز ملك كل واحد عن الاخر، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الاخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض، فلا ينتظم الكون بذلك، وبما أن الوجود متّسق منتظم، لا نرى فيه أثراً لتمايز الممالك والتغالب، فإن الله

---

[393] في ظلال القران، 948/2.

واحد لا شريك له[394].

. قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ **[الأنعام: 101]**.

إن الذي يبدع في هذا الوجود إبداعاً من العدم ما تكون حاجته إلى الخلق؟

والخلق إما هم امتداد الفانين وعون الضعفاء، ولذة من لا يبدعون ثم هم يعرفون قاعدة التكاثر، أن يكون للكائن صاحبة أنثى من جنسه، فكيف يكون لله ولد، ليس كمثله شيء، فأنى يكون النسل بلا تزاوج؟

وهي حقيقة ولكنها تواجه مستواهم التصوري، وتخاطبهم بالأمثلة القريبة من حياتهم ومشاهداتهم، فالمخلوق لا يكون أبداً شريكاً للخالق، وحقيقة الخالق غير حقيقة المخلوق، كما يواجههم بعلم الله المطلق الذي لا يقابله منهم إلا أوهام وظنون ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ **[الأنعام: 101]**.

فالذي يعبد ويطاع ويعترف له بالدينونة وحده هو خالق كل شيء، فلا إله إذن غيره، ولا رب إذن سواه ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ **[الأنعام: 102]**.

. وقال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ **[الفرقان: 2]**.

كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وكل شيء تحت قهره وتدبيره، وهو الذي هيأ كل شيء لما يصلح له بلا خلل فيه، وقدر حجمه وشكله ووظيفته وعمله وزمانه ومكانه وتناسقه مع غيره من هذا الوجود الكبير.

كما إنه خلق الإنسان على هذا الشكل الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في

---

[394] عمر أحمد عمر، رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م، 285/2.

الدين والدنيا، وقدره للبقاء إلى أمدٍ معلوم، وجعله يتناسل لامتداد الحياة إلى أجلٍ مسمًّى، وهو سبحانه باقٍ لا يفنى قادر لا يحتاج وكل ما في السماوات والأرض منقادون له، يقرُّون له بالطاعة ويشهدون له بالوحدانية، ولا يمتنع منهم شيء على تكوينه وتقديره[395].

. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ۝ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[البقرة: 116-117]**.

كلُّ ما قدره من الأمور وأراد كونه يتكوّن، ويوجد على وِفق ما أراد من غير امتناع ولا توقف، ومن كان بهذه الصفة من القدرة كانت صفاته مباينة لصفات الأجسام، فأنى يتصوّر التوالد، ثم والذي ابتدع السماوات والأرض من غير أصلٍ وعلى غير مثال هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته[396].

. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ **[مريم: 88-95]**.

إن ضمير الكون وجوارحه لتنتفض وترتعش وترجف من سماع تلك القولة النابية والمساس بقداسته . الذات العلية .كما ينتفض كل عضو وكل جارحة عندما يغضب الإنسان للمساس بكرامته أو كرامة من يحبه ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السماوات والأرض والجبال، والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والارتجاف، وما تكاد الكلمة النابية تنطلق حتى تنطلق كلمة التفظيع والتبشيع ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا *﴾، ثم يهتزُّ كل ساكن من حولهم ويرتجُّ كل مستقر، ويغضب الكون كله لبارئه سبحانه وتعالى، وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته وتجافي ما وقر

---

[395] عمر أحمد عمر، رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى، 286/2.

[396] المرجع نفسه، 286/2.

في ضميره وما استقرَّ في كيانه، وتهزُّ القاعدة التي قام عليها واطمأن إليها ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ **[مريم: 90-92]**، وفي وسط القضية الكونية يصدر البيان الوحيد ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ **[مريم: 93-95]**

إن كل من في السماوات والأرض إلا عبد يأتي معبوده خاضعاً طائعاً، فلا ولد ولا شريك، إنما خلق وعبيد، وإن الكيان البشري ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان عَبْدًا ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ **[مريم: 94-95]**

فعين الله على كل فرد، وكل فرد يقدم وحيداً، لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد، حتى روح الجماعة ومشاعر الجماعة يُجَرَّد منها، فإذا هو وحيد فريد أمام الديَّان في وسط هذه الوحدة والوحشة والرهبة إذ المؤمنون في ظلال نديَّة من الودِّ السامي: ودُّ الرحمن ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ **[مريم: 96]**[397].

. وقال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ **[يونس: 68-70]**.

إن عقيدة أن لله سبحانه وتعالى ولداً، هي عقيدة ساذجة منشؤها قصور من التصور، يعجز عن إدراك الفارق الهائل بين الطبيعة الإلهية الأزلية الباقية، والطبيعة البشرية المخلوقة الفانية، والقصور كذلك عن إدراك حكمة السنة التي جرت بتوالد أبناء الفناء هو التكملة الطبيعية لما فيهم من نقص وقصور لا يكونان لله.

فالبشر يموتون والحياة باقية إلى أجل معلوم، فإلى أن ينقضي هذا الأجل فحكمة الخالق

---

[397] في ظلال القران، 2321/3.

تقتضي امتداد البشر، والولد وسيلة لهذا الامتداد، والبشر يهرمون ويشيخون فيضعفون، والولد تعويض عن القوة الشائخة بقوة فتية، تؤدي دورها في عمارة الأرض ـ كما شاء الله ـ وتعين الضعفاء والشيوخ على بقية الحياة.

والبشر يكافحون فيما يحيط بهم، ويكافحون أعداءهم من الحيوان والناس، فهم في حاجة إلى التساند، والولد أقرب ما يكون إلى العون في هذه الأحوال.

والبشر يستكثرون من المال الذي يجلبونه لأنفسهم بالجهد الذي يبذلونه والولد يعين على الجهد الذي يجلب المال، وهكذا إلى سائر ما اقتضته حكمة الخالق لعمارة هذه الأرض، حتى ينقضي الأجل، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً، وليس شيء من ذلك كله متعلقاً بالذات الإلهية، فلا الحاجة إلى الامتداد ولا الحاجة إلى العون عند الشيخوخة ولا الحاجة إلى النصير ولا الحاجة إلى المال ولا الحاجة إلى شيء ما مما يخطر أو لا يخطر على البال متعلقة بذات الله تعالى.

ومن ثم تنتفي حكمة الولد؛ لأن الطبيعة الإلهية لا يتعلق بها غرض خارج عن ذاتها، يتحقق بالولد وما قضت حكمة الله أن يتوالد البشر إلا لأن طبيعتهم قاصرة تحتاج إلى هذا النوع من التكملة، فهي تقتضي الولد اقتضاءً وليست المسألة جزافاً.

ومن ثم كان الرّدّ على فرية: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً لذاته العليّة عن مستوى هذا الظن أو الفهم والتصور: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ بكل معاني الغنى عن الحاجات التي أسلفنا وعن سواها مما يخطر على، مما يقتضي وجود الولد والمقتضيات هي التي تسمح بوجود المقتضيات فلا يوجد شيء عبثاً بلا حاجة ولا حكمة ولا غاية فكل شيء ملكه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ حاجة به ـ سبحانه ـ لأن يملك شيئاً بمساعدة الولد، فالولد إذن عبث، تعالى الله سبحانه عن العبث.

ولا يدخل القرآن الكريم في جدل نظري حول الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسوتية، مما جدَّ عند المتكلمين وفي الفلسفات الأخرى لأنه يلمس الموضوعات في واقعها القريب إلى الفطرة، ويتعامل مع الموضوع ذاته لا مع فروض جدلية قد تترك الموضوع الحاضر نهائياً وتصبح غرضاً في ذاتها.

فيكتفي هنا بهذه اللمسة التي تمسُّ واقعهم، وحاجاتهم إلى الولد وتصورهم بهذه الحاجة، وانتفاء وجودها بالقياس إلى الله الغني الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض، ليبلغ في نفوسهم موضوع الاقتناع أن موضوع الإفحام، بلا جدل نظري يضعف أثر اللمسة النفسية التي تستجيب لها الفطرة، هي يسر وهوادة، ثم يجابههم بالواقع، وهو أنهم لا يملكون برهاناً على ما يدّعون، ويسمى البرهان سلطاناً؛ لأن البرهان قوة، وصاحب البرهان قوي ذو سلطان ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾، ما عندكم من حجة ولا برهان على ما تقولون ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *﴾ وقول الإنسان ما لا يعلم منقصة لا تليق فكيف إذا كان هذا القول بلا علم على الله سبحانه.

إنه جريمة إذن أكبر من كل جريمة، فهو أولاً ينافي ما يستحقه من عباده، من تنزيه وتعظيم، لأنه وصف له بمقتضيات الحدوث والعجز والنقص والقصور، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولأنه ضلال في تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق ينشأ عنه ضلال في تصور كل علاقات الحياة والناس والمعاملات، فكلها فرع من تصور هذه العلاقة وكل ما ابتدعه الكهنة لأنفسهم

في الوثنيات من سلطان، وكل ما ابتدعته الكنيسة لها من سلطان إنما نشأ عن تصور العلاقة بين الله تعالى وبناته الملائكة، أو بين الله تعالى وعيسى ابن مريم من صلة الأبوة والبنوة، وحكاية الخطيئة، ومنها نشأت مسألة الاعتراف، ومسألة قيام كنيسة المسيح بتوصيل الناس بأبي المسيح بزعمهم إلى نهاية السلسلة التي بدأت الحلقة الأولى فيها بفساد تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق، فسدت الحلقات التالية كلها في كل ضروب الحياة، فليست المسألة مجرد فساد في التصور الاعتقادي، ولكنه مسألة الحياة برمَّتها، وكل ما وقع بين الكنيسة وبين العلم والعقل من عداء، انتهى إلى تخلُّص المجتمع من سلطان الكنيسة بتخلُّصه من سلطان الدين نفسه، إن ما نشأ في هذه اللحظة، حلقة فساد تصور العلاقة بين الله وخلقه وجرَّ في ذيوله شراً كثيراً تعاني منه البشرية كلها ويلاته في التيارات المادية وما وراءها من بلايا وأرزاء.

ومن ثم كان حرص العقيدة الإسلامية على تجلية هذه العلاقة تجلية كاملة لا لبس فيها ولا إبهام، فالله خالق أزليّ باقٍ، لا يحتاج إلى الولد، والعلاقة بينه وبين الناس جميعاً هي علاقة الخالق

بخلقه دون استثناء، وللكون والحياة والأحياء سنن ماضية لا تتخلف ولا تحابي، فمن اتبع هذه السنن أفلح وفاز، ومن حاد عنها ضلّ وخسر.

الناس في هذا كلهم سواء، وكلهم مرجعهم إلى الله وكلهم اتيه يوم القيامة فرداً، ولكل نفسٍ ما عملت، ولا يظلم ربك أحداً. عقيدة بسيطة واضحة لا تدع مجالاً لتأويل فاسد، ولا تنحني أو تنحرف بالقلب في دروب ومنحنيات، ولا في سحب وضباب، ومن ثم يقف المجتمع سواء أمام الله وكلهم مخاطب بالشريعة، وكلهم مكلف بها، وكلهم حفيظ عليها، وبذلك تستقيم العلاقة بين الناس بعضهم وبعض نتيجة استقامة العلاقة بينهم وبين الناس.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ *﴾: يفلحون أيَّ فلاح، لا يفلحون في شعب ولا طريق، لا يفلحون في الدنيا ولا في الأخرى، والفلاح الحقيقي هو الذي ينشأ من مسايرة سنن الله الصحيحة المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع وتنمية الحياة ودفعها إلى الأمام، وليس هو مجرد الانتاج المادي في تحطيم القيم الإنسانية، ومع انتكاس البشر إلى مدارج الحيوانية، فذلك فلاح ظاهري موقوت منحرف عن خط الرقيّ الذي يصل بالبشرية إلى أقصى ما تطيقه طبيعتها من الاكتمال.

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ **[يونس: 70]** وهو مجرد متاع قصير الأمد، وهو متاع مقطوع؛ لأنه لا يتصل بالمتاع اللائق بالبشرية في الدنيا والاخرة، إنما يعقبه (الْعَذَابَ الشَّدِيدَ)، ثمرة للانحراف عن سنن الله الكونية المؤدية إلى المتاع العالي اللائق ببني الإنسان[398].

. قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ **[التوبة: 30-31].**

---

[398] في ظلال القران، 1807/3.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾: وهذه المقالة وإن لم تكن، فقد قالتها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن في اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرؤوا فيها على الله، وتنقص عظمته وجلاله.

وقد قيل: إن سبب ادّعائهم في عزير أنه ابن الله أنه لما تسلط الملوك على بني إسرائيل ومزّقوهم كل ممزّق، وقتلوا حملة التوراة وجدوا عزيراً بعد ذلك حافظاً لها أو أكثر، فأملاها عليهم من حفظه واستنسخوها فادّعوا فيه هذه الدعوة الشنيعة، وقالت النصارى: عيسى ابن مريم (ابن الله)، قال تعالى (ذلك) القول الذي قالوه لم يقيموا عليه حجة ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ برهاناً، ومن كان لا يبالي بما يقول لا يستغرب عليه أي قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يرد من الكلام، ولهذا قال أي يشابهون في قولهم هذا أي قول المشركين الذي يقولون الملائكة ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾، تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم في البطلان أيّ: كيف يصرفون عن الحق الصرف الواضح المبين إلى القول الباطل ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ *﴾ وهذا وإن كان يُستغرب على أمة كبيرة كثيرة أن تتفق على قول يدل على بطلانه أدنى تفكير وتسليط للعقل عليه، فإن لذلك سبباً وهو أنهم ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾، وهم علماؤهم أي: العباد المتجردين للعبادة ﴿وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، يحلُّون لهم ما حرَّم الله فيحلُّونه، ويحرّمون لهم ما أحلَّ الله فيحرِّمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل، فيتبعونهم عليها، وكانوا أيضاً يغلون في مشايخهم وعُبادهم ويعظمونهم ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله، وتقصد بالدعاء والذبائح والاستغاثة.

اتخذوه إلهاً من دون ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾، والحال أنهم خالفوا بذلك أمر الله لهم على ألسنة رسله، فما فيخلصون له العبادة ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبذوا أمر الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً (سبحانه) وتعالى أي: تنزه وتقدس وتعالت عظمته عن شركهم ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ *﴾، فإنهم ينتقصونه في ذلك ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه مما ينافي كماله

المقدس[399].

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه ولا برهاناً لما أصَّلوه، وإنما هو مجرد

قول قالوه، وافتراء افتروه، أخبر سبحانه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ ونور الله دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب وسماه الله نوراً، لأنه ستنار به ظلمات الجهل والأديان الباطلة، فإنه علم بالحق وعمل بالحق، وما عداه فإنه يصدُّه، فهؤلاء اليهود والنصارى ومن تشابههم من المشركين يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم التي ليس عليها دليل أصلاً ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ﴾ لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريده بسوء، ولهذا قال ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ **[التوبة: 32]** ولو سعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله، فإن سعيهم لا يغير الحق شيئاً.

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال الذي هو العلم النافع الذي هو العمل ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾، فكان ما بعث الله به محمداً (ﷺ) مشتملاً على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان، من إخلاص الدين لله وحده ومحبة الله وعبادته والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المفترة للقلوب والأبدان والدنيا والاخرة.

فأرسله الله بالهدى ودين الحق ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ *﴾، أي: ليعليه على سائر الأديان، بالحجة والبرهان والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك وبغوا له الغوائل، ومكروا مكرهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعد الله تعالى لا بدَّ أن ينجزه، وما ضمنه لا بدَّ أن يقوم به[400].

إن الواجب هو أن نعبد إلهاً واحداً، وأن نتبع شريعته، ونعمل بكتابه، وأن نتلقى منه العقيدة

---

[399] السعدي، تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»648/2.

[400] السعدي، تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» 649/2.

والقيم والنظم، وأن نتصور الوجود وحقائق الأشياء، والارتباطات فيما بينها على هديه وأن نعبده بالكيفية التي بينها بدون غلوٍ وتفريط، وألا نتجاوز الحقيقة في عيسى عليه السلام، وإذا أردنا أن ننسبه إلى أمه دون غيرها، كما يقول القرآن الكريم، إذ نسبه إليها ثلاثاً وعشرين مرة، بينما تضمَّن أسماء غيره من الرسل مجردة عن النسب في غالب الأحوال، فهو إنسان وليس ابن الإنسان، وهو رسول الله وليس ابن الله سبحانه وتعالى، وطبيعته بشرية وليست إلهية[401].

5 . الاستجواب العظيم من الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **[المائدة: 116-120].**

إنَّ الله سبحانه وتعالى يعلم ماذا قال عيسى للناس، ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب في اليوم العظيم المرهوب، الاستجواب الذي يقصد به إلى غير المسؤول ولكن في صورته هذه، وفي الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلِّهين لهذا العبد الصالح الكريم، إنها الكبيرة التي لا يطيق بشر عادي أن يقذف بها أن يدَّعي الألوهية وهو يعلم أنه عبد.

فكيف برسول من أولي العزم؟ كيف بعيسى ابن مريم، وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعدما اصطفاه بالرسالة، وقبل ما اصطفاه؟ كيف به يواجه استجواباً عن ادّعاء الألوهية، وهو العبد الصالح المستقيم؟

---

[401] عمر أحمد عمر، رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى، 294/2.

من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب يبدأ بالتسبيح والتنزيه[402].

﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ تنزيه لله تعالى عن مضمون تلك المقالة وكانت مبادرة المسيح بتنزيه الله تعالى عن تلك المقالة أهم من تبرئة نفسه على أنها مقدمة للتبرِّي؛ لأنه إذا كان ينزّه الله عن ذلك فلا جرم أنه لا يأمر به أحد[403].

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ يسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً. ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته، وخصائص ألوهية ربه.

. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ *﴾

إنَّ الله عز وجل الذي يعبده عيسى عليه السلام:

- علمه شامل لكل شيء في السماوات وفي الأرض.
- علمه شامل لكل ما يلج في الأرض وما يخرج منها.
- علمه المحيط بكل شيء واختصاصه بمفاتيح الغيب وما يحدث من صغير أو كبير في البرِّ والبحر.
- علمه المحيط بمكونات القلوب وما تخفيه الصدور.
- علمه الشامل لما في الأرحام لكل أنثى.
- علمه سبحانه لكل الأشياء قبل وقوعها، وإن ذلك في كتاب وله الحكمة البالغة في تقديرها.
- علمه سبحانه لأحوال عباده تقيّهم من فاجرهم، وغنيّهم من فقيرهم، وغير ذلك من الفوارق.

---

[402] في ظلال القران، 547/2.

[403] إبراهيم زيد الكيلاني، خصائص الأمة الإسلامية الحضارية كما تبيّنها سورة المائدة، جمعية المحافظة على القران الكريم، الأردن، ط1، 2004م، ص187.

- علمه المحيط الدقيق لكل مناجاة بين اثنين فأكثر مهما أسرُّوا النجوى.
- علمه الشامل لما ينزل من الشرائع على رسله وأنه سبحانه أعلم بما ينزل، وأعلم بما يصلح لعباده وينتهي بهم إلى السعادة الخيرة في الدارين.
- هذا العلم الذي يعلمه الإنسان المحدود من علوم الدنيا والدين إنما هو من تعليم الله تعالى له، واختصاصه له بالعقل وقابليته للتعليم.

واختصَّ الله سبحانه بعلوم الغيب، إن الله سبحانه لكمال علمه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، أي أنه سبحانه يعلم الأمور الماضية التي وقعت، والأمور المستقبلية التي لم تقع بعد، ويعلم الأمور التي لم تقع لو فرض أنها تقع كيف تقع، وهذا من كمال علمه بالغيب وعواقب الأمور[404].

وهذه بعض الأمور التي يستدل عليها من قول عيسى عليه السلام لربه (إنك أنت علاَّم الغيوب) وعندئذٍ فقط وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير بما قاله وفيما لم يقله، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ويدعوهم إلى عبادته.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾

فأنا عبد متبع لأمرك لا متجرئ على عظمتك وما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له المتضمن للنهي عن اتخاذيَ وأميَ إلهين من دون الله، وبيان أني عبد مربوب، فكما إنه ربكم فهو ربي[405].

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *﴾

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾: أي المطلع على سرائرهم، علماً وسمعاً ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *﴾، فعلمك قد أحاط بالمعلومات، وسمعك بالمسموعات، وبصرك

---

[404] عبد العزيز ناصر، ولله الأسماء الحسنى، ص 335 . 341.

[405] الكيلاني، المرجع السابق، ص188.

بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر.

والرقيب والشهيد من أسماء الله الحسنى وهما مترادفان، وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بالمسموعات وبصره بالمبصرات وعلمه بجميع المعلومات الجليَّة والخفيَّة، وهو الرقيب على ما دار في الخواطر وما تحركت به اللواحظ، ومن باب أولى الأفعال الظاهرة بالأركان[406].

وفي قوله تعالى يدل على مراقبة في القلب من عيسى عليه السلام عظيمة في سرّه وعلنه في ليله ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، في خلواته وجلواته، وكان على يقين في حياته الدينا أن الله لا تخفى عليه خافية يسمع كلامه ويرى مكانه ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فكان قلبه وسمعه وبصره ولسانه وجوارحه كلها في طاعة الله وعبادته سبحانه وتعالى.

فالله عز وجل شهيد على كل شيء يسمع جميع الأصوات خفيَّها وجلّها، ويبصر جميع المخلوقات دقيقها وجليّها، ويحيط علمه بكل شيء.

إن اليقين بهذه المعاني يثمر في القلب اليقظة والحذر والخوف من الله عز وجل بحيث لا يصدر من العبد إلا ما يحبه الله عز وجل ويرضاه من الأقوال والأعمال لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية في ليل أو نهار، في سر أو جهار.

والله شهيد على الخلق يوم القيامة بما عملوا وما كان بينهم من خصومات في الدنيا، وهذا يجعل الإنسان السويّ على حذر من ظلم العباد والتعدي على حقوقهم فإن الله عز وجل شاهد على ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ **[الحج: 17]** ، وكذلك يجعل العبد يتحرى الإخلاص والتقوى في أقواله وأعماله؛ لأن الله عز وجل مشاهد على ما في القلوب من النوايا والمقاصد ولا يقبل سبحانه إلا ما كان لله خالصاً صواباً.

والإيمان بأن شهادة الله عز وجل أعظم شهادة، فالله سبحانه هو الأعظم والأعلى والأجل والأرفع، وشهادته شهادة حضور ومعاينة، وهو لا يخفى عليه شيء من جوانب الحقيقة كما

---

[406] السعدي، تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص 459/2.

يحدث للبشر، فمن شهد الله له فهو حسيبه ولا يحتاج إلى شهادة غيره.

وقد شهد الله عز وجل لنفسه بالتوحيد، وشهد له به ملائكته وأنبياؤه ورسله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **[آل عمران: 18]** [407].

كان إيمان عيسى عليه السلام بالله عظيماً وباسمه الرقيب والشهيد وعلاَّم الغيوب، فكان جوابه في قمة العبودية لله مع تواضع رفيع، وتذلل منقطع النظير، ومعرفة عميقة بخصائص العبودية لله، والألوهية لخالقه، وينتهي عيسى عليه السلام إلى التفويض المطلق في أمرهم مع تقرير عبوديتهم لله وحده، وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم وحكمته فيم يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب.

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **[المائدة: 118]**

فيا لله للعبد الصالح في موقفه الرهيب، وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة، والتي يتبرأ منها العبد الصالح البريء ذلك التبرؤ الواجف، ويبتهل من أجلها إلى ربه هذا الابتهال المنيب؟ أين هم في هذا الموقف، في هذا المشهد؟

إن السياق لا يلقي إليهم التفاتة واحدة، فلعلهم يتذاوبون خزياً وندماً، فلندعهم حيث تركهم السياق لنشهد ختام المشهد العجيب.

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ **[المائدة: 119]**

هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم، إنه التعقُّب المناسب على كذب الكاذبين الذين أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبي الكريم، في أعظم القضايا كافة، قضية الألوهية والعبودية، التي يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومن فيه ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ

[407] السعدي، تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ص 635.

صِدْقُهُمْ﴾ إنها كلمة رب العالمين في ختام الاستجواب الهائل على مشهدٍ من العالمين.

وهي الكلمة الأخيرة في المشهد، وهي الكلمة الحاكمة في القضية، ومعها ذلك الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين درجات بعد ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾، الجنات والخلود ورضى الله ورضاهم بما لقوا من ربهم من التكريم ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[408].

في مواجهة الفرية، وفي نهاية الدرس الذي عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها، يجيء الإيقاع الأخير في السورة، يعلن تفرُّد الله سبحانه بملك السماوات والأرض وما فيهن، وقدرته سبحانه على كل شيء بلا حدود.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **[المائدة: 120]**

ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة، ومع ذلك المشهد العظيم الذي ينفرد الله فيه بالعلم ويتفرد بالألوهية ويتفرد بالقدرة... ويفوض فيه عيسى ابن مريم أمره وأمر من اتخذه وأمه الة من دون الله إلى العزيز الحكيم، الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير[409].

6 . عيسى ابن مريم عبد أنعم الله عليه، وداعية إلى التوحيد وعبادة الله:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ

---

[408] في ظلال القران، 1002/2.

[409] المرجع نفسه، 1002/2.

مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ **[الزخرف: 57-66].**

يستطرد القرآن الكريم في هذه الآيات، ويبين لنا ما دار بين كفار مكة ورسول الله (ﷺ) من جدل وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية لا بقصد الوصول إلى الحق، ولكن عناداً ومراءً وجحوداً.

فلما قيل لهم إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم، وكان القصد هو أصنامهم التي جعلوها تماثيل للملائكة التي عبدوها بذاتها وقيل لهم: إن كل عابد وما يعبد من دون الله في النار، ولما قيل لهم هذا، ضرب بعضهم المثل بعيسى ابن مريم ـ وقد عبده المنحرف من قومه ـ أهو في النار؟

وكان هذا مجرد جدل ومجرد مراء، ثم قالوا: إذا كان أهل الكتاب يعبدون عيسى وهو بشر فنحن أهدى إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله، وكان هذا باطلاً يقوم على باطل، وبهذه المناسبة، يذكر السياق طرفاً من قصة عيسى ابن مريم، يكشف عن حقيقته وحقيقة دعوته، واختلاف قومه من قبله ومن بعده.

ثم يهدد المنحرفين عن سواء العقيدة جميعاً بمجيء الساعة بغتة، وهنا يعرض مشهداً مطولاً من مشاهد يوم القيامة، يتضمن صفحة من النعيم للمتقين وصفحة من العذاب الأليم للمجرمين، وينفي أساطيرهم عن الملائكة وينزه الله سبحانه عما يصفون، ويعرفه لعباده ببعض صفاته وملكيته المطلقة للسماء والأرض والدنيا والاخرة وإليه ترجعون[410].

ـ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ *﴾

إنَّ رسول الله (ﷺ) قال لقريش: إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم وما تقول في محمد، فقالوا: يا محمد ألست تزعم أن

[410] في ظلال القران، 3196/5.

عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فإن كنت صادقاً فإنه كان الهتهم لا كما تقولون؟

فأنزل الله تعالى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ *﴾، ومعنى (يصدون) يعرضون أو يعدلون، وفي قوله تعالى يعني ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، أي: إن الهتنا ليست خيراً من عيسى، فإن كان في النار لأنه عُبد من دون الله، فقد رضينا أن تكون الهتنا بمنزلته، وهم ما ضربوا عيسى عليه السلام مثلاً إلا للمجادلة فحسب، فهم يعلمون أن المراد (حصب جهنم) ما اتخذوه الهة من الأصنام والأحجار[411].

في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

فليس إلهاً يعبد كما انحرف فريق من النصارى فعبدوه، إنما هو عبد أنعم الله عليه ولا جريرة لهم في عبادتهم إياه، فإنما أنعم الله عليه ليكون مثلاً لبني إسرائيل ينظرون إليه ويتأسون به، فنسوا المثل، وضلوا السبيل[412].

وقد أنعم الله على عيسى عليه السلام بالنبوة والحكمة والعلم والعمل[413].

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلاَئِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ *﴾

أي: لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة، فمن رحمة الله بكم، أن أرسل إليكم رسلاً من جنسكم، تتمكّنون من الأخذ عنهم.

وفي قوله ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *﴾

أي: وإن عيسى عليه السلام لدليل على الساعة، إن القادر على إيجاده من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو: وإن عيسى عليه السلام سينزل في اخر الزمان ويكون

---

[411] أحمد الأميري، فقه دعوة الأنبياء في القران الكريم، المرجع السابق، ص 497.

[412] في ظلال القران، 3198/5.

[413] السعدي، تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، 1616/4.

نزوله علامة من علامات الساعة. وفي قوله تعالى ﴿فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تشكُّنَّ في قيام الساعة فإن الشك فيها كفر. وفي قوله تعالى ﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *﴾، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ بامتثال ما أمرتكم به، واجتناب ما نهيتكم عنه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ موصول إلى الله عز وجل[414].

في قوله تعالى ﴿وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ *﴾

القرآن لا يفتأ يذكِّر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم، ومنذ المعركة الأولى في الجنة، وأغفل الغافلين من يعلم أن له عدواً يقعد له بالمرصاد، عن عمد وقصد، وسابق إنذار وإصرار ثم لا يأخذ حذره، ثم يزيد فيصبح تابعاً لهذا العدو الصريح[415].

وبعد هذه اللفتة يعود إلى بيان حقيقة عيسى عليه السلام وحقيقة ما جاء به، وكيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا كذلك من بعده.

في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ **[الزخرف: 63-65]**

جاء قوم عيسى عليه السلام بالبينات والواضحات سواء من الخوارق التي أجراها الله على يديه، أو من الكلمات والتوجيهات إلى الطريق القويم، وقد قال لقومه ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وأمن الزلل والشطط أمنه للتفريط والتقصير، واطمأن إلى خطوته في الطريق على اتزانٍ وعلى نور، وجاء ليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه، وقد اختلفوا في كثير من شريعة موسى عليه السلام وانقسموا فرقاً وشيعاً، ودعاهم إلى تقوى الله وإلى طاعته فيما جاءهم به من عند الله، وجهر بكلمة التوحيد خالصة لا مواربة فيها ولا لبس ولا غموض.

---

[414] السعدي، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 1616/4.

[415] في ظلال القران، 3199/5.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ ولم يقل إنه إله، ولم يقل إنه ابن الله، ولم يشر من قريب أو بعيد إلى صلة له بربه غير صلة العبودية من جانبه، والربوبية من جانب الله رب الجميع، وقال لهم: إن هذا صراط مستقيم لا التواء فيه ولا اعوجاج ولا زلل فيه ولا ضلال، ولكن الذين جاؤوا من بعده اختلفوا أحزاباً كما كان الذين من قبله مختلفين أحزاباً، اختلفوا ظالمين لا حجة لهم ولا شبهة ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ **[الزخرف: 65].**

لقد كانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، وكانوا ينتظرونه ليخلِّصهم مما كانوا فيه من الذل تحت حكم الرومان، وقد طال انتظارهم له، فلما جاءهم نكروه وشاقُّوه وهموا أن يصلبوه[416].

ثم ذهب المسيح إلى ربه فاختلف أتباعه من بعده، اختلفوا شيعاً وأحزاباً بعضها يؤلّهه، وبعضها ينسب لله سبحانه بنوته، وبعضها يجعل لله ثالث ثلاثة، أحدها المسيح ابن مريم، وضاعت كلمة التوحيد الخالصة التي جاء بها عيسى عليه السلام وضاعت دعوته للناس، ليلجؤوا إلى ربهم ويعبدوه مخلصين له الدين (فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم)، ثم جاء مشركو العرب يحاجُّون رسول الله (ﷺ) في عيسى عليه السلام بما فعلته الأحزاب المختلفة من بعده، وما أحدثته حوله الأساطير.

وحين يصل السياق القرآني إلى الحديث عن الظالمين، يدمج المختلفين من الأحزاب بعد عيسى عليه السلام مع المحاجّين لرسول الله (ﷺ) بفعل هذه الأحزاب، ويصور رجالهم يوم القيامة في مشهد رائع طويل، يحتوي كذلك صفحة المتقين المكرمين في جنات النعيم قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي

[416] في ظلال القران، 3200/5.

عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ۝ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ۝ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ **[الزخرف: 66-78]**

يبدأ المشهد بوقوع الساعة فجأة وهم غافلون عنها لا يشعرون بمقدمها.

- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ *﴾

هذه المفاجأة تحدث حدثاً غريباً، يقلب كل ما كانوا يألفونه في الحياة الدنيا[417].

- ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ *﴾

إن عداء الأخلاء ينبع من معين ودادهم، لقد كانوا في الحياة الدنيا يجتمعون على الشر، ويملي بعضهم لبعض في الضلال، فاليوم يتلاومون، اليوم يلقي بعضهم على بعض تبعة الضلال، وعاقبة الشر، واليوم ينقلون إلى خصوم يتلاحون، من حيث كانوا أخلاء يتناجون، (إلا المتقين) فهؤلاء مودتهم باقية، فقد كان اجتماعهم على الهدى، وتناصحهم على الخير، وعاقبتهم إلى النجاة، وبينما الأخلاء يتلاحون ويختصمون، يتجاوب الوجود كله بالنداء العلوي الكريم للمتقين.

- ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ **[الزخرف: 68-73]**

أي: تسرون سروراً يشيع في أعطافكم وقسماتكم فيبدو عليكم الحبور، ثم تطاف عليهم صحائف من ذهب وأكواب، وإذا لهم في الجنة ما تشتهيه الأنفس، وفوق شهوة النفوس والتذاذ العيون، كمالاً وجمالاً في التكريم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ

[417] في ظلال القران، 3201/5.

الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾، ومع هذا النعيم ما هو أكبر منه وأفضل، التكريم بالخطاب من العلي الكريم ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

- ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ **[الزخرف: 74]**

فما بال المجرمين الذين تركناهم هنيهة يتلاحون ويختصمون، وهم في عذاب جهنم وهو عذاب دائم وفي درجة عصيبة، لا يفتر لحظة، ولا يبرد هنيهة، ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص، ولا كوة من رجاء بعيد، فهم فيه يائسون قانطون.

- ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ **[الزخرف: 75]**

كذلك فعلوا بأنفسهم وأوردوها هذا الورود الموبق، ظالمين غير مظلومين.

- ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ **[الزخرف: 76]**

ثم تتناوح في الجوّ صيحة من بعيد، صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق.

- ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ **[الزخرف: 77]**

إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق من هناك من وراء الأبواب المؤصدة في الجحيم، إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين، إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغوث، فهم مبلسون يائسون. إنما يصيحون في طلب الهلاك، الهلاك السريع الذي يريح، وحسب المنايا أن يكن أمانيا.

وإن هذا النداء ليلقي ظلاً كثيفاً للكرب والضيق، وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب، وأجساماً تجاوز بها الألم حدَّ الطاقة، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ولكن الجواب يجيء في تيئيس وتخذيل، وبلا رعاية ولا اهتمام ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾ فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾

وفي ظل هذا المشهد الكامد المكروب يخاطب هؤلاء الكارهين للحق، المعرضين عن الهدى،

الصائرين إلى هذا المصير، ويعجب من أمرهم على رؤوس الأشهاد في أنسب جوٍّ للتحذير والتعجُّب.

- ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ **[الزخرف: 78]**

وكراهة الحق هي التي كانت تحول بينهم وبين اتباعه، لا عدم إدراك أنه حق، ولا الشك في صدق الرسول الكريم، فما عاهدوا عليه كذباً قط في الناس، فكيف يكذب على الله ويدَّعي عليه ما يدّعيه؟

والذين يحاربون الحق لا يجهلون في الغالب إنه الحق، ولكنهم يكرهونه، لأنه يصادم أهواءهم ويقف في طريق شهواتهم، وهم أضعف أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم، ولكنهم أجرأ على الحق وعلى دعاته، فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق، والاجتراء على الدعاة. لهذا يهددهم صاحب القوة والجبروت، العليم بما يسرون وما يمكرون[418].

قال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ **[الزخرف: 79-80]**.

فإصرارهم على الباطل في وجه الحق يقابله أمر الله الجازم وإرادته بتمكين هذا الحق وتثبيته، وتدبيرهم ومكرهم في الظلام يقابله علم الله بالسر والنجوى، والعاقبة معروفة حين يقف الخلق الضعاف القاصرون أمام الخالق العزيز العليم.

سابعاً: عيسى عليه السلام في موكب الأنبياء والمرسلين:

عرض القرآن الكريم موكب الإيمان الجليل يقوده ذلك الرهط من الرسل؛ من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يعرض السياق هذا الموكب ممتداً موصولاً، وبخاصة منذ إبراهيم وبنيه من النبيين، ولا يراعي التسلسل التاريخي في هذا العرض. كما يلاحظ في مواضع أخرى. لأن المقصود هنا هو الموكب بجملته، لا تسلسله التاريخي.

---

[418] في ظلال القران، 3203/5.

ومن جملة من ذكر في هذا الموكب من الأنبياء والمرسلين عيسى عليه السلام حتى يعلم أنه نبي كباقي الأنبياء، وليس هو الله، أو ثالث ثلاثة، فهو نبي مرسل.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ **[الأنعام: 84-90].**

وكانت التعقيبات على هذا الموكب المبارك:

- ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *﴾
- ﴿وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾
- ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾

وكلها تعقيبات تقرر إحسان هذا الرهط الكريم واصطفائه من الله وهدايته إلى الطريق المستقيم.

وذِكْرُ هذا الرهط على هذا النحو، واستعراض هذا الموكب في هذه الصورة كله تمهيد للتقريرات التي تليه:

- ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وهذا تقرير لينابيع الهدى في الأرض، فهدي الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل، وينحصر المستيقن منه والذي يجب اتباعه في هذا المصدر الواحد، الذي يقرر الله سبحانه أنه هو هدى الله، وأنه هو الذي يهدي إليه من يختار من عباده.

ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله وتوحيد المصدر الذين يستمدون منه هداه، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقي، فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم: أي أن يذهب ضياعاً، ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً، فتنتفخ ثم تموت، وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط.

وهذا التقرير ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ *﴾، فقرَّر في الأول مصدر الهدى وقَصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل، وقرَّر في الثَّاني أن الرُّسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوَّة.

(والحكم) يجيء بمعنى الحكمة كما يجيء بمعنى السلطان كذلك. وكلا المعنيين محتمل في الآية. فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى والزبور مع داود والإنجيل مع عيسى وبعضهم آتاهم الله الحكمة كداود وسليمان، وكلهم أوتي السلطان على معنى أن ما معه من الدين هو حكم الله، وأن الدين الذي جاؤوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور، فما أرسل الله الرسل إلا ليطاعوا، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط، كما جاء في الآيات الأخرى، وكلُّهم أوتي الحكمة وأوتي النبوَّة، وأولئك هم الذين وكَّلهم الله بدينه، يحملونه إلى الناس، ويقومون عليه ويؤمنون به ويحفظونه، فإذا كفر بالكتاب والحكمة والنبوَّة مشركو العرب: (هؤلاء)، فإن دين الله غنيٌّ عنهم، وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين[419].

إنها حقيقة قديمة امتدَّت شجرتها، وموكب موصول تماسكت حلقاته، ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول وآمن بها، ويؤمن من يقسم الله له الهداية، لما يعلمه من استحقاقه للهداية، وهو تقرير يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن وفي قلوب العصبة المسلمة. أياً كان عددها. إن هذه العصبة ليست وحدها، ليست مقطوعة من شجرة، إنها فرع منبثقٌ من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وحلقة في موكب جليل موصول، موصولة أسبابه بالله وهداه... إن المؤمن

[419] في ظلال القران،1144/2.

الفرد، في أيِّ أرض وفي أيِّ جبل قويٌّ قويٌّ، وكبيرٌ كبيرٌ، إنه من تلك الشجرة المتينة السامقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشرية وفي أعماق التاريخ الإنسانيّ، وعضوٌ في ذلك الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور[420].

- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ*﴾

وهو التقرير الثالث: فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان هم الذين هداهم الله، وهُداهم الذي جاءهم من عند الله فيه القدوة لرسول الله تعالى ومن آمن به.

فهذا الهدى وحده هو الذي يسير عليه، وهذا الهدى وحده هو الذي يحتكم إليه، وهذا الهدى وحده هو الذي يدعو إليه ويبشر به قائلاً لمن يدعوهم: ﴿لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ *﴾، للعالمين: لا يختصُّ به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد، إنه هدى الله لتذكير البشر كافَّة، ومن ثمَّ فلا أجر عليه يتقاضاه وإنما أجره على الله[421].

1 . تعاليم عيسى ابن مريم عليه السلام من عند الله تعالى:

تشمل هذه التعاليم رسالة المسيح، كذلك الإيمان بالوحي، فطبيعيٌّ أن يخبر المسيح أنه يوحى إليه من عند الله وأن التعاليم التي يبلغها لهم ليست من عنده، وإنما يوحى بها إليه من ربه، وذكر الله المسيح في القرآن الكريم في جملة من يوحى إليهم من النبيين[422].

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۝ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ

[420] المرجع نفسه، 1144/2.

[421] في ظلال القران،1145/2.

[422] محمد وصفي، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، دار ابن حزم، ط1، 1418هـ 1997م، ص 315.

عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ **[النساء: 163-165].**

وهذا السياق القرآني يتحدث عن موكب واحد يتراءى عن طريق التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة بهدى واحداً للإنذار والتبشير، وموكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من البشر: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وداود وموسى وغيرهم ممن قصَّهم الله على نبيه (ﷺ) في القرآن الكريم، وممن لم يقصَّ عليه، موكب من شتى الأقوام والأجناس، وشتى البقاع والأرضين في شتى الآونة والأزمان، لا يفرقهم نسب ولا جنس ولا أرض ولا وطن، ولا زمن ولا بيئة، كلهم اث من ذلك المصدر الكريم، وكلهم يحمل ذلك النور الهادي، وكلهم يؤدي الإنذار والتبشير، وكلهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة إلى ذلك النور، سواء منهم من جاء لعشيرة ومن جاء لقوم ومن جاء لمدينة ومن جاء لقطر، ثم من جاء للناس أجمعين محمد رسول الله (ﷺ) خاتم النبيين.

كلهم تلقّى الوحي من الله فما جاء بشيء من عنده، أولئك الرسل ـ من قصّ الله على رسوله منهم ومن لم يقص ـ اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعث بهم إلى عباده يبشرونهم بما أعدَّه الله للمؤمنين الطائعين من نعيمٍ ورضوان، وينذرونهم ما أعدَّه الله للكافرين العصاة من جحيمٍ وغضب كل ذلك ولله الحجة البالغة في الأنفس ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الإيمان في الأنفس والافاق. ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ رحمة منه بعباده، وتقديراً لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم ـ أداة العقل ـ اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين يذكرونهم ويبصرونهم ؛ ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات، التي تحجب عنها أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والافاق، عزيزاً: قادراً على أخذ العباد بما ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *﴾، حكيماً: يدبرّ الأمر كله بالحكمة، ويضع كل أمر في نصابه[423].

ونقف أمام عظمة العدل الذي يرتّب للناس حجة على الله سبحانه لو لم يرسل إليهم الرسل

---

[423] في ظلال القران،805/2 ـ 806.

مبشرين ومنذرين، هذا ما احتشد كتاب الكون المفتوح، وكتاب النفس المكنون بالآيات والشواهد على الخالق ووحدانيته وتدبيره وتقديره وقدرته وعلمه.

ومع امتلاء الفطرة بالأشواق والهواتف إلى الاتصال ببارئها والإذعان له، والتناسق والتجاوب والتجاذب بينها وبين دلائل وجود الخالق في الكون والنفس، ومع هبة العقل الذي يملك أن يحصي الشواهد ويستنبط النتائج، ولكن الله سبحانه بما يعلم من عوامل الضعف التي تطرأ على هذه القوى كلها، فتعطّلها، أو تفسدها، أو تطمسها، أو تُدخل في حكمها الخطأ والشطط، قد أعفى الناس من حجية الكون وحجية الفطرة، وحجية العقل ما لم يرسل إليهم الرسل، ليستنقذوا هذه الأجهزة كلها مما قد يرين عليها، وليضبطوا بموازين الحق الإلهي الممثَّل في الرسالة، هذه الأجهزة فتصحُّ أحكامها حين تستقيم على ضوابط المنهج الإلهي. وعندئذٍ فقط يلزمها الإقرار والطاعة والاتباع، أو تسقط حجيَّتها وتستحق العقاب[424].

وخطأ وضلال ـ إن لم يكن هو الخداع والتضليل ـ كل زعم يقول: إن العقول الكبيرة كانت حرية أن تبلِّغ بدون الرسالة ما بلَّغته بالرسالة، فالعقل ينضبط مع الرسالة بمنهج النظر الصحيح، واية أن ما يتمُّ بالرسالة ـ عن طريق العقل نفسه ـ لا يمكن أن يتمَّ بغيرها، فلا يغني العقل البشري عنها.

إن تاريخ البشرية لم يسجل أن عقلاً واحداً من العقول الكبيرة النادرة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية والمتوسطة بالرسالة.

- لا في تصور اعتقادي.
- ولا في خلق نفسي.
- ولا في نظام حياة.
- ولا في تشريع واحد لهذا النظام.

إن عقول أفلاطون وأرسطو من العقول الكبيرة قطعاً، بل إنهم ليقولون: إن عقل أرسطو هو

[424] في ظلال القران،811/2.

أكبر عقلٍ عرفته البشرية ـ بعيداً عن رسالة الله وهداه ـ فإذا نحن راجعنا تصوُّرَه لإلهه ـ كما وصفه ـ رأينا المسافة التي تفصله عن تصور المسلم العادي لإلهه مهتدياً بهدي الرسالة[425].

فسبحان الله الذي قال في كتابه الكريم: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ **[النساء: 165]** .

2 ـ عيسى عليه السلام من أولي العزم:

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ **[الأحقاف: 35]**.

وأما أولو العزم من الرسل فهم، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم جميعاً، وقد كانت وصية الله تعالى لعيسى وأولي العزم من الرسل عليهم السلام ما ذكره الله تعالى في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ **[الشورى: 13]**.

فعيسى عليه السلام من أولي العزم الذين أقاموا الدين الذي أمر الله به الأنبياء والمرسلين، وهذا خطاب من الله سبحانه وتعالى لأمة محمد (ﷺ) يقول لهم فيه:

- ❖ ارتضى ونهج وأوضح لكم هذا ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾
- ❖ الذي ارتضاه ووصاه ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾
- ❖ فهذا الدين هو نفسه الذي ارتضاه إليك يا محمد وارتضاه ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾
- ❖ ارتضى هذا الدين ـ أي الإسلام ـ لإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾، بعد أن ارتضاه لنوح أبو البشر بعد آدم، ومحمد آخر رسول وخاتم النبيين، وهم أولو العزم من الرسل.
- ❖ أوصاهم جميعاً بإقامة هذا الدين والتمسك ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، ونهاهم عن ترك هذا التوحيد والإسلام.

---

[425] المرجع السابق، 811/2.

❖ شقَّ على المشركين دعوتهم إلى ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، وإلى توحيد الله، وقولهم لا إله إلا الله ونبذ الوثنية وعبادة الله وحده لا شريك له، والإسلام والانقياد والطاعة له سبحانه وتعالى.

❖ يعلم الله الصالح من عباده فيهديه إلى طريق ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ *﴾، ويجتبيه من بين الناس جميعاً، أي أمرتهم رسلهم بتوحيد الله والإيمان بملائكته واليوم الاخر، وبالبعث والنشور، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج والتقرب إلى الله بصالح الأعمال من الصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم القتل والكفر والزنا والأذية للخلق والاعتداء على الحيوان واقتحام الدناءات فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملَّة متحدة لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم، وأما تفصيل العبادات فهذا يختلف باختلاف الشرائع[426].

وما شرعه الله لأولي العزم صادر عن كمال العمل والحكمة كما أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم السلام تنبيه على كونه ديناً قديماً أجمع عليه الرسل والخطاب لأمته عليه السلام، أي شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً، ومن بعده من أرباب الشرائع وأولي العزم من مشاهير الأنبياء عليهم السلام، وأمرهم به أمراً مؤكداً، وتخصيص المذكورين بالذكر أشير عليه من علو شأنهم وعظم شهرتهم ولاستمالة قلوب الكفرة إلى الاتباع لاتفاق كل على نبوة بعضهم واختصاص اليهود بموسى عليه السلام والنصارى بعيسى عليه السلام[427].

كما أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أخذ على النبيين جميعهم الميثاق وخصَّ بالذكر أولو العزم من الرسل، وقد أخذ الله ميثاق النبيين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عليهم الصلاة والسلام أجمعين في حمل أمانة هذا المنهج، والاستقامة عليه وتبليغه للناس والقيام عليه في الأمم التي أرسلوا إليها، وذلك حتى يكون الناس مسؤولين عن هداهم وضلالهم وإيمانهم وكفرهم بعد انقطاع الحجة بتبليغ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾

[426] منصور تميم نتشة، حقيقة المسيح والتثليث، المرجع السابق، ص 144.

[427] ليلى بلخير، قصص أولي العزم، دار طيبة، دمشق. سوريا، ط1، 1432هـ، ص 42.

لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ **[الأحزاب: 7-8]**.

إنه ميثاق واحد مطرد من لدن نوح عليه السلام إلى خاتم النبيين محمد (ﷺ) ميثاق واحد ومنهج واحد، وأمانة واحدة يتسَّلمها كل منهم حتى يسلمها، وقد عمَّم النص أولاً:

- ❖ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾، ثم خصص صاحب القرآن الكريم وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين.
- ❖ ثم عاد إلى أولي العزم من ﴿وَمِنْكَ﴾، وهم أصحاب أكبر الرسالات ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، وبعد بيان أصحاب الميثاق عاد إلى وصف الميثاق نفسه.
- ❖ ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *﴾، ووصف الميثاق بأنه غليظ منظور فيه إلى الأصل اللغوي للفظ ميثاق ـ وهو الحبل المفتول ـ الذي استعير للعهد والرابطة، وفيه من جانب اخر تجسيم للمعنوي يزيد إيحاءه للمشاعر، وإنه لميثاق غليظ متين ذلك الميثاق بين الله والمختارين من عباده، ليتلقوا وحيه، ويبلغوا عنه، ويقوموا على منهجه في أمانة واستقامة.
- ❖ والصادقون هم ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾، فهم الذين قالوا كلمة الصدق واعتنقوا عقيدة الصدق ومن سواهم كاذب، لأنه يعتقد بالباطل ويقول كلمة الباطل ومن ثم كان هذا الوصف دلالته وإيحاؤه.

وسؤالهم عن صدقهم يوم القيامة كما يسأل المعلم التلميذ النجيب الناجح عن إجابته التي استحق بها النجاح والتفوق أمام المدعوين بحفل النتائج، سؤال للتكريم وللإعلان والإعلام على رؤوس الأشهاد وبيان الاستحقاق، والثناء على المستحقين للتكريم في يوم الحشر العظيم، فأما غير الصادقين، الذين دانوا بعقيدة الباطل وقالوا كلمة الكذب في أكبر قضية يقال فيها الصدق أو يقال فيها الكذب، قضية العقيدة، فأما هؤلاء فلهم جزاء اخر حاضر مهيَّأ، يقف لهم في الانتظار وأعدَّ للكافرين عذاباً أليماً[428].

---

[428] في ظلال القران، 2830/5.

3 . أصول الشرائع:

إنَّ وحدة الدين عند الله حقيقة، وقد دلَّت عليها النصوص كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ **[الشورى: 13].**

وقد اتفقت الشرائع في أصول التشريع غالباً؛ لأن مصدر التشريع واحد، فقد شرع الله لعباده ما يصلح شأنهم على امتداد رحلة البشرية، وأرسل الله في كل أمة رسولاً وبشيراً ونذيراً، ليجدِّد ما اندرس من معالم أصول الدين، ويضيف بأمر الله ما يناسب كل قوم من شرائع في فروع الدين ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ **[المائدة: 48].**

إذن الاختلاف في فروع الشرائع وفي ميادين التطبيق العملية في كثير من الأصول، ولكن يبقى الجوهر واحداً في رسالات الأنبياء، فكل شريعة تصدِّق ما قبلها من الشرائع، وتمهِّد لما بعدها، وجاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة، ومهيمناً عليها بما يشتمل عليه من استيعاب لجوانب الكون والحياة كلها، وما يُصلح البشرية إلى قيام الساعة ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا﴾ **[المائدة: 48].**

. لنأخذ أمثلة من اتفاق أصول الشرائع:

أ . الصلاة:

- ❖ قال تعالى على لسان أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام:﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ **[إبراهيم: 40].**
- ❖ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ **[المائدة: 12].**
- ❖ وقال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ **[مريم: 31].**
- ❖ وقال تعالى عن هذه الأمة المحمدية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ

قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238].

❖ وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۝ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 72-73]. فالاتفاق حاصل في أصل مشروعية الصلاة، ولكن الكيفيات والمواقيت ربما كانت مختلفة في الصور وميادين التطبيق[429].

ب . الزكاة:

❖ قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 4–5].

❖ وقال تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: 55].

❖ وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103].

يلاحظ مدى ارتباط الزكاة بالصلاة في مواضع عدة من كتاب الله تعالى، فالصلاة عبادة روحية بدنية، والزكاة عبادة مالية، وهما لازمتان لصلة العبد بربّه وتزكية النفس والمال وتكافل المجتمع[430].

ج . الصيام:

❖ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]. فالصيام فريضة قديمة على المؤمنين في الأمم السابقة، كما تنصُّ عليه الآية[431].

د . القصاص:

---

[429] زاهر بن عوض الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي للقران الكريم، مطبعة النرجس، السعودية، ط2، 1422هـ، 2001م، ص 37.

[430] المرجع السابق، ص 38.

[431] المرجع نفسه، ص 38.

❖ قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: 45].

❖ وجاء الإسلام، فقال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ١٧٨ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ١٧٩﴾ [البقرة: 178-179].

فالقصاص عقوبة مقررة في جميع الشرائع الإلهية المتقدمة لضرورة حماية الأنفس وصيانة المجتمعات من الفوضى وانتهاك الحرمات[432].

هـ الجهاد:

❖ قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146].

والمقاتلة دفاعاً عن النفس أو الدين أمر مشروع في الشرائع السابقة حسب مقتضيات الأحوال والظروف[433]، وهذه بعض أصول الشرائع بين الأنبياء والمرسلين.

4 . أصول الإيمان:

اتفقت جميع الرسالات السماوية على أصول الإيمان على امتداد دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام ولم تختلف هذه الرسالات في تقرير أصول الإيمان قبل أن ينال منها التحريف والتبديل، لأنها تتحدث كلها عن مقررات ثابتة لا يقوم الإيمان إلا بها، فهي حقائق ثابتة لا تتطور ولا تتغير ولا يدخلها النسخ كما يدخل فروع الشرائع وقد جاءت النصوص القرآنية تؤكد هذه الحقيقة.

---

[432] زاهر بن عوض الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي للقران الكريم، ص 39.

[433] المرجع نفسه، ص 40.

❖ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ **[النحل: 36].**

❖ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ **[الزمر: 65-66].**

❖ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ **[الأنبياء: 25].**

ولقد وجه الله النداء العام لبني آدم محذراً إياهم الشيطان ومهالك الغواية، ومذكراً إياهم بأصل النشأة والمعاد فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ **[الأعراف: 27-29].**

وعقيدة الإيمان التي أمر الله بها الأنبياء والمرسلين ودعوا إليها مخلصين تشمل عناصر أساسية، تطهر القلب من بذور الشرك والوثنية، وتربطه بالله عقيدة صافية نقية وهي:

❖ ما يجب الإيمان به من جانب الله تعالى: إقراره بوجوده وخلقه وتدبيره وقضائه وقدره، وإفراداً له بالوحدانية والعبادة، ووصفاً له بصفات الكمال والجلال مع الإقرار الكامل بكل ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله (ﷺ)[434].

❖ إن أول ما دعا إليه المسيح عليه السلام هو الإيمان بالربوبية ووحدانية الخالق، والإيمان برسالة الأنبياء والمرسلين، وكانت هذه الدعوة أول ما نطق به في المهد، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ **[مريم: 30]**، وكان كل همه بعد ذلك أن يدعو الناس إلى طاعة الله وتقديم العبادة له دون سواه.

❖ كان يبين لقومه أن الله هو ربه وربهم، وأن الله هو رب الناس وملكهم وإلههم، وكان يذكر لهم

---

[434] الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي للقران الكريم، ص 32.

أن الاعتراف بالربوبية والألوهية هو السبيل القويم الذي يؤدِّي إلى النَّجاة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ **[الزخرف: 63-64]**.

❖ من المعجزات التي حققها الله على يد المسيح لإثبات رسالته وصدقه في الدعوة إلى الإيمان بالله وبيان قدرة الله وقوته معجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك، وبيَّن المسيح بأنه يفعل ذلك بإذن الله تعالى، وسيأتي تفصيل ذلك في محلِّه بإذن الله تعالى، والدليل على أن عيسى كان يحمل في رسالته وجوب الإيمان بجميع الرسل والنبيين، دعوته إلى التصديق برسالة موسى كما كان يوجب التصديق برسالة محمد (ﷺ) خاتم النبيين، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ **[المائدة: 46]**.

أ ـ أصول الإيمان «الإيمان بالبعث والقيامة والجنَّة والنَّار»:

جاءت عقيدة البعث في رسالة المسيح كما جاءت في رسالات غيره من النبيين، فقد أعلن هذه العقيدة منذ كان في المهد صبياً، إذ قال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ **[مريم: 33]**.

إن هذه الآية الكريمة تبين أن الله يوجِد الإنسان عامَّة في هذه الحياة الدنيا بطريق التناسل والولادة، وأن المسيح خاصَّة وجد بطريق الولادة من غير ذكر، وأن عناصر تكوينه هي عناصر تكوين كل الناس، وكان كلامه في المهد هو الحجَّة على براءة أمه مريم من البغاء، وأن الله كما أوجده في هذه الدنيا في جسمٍ بشريٍّ، فإنه سوف يميته كذلك كسائر البشر، وأنه سيبعث كذلك مثلهم، وأن مولده الخارق للعادة بقدرة الله تعالى، لا تعني خروجه مستقلاً عن القدر الذي قدَّره على البشرية جميعاً، وما جرى على فم عيسى في المهد في هذه الآية الكريمة هو إعلان لحقيقة البعث التي لا شكَّ فيها أنه قد آمن بها كل من سمع عيسى حينئذٍ من قوم مريم، ولا شكَّ أن هؤلاء نقلوا كلام المسيح الذي تفوَّه به في المهد إلى كل ما يلوذ بهم، وطبيعيٌّ أن لفظ البعث كان مفهوماً للمخاطبين، أو لبعضهم، فلا يخلو هذا البعض من أنه سمع شيئاً عن

البعث ممَّن كان مؤمناً برسالة النبيين من قبل، كيحيى وزكريا.

وطبيعيٌّ أن تفسير المسيح عيسى ابن مريم كل ما يتعلق بعقيدة البعث بعد تكليفه بالرسالة، وبهذا شملت رسالته عقيدتي الجنة والنار، فمن آمن بالله واتبع رسوله وآمن برسالته دخل الجنة، وأما من كفر بذلك دخل النار، ولا شكَّ أن الإيمان بأن هناك جنَّة وهناك نار في دار الجزاء أصلٌ من أصول العقائد التي بعث النبيون لبيانها، حتى يعلم كل فردٍ من الناس ما سوف ينتظره من الحياة الاخرة، فلا يستطيع أن يدَّعي عدم علمه بذلك وقتئذٍ، وحتى يحذر

المؤمنون فيعبدون الله رغبة في ثوابه ورهبة من عقابه، ويخلصون في عبادته ولا يشركون بعبادة ربهم أحداً، والدليل على أن المسيح عيسى ابن مريم أدَّى ما عليه من تبليغ كل هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ **[المائدة: 72]**

ولقد ذكر الله لنا في القرآن الكريم أن كلاً من التوراة والإنجيل جاء فيهما ذكر الجنة، كما جاء ذكرها فيما بعد في القرآن الكريم، وأنه جاء في هذه الكتب المنزلة أن الله تعالى وعد المقاتلين في سبيل الله جنَّة الخلد، وأنهم إذا فقدوا حياتهم في هذه الدنيا وأموالهم فإنهم سيحيون الحياة الحقيقية في الجنة، وسينالون فيها ما لا يعد ما كان لهم في الدنيا شيئاً مذكوراً.

وجاء هذا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ **[التوبة: 111]**

ولقد ذكَّر المسيح الناس قبيل وفاته بكل ما يتعلَّق بيوم القيامة والحساب والجنة والنار، وحذَّرهم من الخروج على طاعة الله وأكَّد لهم ما ذكره لهم طوال حياته معهم: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ **[آل عمران: 55-57].**

إن هذه الآيات الكريمة التي خاطب الله بها عيسى رسوله ليس من حقِّ المسيح إخفاؤها عن قومه، فليس ما فيها خاص به وحده، بل إنَّ ما فيها يخصّ المرسل إليهم جميعاً إذ أنها حملت بين ثناياها عقائد الاخرة والحساب والثواب والعقاب، وخشية الله ورحمته، ولهذا نحن على يقينٍ، كما قدمنا، أن المسيح تلا هذه الآيات باللغة التي كان يوحي الله بها إليه، إلى قومه بمجرد نزولها عليه[435].

ب . من جملة العقائد التي جاءت في رسالة المسيح: الإيمان بوجود الملائكة:

جاء على أن الملائكة مخلوقات خاصَّة لا تعصي الله، وإذا كلَّفها الله بأمرٍ نفذته من غير تردُّد، والإيمان بوجود الجنّ، وأن العصاة منهم هم الشياطين، وأن الشياطين هي التي توسوس في صدور الناس.

أما ما جاء عن الملائكة في رسالة المسيح، فهو أنه هو نفسه كان البشرى التي بشّرت بها الملائكة أمَّه مريم، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ **[آل عمران: 45]**، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ **[آل عمران: 42].**

وأما ما جاء من الشيطان في رسالة المسيح، فهو ما جاء من دعاء امرأة عمران أن يجنب الله ابنتها مريم وابن مريم من وسوسة الشيطان، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ **[آل عمران: 36]**

إن قصَّة امرأة عمران وولادتها وولادة المسيح عيسى ابن مريم بما شملته من ذكر الملائكة والشيطان دليل على إيمان المسيحية الحقَّة وعيسى عليه السلام بوجود الملائكة والشياطين

[435] الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي للقران الكريم، ص 315.

وكونهم من خلق الله تعالى.

والإيمان بوجود الملائكة عقيدة واجبة، إذ لولاها لما آمن أحد بالوحي ولا آمن بملك الموت وبالوظائف المختلفة التي يكلّف الملائكة بأدائها، ولَمَا آمن بقصَّة آدم وسجود الملائكة له.

وكذلك الإيمان بوجود الجنِّ والشياطين أمرٌ ضروريٌّ لكل موحِّدٍ مؤمنٍ بالله تعالى سار على هدايات الأنبياء والمرسلين، إذا آمن بما يقوم به الشيطان من تضليل ووسوسة كانت عنده فرصة للتزوُّد بالطاعات التي تقوِّي عزيمته وتمكّنه من التغلُّب عليه، فإن المرء إذا عرف عدوه أخذ حذره منه، وكان دائماً على قدم من الاستعداد لمقاومته، والتخلُّص من مكائده وحيله وغواياته، والإيمان بوجود الشيطان واجب، ليكون المؤمن على علمٍ بقصَّة الخلق الأول، ونحن على يقينٍ أنه ما من نبيٍّ أو رسولٍ إلا قد عرَّف قومه بقصة آدم وزوجه وسجود الملائكة لادم، وعصيان إبليس وتوعده الله بإضلال الناس أجمعين إلا عباد الله المخلصين[436].

5. أصول الأخلاق والفضائل:

اتّصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأفضل الصفات وأنبل الأخلاق والفضائل، وفي مقدمتها؛ الصدق، والأمانة، والفطانة، والبيان وغيرها، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن أصول الدين وشرائعه الجامعة، التي اتفقت عليها الرسل وهي متفقٌ عليها في كل الديانات السماوية ومقرَّرة في كل الشرائع العادلة كالوصايا العشرة المذكورة في سورة الأنعام، قال تعالى:﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ **[الأنعام: 151-153]** .

فهذه الوصايا العشرة هي وصايا الله تعالى لبناء مجتمع إنسانيٍّ كامل يُبنى على أساس التعاون الإنسانيّ، والمودَّة ودفع الأذى ووقاية المجتمع من الآفات ورعاية الضعفاء.

وفي الحق أن هذه الوصايا الإلهية التي هي وصايا النبي (ﷺ) يقوم عليها بناء المجتمع الإنساني السليم وبها تحارب الآفات الاجتماعية التي تتردَّى بها الجماعات في مهاوي التفرُّق والانحلال،

---

[436] الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي للقران الكريم، ص 317.

وفيها تطهر النفس والعقول من افات الفكر، وتطهير المجتمع من التقاطع والتنابذ ومنع الاعتداء بأيِّ نوعٍ من أنواعه، وفيها التعاون على حماية الضعفاء، وفيها إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه، وفيها إقامة العدل في كل ضروبه الذي هو ميزان الحقوق والواجبات، وفيها الوفاء بالعهود الذي هو رباط الجماعات الإنسانية مهما تختلف أجناسها وشعوبها وقبائلها وإن شئت أن تقول: أن فيها أكثر التكليفات الاجتماعية البانية والواقية وهي متفق عليها في كل الديانات السماوية ومقرَّرة في كل الشرائع العادلة، وإن لم تكن فيها على هذا السموّ الرفيع كما جاء في القرآن[437].

❖ **الوصية الأولى**: النهي عن الشرك:

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ﴾ **[الأنعام: 151]**

ألا تشركوا به شيئاً هذا هو الأمر الأول الذي حرَّمه الله تعالى، وهو أعظم الأمور وأقواها أثراً لأنه يتعلق بخالق الكون ومنشئ الوجود وأصل الاعتقاد الديني، وهو أول الشريعة وعليه اجتمعت كل الرسالات، فالوحدانية لبُّ الإيمان والله يجعل كل السيئات قابلة للغفران إلا الشرك.

وإن الوحدانية فيها تطهير للعقول من رجس الأوثان، والإذعان للإنسان والأوثان، وهي تربِّي العزَّة في المرء فلا يخضع إلا للواحد الأحد، الفرد الصمد[438].

❖ **الوصية الثانية**: الإحسان إلى الوالدين:

قال تعالى: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

إن الإحسان إلى الوالدين برٌّ ممن جعلهم الله سبباً مادياً في وجود الولد، ولذا قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾، فهذا هو الأمر الثاني وهو الوصية بالوالدين، والوصية بهما هي الإحسان إليهما، والإحسان مرتبة أعلى من العدل، إذ هو فوق العدل في الرحمة والرأفة فهو عدل ورأفة

---

[437] محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، 2728/5.

[438] أبو زهرة، زهرة التفاسير، 2729/5.

ووفاء وبرٌّ، ولذلك كان الأمر بالإحسان بجوار الأمر بالعدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ **[النحل: 90]** ، وقال تعالى:﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ **[الإسراء: 23]**.

وإن الأمر بالإحسان يتضمن النهي عن الإساءة، إذ هو نهيٌ عن الإساءة، وأمرٌ بفضل العاطفة والمواساة والقرب وإحسان الصحبة.

وإن الله تعالى أمر بالإحسان إلى الوالدين مقترناً بالنهي عن الشرك في كثير من الآيات في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ **[النساء: 36]**.

وقرن الله تعالى شكر الوالدين بشكر الله وجمعهما معاً، قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۝ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **[لقمان: 14-15]**

والإحسان إلى الوالدين شريعة النبيين أجمعين قد كُلِّفها بني إسرائيل، قال تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ **[البقرة: 83]**، فمن يعقُّ الوالدين فهو فاسق عن أمر الله ونهيه[439].

❖ **الوصية الثالثة:** النهي عن قتل الأولاد:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ **[الأنعام: 151]**

هذه الوصية الثالثة، وقد نزل سبحانه من إكرام الأصول والإحسان إلى الأولاد؛ لأنه أمرٌ فطريٌّ تتقاضاه المحافظة على النفس، فالولد امتداد أبيه، وما جاء القرآن بالأمر بالإحسان إلى الأولاد، ولكن أمر الإسلام بالقيام على تربيتهم ورعاية شؤونهم ورزق أمهاتهم، ولكن كان في وحشية الجاهلية من يئد بناته بغياً بغير علم، وكان من يفعل ذلك وغيره لإملاقهم قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ﴾ وقد نهى الله تعالى عن ذلك الإثم الجاهليّ وهو من إغواء

[439] محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، 2730/5.

الشياطين، ولعلَّه كان يسهِّل على الذين يفعلونه معهم، أنهم يفعلون ذلك وهو بعد في المهد أو عقب ولادتهم، فلم يكونوا تعلقوا بهم تعلُّق الاباء بالأولاد وكانوا يفعلون ذلك سفهاً بغير علم، ولم يكونوا قد ذاقوا محبتهم بالإلف والتودُّد، وقد قال تعالى في بيان أن الفقر والإملاق لا يبرِّر، لأنهم لا يرزقوهم ولكن يرزقهم الله، ولذلك قال تعالى: أي نحن نرزقكم معهم كما رزقناكم أنتم ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ **[الأنعام: 151]** ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ **[هود: 6]**.

وقد قرَّر مجمع البحوث الإسلامية المنعقد في الأزهر سنة (1965م) أن الإسلام يرغِّب في النسل؛ لأنه يقوِّي الأمة اجتماعياً واقتصادياً وحربياً، ويربِّي في الأمة روح العزة والمنعة، وقرر أن تنظيم النسل حق للزوجين دون غيرهما يستعملانه للضرورة، ومسؤوليتهما عن الضرورة أمام الله وحده[440].

❖ **الوصية الرابعة**: الابتعاد عن الفواحش وعدم الاقتراب منها ما ظهر منها وما بطن:

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ **[الأنعام: 151]**

هذه الوصية الرابعة، وهي تتصل بالنهي عن الفواحش، والفواحش هي المعاصي؛ لأن فيها انحراف، والأصل في الفحش الزيادة عن المعقول والفطرة، والخروج عن مناهجها، وعن الطريق المستقيم، وما ظهر: ما يُعلن ويجهر به، والجهر بالمعصية في ذاته حرام، وما بطن: أي ما استُتر ولم يُجهر به وهو إثم، ولكنه دون إثم المجاهرة، ومن يجهر بالمعاصي فإنَّ ما يفعله إثمان، إثم الفعل وإثم المجاهرة[441].

ومن المعاصي ما يستتر استتاراً؛ لأنه من خلجات القلوب، ولم يظهر العمل إلا لعدول صاحبها، ولكنه فوجئ بما فوت عليه مقصده، كمن بيَّت الاعتداء أو الزنى واتجه إلى الفعل، ولكن فات عليه ارتكابها لأمرٍ خارجٍ عن إرادته، فإنه يكون أبطن معصيته ولكن لم يمكَّن من ارتكابها رغماً عنه، لا مريداً، فإن من الآثام ما يكون باطناً، وعليه الإثم، وكمن يهاجر إلى

[440] محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، 2732/5.

[441] المرجع السابق، 2732/5.

مكانٍ لا يريد الهجرة لله أو لعملٍ صالح، ولكن يريد الفسق والفجور أو البغي، فإن هذا يكون فاحشة مما بطن، وهذا النصُّ مثل قول الله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ **[الأنعام: 120]**[442].

❖ **الوصية الخامسة**: النهي عن قتل النفس بغير حقّ:

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ **[الأنعام: 151]**

هذه الوصية الخامسة التي أوصى بها ربُّ العالمين وهي النهي عن قتل النفس التي حرَّم الله تعالى قتلها إلا بالحق، فيكون القتل بحق ـ أي بسببٍ ـ يوجب القتل.

وهذا النصُّ يفيد تحريم قتل النفس أساساً، فهي على أصل المنع إلا أن يكون ثمَّة موجب لذلك، فإن ذلك يكون لحماية النفوس العامة، وقد قتل قابيل أخاه هابيل حسداً وبغياً، وقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ **[المائدة: 32]**.

فالقتل حرام إلا إذا كان ما يبرِّره فيكون بحق، ومن الحق الذي يوجب القتل ويحل النفس أن يقتل غيره أو أن يبغي، أو أن يحارب الله ورسوله وهم قطَّاع الطريق وأهل الحرابة، وإن النهي عن قتل النفس عام، لأن الله تعالى حرم قتلها فقوله تعالى التي حرَّم قتلها فيه الصلة، وهي علَّة النهي، فقتلها منهيٌّ عنه، لأن الله حرمها[443].

الإشارة إلى المذكور من النهي عن الشرك والأمر بالإحسان إلى ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *﴾، والنهي عن قرب الفواحش وهو نهي عن المقاربة لا عن الوقوع، لأنه نهي عن أن يدنوَ منها، فمن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه، والنهي عن القرب يدل على النهي عن الوقوع، والإشارة تشمل النهي عن قتل النفس، فهذا كله من وصايا الله سبحانه وتعالى، ووصايا الله جديرة بالاتباع، وقوله أي لكي ترجعوا دائماً أن تكونوا ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *﴾، والتوصية

---

[442] المرجع نفسه، 2733/5.

[443] المرجع نفسه، 2734/5.

هي الطلب المؤكد من العباد[444].

❖ **الوصية السادسة**: تحريم أكل مال اليتيم:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ **[الأنعام: 152]**

نهى الله تعالى أن يقربوا مال اليتيم أو يأخذه إلا بما يحفظه وينميه، لأنه فقد من يحميه، فقد الأب الحامي الذي يأخذ بيده إلى مدارج الحياة، فنهى الله عن التعدي على مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، كما أن المال أمانة في يد وصيّه وفي رعاية الأمة مجتمعة ممثّلة في قاضيها حتى يبلغ أشدَّه، أي يبلغ السن التي يقدِر فيها على المحافظة على ماله والقيام على شؤونه في خاصة نفسه وفي معاملته، وقد شدد الله تعالى في الوصية باليتامى في أموالهم وأشخاصهم لأنهم ضعاف[445].

❖ **الوصية السابعة**: الإيفاء بالكيل والميزان بالقسط:

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ **[الأنعام: 152]**

أي بالاعتدال في الأخذ والعطاء عند البيع ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، والقسط: العدل، أي طاقتها في إيفاء الكيل والوزن. وهذا يقتضي أن هذه الأوامر إنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ لا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكيلين، ولا يدخل تحت قدرة البشر فمعفو عنه. وقيل: الكيل بمعنى المكيال. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنكم معشر الأعاجم قد وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم: الكيل والميزان.

ولقد أوصى الله تعالى بالإيفاء بالكيل والوفاء بالوزن في الموزون بالقسط، من غير بخسٍ ولا شطط، ولا زيادة ولا نقصان، بل للناس من وفاء الكيل بمقدار ما تطلب وتعطيهم من الوزن

---

[444] المرجع نفسه، 2735/5.

[445] محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، 2736/5.

بمقدار ما تطلب، لو كنت طالب الكيل والميزان وذلك على حسب الطاقة في تحرِّي الحق في مكيل غير منقوص، وموزون غير مبخوس، وكان الأمر بالوفاء، لأنه المطلوب، فالزيادة غير مطلوبة إلا من أهل السماحة، والنقص محرم ممنوع، وإن الوفاء في الكيل والميزان يرمز إلى حسن التعامل بين الناس ومنع أكل أموالهم بالباطل[446].

❖ **الوصية الثامنة**: العدل وقول الحق:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ **[الأنعام: 152]**

أمر الله تعالى بالعدل في القول، وألا نقول إلا عدلاً، ولذا قال: ، والعدل في القول تحرِّي الحق فيه، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ ينطق بأمر لا يكون حقاً.

والعدل في القول يشمل الحكم بين المتخاصمين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ **[النساء: 58]**، وتشمل الفصل في الخلافات بين الناس، فلا يقول إلا الحق، لأن الحقَّ يحسم النزاع، ويقطع دابر الخلاف، ويشمل القول في الشهادة، فلا ينطق إلا بما رأى وعاين، فإن الشهادة حكم أو هي طريق الحكم ودليله، وإذا قلت في مباراة فكن عادلاً، وإذا قلت في امتحانٍ فكن عادلاً، لأن الامتحان تقدير كفاية فهي حكم.

والعدل ميزان الحق في معاملات الناس وأحوالهم، والإسلام دين العدل، وإذا كان لكل دين سِمة، فسِمة الإسلام هي العدل ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ **[النحل: 90]** ، لذا كان العدل رابطة الجماعة وميزانها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾، أي ولو كان الذي يقوم عليه العدل في القول في حكم أو شهادة أو فصل في خصومة، أو مباراة أو امتحان، فإنها العدل حيث تتنازع العواطف، وتمتلك النفوس هو فعل الأبرار، وهو المقياس الذي تتفاوت به مراتب العدول، وإذ كان العدل ميزان الترابط بين الجماعات في الأمة، فالوفاء بالعهد ميزان العدالة في الأمم[447].

---

[446] المرجع نفسه، 2737/5.

[447] أبو زهرة، زهرة التفاسير، 2739/5.

❖ **الوصية التاسعة:** الوفاء بالعهد:

قال تعالى: ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ [الأنعام: 152]

تطلب هذه الوصية من الناس أجمعين الوفاء بالعهد، وقوله تعالى: قدم فيه (بعهد الله)؛ لأهمية الوفاء بعهد ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾، ولمعنى الاختصاص؛ أي احرصوا على الوفاء بعهد الله دون غيره.

وعهد الله تعالى الذي يتجه إليه ما عهده إلى بني آدم من فطرة مستقيمة أنشأهم عليها، كما قال تعالى: وإن تكليفات الله تعالى عهود ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: 172]

والعهود بين العباد عهود الله تعالى عليهم ؛ لأنهم عادة يوثقونها بأيمانهم، وقد قرر سبحانه وتعالى ذلك وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: 91-92] ، فهذه الآية تحث على الوفاء بما يكون من العهود بين الاحاد والجماعات، وهي تدل على ثلاثة أمور:

❖ أولها: أن من وثق عهده بالله فقد جعل الله تعالى كفيلاً بالوفاء، والخيانة أو خفر العهد خيانة لله تعالى.

❖ ثانيها : أن الوفاء بالعهد يقوي الأمة فيجعل الناس يثقون بها، وتلك قوة، ولذلك شبه الله تعالى من ينقض عهده بالحمقاء التي تنقض ما فتلته من غزل، فتجعله أنكاثاً شعراً متفرقاً.

❖ ثالثها: أنه لا يصح أن تكون الرغبة في زيادة الأرض والسلطان سبباً لخيانة العهد ؛ لأن ذلك ظلم وطغيان، وفقد لقوة أكبر وأعز من النكث في العهد والخيانة، وصدق ما قاله ابن عباس فيما نقلنا: (ما خفر قوم في العهد إلا سلط الله تعالى عليهم عدوهم)[448].

---

[448] أبو زهرة، زهرة التفاسير، 2740/5 . 2741.

- **الوصية العاشرة:** اتباع الصراط المستقيم:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ **[الأنعام: 153]**

هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم ؛ فإنه لما نهى الله وأمر حذر هنا عن اتباع غير سبيله، فأمر فيها باتباع طريقه، فكل الوصايا أو جماعها هي طريق الله تعالى، وهي طريق مستقيم، وقوله فالصراط: الطريق وهو دين ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾، ومستقيماً: حال من اسم الإشارة، ومعناه مستوياً قويماً لا اعوجاج فيه، فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان نبيه محمد (ﷺ) وشرعه ونهايته الجنة، وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار، إذن الطريق المستقيم هو صراط الله، وهو الخط الذي بيّنه الله تعالى لعباده يجيء بجواره سبل مختلفة هي مثارات الشيطان يضل بها عباد الله تعالى عن الطريق المثلى، والمنهاج السويّ الهادي.

إن هذا الصراط هو جماع التوصيات، لذا قال تعالى: أي رجاء أن تمتلئ قلوبكم بتقوى الله ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، وأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية، ولعلكم ترجو رحمته بعد خوف عقابه، فإن الله غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى[449].

إن هذه الوصايا مجمع عليها في الأديان، وهي الأساس النفسي والعملي لتكوين الجماعات الفاضلة، وقد جاءت بها الأديان كلها ورضيتها الشرائع الوضعية المستقيمة[450].

6 . التفاضل بين الرسل:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ **[البقرة: 253]**. في قوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾، فالمراد به موسى عليه السلام، إذ هو المشتهر بين الأنبياء صلوات الله عليهم

---

[449] أبو زهرة، زهرة التفاسير، 2743/5.

[450] المرجع نفسه، 2740/5.

بالتكليم، حيث قال تعالى له: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾[الأعراف: 144].

وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164].

وقال تعالى في حق عيسى ابن مريم: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: 87].

وقال تعالى في حق عيسى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: 253].

وروح القدس هو جبريل في أظهر الأقوال، فمن كان تأييد الله تعالى له من الأنبياء بالملائكة أكثر وأظهر كان أفضل، وعند بعض العلماء: وأيده بروح القدس أي: بروح الإيمان، فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن بحسب إيمانه، كما قال تعالى: ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ [المجادلة: 22] ، ولكن ما لعيسى أعظم ممَّا لغيره، لهذه خصَّه بالذكر، وعليه فكلُّ من كان تأييد الله له من الأنبياء بالإيمان أعظم وأقوى كان أفضل[451].

وحين يذكر الله تكليمه لأحد ينصرف الذهن إلى موسى عليه السلام، ومن ثم لم يذكره باسمه في هذه الآية، وذكر عيسى ابن مريم عليه السلام، وهكذا يرد اسمه منسوباً إلى أمه في أغلب المواضع القرآنية، والحكمة في هذا واضحة، فقد نزل القرآن وهناك حشد من الأساطير الشائعة حول عيسى عليه السلام وبنوته لله سبحانه وتعالى، أو عن ازدواج طبيعته من اللاهوت والناسوت أو عن تفرده بطبيعة إلهية ذابت فيها الطبيعة الناسوتية كالقطرة في الكأس إلى اخر هذه التصورات الأسطورية التي أغرقت الكنائس والمجامع في الجدل حولها، وجرت حولها الدماء أنهاراً في الدولة الرومانية، ومن ثم كان هذا التوكيد الدائم على بشرية عيسى عليه السلام، وذكره في معظم المواضيع منسوباً إلى أمه مريم.

وأما روح القدس فالقرآن الكريم يعني به جبريل عليه السلام، فهو حامل الوحي إلى الرسل، وهذا أعظم تأييد وأكبره، وهو الذي ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بانتدابهم لهذا الدور الفذّ

---

[451] علي محمد الصّلابيّ، الإيمان بالرسل والرسالات، ص 209.

العظيم، وهو الذي يثبتهم على المضيّ في الطريق الشاقّ الطويل، وهو الذي يتنزَّل عليهم بالسكينة والتثبت والنصر في مواقع الهول والشدَّة في ثنايا الطريق، وهذا كلُّه التأييد.

أما البيانات التي أتاها عيسى عليه السلام، فتشمل الإنجيل الذي نزل عليه كما تشمل الخوارق التي أجراها على يديه والتي سيرد ذكرها مفصلة بإذن الله تعالى تصديقاً لرسالته في مواجهة بني إسرائيل المعاندين[452].

وأفضل الرسل أولو العزم، فقد امتدحهم الله عز وجل بالعزم وخصَّهم بالذكر من بين رسله، وأمر نبيه محمد (ﷺ)، قد فضله على جميع خلقه، أن يقتدي بهم قال تعالى:﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ **[الأحقاف: 35].**

فأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين هم أولو العزم، وأولو العزم هم خمسة كما مرَّ معنا: محمد، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وهم الخمسة المذكورون نصَّاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ **[الأحزاب: 7].**

وفي قوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ **[الشورى: 13]** ، فقد خصَّهم الله عز وجل بالذكر في هاتين من بين الأنبياء، وهو تنبيه إلى فضلهم بين سائر الأنبياء، وقد خصَّهم سبحانه بالذكر في ذكره أعظم الأمور وأفضلها وأغلظها وهو الميثاق الذي قال فيه: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ **[النساء: 154].**

والوصايا التي شرعها لخلقه وذلك ما أخذ على جميع النبيين، وبعث به جميع النبيين، وهو العهد الذي بين الله وخلقه، وهو إقامة الدين وعدم التفرق فيه، وإسلام الوجه له، والدعوة إلى ذلك، والمجاهدة فيه، والموالاة فيه والبراءة فيه. وهؤلاء الخمس ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ

---

[452] في ظلال القران، 283/1.

أكمل وأعظم من قام بهذا الميثاق، ولذا خصُّوا بالذكر[453].

ثامناً: الإسلام دين الأنبياء والمرسلين وأتباعهم المخلصين:

إنَّ الإسلام هو دين الله الخالد الذي لا يقبل الله سواه، وأن هذا الدين هو الدين الذي فرضه الله على البشر، منذ خلقهم، جاء به آدم، وإدريس ونوح وإبراهيم وآل إبراهيم وآل عمران، وأنه تمَّ برسالة خاتم النبيين، وأن هذا الدين جاء به النبيون لأنه هو الدين الوحيد الذي يدعو إلى الوحدانية الخالصة التي لا يشوبها أدنى شرك.

وهو الدين الذي يشمل العقائد الصحيحة والأحكام العامة التي لا تتغير بتغيُّر الزمان أو المكان أو بتغير أحوال الناس في سلسلة حياتهم الإنسانية على وجه الأرض مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم، ومهما تغيرت مهنهم وحرفهم وثقافتهم في الحياة الدنيا[454].

إن جميع الأنبياء والمرسلين قد بعثهم الله بعقيدة الإسلام التي كانت تتلاءم مع البشرية والإنسانية على مرِّ القرون والعصور مع اختلاف البيئات، وبالرغم من تقلُّبات الزمان وتغير عقليات الناس قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل.

ولم يشأ الله تعالى بفضله ورحمته وكرمه أن يترك خلقه في ظلامات الجهل، تعبث بهم الأهواء وتضلُّهم المطامع والأغراض، فأرسل إليهم الأنبياء والمرسلين على توالي القرون والعصور، يبيِّنون لهم سبل الرشاد، ويمدُّونهم بالتعاليم التي تقوِّي عزمتهم، ويزوِّدونهم بالأفكار الصالحة التي يستطيعون أن يهتدوا بهديها والتي تساعدهم على التمييز بين الظلام والنور، وبين الهداية والضلال، وبين الطريق المستقيم والطريق المعوجّ الذي يؤدي إلى الهلاك والفشل والدمار[455].

1 . نوح عليه السلام والرسل من قبله كانوا على الإسلام:

بيَّن الله تعالى في كتابه الكريم أن نوحاً والرسل والنبيين عليهم السلام من قبله كانوا يعتنقون

---

[453] الصّلابيّ، الإيمان بالرسل والرسالات، ص 213.

[454] محمد وصفي، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1418هـ، 1997م.ص 318.

[455] المرجع نفسه، ص 219.

الدين الإسلامي، وأن هذا مصرَّحٌ به في قوله تعالى للرسول الكريم خاتم النبيين(ﷺ): ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ۝ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ **[يونس: 71-72]**.

وإن في قول نوح (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)، لدليل على أن الإسلام كان دين من كان قبله، وأن ما قاله نوح هو عين ما قاله محمد رسول الله (ﷺ)، وخاتم النبيين إذ قال: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ **[النمل: 91]**، فقد أمر خاتم النبيين أن يكون من المسلمين، كالذين سبقوه من المؤمنين برسالة الدين الإسلامي، كنوح والنبيين من قبل نوح، والنبيين من بعد نوح، كما سنبين بإذن الله تعالى.

2 . إبراهيم عليه السلام كان ممن حمل رسالة الإسلام بعد نوح:

لقد كان إبراهيم ممن حمل رسالة الدين الإسلامي من بعد نوح، فقد قال تعالى بعد أن ذكر في سورة الصافات قصة نوح ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ **[الصافات: 83]**.

ثم قال: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **[البقرة: 130-131]**.

3 . إسماعيل عليه السلام يحمل رسالة الإسلام مع إبراهيم:

ولقد حمل إسماعيل رسالة الإسلام مع أبيه إبراهيم وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ **[البقرة: 127–128]**.[456]

[456] محمد وصفي، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، ص 320.

4 . دين لوط عليه السلام هو الإسلام:

ذكر الله أن لوطاً عليه السلام آمن بالدين الإسلامي الذي آمن به إبراهيم قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: 26]، وصرَّح الله تعالى بأن دين لوط هو الإسلام في قوله تعالى في مناسبة إهلاك قريته: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: 35-36].

5 . إسحاق ويعقوب والأسباط مسلمون:

قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132-133].

6 . يوسف كان مسلماً:

وكان يوسف عليه السلام مسلماً يدعو ربه أن يميته على الإسلام قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

7 . موسى يدعو قومه إلى الإسلام:

وكان موسى عليه السلام يعتنق الدين الإسلامي ويدعو قومه إليه، قال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ۝ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 83-84].

ولقد بين الله أن سحرة فرعون آمنوا برسالة الإسلام التي جاء بها رسول الله (ﷺ)، إذ قالوا لفرعون حين هدَّدهم بالتقتيل ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ۝ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ

رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ **[الأعراف: 125-126]**[457].

8 . أنبياء بني إسرائيل يدعون إلى الإسلام:

وذكر الله أن أنبياء بني إسرائيل يدينون بالدين الإسلامي وهو قول الله تعالى:

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ **[المائدة: 44]**. وتبين الآية الكريمة أن الربانيين والأحبار كانوا كذلك مسلمين.

9 . داود وسليمان يدعوان إلى الإسلام:

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ **[النمل: 16]**، ثم ذكر الله سبحانه وتعالى أن سليمان عليه السلام بعث إلى أهل اليمن يدعوهم إلى اعتناق الدين الإسلامي، دين التوحيد الخالص وذلك في رسالة أرسلها إلى ملكتهم ملكة سبأ، إذ كانت هي وقومها: ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ **[النمل: 24]**.

وأخبر الله تعالى أن بلقيس ملكة سبأ تلت هذه الدعوة على قومها، قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۝ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ **[النمل: 29-31]**.

وذكر الله تعالى أن ملكة سبأ اعتنقت الدين الإسلامي، قال تعالى:﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ٤٤﴾ **[النمل: 44]**.

10 . المسيح عيسى ابن مريم يدعو إلى اعتناق الدين الإسلامي:

وأرسل الله تعالى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام برسالة الإسلام فكان يدعو قومه إلى اعتناق هذا الدين، المؤسَّس على الاعتراف بالخالق ووحدانيته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا

[457] محمد وصفي، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، ص 322.

مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ **[آل عمران: 52-53]**.

وذكر الله تعالى أنه هو الذي أوحى إلى الحواريين، باعتناق الدين الإسلامي، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ **[المائدة: 111]**.

وطبيعيٌّ أن الحواريين ظلوا يدعون الناس إلى الدين الإسلامي بعد وفاة المسيح، فآمن منهم من آمن وكفر منهم من كفر، وظل المؤمنون منهم معتنقين للدين الإسلامي مؤمنين بالله الذي لا إله إلا هو، لا يحيدون عن دين التوحيد الحقيقي، يتوارثون هذه العقيدة الصحيحة جيلاً بعد جيل حتى لحقهم زمن خاتم النبيين[458].

11 . استمرار الإسلام حتى نزول القرآن الكريم:

إن استمرار الإسلام حتى نزول القرآن الكريم، وبقاء قوم يؤمنون بالدين الذي اعتنقه المسيح من قبل والحواريون، ودعوا إليه واستمرار ذلك حتى الزمن الذي بدأت فيه دعوة خاتم النبيين، فيدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ **[القصص: 51-53]**.

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ **[القصص: 54-55]**.

12 . محمد عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الإسلام:

نزل القرآن الكريم على الرسول الكريم (ﷺ) حامل رسالة الإسلام، فكان هو أول من آمن به، وهو قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ **[البقرة: 285]**.

ومن الطبيعي أن يؤمن الرسول بما أنزل إليه من ربه قبل أن يدعو الناس إلى الإيمان به، ولهذا

---

[458] محمد وصفي، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، ص 323.

أمره الله تعالى أن يؤمن بالإسلام أولاً ثم يدعو الناس بعد ذلك أن يسلموا، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ **[الزمر: 11-12]** ، وقال تعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ **[الأنعام: 14]**.

لقد كان الرسول الكريم محمد (ﷺ) أول المسلمين بالنسبة للوقت الذي كلف فيه بحمل رسالة الإسلام، وإلا فهو بالنسبة لاعتناق الإسلام على وجه عام ليس بسابقٍ للنبيين والمرسلين في اعتناقه، فقد نطق بنفس اللفظ الذي نطق به نوح عليه السلام من قبل كما قدمنا وقال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ **[النمل: 91]**.

والرسول الكريم محمد (ﷺ) مع أنه كذلك أول المسلمين في قومه إلا أنه بالنسبة للعلاقة الدينية بينه وبين جدِّه إبراهيم كان معتنقاً للدين الذي كان يعتنقه كذلك إبراهيم من قبل، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ **[النحل: 120-123]**، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ **[الأنعام: 161-163]** [459].

والرسول الكريم محمد (ﷺ) مع أنه خاتم النبيين، وأنه الرسول الذي أكمل الله برسالته الدين، إلا أنه حسب العلاقة الدينية بينه وبين جميع النبيين والمرسلين من قبله ليتميز عنهم بالنسبة لعمل رسالة الإسلام واعتناقها والدعوة إليها، فالإسلام هو دين الله الذي فرضه على الجنس البشري في سلسلة حياته الإنسانية، منذ خلق الإنسان على وجه الأرض، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولهذا يقول الله جل شأنه لخاتم النبيين ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ

[459] محمد وصفي، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، ص 325.

مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ **[آل عمران: 84]** [460].

لقد أخبر الله متَّبعي رسالة خاتم النبيين أنهم سمُّوا مسلمين حسب تسمية إبراهيم لهم من قبل، قال جل شأنه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ **[الحج: 78]**.

ونرى الحكمة من تسمية أتباع محمد بالمسلمين؛ لأن محمداً (ﷺ) هو خاتم النبيين، وأنه به تمَّت رسالة الإسلام، وأن أتباع محمد (ﷺ) هم الذين سيحملون لواء الإسلام إلى اخر الزمان، ليبقى اسم الإسلام هو الإسلام الباقي الخالد، الذي يحمل في معناه حقائق الدين والعقائد الصحيحة التي توجه الناس إلى سعادة الدَّارين.

وليكن لفظ الإسلام هو اللفظ الذي يضم بين طيَّاته جميع العقائد التي أتى بها المرسلون والنبيون عبر التاريخ، قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ **[البقرة: 136]**.

ومن نعم الله على البشر أن أرسل إليهم الرسل عبر التاريخ الإنساني متعاقبين ومتواترين، يحملون رسالة الإسلام، ويذكِّرونهم بدينهم قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل. قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ **[النساء: 165]** [461].

تاسعاً: تصديق عيسى عليه السلام لما بين يديه من التوراة:

أخبر الله بأن عيسى عليه السلام مصدَّقٌ لما بين يديه من التوراة في مواضع مختلفة من كتابه العزيز، ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾

[460] المرجع السابق، ص 326.

[461] محمد وصفي، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، ص 328.

[المائدة: 46]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: 63].

إذن فدعوة عيسى مكمِّلة لشريعة موسى عليه السلام، وموضِّحة لها وامتداد لها ومصحِّحة لما طرأ عليها من انحرافات وضلالات مع توالي الحقب والأزمان، كما أنه عليه السلام قد أتى ببعض التخفيفات والتسهيلات لبني إسرائيل، قال تعالى حكاية لقول عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 50]، ولهذا كان المفهوم الطبيعي للنصرانية أن تحكم بشريعة التوراة مع مراعاة التعديلات الواردة في الإنجيل[462].

1 . التوراة:

هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، وتتضمن التوراة ـ على الأرجح ـ الصحف التي أنزلت على موسى عليه السلام، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الصحف بقوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأعلى: 19]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ [النجم: 36].

كما يتضمن الألواح التي جاء بها موسى بعد مناجاته لربه في جانب الطور، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 145].

ولفظ (التوراة) لفظ عبراني معناه (التعليم أو الشريعة)، والقرآن الكريم جاء مصدقاً للكتب السماوية السابقة، ومهيمناً عليها، ومنها التوراة والإنجيل، قال تعالى:﴿الم ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: 1-4]، فالإيمان بالتوراة التي أنزلها الله على موسى أصل من أصول الإيمان؛

[462] عبد الرزاق بن عبد المجيد، مصادر النصرانية، دار التوحيد، الرياض، 1428هـ، 2007م، 61/1.

لأنها من كتب الله المنزلة التي ذكرها القرآن الكريم وأمرنا بالإيمان بها[463].

2. أوصاف التوراة في القرآن الكريم:

وصف القرآن الكريم التوراة بصفاتٍ إيجابية، حيث مدحها وأثنى عليها، واعترف بفضلها، وهذا أمر طبيعيٌّ لأن القرآن من عند الله، والتوراة أيضاً من عند الله، أنزلها على عبده موسى عليه السلام، ولذلك أثنى كلام الله اللاحق على كلام الله السابق، وجاء القرآن مصدقاً للتوراة بهذا الاعتبار، وننظر فيما يلي في الآيات القرآنية التي وصفت التوراة بصفات إيجابية:

أ. أوصاف التوراة في سورة الأعراف:

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ **[الأعراف: 145]**.

تثني هذه الآية على التوراة التي كتبها الله لموسى عليه السلام، حيث أخبر الله فيها أنه كتب لموسى عليه السلام في الألواح ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وجعلها ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وطالب قومه أن يأخذوا بأحسنها، وهذه صفات ثلاث للتوراة، موعظة، وتفصيل لكل شيء، وأنها حسنة[464].

ب أوصاف التوراة في سورة الأنبياء:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ٤٨ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ **[الأنبياء: 48-49]**.

وصف الله التوراة بصفات ثلاث:

- **الوصف الأول:** أنها فرقان، والفرقان: من التفريق بين الحق والباطل، وكل كتب الله النازلة

[463] الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي للقران الكريم، ص 262.

[464] صلاح الدين الخالدي، حديث القران عن التوراة والإنجيل، دار النفائس، عمّان، الأردن، ط1، 1438هـ، 2017م. ص 61.

على رسله فرقان بهذا المعنى.

- **الوصف الثاني**: أنها ضياء، والضياء هو النور والإشراق، ووصفت التوراة بأنها (ضياء)؛ لأنها يستضيء بها المتقون، ويبدِّدون بها الظلام الذي حولهم، ويعرفون الحق من الباطل، ويكونون على بصيرة.
- **الوصف الثالث**: أنها ذكر، والذكر من التذكير وهي ذكر للمؤمنين، لأنها تذكرهم بما أوجب الله عليهم من الواجبات، ونهاهم عن منهيَّات، يتذكرونها عندما ينظرون في التوراة، فيلتزمون بها، ويطيعون الله من خلالها، وهي ذكر من وجهٍ اخر: فبها يذكرون الله سبحانه وأفضل أنواع ذكر الله قراءة كتابه والتدبُّر فيه[465].

ت . أوصاف التوراة في سورة الأنعام:

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ **[الأنعام: 91].**

وقد وصفت التوراة في الآية بثلاث صفات:

- **الصفة الأولى**: أنها كتاب: وذلك من جملة ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾، وهي كتاب؛ لأن الله كتبها على الألواح، وأنزلها على موسى عليه السلام، وهي أحد كتب الله الأربعة التي يجب الإيمان بها مفصلاً: التوراة والزبور والإنجيل والقرآن.
- **الصفة الثانية**: أنها نور: تنير لبني إسرائيل طريقهم وتجعلهم يسيرون على بينة وبصيرة ممن آمن بموسى عليه السلام.
- **الصفة الثالثة**: أنها هدى: فالله جعلها هدى للناس، يهتدون بها للحق، وهي تأخذ بأيديهم وترشدهم، وتدلهم وتقودهم إلى الخير، وتحذرهم من الخطر والشر، وتبين لهم الطريق المستقيم

[465] صلاح الدين الخالدي، حديث القران عن التوراة والإنجيل، ص 63.

الذي يوصلهم إلى مرضاة الله[466].

ث . التوراة تامَّة ومفصَّلة وهدى ورحمة:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ **[الأنعام: 154].**

اتى الله رسوله موسى عليه السلام التوراة، وجعلها (تماماً) أي: تامة في أحكامها وشريعتها، تلبي حاجات بني إسرائيل، وهي كافية لهم بهذا الاعتبار، والذين يستفيدون منها هم المحسنون الذين يريدون أن يُحسنوا في عبادتهم لله ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾، وفسَّر كلمة (تماماً) بقوله بعدها أي: أن معنى كونها (تماماً) أنها تفصيل لكل شيء يحتاجه بنو إسرائيل في ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وجعلها الله هدى يهتدي به بنو إسرائيل، كما جعلها رحمة لهم رحمهم بها عندما أنزلها عليهم، وبيَّن لهم فيها الأحكام[467].

ج . التوراة إمام ورحمة:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ **[الأحقاف: 12].**

وقد تحدثنا عن وصف التوراة بالرحمة فيما سبق، والجديد في الآية وصفها بأنها إمام، والإمام هو المرجع الذي يرجع الناس ويحتكمون إليه، ويلتزمون به ويسيرون خلفه، وقد يكون الإمام شخصاً يؤتمُّ به، كالإمام الحاكم المسؤول القدوة، والإمام الذي يؤمُّ الناس في الصلاة، وقد يكون إماماً معنوياً، كالكتاب الذي يتحاكمون إليه ويلتزمون بما فيه.

وكل كتاب أنزله الله فهو إمام يرجع إليه ويأتم به الناس، فالتوراة إمام والإنجيل إمام والقرآن إمام بهذا الاعتبار، وجمعت الآية بين كون التوراة إماماً وكونها رحمةً لبني إسرائيل، لأن إمام

---

[466] الخالدي، حديث القران عن التوراة والإنجيل، ص 67.

[467] المرجع نفسه، ص 67.

الهدى والخير رحمة للمأمومين يقدم الخير لهم ويقودهم إليه[468].

ح. التوراة كتاب حكم:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ **[المائدة: 44]**.

وقد تحدثنا عن وصف التوراة بالنور والهدى والصفة الجديدة للتوراة في الآية أنها (كتاب حكم) أنزلها الله ليتحاكم إليها الناس ويطبقوا ما فيها من أحكام وتشريعات ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ وتدل الآية على أن أنبياء بني إسرائيل كانوا مأمورين بالتزام التوراة وتطبيق أحكامها على بني إسرائيل، لأن الله أنزل التوراة على موسى عليه السلام قبلهم، وهذا معناه أن بني إسرائيل كانوا مطالبين بالتوراة عدَّة قرون، وأنها كانت رسالة كل نبي بعثه الله إلى بني إسرائيل من موسى إلى عيسى عليهم السلام[469].

خ. القرآن مصدِّق للتوراة الربانية:

صفات المدح المذكورة في القرآن الكريم هي للتوراة الربانية التي نؤمن أنها كلام الله، وأنها كتابه الذي أنزله على موسى عليه السلام، فالتوراة الربانية هي الضياء والنور، والهدى والرشاد، والفرقان والبركة، وهي التي فيها أحكام الله لبني إسرائيل، وهي التي حكم بها النبيون اليهود، ونفذوا أحكامهم فيها، والتوراة الربانية هي التي جاء القرآن مصدقاً لها، وكان الإنجيل قبله مصدقاً ومكمِّلاً لها، والتي كان عيسى ابن مريم مصدِّقاً لها وجاء الرسول الخاتم محمد (ﷺ) مصدقاً لها.

. قال تعالى عن تصديق عيسى للتوراة الربانية: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ **[آل عمران: 50]**، ومعنى (ما بين يدي من التوراة) ما سبقني من التوراة؛ لأن إنزال التوراة على موسى عليه السلام

---

[468] الخالدي، حديث القران عن التوراة والإنجيل، ص 69.

[469] المرجع نفسه، ص 71.

كان قبل بعثة عيسى عليه السلام بقرونٍ عديدة.

. وقال تعالى أيضاً: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ **[المائدة: 46]**.

واللافت للنظر أن كلمة (مصدقاً) مذكورة في الآية مرتين:

- جاءت في المرة الأولى إخباراً عن عيسى الرسول عليه السلام، أنه جاء مصدِّقاً لما سبقه من التوراة ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ .
- جاءت في المرة الثانية إخباراً عن تصديق الإنجيل للتوراة ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ .

عيسى عليه السلام مصدقاً لكتاب الله التوراة والإنجيل النازل عليه كتاب الله وهو مصدِّق لكتاب الله التوراة، ورسولنا محمد (ﷺ) مصدِّق للتوراة الربانية المباركة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **[البقرة: 101]**.

ومعنى كونه (ﷺ) مصدقاً لما معهم من التوراة الربانية أنه مقرِّر لموضوعاتها ومؤكِّد لحقائقها ووجوده عملياً تفسير واقعي لوجودها وبشاراتها، فقد وردت فيها البشارات بالرسول الخاتم، وذكرت فيها صفاته فكان وجوده تصديقاً لهذه البشارات وتحقيقاً لوقوعها.

وقد أخذ الله الميثاق على النبيين وطلب منهم أن يوصوا أتباعهم بالإيمان بالرسول الخاتم(ﷺ) قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ **[آل عمران: 81]**.

والقرآن الكريم مصدِّق للتوراة في موضوعاتها وحقائقها ومصدِّق لها في العقيدة وأسسها،

وفي الاداب والأخلاق والفضائل، وفي التاريخ والقصص، وفي التوجيهات والتقريرات والترغيب والترهيب وغير ذلك[470].

د . تعريف التوراة:

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن أحبار اليهود قد قاموا بتحريف التوراة، وأنهم أضافوا إليها وأنقصوا منها الشيء الكثير، وقد فضحهم الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في مواضع عدَّة.

- قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ **[البقرة: 75].**
- قال سبحانه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ **[البقرة: 78-79].**
- وقال عز من قائل: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[46].
- وقال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ **[المائدة: 13].**
- وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ **[المائدة: 41-42].**

ويفصِّل بعض العلماء في أنواع التحريف الذي قام به أحبار بني إسرائيل في التوراة، وبيَّنوا أن عناصر التحريف هي كالتالي:

- تحريف بالتبديل.
- تحريف بالزيادة.

[470] الخالدي، حديث القران عن التوراة والإنجيل، ص 135 . 137.

- تحريف بالنقصان.
- تحريف بتغيير المعنى دون تغيير اللفظ[471].

ويأخذ ذلك أشكالاً كثيرة كالآتي:

❖ إلباس الحق بالباطل والباطل بالحق حتى ينطلي ذلك الباطل ويروج على عامة الناس:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **[آل عمران: 71]**، لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب، فقد كانوا يكتبون في التوراة ما ليس فيها ومثاله اتهام هارون عليه السلام بأنه الذي وضع لهم العجل وأمرهم بعبادته.

❖ كتمان الحق:

يرتبط كتمان الحق أيضاً بإلباس الحق بالباطل، كما في الآية المذكورة أعلاه، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **[البقرة: 42]**.

ومن أهم أمثلة كتمانهم الحق إنكارهم لصفة محمد (ﷺ) في التوراة، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وقد روت صفية بنت زعيم اليهود حيي بن أخطب، وزوج النبي (ﷺ) بعد أن أسلمت أن عمها سأل أباها عن النبي (ﷺ) عندما قدم المدينة قائلاً: أهو هو النبي الذي كنا ننتظر؟ فقال حيي بن أخطب والله إنه لهو النبي... ولكنا والله لا نؤمن به.

وقد كتموا أيضاً حكم رجم الزاني والزانية، ولكن الله فضحهم على يد حَبرهم السابق الصحابي الجليل عبد الله بن سلام وأظهر حكم التوراة وهو الرجم.

❖ إخفاء الحق:

وهو شبيه إلى حد ما بالكتمان، والعلماء يفرقون بينهما على اعتبار أن الكتمان للأمر العظيم مثل نبوة محمد (ﷺ)، والاخفاء هو للأمر الذي فيه خزي لهم، وقد قال تعالى: ﴿يَا

---

[471] محمد البار، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، دار القلم، دمشق، ط2، 2011م، ص 120.

أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ **[المائدة: 15].**

❖ تحريف الكلم عن موضعه:

بوضع كلمة مكان كلمة أو جملة مكان جملة، وهذا هو تحريف التبديل، وقد يكون بإسقاط كلمة، وهو تحريف بالنقص، أو بزيادة كلمة أو جملة وهو تحريف بالزيادة، وقد يكون بصرف المعنى إلى معنى آخر غير مقصود وهو تحريف المعنى، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ **[المائدة: 13]**، وقال تعالى:﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ **[المائدة: 41]**.

❖ ليُّ اللسان: وذلك أثناء قراءتهم للتوراة فيضعون كلاماً من عندهم بدلاً من آيات الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ **[آل عمران: 78]** [472].

هذه باختصار أنواع التحريفات التي قام بها أحبار اليهود في كتاب الله المنزَّل على موسى عليه السلام، ومع مضيّ الأيام وضياع التوراة الأصلية؛ بسبب الحروب والسبي والشتات في الأرض، وبسبب ترك بني إسرائيل مراتٍ عديدة دينهم، وارتدادهم عنه حتى عبدوا الأصنام وخاصة البعليم وعشترون وملكوم وغيرها من الأوثان، وذبحوا لها وعبدوها وأقاموا لها المعابد الضخمة[473].

وأسفار العهد القديم مليئة بذكر ذلك كلِّه، وفي عهد القضاة (140سنة) ارتدوا سبع مرات، وعبدوا الأوثان، بل وذبحوا أبناءهم وبناتهم قرباناً لها ثم ازدادت الردَّة في عهد الملكية، حتى زعموا كذباً وبهتاناً أن سليمان عليه السلام عبد الأوثان، وبنى لها المعابد.

---

[472] محمد البار، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، ص 12 . 122.

[473] محمد البار، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، ص 122.

لهذا كلِّه ضاعت التوراة الأصلية وبقي منها آيات يذكرهم بها أنبياؤهم الذين أرسل الله إليهم تباعاً ليردُّوهم عن غيِّهم وكفرهم وضلالهم، ولكنهم كثيراً ما كانوا يقتلون الأنبياء بعد تكذيبهم والهزء بهم، قال تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ **[البقرة: 87].**

وبقيت شذرات من التوراة الأصلية يتوارثونها، ثم قام أحبارهم بجمع تلك الأخبار والآيات وإضافة ما زينه لهم الشيطان، فصاغوها في كتب وقدَّموها للناس على أساس أنها التوراة التي أنزلها الله، ثم جاءت الأبحاث الحديثة خلال القرون الثلاثة الماضية لتؤكِّد أن التوراة الحالية قد كُتبت على مدى ألف عام بواسطة عشرات ومئات الكُتَّاب في أزمنة مختلفة متباينة، وأن ذلك كله قد جمعه بعض الأحبار، ونسَّقه في كتاب أسماه (التوراة)، وأن ذلك ظهر بعد العودة من النفي في بابل، أي في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد، أي بعد وفاة موسى عليه السلام بما يقارب ألف عام[474].

فجميع أسفار التوراة التي لدى أهل الكتاب كُتبت بعد السبي، كما كتب غيرها من أسفار العهد القديم، يدل على ذلك كثرة الألفاظ البابلية بها.

وقد اعترف علماء اللاهوت النصارى بفقد توراة موسى ـ التي هي أصل الدين وأساسه ـ قال صاحب كتاب (خلاصة الأدلة السنية على صدق أصول المسيحية): والأمر مستحيل أن تبقى نسخة موسى الأصلية في الوجود إلى الان، ولا نعلم ماذا كان من أمرها؟ والمرجَّح أنها فقدت مع التابوت لما خرَّب ـ بختنصَّر ـ الهيكل، وربما كان ذلك سبب الحديث الجاري بين اليهود على أن الكتب المقدسة فقدت، وأن عزرا ـ الكاتب الذي كان نبياً ـ جمع النسخ المتفرقة من هذه الكتب وأصلح غلطها، وبذلك عادت إلى منزلتها الأصلية، وقال العلامة محمد رشيد رضا: نحن نعلم إجابتهم عندما يُسألون من أين جمع ـ عزراً ـ تلك الكتب بعد فقدها، وعلى أيِّ شيءٍ اعتمد في إصلاح أغلاطها؟ إنهم يقولون: كتب ما كتب بإلهام، فما دليل هذا الإلهام؟ وهل مع الإلهام يحتاج الكاتب إلى جمع ما بأيدي الناس الذين لا ثقة بنقولهم؟ وليته كتب الشريعة مجردة من الأخبار التاريخية التي انضمت إليها.

---

[474] المرجع نفسه، ص 123.

إن الأخبار التي حوتها هذه الأسفار، كانت الشاهد الأول على تسلل الكذب إليها من كل ناحية، أكان نوحٌ عليه السلام رجلاً يسكر حتى يفقد وعيه؟ أكان لوطاً رجلا يسكر حتى يزني بابنتيه في ليلتين متعاقبتين، لينجب من كل منهما أبناء وأحفاد؟ وإن جملة من المفتريات تملأ سِير المصطفين الأخيار من أنبياء الله، فهل هذا تأليف مقبول؟[475]، وغير ذلك من الإفك والبهتان المبين.

ذ . القرآن الكريم لا يعترف بالتوراة المحرَّفة:

التوراة المحرَّفة هي التي ألقاها وصاغها أحبار اليهود وحاخاماتهم، على مدار التاريخ اليهودي الطويل، وأظهروها للناس وسمَّوها (العهد القديم) بأسفارها الكثيرة، والتي فيها من الأخطاء والأكاذيب والأباطيل الشيء الكثير، والصواب والصحيح فيها قليلٌ جداً لا يكاد يذكر، وهذه التوراة المحرفة (العهد القديم) يكذبها القرآن في كثيرٍ مما فيها ويبين الأكاذيب والأخطاء والتحريف التي وقع فيها الأحبار وهم يكتبونها.

ولم يعترف القرآن أن هذه التوراة المحرَّفة كلام الله، لأن التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام أضاعها اليهود وحرَّفوها وغيَّروها وبدَّلوها، وجاء هذا في آيات صريحةٍ عدة، تحدثنا عنها في فقرة (تحريف التوراة)، كما أن إقرارنا أن التوراة المحرفة اليهودية المسمَّاة (العهد القديم) من صياغة وتأليف الأحبار على مدار التاريخ اليهودي الطويل، لا يمنع وجود بقايا قليلة من التوراة الربانية متفرقة في أسفارها، لكنها لا تخرج عن كونها كلمات أو عبارات متناثرة هنا وهناك، وهي قليلة جداً وسط ذلك الركام الكبير من تحريفات الأحبار[476].

---

[475] محمد الغزالي، صيحة تحذير من دعاة التنصير، دار القلم، دمشق، ط1، 2000م، ص 116.

[476] الخالدي، حديث القران عن التوراة والإنجيل، ص 142.

وقد ردَّ الله عز وجل في كتابه العزيز على كثيرٍ من التحاريف والأكاذيب والأباطيل التي جاءت في التوراة المحرفة، وقد جاء تكذيبه لها في نماذج وأمثلة عديدة من أشهرها ما يلي:

. تكذيب الأحبار في نسبة التعب إلى الله:

نسب مؤلفو التوراة المحرفة اليهودية التعب إلى الله، عندما خلق السماوات والأرض، حيث اضطره التعب إلى أن يستريح في اليوم السابع، الذي كان في يوم السبت، وقد ورد هذا في الفصل الثاني من سفر التكوين قالوا: (وهكذا أكملت السماوات والأرض وجميع قواتها، وانتهى الله في اليوم السابع من عمله الذي عمله، واستراح في اليوم السابع من كل عمله الذي عمله، وبارك الله اليوم السابع وقدسه؛ لأنه فيه استراح من كل عمله الذي عمله) **[سفر التكوين: الفصل الثاني: 1 - 3]**[477].

ونسبة الاستراحة إلى الله كفرٌ به؛ لأنها تنسب النقص والتعب والإعياء إليه، بسبب ما قام به من عمل، مما اضطرَّه إلى أن يستريح ويزول عنه التعب، وهذه عوارض تعترض الإنسان المخلوق الضعيف وينزَّه عنه الخالق، ولقد كذب الله عز وجل في كتابه العزيز هذا القول في آية قصيرة موجزة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ **[ق: 38]** .

خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام وكان قادر على خلقها في لحظة واحدة لأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، وهو سبحانه وتعالى لم يتعب من خلق السماوات والأرض ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ *﴾، واللغوب هو التعب والإعياء الذي يضطر بصاحبه إلى أن يستريح، وهذا تكذيب صريح لمؤلفي التوراة اليهودية في قولهم السابق.

. تكذيبهم في زعمهم بحث الله عن آدم:

زعم الأحبار مؤلفو التوراة أن آدم وحواء لما أكلا من الشجرة صارا عريانين، فسمعا وقع خطى الربِّ وهو يتمشَّى في الجنة، فاستحيا منه، واختبأ آدم خلف أشجارها، فصار الرب

[477] المرجع نفسه، ص 144.

يبحث عن آدم وهو لا يراه ولا يدري أنه أكل من الشجرة.

قال الأحبار في سفر التكوين: (سمعنا وقع خطى الرب الإله وهو يتمشى في الجنة، عند نسيم النهار، فاختبأ الإنسان وامرأته من وجه الرب الإله فيما بين أشجار الجنة، فنادى الرب الإله الإنسان وقال له: أين أنت؟ قال: إني سمعت وقع خطاك في الجنة، فخفت لأني عريان فاختبأت، قال: فمن أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أمرتك ألا تأكل منها؟ فقال الإنسان: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت) **[سفر التكوين، الفصل الثالث: 8/12]**[478].

وفي هذا النص مجموعة من الأباطيل والأكاذيب التي فيها نسبة ما لا يجوز إلى الله، ومنها:

- تجسيم الإله الرب أن تكون له قدمان تسيران وتتحركان ويخرج من سيرهما صوت مسموع يسمعه الآخرون، كما يسير أي إنسان ويسمع وقع خطاه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ **[الشورى: 11]**.
- وصف الإله الرب بالجهل وعدم العلم وأنه تخفى عليه الأشياء، فعندما اختبأ آدم وزوجته بين أشجار الجنة وقف الإله الرب يبحث عن آدم، ولما لم يشاهده ناداه قائلاً: أين أنت يا آدم؟

وهل هذا إله يخفى عليه آدم ومكانه فيضطر إلى أن يناديه ليعرف مكانه؟ ومنها:

- وصف الإله الرب بالجهل وعدم العلم بما حصل، فهو لا يعلم أن آدم أكل من الشجرة، وهو لا يعلم أنه عرياناً، ولذلك سأل آدم: من أعلمك أنك عرياناً؟ هل أكلت من الشجرة التي أمرتك ألا تأكل منها؟

وهذا التخفِّي والحوار بين الإله الرب وبين آدم كأنه (لعبة) هزيلة يلعبها الأولاد الصغار، وقد كذب الله عز وجل في القرآن الكريم هذا الكلام في قوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا

[478] الخالدي، حديث القران عن التوراة والإنجيل، ص 145.

الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ **[الأعراف: 22]**. وفرقٌ بين قول الأحبار: نادى الرب الإنسان أين أنت؟ وهل أكلت من الشجرة؟ وبيَّن قول القرآن وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة[479] .

- تكذيبهم في زعمهم صنع هارون عليه السلام العجل:

زعم الأحبار مؤلفو التوراة اليهودية أن هارون النبي عليه السلام هو الذي أخذ حليَّ بني إسرائيل وصنع لهم العجل الذهبي ودعاهم إلى عبادته، وورد في سفر الخروج قول الأحبار: (ورأى الشعب أن موسى قد تأخر في النزول من الجبل، فاجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم فاصنع لنا الهة تسير أمامنا، فإن موسى ذلك الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه؟ فقال لهم هارون: انزعوا حلقات الذهب التي في اذان نسائكم وبنيكم وبناتكم، وائتوني بها، فنزع كل الشعب حلقات الذهب التي في اذانهم، وأتوا بها هارون، فأخذها وصبَّها في قالب، وصنعها عجلاً مسبوكاً، فقالوا: هذه الهتك يا إسرائيل، التي أصعدتك من أرض مصر، فلما رأى هارون ذلك بنى مذبحاً أمام العجل ونادى قائلاً: غداً عيد للرب... فبكَّروا في الغد وأصعدوا مُحْرقات وقرَّبوا ذبائح سلاميَّة، وجلس الشعب يأكل ويشرب ثم قام يلعب...) **[سفر الخروج: الفصل 32: 6/1]**[480] .

ينسب الأحبار في هذا النص إلى هارون النبي عليه السلام الكفر، فهو الذي أخذ الحليَّ من بني إسرائيل، وهو الذي صنع لهم العجل، ودعاهم إلى عبادته، وقد كذَّبهم الله في القرآن، حيث ذكر أن من صنع العجل هو المجرم السامري.

- قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ **[طه: 85]**.
- وقال تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ۝ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ **[طه: 87-88]**.

479الخالدي،حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، المرجع السابق، ص 146.

480المرجع نفسه، ص 147.

- وقال تعالى:﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۝ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ **[طه: 90-91].**

- تكذيبهم في زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه:

إنَّ الأحبار مفترون كاذبون على الله، وهم عنصريون أنانيُّون، وقد أوهموا عامة اليهود أنهم أبناء الله، وأحباؤه، وأن الله اصطفاهم وكان معهم، وأنه لن يتخلَّى عنهم، وأنهم هم المهتدون وأن الجنة لهم وحدهم، وقد كذَّبهم القرآن في هذه المزاعم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ **[المائدة: 18].**

هم كاذبون في زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، لأن الله يعذبهم بذنوبهم، ولو كانوا أبناء الله لما عذَّبهم، ثم إن الله سبحانه ليس له أبناء لأنه خالق كل شيء في السماوات والأرض، وقد خلق البشر جميعاً، وهم من هؤلاء البشر المخلوقين لا يميّزهم عن شيء في الخلقة والصورة، وأساس التفضيل والتمييز عند الله هو العمل الصالح، فالأكرم عند الله هو الأتقى، ولا محاباة عند الله، وكل إنسان مسؤول عن عمله، والله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء[481].

- تكذيبهم في زعمهم أنهم أولياء الله:

زعم اليهود أنهم أولياء الله من دون الناس، وأن الجنة لهم وحدهم، لأنهم وحدهم المؤمنون، وغيرهم كافرون، وقد كذبهم القرآن في هذا الزعم وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **[الجمعة: 6-8]** ، من أجل إظهار كذب اليهود في هذا الزعم، يتحداهم الله بتمنِّي الموت بمعنى أن يقولوا: اللهم أمتنا، فإذا كانوا أولياء لله وإذا كانت الجنة خالصة لهم فإنهم سيذهبون إلى الجنة بعد موتهم، وموتهم راحة لهم، وعليهم أن يتمنَّوا الموت لينالوا السعادة.

---

[481] الخالدي، حديث القران عن التوراة والإنجيل، ص 148.

ولم يتمنَّ اليهود الموت ولم ينجحوا في التحدِّي واثروا أن يوصفوا بالجبن لأنهم يعلمون كذبهم في مزاعمهم، ويعلمون صدق رسول الله (ﷺ)، ويعلمون أنهم لو تمنَّوا الموت لأماتهم الله، ويعلمون أنهم لو ماتوا لذهبوا إلى النار، وقد أكَّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ **[البقرة: 96].**

كيف يتمنَّى اليهود الموت وهم يعرفون ما قدَّمت أيديهم من الجرائم والقبائح والرذائل؟

إن ملقَّهم عند الله أسود، وينتظرهم عنده العذاب الأليم، فكيف يتمنَّون الموت وهذا مصيرهم ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ **[البقرة: 95]**، إنهم أحرص الناس على (حياة) وهدفهم هو أن يعيشوا حياتهم الدنيا مستمتعين بالأكل والشرب والشهوة، ولا يهمهم بعد ذلك أن يكونوا أعزَّاء أو أذلاء، أحراراً أو مستعبدين، وهم لا يفكرون في الآخرة[482].

- تكذيبهم في نسبة إبراهيم عليه السلام إلى اليهودية:

من مزاعم اليهود وأكاذيبهم زعمهم أن إبراهيم الخليل عليه السلام كان يهودياً، وقد نافسهم النصارى في هذه الأكذوبة، حيث زعموا أنه كان نصرانياً، وقد كذَّبهم الله في هذا، فبين أنه ما كان يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركاً وإنما كان حنيفاً مسلماً.

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ **[آل عمران: 65-68].**

أبطلت الآيات احتجاج اليهود والنصارى في إبراهيم عليه السلام، وفنَّدت مزاعمهم أنهم على دينه، فالتوراة والإنجيل أنزلا من بعده، واليهود والنصارى كانوا من بعده، فكيف يزعم اليهود أنه كان يهودياً؟ وكيف يزعم النصارى أنه كان نصرانياً؟ وقد عاش ومات عليه السلام

[482] الخالدي، حديث القران عن التوراة والإنجيل، ص 150.

قبل أن يولد أوَّل يهوديٍّ وأوَّل نصرانيّ[483].

ونكتفي بهذه النماذج التي كذَّب فيها القرآن التوراة المحرّفة اليهودية، فيما زعمه الأحبار الذين ألّفوها ونسبوها إلى كاذبين مفترين.

إن التوراة اليهودية المحرفة ـ العهد القديم ـ مليئة بالأكاذيب والأباطيل، مما يؤكد أنها ليست من التوراة الربانية، وإنما هي من تأليف أحبار السوء[484].

عاشراً: الإنجيل والأناجيل:

ورد لفظ الإنجيل في اثنتي عشرة مرة في القرآن الكريم، وإليك بعض الآيات التي ورد فيها ذكر هذا اللفظ:

– قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ **[آل عمران: 3-4].**

– وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ **[آل عمران: 65].**

– وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ **[المائدة: 66].**

– وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ **[المائدة: 68] .**

والإنجيل: لفظ معرَّب من الأصل اليوناني (انكليوس)، وجاء بمعنى البشارة والتعليم[485]. وفي

[483] الخالدي، حديث القران عن التوراة والإنجيل، ص 148.

[484] الخالدي، المرجع نفسه، ص 151.

[485] المرجع السابق، ص 151.

الاصطلاح: الإنجيل هو كتاب الله المنزَّل على رسوله عيسى ابن مريم، هدىً ونوراً لبني إسرائيل، كما أخبر بذلك القرآن الكريم، وأما الإنجيل الان لفظ مختصٌّ بالأسفار الأربعة لدى النصارى: متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، وقد يُطلق مجازاً على أسفار العهد الجديد[486].

ولا يعرف للأناجيل الحالية الموجودة عند أهل الكتاب سند متصل بصحيح نسبتها إلى عيسى عليه السلام، ومعظمها لا يصح بحال من الأحوال نسبته إليه، وأحسن ما يقال في هذه الأناجيل أنها مصنفات تاريخية حول سيرة المسيح، وبعض وصاياه ومواعظه ومعجزاته[487].

ولم يكن حظُّ الإنجيل خيراً من حظِّ التوراة، فبعدما رُفع عيسى، اختفت معه صحائف الكتاب الذي أُنزل عليه، ولم يجد أحد أثراً لها إلى يومنا هذا، وإن الفوضى الواسعة التي أعقبت غيابه عليه الصلاة والسلام، ترجع إلى سطوة السلطة الرومانية، وإلى أثر اليهود بين طبقات الشعب، فقد تعاون الفريقان على مطاردة من آمن بعيسى ومصادرة ما يشير إلى تعاليمه، وظل هذا الاضطهاد أكثرَ من ثلاث قرون، اختلف المسيحيون خلالها اختلافاً كبيراً، وظهر هذا الاختلاف في الكتب التي قيل إن تلاميذ عيسى ألفوها، متضمنةً تعاليمه.

وقد سميت هذه الكتب كلُّها أناجيل؛ لأن مؤلِّفيها شرحوا حياة عيسى عليه السلام، وسجَّلوا ما وعَوا من عظاته، وتعاليمه، على أنه خلاصة الإنجيل الذي بُشِّر به، وهذه تسمية تدعو إلى التساؤل، بل إلى الإنكار، وقد اختلفت فيما بينها اختلافاً واسعاً بلغ حدَّ التناقض، والمرويّ أنها بلغت سبعين إنجيلاً[488].

وهناك من يرى أنها أربت على المائة[489]، بعضها يقوم على التوحيد، وبعضها يقوم على التثليث، وتبع ذلك اختلاف النصارى في أصل العقيدة، وقد ظلَّ هذا الانقسام إلى مؤتمر (نيقية) سنة 325م، حتى نصر قسطنطين مبدأ التثليث، ومهَّد لذلك بجعل المسيح ابناً لله. مع أنه رأيُ قلَّة المؤتمرين. ثم جاء مؤتمر اخر فألَّه روح القدس، واعتُبرت الأناجيل الموحِّدة كاذبة،

---

486 رحمة الله الهندي العثماني، إظهار الحق، تحقيق: أحمد حجازي السقا، طبعة دار التراث، الطبعة القطرية، 1/79. 80.

487 سارة العبادي، التحريف والتناقض في الأناجيل، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، ط1، 1424هـ، 2003م، ص23.

488 زاهر بن عوض الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي للقران الكريم، ص 267.

489 محمد الغزالي، صيحة تحذير من دعاة التنصير، ص 119.

وبدأ عصر مصادرتها الشاملة.

ويذكر الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار رأياً لبعض مؤرخي الكنيسة، بأن عدد الأناجيل الكاذبة خمسة وثلاثون، كما ذكر رأياً اخر لصاحب كتاب (ذخيرة الألباب) الماروني، ينكر القول بكثرة الأناجيل، ويزعم أن سبب القول بكثرتها تسمية الإنجيل الواحد بعدة أسماء، ويؤكد أن الخمسة والثلاثين إنجيلاً لا تكاد تبلغ العشرين، وعدَّها كلها، وذكر أن بعضها مكرر الاسم، وذكر منها إنجيل برنابا، ولنفرض جدلاً أنها عشرون إنجيلاً فقط، فأين ما فوق الأربعة المعتمدة؟

الواقع أن الأناجيل التي قامت على التوحيد كانت أغلب، وأن الأقدار حفظت إنجيل برنابا، ليكون نموذجاً لها، وأن الاستبداد السياسي الذي عرف به الرومان أتى عليها، وأن الأربعة المعتمدة لا تنهض على نقل صحيح، وأن أصولها وترجماتها معلقة لا يكاد يعرف لها صاحب.

ولو فرضنا جدلاً أن بها خيراً، فليست هي يقيناً إنجيل عيسى، الذي كان يقول للناس: توبوا وآمنوا بالإنجيل، والذي وردت تسميته تارةً بأنه إنجيل الله، وتارةً إنجيل المسيح، ومعروف . كما قال صاحب (المنار) . أن الكتاب الإلهي ينسب إلى الله لأنه منزله، وينسب إلى الرسول، لأنه تلقاه عن ربه، فيقال: إنجيل عيسى، كما يقال: توراة موسى[490] .

إن النصارى في انتمائهم إلى عيسى لا يعتمدون على شيء ذي بال، ولعل ذلك السرّ في مجيء العبارة القرآنية عنهم، وبها رائحة الدعوى، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ **[المائدة: 14]** .

ما أبعدهم عن عيسى وما أجرأهم عليه، قال صاحب المنار: وقد اشتد اليهود في عداوتهم ومطاردتهم، فلم تكن لهم هيئة اجتماعية ذات قوة وعلم، تدوِّن ما حفظوه من إنجيل المسيح وتحفظه.

490 محمود عبد الحميد، مع الأنبياء وجهادهم، دار الفكر، دمشق، ط1، 2003م، ص349.

ويظهر من تاريخهم وكتبهم المقدسة أن كثيراً من الدعاة كانوا ينشرون بين الناس في عصرهم تعاليم باطلة عن المسيح عيسى ابن مريم، ومنهم من كتب ذلك حتى أن الذين كتبوا كتباً سمَّوها الأناجيل كثيرون جداً، كما صرَّحوا في كتبهم المقدسة، وتواريخ الكنيسة، وما ظهرت هذه الأناجيل الأربعة المعتمدة عندهم الان إلا بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح، وعندما صار للنصارى دولة بدخول الملك قسطنطين في النصرانية وإدخاله إياها في طور جديد من الوثنية، وهذه الأناجيل عبارة عن تاريخ ناقص للمسيح، وهي متعارضة متناقضة مجهولة الأصل والتاريخ، بل وقع الخلاف بينهم في مؤلفيها، واللُّغات التي ألَّفوها بها[491].

وقد أورد الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) مائة شاهد من الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى على وقوع التحريف اللفظي والمعنوي فيها، إن القدامى والمحدثين من علماء الإسلام ومقارنة الأديان نقدوا النصرانية

سنداً ومتناً، وكشفوا عن كثيرٍ مما يكشف عقائدها من رِيب، واليوم ونحن في القرن العشرين للميلاد نقرأ للمحققين المسيحيين ما يؤكد رأينا، ويصدِّق علماءنا، لقد ألَّف اللواء المهندس أحمد عبد الوهاب كتاباً أسماه (اختلاف في تراجم الكتاب المقدس)، اعتمد فيه على وثائق أثبتها لمحققين مسيحيين، تشير إلى تفاوتٍ رهيب في هذه التراجم، تمسُّ صميم العقائد المسيحية[492].

إنَّ العقائد المتوارثة بين النصارى نبتت في الأرض، ولم تنزل من السماء، وهي وليدة مؤتمرات بشرية، أشرفت عليها سلطات وثنية، ولو افترضنا كذباً أن لها أسانيد قائمة، فإن متونها تصادم العقل والمنطق، وتجعل الدين مرادفاً للأساطير والخرافات، وهذا سرُّ الصراع بين الدين والعلم، وسرُّ الشقَّة الواسعة بين الحضارة المنشودة، وما يصبو إليه رجال الكهنوت، وإن تخلف الدين الحق فسح الطريق للأوهام والخرافات[493].

---

[491] محمد الغزالي، صيحة تحذير من دعاة التنصير، ص 120.

[492] محمد الغزالي، صيحة تحذير من دعاة التنصير، ص 120.

[493] المرجع نفسه، ص 122.

إنَّ الأناجيل الحالية عبارة عن مصنفات تاريخية حول قصة حياة مريم، وابنها المسيح عيسى، وما جرى له منذ ولادته حتى نهاية حياته في الأرض، حسب معتقداتهم، ولم يكتب شيء من هذه الأناجيل في حياة عيسى عليه السلام، وإنما كتبت بعد رفعه إلى السماء[494]، وهذه الأناجيل هي:

1 . إنجيل(متى):

هو أقدم الأناجيل عندهم، وأوَّلها، كُتب بعد رفع المسيح بأربع سنوات، وقد كُتب باللغة العبرية، والموجودة الان ترجمته، ولكن من هو المترجم؟ وأين الأصل المترجَم؟ حتى تتم المقارنة بينهما؟ كل ذلك ليس له جواب، فأية قيمة علمية إذاً لوثيقة لا يُعرف أصلُها ولا مترجمها، وليس لها سند متصل إلى السيد المسيح، أو تلاميذه؟

2 . إنجيل (مرقس):

كتب باللغة اليونانية، بعد رفع المسيح بثلاث وعشرين سنة، وقد اختلف النصارى فيمن ألف هذا الإنجيل، فقال فريق: إن الذي كتبه هو (بطرس) رئيس الحواريين، وقال آخرون: إن (مرقس) كتب إنجيله بعد موت بطرس، وبعد موت بولس أيضاً، وجاء في كتاب (مرشد الطالبين) أن إنجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة 61 لنفع الأمم الذين كان تنصرهم بخدمته، وهذا الإنجيل ينكر ألوهية المسيح، فلماذا نرى أن الشك قد وقع عند مؤرخي النصرانية في تعيين كاتب هذا المصنف بشكل حازم، كما ثبت أن عيسى عليه السلام لم يكتب هذا المصنف ولم يملِه، فكيف تطمئن إليه النفس؟

3 . إنجيل (لوقا):

كتب باتفاق مؤرخي النصارى بعد عشرين سنة من رفع عيسى عليه السلام، وهو ليس من تلاميذ المسيح اتفاقاً، ولا من تلاميذ تلاميذه، وإنما هو تلميذ (بولس)، وبولس هذا كان يهودياً متعصباً على المسيحية، ولم يرَ المسيح في حياته، وكان يسيء إلى النصارى إساءات

---

[494] محمد الغزالي، صيحة تحذير من دعاة التنصير، ص 122 . 123.

بالغة، ولما رأى أن اضطهاده للنصرانية لا يجدي، عمد عن طريق الحيلة إلى الدخول فيها، وأظهر الاعتقاد بالمسيح، وادعى أنه صُرِع، وفي حالة صرعه لمسه المسيح وزجره عن الإساءة لأتباعه، ومن ذلك الوقت امن، وأرسله المسيح ليبشر بإنجيله، وانطلت حيلته على الكنيسة، وأباح لهم أكل الميتة، وشرب الخمر، وقد أتى لوقا في إنجيله بزيادات كثيرة عما ذكره (متى) و(مرقس) بشكل واضح يرتاب له القارأئ[495]. وهنا يقف البحث العلمي شاكّاً في لوقا، ومتهماً أستاذه بولس بتحريف الديانة النصرانية في أصول عقيدتها، ومثبتاً أن هذا المصنف لا صلة له بعيسى عليه السلام، لا كتابة ولا إملاء.

4 . إنجيل (يوحنا):

كتب بعد رفع المسيح بـ (32 سنة)، وتزعم الكنيسة أن هذا المصنف من كتابة)يوحنا بن زبدي(أحد تلاميذ المسيح عليه السلام، وقد أنكر جمهور كبير من محققي النصارى نسبة هذا المصنف إليه، وبينوا أنه تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي، وجاء في دائرة المعارف البريطانية التي اشترك فيها خمسمائة من علماء النصارى ما نصه:)أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزوّر، أراد صاحبه مضادّة اثنين من الحواريين وهما القديسان يوحنا ومتَّى، وقد ادعى هذا الكاتب المزوِّر في متن الكتاب أنه الحواريُّ الذي يحبه المسيح...)[496].

وقد انفرد هذا الإنجيل بفقراتٍ تدلُّ على ألوهية المسيح، والعجب في الأمر أن الكنيسة تعتمد عليه في معتقدها المخالف لأصول الديانة التي أنزلها الله على عيسى عليه السلام، مع علمها اليقين بعدم صحَّة نسبة هذا الإنجيل إلى (يوحنا) أحد تلامذة السيد المسيح، وقد ذكر الشيخ النجار في كتابه «قصص الأنبياء» صوراً من تناقض هذه الأناجيل الحالية، وعن اضطرابها، واختلافها، بشكل يلمَس فيه الإنسان عدم الوثوق بما كتب فيها، فارجع إليه إن

[495] عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2009م، ص400.

[496] محمود عبد الحميد، مع الأنبياء وجهادهم، ص352.

شئت، فإنه دقيق ونفيس[497].

ويتضح لكل عاقل متبصِّر أن الأناجيل الموجودة الان محرفة، وأنها غير الإنجيل الذي أنزله الله، وأنها منقطعة الإسناد، ومضطربة المتن، ويكفي هذا لعدم الاطمئنان والوثوق بما فيها من أخبار وأحكام[498].

❖ **وقد قامت الدكتورة سارة حامد محمد العبادي بدراسة مستفيضة قيمة في كتابها (التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة)، وخرجت بهذه النتائج العلمية:**

– شكوك وظنون كثيرة تدور حول أهم النقاط في أناجيل النصارى المعتمدة من تعريف بمؤلفيها، ومدى صحة نسبة كل إنجيل إلى مؤلفه، ومن تاريخ تدوينها.

– اعتمادها دون غيرها من أناجيل النصارى الكثيرة، كان من قِبل حاكم وثنيّ رومانيّ (قسطنطين (استطاع بقوة سلطانه إرغام الموحدين بقبولها، وحرق جميع ما عداها من الأناجيل.

– إن هذه الأناجيل منقطعة السند تماماً عن واضعيها.

– اتفاق الباحثين المنصفين على وجود إنجيل أصلي للمسيح عليه السلام كما ذكر القرآن الكريم، وأنه مفقود.

– وجود التحريف في الأناجيل الأربعة واضحاً بأنواعه الثلاث، تحريف بالتبديل، وتحريف بالزيادة، وتحريف بالنقصان، كما ورد الإخبار بتحريفها في آيات كثيرة في الذكر الحكيم.

– رفض المسيحيين المتعصبين لإنجيل برنابا رفضاً باتّاً، لأنه كشف التحريف في الأناجيل الأربعة، وخاصة التحريف في مجال العقيدة.

– وجود التناقض ظاهراً في كل إنجيل من الأناجيل الأربعة على حدة، ووجوده كذلك واضحاً فيما بين هذه الأناجيل.

– إن الأناجيل الأربعة قد تضمنت ذكر حوادث تاريخية غير صحيحة، وهي أقرب ما تكون إلى الخيال منه إلى الحقيقة.

– الأناجيل الأربعة لا تصلح أن تكون حجة للنصارى في عقائدهم، لتحريفها وتناقضها

497 عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص 402.

498 محمود عبد الحميد، مع الأنبياء وجهادهم، ص352.

وبطلان دعوى الإلهام لكتّابها[499].

وقد أورد العلامة الكبير رحمة الله الهندي في كتابه النفيس (إظهار الحق) مائة شاهد من الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى على وقوع التحريف اللفظي والمعنوي فيها[500].

❖ قدمت الدكتورة عزية علي طه دراسة وافية حول منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل في كتابها (منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل) دراسة مقارنة، وخرجت بمجموعة من النتائج من أهمها:

– إن النصارى في أسفار العهد الجديد لم يلتزموا منهجاً ثابتاً ومعروفاً عند جمع تلك الأسفار.

– إن تلك الأسفار كتبت بلغة مغايرة للّغة الأصلية التي كانت سائدة في فلسطين في الزمن الذي أنزل فيه الإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام.

– إن جميع كتَّاب أسفار العهد الجديد لم يلتقوا بالسيد المسيح، بل إن بعضهم تقمَّص شخصية الحواريين، وكتب على لسانهم دون توضيح ذلك، كما أن كتابة تلك الأسفار وزمان كتابتها متنازعٌ فيه.

– كانت هناك الكثير من الأناجيل ولكنها أحرقت، كما أن الناس كانوا في صراع ونزاع حول حقيقة المسيح عليه السلام.

– تدخلت العوامل السياسية في القرن الرابع الميلادي في تشكيل المسيحية، وبنائها بالصورة التي تعرف بها اليوم، فالإمبراطور قسطنطين حاول توحيد كلمة النصارى تحت سلطانه خشية على إمبراطوريته من الانقسام والفرقة، فجمع القساوسة في مؤتمر نيقية، وتامر هو وبطريقة الإسكندرية واتفقا على القول بوجود ثلاثة الهة، وحاربت السلطات الحاكمة كل من كان يقول بغير تلك المقالة، كما أن الإمبراطور قسطنطين كان وثنياً قبل أن يعتنق المسيحية.

فلا غرابة أن يؤيد المقالة التي تنادي بوجود ثلاثة الهة، لأن ذلك يتوافق مع هواه وعقيدته

---

[499] سارة العبادي، التحريف والتناقض في الأناجيل، ص 308 . 309.

[500] محمد الغزالي، صيحة تحذير من دعاة التنصير، ص 121.

الوثنية السابقة.

- وبينت الباحثة في كتابها صوراً من تضارب متن الأناجيل، وكيف أن الرواة تناقضوا واختلفوا اختلافاً ظاهراً في سرد القصة التي تدور حول حادثة واحدة تعتبر من أساسيات العقيدة النصرانية، وهي حادثة الصلب وملحقاتها من محاكمة ودفن وقيام.
- واختلفوا في حقيقة الإله، وتناقضت أقوالهم وتضاربت، ورأينا كيف أنهم ألَّهوا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وبالرغم من ذلك وصفوه بصفاتٍ لا تليق ببشر عاديّ ناهيك عن إله خالقٍ، ولقد وصفوه بالجهل والكذب وعقوق والدته، بل نسبوا لأمه ارتكاب الفاحشة عند نستبهم عيسى ليوسف النجار الذي لم يكن زوجاً لها عندما حملت بعيسى، بل كان خطيبها كما يدَّعون[501].
- دخل رجال الدين المسيحي في تخبط وصراع مع العلوم التجريبية عند ظهور النهضة العلمية في أوربا، وحاربت الكنيسة العلم والعلماء وتصدت لهم، وقد ظهر طبقات الفلاسفة بين رجال الدين الذين عملوا جاهدين للتوفيق بين العلم ومبادئ المسيحية، وحصلت هزة عنيفة للديانة المسيحية عندما حاول رجال الدين المسيحي أنفسهم تطبيق النظريات والوسائل العلمية الحديثة على المسيحية، وظهرت مدارس النقد الألماني ومدارس البحث عن عيسى التاريخي في أوربا، وخاصة في ألمانيا.
- وبينت الباحثة: أن صموئيل ريموراس هو أول من تشجّع وبحث عن عيسى التاريخي، رغم أن النتيجة التي توصل إليها كادت أن تؤدي إلى هدم المسيحية كلياً.

وقالت: ورأينا كيف ظهر علماء القرن التاسع عشر بنفس الأفكار، ورأينا شبه إجماعهم على أن الأقوال التي تنبني عليها الديانة المسيحية اليوم - متمثلة في أسفار العهد الجديد - لا تمتُّ لعيسى التاريخي بصلةٍ، ورأينا ما يشبه الإجماع بينهم على أن إنجيل عيسى الحقيقي شبه مفقود، وأنهم لم يستطيعوا التوصّل لعيسى التاريخي، لعدم وجود منهجٍ ثابتٍ ومعلوم اعتمد عليه المؤتمرون في نيقيّة لاعتماد الأناجيل، واستمرَّ التخبُّط في القرن العشرين وبلغ قمته عندما زعم بعض النصارى بأن الإله قد مات، وعندما زعم أصحاب مدرسة اللاهوت المتطور أن الإله

---

[501] عزية علي طه، منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط2، 1417هـ، 1996م، ص552.

ناقص وغير كامل، وأنه محتاج للبشر لإكمال ذاته تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً[502].

وسبحان الله القائل في محكم كتابه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ **[الإخلاص: 1-4]**

❖ قام الدكتور عبد الرزاق عبد الحميد بدراسة متميزة في رسالته العلمية للماجستير (مصادر النصرانية دراسة ونقد) وخرج بمجموعة قيمة من النتائج والتي من أهمها:

– إن أوثق مصدر لتجلية حقيقة دعوة عيسى عليه السلام القرآن الكريم، وما صحَّ من الأحاديث النبوية الشريفة.

– إن معظم الجذور الحقيقية لمعظم ما عليه النصارى اليوم من عقائد وشرائع هي مبادأئ الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والتقاليد والمعتقدات الوثنية، لذا فإن درجة ارتباط النصارى بأسفارهم المقدسة ضئيلة جداً.

– إن ثمة فرقاً بين مصطلح (التوراة والإنجيل) وبين مصطلح (العهد القديم والعهد الجديد) فالعهد القديم عبارة عن مجموعة أسفار (46 أو 39) من بينما خمسة أسفار تنسب إلى موسى عليه السلام، وتسمى بالتوراة أو البنتاتوك، وأما العهد الجديد ففيه سبعة وعشرون كتاباً أو سفراً من بينها أربعة أناجيل (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) وليس فيها إنجيل الله المنزل على المسيح عليه السلام.

– إن المصادر النصرانية منها ما هي عامة، وهي ما يسمى بالكتاب المقدس بعهديه القديم الجديد، وقرارات المجامع، ومنها ما هو خاص بطائفة دون أخرى، وهو قرارات البابوية.

– إن نسبة كتب العهد القديم والعهد الجديد إلى ما نسبت إليهم، في الغالب إنما تكون نسبة وهمية أو دعائية لغرض الترويج حيث أن معظم هذه الكتب لم تكتب إلا بعد رحيل من نسبت إليهم.

– إن الإنجيل المنزل على عبد الله ورسوله عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وإن اختفى اليوم وضاع، فإن ثمة إشارات إليه باقية في بعض فقرات العهد الجديد.

---

[502] عزية علي طه، منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل، ص 553.

– إن أيَّ قولٍ أو فعل ورد في الأناجيل أن المسيح عليه السلام قاله أو عمله لا يُجزم بنسبته إليه، وذلك لأن شيئاً من ذلك لم يصل إلينا بإسناد صحيح متصل.

– إن لكلٍ من العهد القديم والعهد الجديد مصادر وأصولاً قد تفرَّع عنها، الروايات الشفهية، وتقاليد وعادات الشعوب والأمم المختلفة، وبعض القوانين البشرية الوضعية، وأقوال بعض الحكماء ونحو ذلك.

– إن تناقضات أسفار النصارى المقدسة ليست فقط بين سفرٍ واخر، ولا بين إصحاحٍ واخر، فحسب، بل وفي داخل الإصحاح الواحد أحياناً، كما أن أخطاءها ليست منحصرة في الجانب الشرعي فقط، وإنما يوجد حتى في الجوانب التاريخية والعلمية، والعرفية وغيرها.

– إن أسفار النصارى المقدسة، لا سيّما كتب العهد القديم منها تعتبر مثالاً حياً لأبشع أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته، والنيل من كرامة ومكانة أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام[503].

– إن ما اشتهر لدى بعض المفسرين من تأويل قصة الخصم الذين تسوروا محراب داود عليه السلام، لتعني التعريض بأمر نساء داود عليه السلام: (تسع وتسعون نعجة) مع امرأة واحدة فقط لأوريا الحثي (نعجة واحدة)... إنما هو من الإسرائيليات، ونتيجة التأثير برواية العهد القديم للقصة، ولم يثبت في ذلك شيء عن المعصوم.

– إن الأناجيل الأربعة المعترف بها لدى النصارى إنما اختيرت من بين العشرات من نوعها، لأنها الأقرب إلى ما استقرت عليه النصرانية بعد تأثُّرها بالوثنية، والفلسفات، وابتعادها شيئاً فشيئاً عن الوحي السماويّ.

– إن جميع ما ينسب إلى حواريِّ المسيح عليه السلام أو تلاميذه من الأناجيل والرسائل لا يثبت منها شيء إليهم.

– إن الأرجح بثبوت علاقة التتلمذ أو نحوها لكاتب الإنجيل الثالث وسفر أعمال الرسل ببولس شاول اليهودي.

– إن بولس إنما تظاهر بالتحوّل إلى النصرانية لأغراض شخصية، من أبرزها إشباع رغبته في الرئاسة والزعامة، ومن ثمّ جاهر بمخالفته جميع تلاميذ المسيح وأقرب الناس إليه وأعلمهم

[503] عبد الرزاق بن عبد المجيد، مصادر النصرانية، 2/977. 979.

بدعوته عليه السلام.

– إن بولس من واقع ما أعلنه ودعا إليه من المبادئ إذا قورن ذلك بما عليه النصارى والنصرانية اليوم، فإنه يحق لنا أن نقول إنه (بولس) المؤسس الحقيقي للنصرانية الحديثة أو البولسية.

– إن ازدهار سلطة الكنيسة الغربية في القرون الوسطى في أوربا من أقوى عوامل سطوة هذه الكنيسة، وهيمنة باباواتها على الشعوب، ومن ثمَّ مصادرتها للشرائع والمعتقدات عندهم.

– إن القرون الوسطى وإن كانت تعدُّ الفترة التي شهدت نفوذ البابوية والبابوات وسلطتها، لكنها تعتبر كذلك الفترة نفسها التي شهدت بداية هذه السلطة النفوذ.

– إن دعوى العصمة للبابا دعوى عارية عن مستندٍ صحيح، كما أنه لم يوجد في التاريخ ما يؤيدها.

– لقد أضاف بابوات القرون الوسطى وغيرهم جملة أمور والتزامات وواجبات في دين النصارى على أتباعهم، بعضها باقٍ حتى اليوم، وبعضها ذهب أدراج الرياح نتيجة تغيُّر الظروف وتقلُّص الإمكانات[504].

الحادي عشر: عيسى عليه السلام يبشر برسول الله محمد (ﷺ):

محمد رسول الله (ﷺ) هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وأخبر الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل بهذه الحقيقة، وأخذ عليهم الميثاق والعهد أن يؤمنوا به.

. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ **[آل عمران: 81-82].**

وقد بيّن سبحانه وتعالى وحدة الشرائع السماوية، وأنها يكمّل بعضها بعضاً، وأنها كالقصر المشيد، كل لبنةٍ منه جزء من كيانه، وهو جماع لبناته وأركانه وأشكاله، وأكّد سبحانه تلك

---

[504] عبد الرزاق بن عبد المجيد، مصادر النصرانية، 2/981. 982.

الوحدة ببيان ميثاق الله على الأنبياء، وأن الله سبحانه أخذ عليهم ليصدِّق بعضهم بعضاً... وكل نبيٍّ متمِّم ما بدأ به النبي الذي سبقه، أو بالأحرى يؤكد ما جاء به ويوثِّقه ويقويه حتى ختم الله أنبياءه بمحمد (ﷺ)، فكان خاتم النبيين، ولذلك كان حقاً على كل نبيٍّ أن يصدِّق ويؤمن بما يجيء به النبي الذي بعده، والذي أعلمه الله به، وإذا كان حقاً على النبي المبعوث أن يؤمن بمن سبقه ومن يجيئون بعده ممن أخبره الله تعالى بمجيئهم، فإنه بلا ريب حق على الذين يتَّبعونه أن يصدِّقوا ذلك النبي الذي يجيء بعده، لأنهم يتبعونه في كل ما يؤمن به، فحقَّ على اليهود والنصارى بمقتضى العهد الذي أخذه الله على النبيين، وبمقتضى إيمان هؤلاء النبيين، وتنفيذاً لهذا العهد، أن يؤمنوا بالنبي (ﷺ) وإلا لما كانوا متَّبِعين لموسى وعيسى عليهما السلام[505]، إنما يكونون متبعين لأهوائهم وشهواتهم، ولذا يقول النبي (ﷺ) فيما رواه جابر: (لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتَّبعني)[506].

وقد بشّر الأنبياء السابقون بمحمد (ﷺ) ومن هؤلاء الأنبياء المبشّرين بالنبي القادم، النبي إبراهيم عليه السلام حيث دعا ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **[البقرة: 129]** .

وكانت البشارة بشكل أخصّ على لسان موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ، كما ذكر الله بعض صفات النبي الخاتم (ﷺ) في التوراة وفي الإنجيل، وهذا معناه أن اليهود والنصارى كانوا يعرفون من هذه البشارات أن الله سيبعث النبي الخاتم (ﷺ)، ولكن لما بعث الله محمداً رسولاً(ﷺ) كفروا به وكذبوه[507]. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ **[البقرة: 146]**.

فلو لم تكن أوصافه باقية لما أمكنهم أن يعرفوه كما يعرفون أبنائهم، فهو إذاً مكتوب عندهم قطعاً رغم تحريف اليهود والنصارى النصوص الدالّة عليه (ﷺ)، قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ

---

[505] محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، 1293/3.

[506] رواه أحمد، رقم 14104.

[507] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، المرجع السابق، 335/4.

سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ **[الإسراء: 107-109].**

وقوله تعالى: أي يا أهل ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنوا﴾، أي علماء أهل ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾، أي أن الله عز وجل قد وعدنا بإرساله رسولاً ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا *﴾، وفعل كما وعد، فهل يا ترى أن هؤلاء عادوا إلى أديرتهم وكنائسهم يرسمون شارة الصليب على صدورهم[508].

1 . صفات محمد (ﷺ) في التوراة والإنجيل:

بشر موسى عليه السلام قومه بمحمد (ﷺ)، وبشر عيسى عليه السلام كذلك بني إسرائيل، ولهذا جاءت صفات رسولنا (ﷺ) مكتوبة في التوراة والإنجيل.

وقد ورد هذا صريحاً في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ **[الأعراف: 157-158].**

وإنه لنبأ عظيم، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي، على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى عليهما السلام، منذ أمدٍ بعيد، جاءهم الخبر اليقين ببعثه وبصفاته وبمنهج رسالته وبخصائص ملّته.

- فهو النبيّ الأميّ.
- وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.
- وهو يُحلُّ لهم الطيبات ويحرِّم عليهم الخبائث.

[508] محمد سليم القاضلي، النصرانية في ميزان العقل والإسلام، دار الكتاب الثقافي، الأردن، إربد، ط1، 1424هـ، 2003م، ص 210.

- وهو يضع عمن يؤمنون من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم، فيرفعها عنهم النبي الأميّ حين يؤمنون به، وأتباع هذا النبي يتقون ربهم، ويخرجون زكاة أموالهم، ويؤمنون بايات الله، وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأميّ، ويعظمونه ويوقِّرونه وينصرونه ويؤيدونه ويتبعون النور الهادي الذي معه أولئك هم المفلحون[509].

وقد أمر عدد من اليهود الذين منّ الله تعالى عليهم بالإسلام من أمثال (عبد الله بن سلام) بهذه الحقيقة التي كانوا يتواصلون بكتمانها، وثابت من الروايات التاريخية أن جموع اليهود في الجزيرة العربية كانوا ينتظرون مبعث نبيٍّ قد أظلَّهم زمانه، وكذلك كان عدد من الموحِّدين من كل من الأحناف وأحبار اليهود وأساقفة النصارى، ولكن اليهود كانوا يتوقعون أن يُبعث الرسول الخاتم من بينهم، فلمَّا كان من ذرية إسماعيل ـ عليه وعلى نبينا من الله السلام ـ فإنهم عارضوا نبوَّته، وقاوموا دعوته ونقضوا جميع عهودهم ومواثيقهم معه، وألَّبوا عليه القبائل الوثنية، وحاولوا سمَّه وقتله، ولكن الله تعالى حفظه من كيدهم ونصره عليهم[510].

وعلى الرغم من ذلك كلّه فقد بقي من الإشارات إلى سيدنا محمد في الكتب

المتداولة اليوم بأيدي كل من اليهود والنصارى على الرغم مما تعرضت له من الحذف والإضافة.

وقد روى البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله (ﷺ) في التوراة؟ قال: (أجل، والله إنه لموصوفٌ في التوراة بصفته في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ **[الأحزاب: 45]**، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضَه الله حتى يقيم به الملَّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، واذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، قال: ثم

[509] في ظلال القران، 1378/3.

[510] زغلول النجار، من ايات الإعجاز الأنبائي والتاريخي في القران الكريم، دار المعرفة، لبنان، 1434هـ، 2013م، 301/2.

سألت كعب الأحبار عن ما قال ابن عمرو فما زاد عليه حرفاً[511].

ويدلُّ هذا الحديث على أن صفات الرسول (ﷺ) الموجودة في القرآن هي نفس صفاته الموجودة في التوراة والإنجيل[512].

2. عيسى عليه السلام يبشر بمحمد (ﷺ):

صرَّح القرآن الكريم بأن عيسى ـ عليه السلام ـ قد بشَّر بالنبي الخاتم (ﷺ).

- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ **[الصف: 6-7]**.

وجاء عيسى ـ عليه السلام ـ ليقول لبني إسرائيل ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، فلم يقل: إنه الله، ولا إنه ابن الله، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله، في هذه الصيغة التي تصوّر حلقات

الرسالة المترابطة، يسلم بعضها إلى بعض، وهي متماسكة في حقيقتها واحدة في اتجاهها، ممتدة من السماء إلى الأرض، حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة، وهي الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه.

وإنَّ منهج الله عزَّ وجل واحد في أصله، متعدد في صوره، وِفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة، حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلي والشعوري، فتجيء الحلقة الأخيرة في الصورة الأخيرة كاملةً شاملةً، تخاطب العقل الراشد في ضوء تلك التجارب، وتطلق هذا العقل يعمل في حدوده داخل نطاق المنهج المحدد والمرسوم للإنسان في جملته، المتفق مع طاقاته واستعداده.

---

[511] صحيح البخاري، رقم (2125).

[512] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 337/4.

وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها فثابت أن الطريقة التي كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن، وقد قُرئ القرآن الكريم على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه وأقرَّ بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا بهذه الحقيقة التي كانوا يتواصون بتكتمها[513]

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبيّ قد أظلَّهم زمانه، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين في أحبار النصارى في الجزيرة العربية، ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم، فلما شاء الله أن يكون من الفرع الاخر من ذرية إبراهيم، كرهوا هذا فحاربوه، وعلى آية حال فالنصُّ القرآنيُّ بذاته هو الفيصل في مثل هذه الأخبار، وهو القول الأخير[514].

إنَّ عيسى ابن مريم عليهما السلام أعلن لبني إسرائيل أن الله بعثه لهم رسولاً، وجعله مصدقاً لما سبقه من التوراة، وأمره أن يبشر برسول الله محمد (ﷺ) الذي سيبعثه من بعده، وأن يأخذ على النصارى العهد أن يؤمنوا به ويتبعوه. ومع ذلك، فإن النصارى الذين أدركوا محمداً (ﷺ) نقضوا عهودهم مع عيسى وكذبوا محمداً (ﷺ)، ولما شاهدوا ما معه من البينات قالوا أنها سحر فما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين، إلا القليل منهم كالنجاشي ملك الحبشة، فقد آمن بالنبي (ﷺ)، كما مرَّ معنا، وقد شهد هرقل ملك الروم برسالته حين جاءه كتاب النبي، فأرسل إلى رومية يسأل عن خبر النبي الخاتم، فلما جاءه الرد قال لقومه: يا معشر الروم: إني قد جمعتكم لخير، إنه قد أتاني كتاب من هذا الرجل يدعوني إلى دينه، وإنه والله للنبيّ الذي كنا ننتظره، ونحن نجده في كتابنا، فهلمُّوا نتبعه ونصدقه، فتسلم لنا دنيانا واخرتنا.

وفي رواية الإمام البخاري أنه قال: (يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم، فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي انفا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه) [515]، ولم يدخل هرقل في الإسلام

[513] في ظلال القرآن، المرجع السابق،1378/3.

[514] في ظلال القران، 3557/6.

[515] صحيح البخاري، رقم 7.

ونكل عن مقتضيات شهادته[516].

وبما أن عيسى عليه السلام بشر به، فقد أخبر محمد (ﷺ) أنه (بشرى عيسى عليه السلام)، فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام) [517].

أ. التوفيق بين اسميه (أحمد) و(محمد) عليه الصلاة والسلام:

ما يلفت النظر في التعبير القرآني عن بشارة عيسى بمحمد (ﷺ) أنه جاء فيه اسم (أحمد) مع أن اسمه هو (محمد) (ﷺ) ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، فلا فرق بين الاسمين (أحمد) و(محمد) لاشتقاقهما من مادة (الحمد)، والاسمان معروفان للنبي الخاتم (ﷺ)، (أحمد) أفعل تفضيل، (من حمد)، تقول: حمد، يحمد، فهو حامد، وهو أحمد أكثر حمداً من غيره، و(محمد) على وزن (مفعَّل) اسم مفعول من الرباعي حمد. وتقول: حمد يحمد، والمفعول منه: محمد، ويقال: فلان محمود: إذ حمد. ومحمد: إذا كثرت خصاله المحمودة.

وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ **[الصف: 6]** ، فأحمد إشارة إلى النبيّ (ﷺ) باسمه وفعله، تنبيهاً أنه كما وجد اسمه أحمد يوجد وهو محمود في أخلاقه وأحواله، وخصّ لفظة أحمد فيما بشّر به عيسى عليه السلام تنبيهاً أنه أحمد منه ومن الذين قبله، أي أكثر حمداً منهم لله، وقوله تعالى: (محمد رسول الله) فمحمد هنا: وإن كان من وجه اسم له علماً. ففيه إشارة إلى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه[518].

إن اسما (أحمد) و(محمد) مشتقان من (الحمد)، فهما من مادة اشتقاقية واحدة، فلا تناقض بين الاسمين الكريمين.

---

[516] منقذ محمود السقار، هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ((ﷺ))، دار الإسلام، مصر، ط1، 2007م، ص7.

[517] أخرجه أحمد بن حنبل، رقم (17203).

الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القران، ص 256.

ولعل من حكمة التعبير بأفعل التفضيل (أحمد) في بشارة عيسى عليه السلام، اعتراف عيسى ابن مريم عليه السلام بفضل محمد بن عبد الله عليه وعلى كل من سبقه، وكان عيسى عليه السلام يقول: النبي الخاتم الذي يأتي من بعدي هو أكثر حمداً مني لله، وأكثر حمداً من كل من سبقني لله، فهو (أحمدنا) لله وأكثرنا له ذكراً وشكراً وثناءً ومدحاً، وفي هذا تواضع من عيسى عليه السلام أمام محمد (ﷺ)[519].

وقد أخبرنا رسول الله (ﷺ) أن له أسماء عديدة، فقد روى البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال: (لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي)[520].

إن هذه الأسماء الخمسة للنبي (ﷺ) تدل بصراحة على أن (أحمد) المذكور في الآية اسم من أسمائه، فلا تعارض بين أحمد ومحمد، وبشارة عيسى بمحمد (ﷺ) بأنه خاتم النبيين الذي ختم الله به هذا الموكب النبوي الكريم فقد قال رسول الله (ﷺ): (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟!).

ب . سطوع البشارة في كتب أهل الكتاب:

أكد سطوع البشارة بمحمد (ﷺ) أهل الكتاب إسلام العشرات المعتبرين من أهل الكتاب كالحسن بن أيوب والترجمان وزيادة النصب الراسي، والقس عبد الأحد داود، وإبراهيم خليل، وموريس بوكاي، وغيرهم كثير[521].

وتظهر لنا كتب الدلائل والكتب التي جادلت أهل الكتاب أن اسم محمد كان مذكوراً

[519] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 339/4.

[520] البخاري، رقم (3532)؛ مسلم، رقم (2354).

[521] منقذ محمود السقار، هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ((ﷺ))؟، ص 7.

بصراحة في كتب أهل الكتاب إلى عصرٍ متأخر، ومنهم:

- ابن قتيبة المتوفى سنة 276هـ.
- الماوردي المتوفى سنة 450 هـ.
- الفخر الرازي المتوفى سنة 606هـ.
- القرافي المتوفى سنة 684هـ.
- ابن تيمية المتوفى سنة 728هـ.
- ابن قيم الجوزية المتوفى سنة 751هـ.

ونقل غيرهم نصوصاً كثيرة من كتب أهل الكتاب في عصرهم، فيها صريح اسم (محمد) وجادلوهم بها، ولكن بمرور الزمن بدأوا يخفون ذلك، ويمحونه من كتبهم، حتى لم يبقوا له اسماً، وذلك من عادتهم كما رأينا.

قال ابن تيمية: (وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد (ﷺ) باسمه ورأيت نسخة أخرى بالزبور فلم أر ذلك فيها، وحينئذ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي (ﷺ) ما ليس في أخرى)[522].

ونقل ابن تيمية نصّاً من سفر دانيال من نعت النبي (ﷺ) وقال دانيال النبي عليه السلام أيضاً:)فلا يزال ملعونين (بني إسرائيل)، عليهم الذلة والمسكنة، حتى أبعث نبيَّ بني إسماعيل، الذي بشّرتُ به هاجر، وأرسلتُ إليها ملاكي فبشرها، فأوحي إلى ذلك النبي، وأعلمه الأسماء، وأزينه بالتقوى، وأجعل البر شعاره، والتقوى ضميره، والصدق قوله، والوفاء طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سنته، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب، وناسخ لبعض ما فيها، أسري به إليَّ، وأرقيه من سماءٍ إلى سماء حتى يعلو، فأدنيه وأسلم عليه، وأوحي إليه، ثم أرده إلى عبادي بالسرور والغبطة، حافظاً لما استودع، صادعاً بما أمر، يدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي ويخبرهم بما رأى من آياتي فيكذبونه ويؤذونه، ثم سرد دانيال قصة رسول الله (ﷺ) بما أملاه

[522] ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: سفر الحوالي، مجلة البيان، ط1، 1432هـ، 27/2.

عليه الملك، حتى وصل اخر أيام أمته بالنفخة وانقضاء الدنيا)[523].

ومن النصوص التي ورد فيها اسم الرسول (ﷺ) صراحة في سفر أشعيا: (أنا سمعنا في أطراف الجبال صوت محمد فصرح باسمه عليه السلام ومكانه تصريحاً لا يحتمل التأويل) [524].

وقال دانيال عليه السلام: (وستنزع في قسيك إغراقاً، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء)، ونقل هذا النص الفخر الرازي والإمام القرافي وابن تيمية وابن قيم الجوزية، وغير ذلك من النصوص الكثيرة التي أوردها المستدلون، والذي يبدو أن اسم الرسول (ﷺ) كان في بعض النسخ إلى عصرٍ متأخر جداً.

وقال الفاضل حيدر علي القرشي في كتابه المسمى (خلاصة سيف المسلمين) الذي هو في لسان الأوردو ـ أي الهندي ـ في الصفحة الثالثة والستين منه: إن القسيس أوسكان الأرمني ترجم كتاب إشعيا باللسان الأرمني في سنة ألف وستمائة وست وستين وطبع في سنة 1733م، وفي الباب الثاني والأربعين هذه الفقرة، ونصُّها (سبِّحوا الله تسبيحاً جديداً، وأثر سلطنته على ظهره، واسمه أحمد) انتهت. وهذه الترجمة موجودة عند الأرمن، فانظروا فيها، انتهى كلامه.

ونقل الدكتور فاضل صالح السامرائي في كتابه:)نبوة محمد من الشك إلى اليقين (طائفة من بشارات أهل الكتاب المتعلقة بنبوة محمد (ﷺ)، وقد وصلت إلى ثلاثة وعشرون بشارة، ومن أراد التوسع فليرجع إليه[525].

ج ـ بشارات من إنجيل برنابا:

يُعدُّ برنابا قديساً، تجلُّه الكنيسة وتعظِّمه، وهو مذكور في (أعمال الرسل) بالتجلَّة والإكبار، ولهذا القديس إنجيل ينسب إليه، ورد اسمه في طائفة الأناجيل الممنوعة قبل الإسلام.

وجاء في كتاب (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن) إنجيل برنابا، ويقال: إن البابا جلاسيوس

---

[523] فاضل السامرائي، نبوة محمد بين الشك واليقين، مكتبة القدس، بغداد ـ دار البشائر، عمان، 1971م، ص 301.

[524] القرافي، الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، شركة سعيد رأفت للطباعة، ط2، 1407هـ ـ 1987م، ص 255.

[525] فاضل السامرائي، نبوة محمد بين الشك واليقين، ص 305 ـ 372.

قد حرم قراءة هذا الإنجيل سنة 492م، وأعلن الدكتور تشارلس فرنسيس بوتر في كتابه: السنون المفقودة من عيسى تكشف أن إنجيلاً يدعى إنجيل برنابا استبعدته الكنيسة في عهدها الأول، والمخطوطات التي اكتشفت حديثاً في منطقة البحر الميت جاءت مؤيدة لهذا الإنجيل.

وتوالت بعد ذلك الاكتشافات التي لم يسمع عنها الجمهور لدينا كثيراً، وهذا هو سر التعجب، فالمصادر التي تذكر هذه الأمور وكلها أجنبية غربية، قد ذكرت أن مخطوطاً اخر في الفيوم، واخر في مصر العليا[526].

وجاء فيه: إن الأمر البابوي الذي أصدره البابا جلاسيوس الذي جلس على الأريكة البابوية 492م، يبين أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها، وفي عدادها كتاب يسمى (إنجيل برنابا). وفي هذا دليل قاطع على أن الإنجيل كان موجوداً قبل ظهور الإسلام، ومشهوراً بين خاصة العلماء[527].

وقد وجِدت نسخة من إنجيل برنابا في جوّ مسيحي خالص، فإن النسخة الوحيدة المعروفة الان في العالم التي نقل عنها هذا الإنجيل إنما هي نسخة إيطالية في مكتبة بلاط فينا... وأول من عثر على النسخة الإيطالية ممن لم يخف التاريخ أثرهم، هو كريمر أحد مستشاري ملك روسيا... ثم انتقلت إلى كريمر

طولند، ثم أهداها الأخير إلى البرنس أوجين سافوي، وقد وجد النسخة الإيطالية راهب لاتيني يسمى (فرامرينو)، وذلك أن هذا الراهب عثر على رسائل لايرينايوس، وفي عدادها رسالة يندد فيها بالقديس بولس الرسول، وإن أرينايوس أسند تنديده هذا إلى إنجيل القديس برنابا، فأصبح من ذلك الحين الراهب (مرينو) المشار إليه شديد الشغف بالعثور على هذا الإنجيل.

واتفق أنه أصبح حيناً من الدهر مقرباً من البابا سكتس الخامس، فحدث يوماً أنهما دخلا معاً مكتبة البابا، فدخل النوم على أحضان قداسته، فأحب (مرينو) أن يقتل الوقت بالمطالعة إلى أن يفيق البابا، فكان الكتاب الأول الذي وضع يده عليه هو هذا الإنجيل نفسه، فكاد أن

---

[526] إبراهيم خليل أحمد، محمد في التوراة والإنجيل والقران، دار المنار، 1409هـ. 1989م، ص 93.

[527] المرجع السابق، ص 145.

يطير فرحاً من هذا الاكتشاف، فخبأ هذه الذخيرة الثمينة في أحد ردنيه، ولبث إلى أن استفاق البابا، فاستأذنه بالانصراف حاملاً ذلك الكنز معه، فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم، فاعتنق على إثر ذلك الدين الإسلامي.

ثم إنه لم يرد ذكر لهذا الإنجيل في كتابات مشاهير الكتاب المسلمين، سواء في الأعصر القديمة أو الحديثة، حتى ولا في مؤلفات من انقطع منهم إلى الأبحاث والمجادلات الدينية مع أن إنجيل برنابا أمضى سلاحاً لهم في مثل تلك المناقشات، وليس ذلك فقط، بل لم يرد ذكرٌ لهذا الإنجيل في فهارس الكتب العربية القديمة عند الأعارب أو الأعاجم أو المستشرقين الذين وضعوا فهارس لأندر الكتب العربية من قديمة وحديثة[528].

وتُحَرِّم الكنيسة قراءة هذا الإنجيل ولا تعترف به لأنه يقوم على أسس تخالف عقائد الكنيسة تماماً، فهو ينكر ألوهية المسيح وأنه ابن الله، ويقول هو عبد الله ورسوله، وينكر الصليب، ويورد اسم محمد (ﷺ) صراحة في كثير من المواطن، ومن ذلك على سبيل المثال:

. ما جاء في (14:39) فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس نصّها: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

. وجاء في الإصحاح الحادي والأربعين: (29): فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس (30) فلما التفت آدم راى مكتوباً فوق الباب: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

. وفي الإصحاح الرابع والخمسين يتكلم عن يوم الحشر إلى أن يقول... ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون: اذكرنا يا محمد.

. وفي (14:97) أجاب يسوع أن اسم منسيًّاً عجيب... إلى أن يقول: قال الله: اصبر يا محمد... (97:17)، إن اسمه المبارك محمد.

. وفي (17:12) ولكني متى جاء محمد رسول الله المقدس تزال عني هذه الوصمة.

[528] مقدمة الدكتور خليل سعادة لإنجيل برنابا.

. وفي (7:113) أجاب التلاميذ: يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه، الذي سيأتي إلى العالم؟

. وفي (113: 8) أجاب يسوع بابتهاج قلب: إنه محمد رسول الله. إلى غير ذلك من البشارات المبثوثة في هذا الإنجيل[529].

د . عبد الأحد داود وكتابه (محمد في الكتاب المقدس):

ألّف البروفيسور عبد الأحد داود كتابه (محمد في الكتاب المقدس)، وكان داود قسيساً كبيراً للكلدانيين التابعين للروم الكاثوليك، وكان اسمه (دافيد بنجامين كلداني)، وقد درس الكتاب المقدس بقسميه العهد القديم والعهد الجديد، دراسة متأنية، واستخرج منها بشارات أنبياء بني إسرائيل بالنبي الخاتم محمد (ﷺ)، وبشارة عيسى عليه السلام الصريحة به، ووقف على

تحريف النصارى لهذه البشارات، ودفعه ذلك البحث إلى الاقتناع بأن محمداً (ﷺ) هو رسول الله وخاتم النبيين، فتخلّى عن النصرانية، ودخل في الإسلام، وألف نتيجة بحثه في كتاب بالإنجليزية، وقد ترجم كتابه إلى العربية فهمي شما، وطبعته رئاسة المحاكم الشرعية في قطر عام 1985م . 1405هـ.

قال البروفيسور عبد الأحد داود: وردت بشارة عيسى بأحمد . عليهما السلام . في إنجيل يوحنا في الإصحاحات الرابع عشر، والخامس عشر، والسادس عشر.

وسجل تحريفات رهبان النصارى لتلك البشارات، ويهمُّنا هنا أن نقف مع جملةٍ واحدة وردت في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا، تتوافق تلك الجملة الأصلية غير المحرّفة مع الآية القرآنية تماماً: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ﴾ **[الصف: 6]**.

والعبارة الأصلية الصحيحة في إنجيل يوحنا، كما وقف عليها البروفيسور عبد الأحد داود هي وسوف أذهب إلى الأب، وسيرسل لك رسولاً سيكون اسمه (البرقليطوس)؛ لكي يبقى

---

[529] فاضل السامرائي، نبوة محمد بين الشك واليقين، ص305، ص376.

معكم إلى الأبد، و(البرقليطوس) هو أحمد، ولكن النصارى حرفوا هذه العبارة إلى العبارة التالية (وسوف أسأل الأب، وسوف يعطيكم (برقليطوس اخر)، يبقى معكم إلى الأبد.

وفرق بعيد ـ يقول عبد الأحد داود ـ بين العبارة الأصلية (البرقليطوس) بالتعريف والتحديد، وبين (برقليطوس اخر) في العبارة المحرفة، الذي يدل على أن عيسى عليه السلام عنده مجموعة من (البرقليطيسيين)، وكلمة (برقليطوس اخر) دلَّت على أن المراد بها عند النصارى (المعزِّي) أو (الوسيط) أو (المعين) وليس الرسول الخاتم[530].

إنَّ (البرقليطوس) كلمة يونانية إغريقية معناها بالعربية ـ بالضبط ـ (الأمجد والأشهر) المشتق من التمجيد والثناء وهو (أحمد) المذكور في القرآن، والصيغة الارامية ـ التي كان يتلكم بها عيسى عليه السلام ـ الواردة في بشارة عيسى عليه السلام هي (محامداً أو حميداً)، وهي متناسقة مع الصيغة العربية (محمد) أو (أحمد) تماماً[531].

وقد خرج البروفيسور عبد الأحد داود ـ رحمه الله ـ في بحثه بنتيجة قاطعة قال فيها: إنَّ التنزيل القرآني القائل بأن عيسى ابن مريم عليهما السلام أعلن لبني إسرائيل أنه كان واحد من أقوى البراهين على أن محمداً (ﷺ) كان حقيقة ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، وإنَّ القرآن تنزيل إلهي فعلاً.

إذ لم يكن في وسعه أبداً أن يعرف أن كلمة (البرقليطوس) كانت تعني (أحمد) إلا من خلال الوحي والتنزيل الإلهي، وحجة القرآن قاطعة ونهائية، بأن الدلالة الحرفية للاسم اليوناني تعادل بالدقة ودون شك كلمة (أحمد ومحمد)، ومن المدهش أن هذا الاسم الفريد، الذي لم يُعط لأحد من قبل، كان «محجوزاً» بصورة معجزة لأشهر رسل الله، وأجدرهم بالثناء، ونحن لا نجد أبداً أيَّ يونانيّ كان يحمل اسم «برقليطوس» ولا أيَّ عربي كان يحمل اسم (أحمد) [532].

وإذا كان عبد الأحد داود قد وقف على تحريف الأناجيل لمعنى كلمة (البرقليطوس) إلى

---

[530] عبد الأحد داود، محمد في الكتاب المقدس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط4، 2000م، ص 219 ـ 220.

[531] المرجع السابق، ص 222 ـ 223.

[532] المرجع نفسه، ص 223.

كلمة (برقليطوس اخر) وفرق بعيد بين الكلمتين، فإن ترجمات إنجيل يوحنا إلى العربية جعلت الكلمة بمعنى (المعزّي) وبمعنى (المعين). **وأمامي ترجمتان للكتاب المقدس ولإنجيل يوحنا:**

الأولى: ترجمة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، والمطبوعة في القدس عام 1984م. وقد ترجمت كلمة (برقليطوس) إلى (معزي). والعبارة السابقة التي أوردها عبد الأحد داود من الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا، نصُّها في هذه الترجمة هكذا (إن كنتم تحبوني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب، فيعطيكم معزياً اخر، ليمكث معكم إلى الأبد).

الثانية: الكتاب المقدس: كتاب الحياة: ترجمة تفسيرية: وقد طبع في مصر عام 1988م. والعبارة السابقة في هذه الترجمة التفسيرية هكذا (إن كنتم تحبوني فاعملوا بوصاياي، وسوف أطلب من الأب معيناً اخر، يبقى معكم إلى الأبد). وهذا مثال واضح على التحريف المتعمد[533].

فبشارة عيسى عليه السلام بالنبي الخاتم كانت باللغة الارامية (محامدا) أو (حمدا)، وهي نفس كلمة (محمد) أو (أحمد) بالعربية، ولما كتب يوحنا إنجيله كتبه باللغة اليونانية، فترجم كلمة (محامدا) الارامية إلى كلمة (البرقليطوس)، ومعناها: الأشهر والأمجد، والأكثر حمداً وثناءً، وهذا لا غبار عليه.

لكن الرهبان الذين كتبوا إنجيل يوحنا بعد ذلك حرفوا كلمة (البرقليطوس) التي تعني التحميد، إلى (برقليطوس اخر) التي تعني التعدد والتعويم، ولما ترجموا هذه الكلمة إلى العربية حولوها من معناها الصحيح: الأمجد والأشهر والأحمد، إلى (المعزي)، و(المعاون).

إن العودة إلى الأصل الارامي لإنجيل يوحنا، بل والترجمة اليونانية الأصلية لبشارة عيسى ـ عليه السلام ـ فيه، تعطينا توافقاً وتناسقاً وانسجاماً بين الكلمات الثلاثة: (محامدا) الآرامية، و(البرقليطوس) اليونانية، و(أحمد) العربية القرآنية[534].

---

[533] صلاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 344/4.

[534] المرجع السابق، 345/4.

هـ اعتراف علماء لاهوت بأن (البرقليطوس) هو أحمد:

إنَّ المنصفين من علماء اللاهوت النصارى يعترفون بأن الكلمة اليونانية الأصلية من إنجيل يوحنا، هي بمعنى الكلمة العربية القرآنية (أحمد).

وقد روى الشيخ عبد الوهاب النجار مؤلف كتاب قصص الأنبياء حادثة طريفة جرت بينه وبين المستشرق الطلياني الدكتور (كارلو نلينو) تؤكد هذه الحقيقة، حيث كان الشيخ النجار طالباً في كلية دار العلوم عام 1893م ـ 1894م، وكان يدرس معهم المستشرق كارلو نلينو، وهو حاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة التي كتبت بها الأناجيل، وجاء إلى القاهرة، ليتعلم اللغة العربية، وقد انعقدت صداقة بين عبد الوهاب النجار وكارلو نلينو.

وذات يوم سأل النجارُ المستشرق قائلاً: ما معنى (بيريكلتوس)؟ وهي (برقليطوس) التي مرَّت معنا من قبل، فأجابني بقوله: إن القسيسين يقولون: إن هذه الكلمة معناها (المعزّي)، فقلت: إني أسأل الدكتور (كارلو نلينو) الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة، ولست أسأل قسيساً، فقال: إن معناها (الذي له حمد كثير)، فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل (أحمد)؟ قال: نعم. قلت: إن رسولنا من أسمائه أحمد. قال: يا أخي أنت تحفظ كثيراً[535].

وهكذا توافقت الأناجيل الأصلية على النصّ، وذلك على بشارة عيسى ـ عليه السلام ـ بمحمد (ﷺ)، واعترف المنصفون من النصارى بهذه الحقيقة رغم تحريف مترجمي ومؤلفي الأناجيل المتأخرين لها[536].

3 ـ بعض صفات المؤمنين بمحمد (ﷺ) في التوراة والإنجيل:

ـ قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا

---

[535] المرجع السابق، 346/4.

[536] المرجع السابق، 346/4.

سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ **[الفتح: 29]**.

تبدأ الآية الكريمة بإثبات صفة محمد (ﷺ) الوضيئة بذلك الأسلوب البديع، وفيها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه الجميل، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة.

- لقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾
- ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾
- ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيش بها ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾
- ولقطة تصور أثر العبادة والتوجّه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾، وهذه صفتهم فيها.
- ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل... ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾، ﴿فَآزَرَهُ﴾، ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾، ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ [537].

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة، إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر، ومن ثمّ فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾، وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشّر الأرض بهم قبل أن يجيئوا إليها، وصفتهم في بشارته بمحمد ومن ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾، أنهم: فهو زرع نام ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾، يخرج فرخه من قوته وخصوبته، ولكن العود ازر فرخه فشده ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾، وضخمت ساقه

وامتلأت ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ معوجاً ولا محنيّاً، ولكن مستقيماً قوياً سوياً. وهذه صورته في ذاته، فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع العارفين بالنامي منه والذابل، المثمر منه والبائر، فهو وقع البهجة والإعجاب ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ .

---

[537] في ظلال القران، 3331/6.

أما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس، فهو وقع الغيظ والكمد وتعمد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزراعة هي زرعة ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، أو زرعة رسوله، وأنهم ستار القدرة وأداة لإغاظة أعداء الله، وهذا المثل كذلك ليس مستحدثاً، فهو ثابت في صفحة القدر، ومن ثمّ ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ومن معه إلى هذه الأرض، ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه، حين يجيئون[538].

وتحدث الله عز وجل عن المجاهدين في كتبه الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن، وبيّن بأنّهم باعوا أنفسهم وأموالهم لله، فاشتراها الله منهم، وجعل ثمن ذلك الجنة، وطريقة التسليم هي الجهاد والقتال في سبيل الله، وعندما يجاهد هؤلاء المؤمنون فسيقتلون بعض الأعداء، ومقابل ذلك سيقتل أناس منهم شهداء، ووعد الله الفريقين من المؤمنين المجاهدين الشهداء والمنتصرين السعداء الجنة وهذا وعدٌ قاطع منه ورد في التوراة والإنجيل والقرآن، وإنه منجِزٌ لهم ما وعد؛ لأنه سبحانه لا يخلف الميعاد، وذِكْرُ هذه الحقيقة الجهادية في الإنجيل دليلٌ على أن الإنجيل الرباني الأصيل فيه أبعاد وتوجيهات جهادية[539].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ **[التوبة: 111]**

إن وعد الله سبحانه وتعالى: بالجنة لمن يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون، ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن، كما أن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن منذ كانت الرسل، ومنذ كان دين الله[540].

---

[538] في ظلال القران، 3333/6.

صلاح الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 293/4.

[540] في ظلال القران، 1719/3.

4 . الرهبانية المبتدعة الباطلة:

قال تعالى:﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ **[الحديد: 27]** .

لقد بعث الله تعالى عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ رسولاً وأنزل عليه الإنجيل، وآمن به صالحون من بني إسرائيل وغيرهم.

– ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾

ذكر هنا صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى ابن مريم وهي الثمرة الطبيعية لدعوة المسيح ـ عليه السلام ـ وروحها السمحة وتطهرها الروحي، وشفافيتها الوضيئة، والرأفة والرحمة ظاهرة واضحة في المؤمنين حقيقة برسالة عيسى عليه السلام، ممن أحسنوا اتباعه. وقد أشارت إليها آيات أخرى في القرآن الكريم، كما حفظ منها التاريخ صوراً يرويها الرواة عن النجاشي وعن وفد نجران وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام بعد ظهوره راغبين في الإسلام، بحكم ما استقر في قلوبهم من الحق، مذ كانوا أتباع عيسى ابن مريم بحق، كذلك يذكر النص هنا ظاهرة أخرى عرفت في تاريخ أتباع المسيح عيسى ابن مريم.

– ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾

والراجح في تفسير الآية أن هذه الرهبانية التي عرفها تاريخ المسيحية كانت اختياراً من بعض أتباع عيسى عليه السلام، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله، وابتعاداً عن أوضار الحياة، ولم يكتبها الله عليهم ابتداء.

ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها، ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع، وقناعة وعفة، وذكر وعبادة... مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرد لله، التي قصدوا إليها بهذه الرهبانية التي ابتدعوها.

ولكنها انتهت إلى أن تصبح في الغالب طقوساً وشعائر خالية من الروح، وأن يتخذها الكثيرون مظهراً عارياً من الحقيقة. فلا يصبر على تكاليفها إلا عدد منهم قليل.

– ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ *﴾

والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال، ولا بالطقوس والمسوح. إنما يأخذهم بالعمل والنية، ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك. وهو الذي يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور[541].

لقد اعتزلوا الناس وصاروا في الصوامع، فلم يزالوا كذلك حتى غيَّرت طائفة منهم، فتركوا دين الله وأمره وعهده الذي عهِد به إليهم، وأخذوا البدع[542].

* * *

[541] في ظلال القران، 3496/6.

[542] صلاح الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 391/4؛ تفسير الطبري، تقريب وتهذيب، 239/7.

المبحث الثالث

معجزات عيسى عليه السلام والحواريون ورفعه إلى السماء

أولاً: المدخل لتعريف المعجزة وشروطها:

1 . تعريف المعجزة:

هي أمرٌ خارق للعادة، مقرونٌ بالتحدي، سالم عن المعارضة، يظهره الله على يد رسله[543]. فالمعجزة أمر خارق للسنة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الكون، ولا تخضع للأسباب والمسببات، ولا يمكن لأحد أن يصل إليها عن طريق الجهد الشخصي، والكسب الذاتي، وإنما هي هبة من الله سبحانه وتعالى، يختار نوعها وزمانها ليبرهن بها على صدق رسوله الذي أكرمه بالرسالة.

وإنّ السحر والأعمال الدقيقة التي يمارسها بعض أهل الرياضات البدنية أو الروحية لا تدخل تحت مسمى الخارق؛ لأن الكل من تلك الأمور أساليب ووسائل يمكن لأيّ إنسانٍ أن يتعلَّمها ويتقنها ويمارسها، فإذا اتبع الأسباب والأساليب المؤدية إلى نتائجها أمكنه بواسطة الجهد الشخصي والمران والممارسة أن يتوصل إلى تلك النتائج. أما الأمور الخارقة فلا تدخل تحت طاقة البشر، وليست لها أسباب تؤدي إليها[544].

2 . شروط المعجزة:

من خلال التعريف السابق للمعجزة نستطيع أن نلتمس شروطها:

- أن تكون من الأمور الخارقة للعادة.
- أن يكون الخارق من صنع الله وإنجازه.
- سلامتها من المعارضة.

---

[543] مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القران، دار القلم، دمشق، ط1، 1410هـ، 1989م، ص14.

[544] المرجع نفسه، ص14.

– أن تقع على مقتضى قول من يدّعيها.
– التحدّي بها: وهذا شرط أساس في المعجزة لإثبات عجز الجاحدين وإقامة الحجة عليهم.
– أن يستشهد بها مدّعي الرسالة على الله عزّ وجلّ.
– تأخّر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة[545].

3 . المعجزة قرينة الرسالة:

لولا المعجزة لأشكل الأمر على الناس والتبس أمر الصادق بغيره، ولما سلمت الدعوات من مدّعين كاذبين، وتأييد الرسول بآية صدق سنّة إلهية في رسالات الأنبياء جميعاً، والقرآن الكريم يوضح هذه السنة ويقررها كما ورد في قصص الأنبياء والأمم السابقة. ولم يؤاخذ الأقوام عند ما طالبوا رسلهم بالآيات الدالة على صدقهم، إنما اخذهم عند ما عطلوا ملكاتهم العقلية ولم يتدبروا أثر الحكمة والتدبير فيما حولهم، أو أصرّوا على نوع معيّن من الآيات من قبل العناد والجمود على العادات الجاهلية الموروثة من الاباء الذين لم يكونوا على هدى من ربهم[546].

4 . سنة الله سبحانه وتعالى في معجزات الأنبياء:

نلاحظ عند استعراض معجزات الأنبياء السابقين، ومعجزات خاتمهم ـ عليهم الصلاة والسلام أجمعين ـ أن المعجزة تختار من بيئة القوم الذين يرسَل الرسول إليهم، ومن نوع المشهور من عصرهم مما يتلاءم مع مستواهم الفكري، ورقيّهم الحضاري، لتكون الحجة أقوى.

أ ـ الأنبياء الذين عاشوا في البلاد العربية كانت معجزاتهم مناسبة لبيئة العرب الصحراوية، فمعجزة صالح عليه السلام كانت ناقة غريبة المنشأ والمولد بين نوق أهل البادية.

ب ـ كان السحر منتشراً بين المصريين عامتهم وخاصتهم، استرهبهم فرعون وجنوده، فجاءت معجزات موسى عليه السلام من جنس المشهور بين قومه، فمن معجزاته الرئيسية

[545] مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القران، ص17 ـ 18.

[546] المرجع نفسه، ص24.

العصا واليد، فظاهر هاتين المعجزتين لا يختلف عما كان متداولاً بين سحرة فرعون[547]، ولكن أهل الدراية بالسحر كانوا يميزون بين السحر، وبين ما هو خارج قوى السحر، بل من صنع الله، لذا كانوا أول المؤمنين به[548].

ج . بعد عصر موسى عليه السلام انتشرت الفلسفة اليونانية وهي أساس الفلسفة الأوربية فيما بعد، وكانت تقوم على الأخذ بالأسباب والمسببات، وتولد المعلول من العّلة في انتظام قائم لا يتخلف، فجاءت معجزات أنبياء بني إسرائيل في هذا العصر خارقة للأسباب والمسببات لتثبتَ أنَّ الكونَ كلّه بإرادةِ مريدٍ مختارٍ لا يفعل إلاّ ما يريدُ، ولا يصدر عنه بغير إرادته الثابتة شيءٌ[549].

فمعجزات سليمان عليه السلام مثلاً جاءت مناهضة لتلك النظرية التي تقول: إن المخلوقات نشأت عن الموجود الأول نشوء العلّة من المعلول، فكان حياة سليمان في ملكه تجري على هدم هذه النظرية، فمن معجزاته تسخير الجن والطير له، وتعليمه منطق الطير والحيوان، وتسخير الرياح له[550].

د. في عصر ازدهار الطب والفلسفة اليونانية المبنية على الأسباب أيضاً، كانت معجزات عيسى عليه السلام من جنس ما اشتهر به هذا العصر، فكانت ولادته إبطالاً صارخاً لهذه النظرية، فإن المعتاد في حياة الكائنات الحية أن المولود يولد من أبوين، فجاء عيسى عليه السلام من غير أب، فكان ذلك خارقاً للأسباب الطبيعية الجارية، وتحدُّثه في المهد حديث الحكماء وتصويره من الطين كهيئة الطير ثم نفْخه فيها فيكون طيراً بإذن الله يأتي بيانها بالتفصيل بإذن الله.

هـ قبل بعثة خاتم النبين محمد (ﷺ) بلغت الفصاحة والبلاغة وفنون القول شأواً بعيداً، وأخذت الكلمة مكاناً من نفوس العرب من التقديس والتعظيم لم يبلغه شيءٌ اخر، مما حدا

[547] محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القران، دار الفكر العربي، مصر، القاهرة، د.ت، ص437.

[548] علي محمد الصّلابيّ، الإيمان بالرسل والرسالات، ص243.

[549] المرجع السابق، ص243.

[550] المرجع نفسه، ص243.

بهم أن يُعلّقوا المعلقات السبع في جوف الكعبة، وإذا علمنا أن الكعبة كانت تعتبر أقدس مكان عند العرب في جاهليتهم أدركنا مكانة الكلمة في نفوسهم فكانت معجزة سيدنا محمد (ﷺ) . القرآن الكريم . من جنس ما يقدسونه ويعظمونه.

والحكمة الإلهية من اختيار المعجزة من جنس ما اشتهر بين القوم حتى أن الإنسان إذ أُتي من قبل ما يعتبره مفخرته ومجال إجادته واعتزازه تكون الحجة عليه أقوى، والمعجز أكثر فعلاً وأثراً[551].

5 . الفرق بين المعجزة والكرامة:

- إن الكرامة دون المعجزة في خرق العادة.
- إن الكرامة معتادة من الصالحين، بخلاف المعجزة فهي خارقة للبشر.
- إن الكرامة تابعة للمعجزة، ودليل من دلائل النبوة، فإن الولي لم تحصل له الكرمة إلا لاتباعه النبي، ولو لم يتبعه لما وقعت له.
- إن الكرامة ينالها الوليُّ بفعله كعبادته ودعائه، بخلاف المعجزة، فإنها غير مكتسبة[552].
- إن الكرامة أمر خارق للعادة، غير مقرونٍ بدعوة النبوة، ولا هو مقدمة لها، يظهرها الله على يد ولي ظاهر الصلاح، ملتزم بمتابعة نبيه، مصحوب بصحيح الاعتقاد، والعمل الصالح، وقد يكرّم الله تعالى من يشاء من عباده الصالحين بأمور غير خارقة للعادة، ولا خارجة عن مألوف الناس، وذلك كالاستقامة، والتوفيق إلى طاعة الله، والزيادة في العلم والعمل وهداية الخلق إلى الحق[553].
- إن الكرامة لا تقترن بدعوى النبوة، ولا يتحدَّى بها، بل الأصل فيها الإخفاء والكتمان، وهذا يخالف المعجزة؛ لأنها تقترن بدعوى النبي النبوة، ويتحدَّى بها، وإظهارها واجب، ليتمّ بها المقصود من تبليغ الرسالة، وتقام بها حجة الله على خلقه[554].

---

[551] علي محمد الصّلابيّ، الإيمان بالرسل والرسالات، ص244.

[552] محمد بن عبد العزيز الشايع، آراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية، مكتبة دار المناهج، ط1، 1427 هـ، ص 473.

[553] علي محمد الصّلابيّ، الإيمان بالرسل والرسالات، ص256.

[554] المرجع نفسه، ص256.

- ليست الكرامة دليلاً على تفضيل هذا المعطى على غيره، فقد يعطي الله الكرامة لضعيف الإيمان لتقوية إيمانه، وعندما يكون محتاجاً لسدّ حاجته، ويكون الذي لم يعط مثل ذلك أكمل إيماناً وأعظم ولاية، وهو لذلك مستغنٍ عن مثل ما أعطى غيره، ولذلك كانت الأمور الخارقة في التابعين أكثر منها في الصحابة[555].

6 . الفرق بين الكرامة وخوارق السحر:

أما الفرق بين الكرامة والسحر، فهو أن الخارق غير المقترن بتحدي النبوة إن ظهر على يد من ليس كذلك فهو السحر أو الاستدراج، وتميُّز الصالح المذكور عن غيره بيِّنٌ لا خفاء فيه، إذ ليست السّيما كالسّيما، ولا الآداب كالآداب، وغير الصالح لو لبَّس ما عسى أن يلبِّس لا بدَّ أن يرشح من نتن فعله أو قوله ما يميِّزه عن الصالح[556].

إن بين كرامات الأولياء وبين ما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة منها: إن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى، والأحوال الشيطانية يكون سببها ما نهى الله عنه ورسوله (ﷺ)، ويستعان به على ما نهى الله عنه[557].

ثانياً: معجزات عيسى ابن مريم عليه السلام:

شاء الله الحكيم أن يجعل عيسى عليه السلام آية، ولذلك جعل معجزاته عديدة في حياته، فقد كان حمل أمه به من غير زوج آية، وإنزال عيسى عليه السلام من بطن أمه متكلماً آية، وإنطاق عيسى أمام أهلها، وتقديم نفسه إليهم آية، وهذه آيات ومعجزات رافقت خَلْقَه وميلاده وطفولته[558].

ولما صار شاباً وبعثه الله نبياً ورسولاً، قدم الله له عدداً من الآيات والمعجزات لبني إسرائيل، أقام عليهم فيها الحجَّة، وكذلك لما صمّم اليهود على صلبه وقتله حماه الله منهم، ورفعه إلى

---

[555] علي محمد الصّلابيّ، الإيمان بالرسل والرسالات، ص256.

[556] علي محمد الصّلابيّ، الإيمان بالرسل والرسالات، ص256.

[557] المرجع نفسه، ص257.

[558] صلاح الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 295/4.

السماء، وجعل هذا آية، وهو الان حيٌّ في السماء بروحه وبدنه، حياة غيبية لا نعرف كيفيتها، وجعل الله هذه آية، وسينزله الله في آخر الزمان إلى الأرض، فسيكون إنزاله آية.

وهكذا صاحبت الآيات والمعجزات عيسى عليه السلام منذ خلقه إلى موته قبل قيام الساعة، ولهذا قال الله عنه وعن أمّه ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ **[الأنبياء: 91]**.

حيث نصَّ على أنّه جعلها آية للعالمين، والعالمون هنا هم الناس أجمعون، جعلها الله آية من آياته الدالَّة على وحدانيَّته وقدرته وحكمته، واللطيف هو التعبير القرآنيّ أنه عبّر عن الاثنين عيسى وأمّه بالمفرد، وذلك في قوله ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ وحكمة الإفراد (آية) أنهما متلازمان لا ينفصلان، فلا يذكر عيسى عليه السلام إلا تُذكر أمّه معه، ولا تذكر مريم رضي الله عنها إلا بذكر ابنها معها، فهما (آية) معاً.

وإن الآيات التي جعلها الله في مريم هي تمهيدٌ لآيات عيسى عليه السلام، فقصة مريم هي قصة عيسى باعتبارها أمُّه، فالمقصود من الآيات هو عيسى، ولذلك عبّر بالمفرد (آية). وعيسى هو الآية، وأمه جزء منه، وايتها هي آيته، ويهمُّنا في هذا الموضوع الحديث عن آيات عيسى عليه السلام التي قدمها لبني إسرائيل، فهو رسول بعثه الله إليهم، وجعل الله معه آيات معجزات دالّة على صدقه ونبوَّته[559].

هذا وقد أيَّد الله عيسى عليه السلام بالروح القدس، وهو جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ **[البقرة: 87]** وامتنَّ الله عليه بتأييده بروح القدس، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ **[المائدة: 110]**.

وأُطلق على جبريل روح القدس؛ لأن أساس معنى الروح هو ما به حياة الإنسان سواء كانت حقيقة أو معنوية، فالروح الحقيقية هي التي يجعلها الله في الإنسان، وهي سرٌّ من أسراره

[559] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 297/4.

سبحانه، لا يعلم حقيقتها أحد من خلقه، وهي أساس حياة الإنسان، فإن خرجت الروح منه مات.

والروح المعنوية هي التي بها حياة القلوب والنفوس والأرواح، وبهذا الاعتبار أطلق على جبريل كما أطلق على القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ **[الشورى: 52]**، وأضاف الروح إلى القدس في قوله ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، أي: هو الطاهر المطهر المبارك[560].

وقد خلق الله تعالى: جبريل عليه السلام من طهارة محضة، فهو ملك خلقه الله من النور، وقيل: سمي بذلك من حيث أنه ينزل من الله بالقدس، أي: بما يطهِّر به نفوس عباده من القرآن والحكمة والفيض الإلهي[561].

و(روح القدس) ـ جبريل عليه السلام ـ ليس خاصّاً بعيسى ابن مريم عليه السلام، فقد ورد في القرآن الكريم في سياق إنزال كتاب الله على عبده ورسوله محمد (ﷺ).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ **[النحل: 101-102]** ، والشاهد في الآية الثانية أي: نزَّل عليك القرآن من ربك بواسطة جبريل وهو روح ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾.

والخلاصة: أن الله تعالى اتى عيسى عليه السلام الآيات والمعجزات البينات، وأيَّده بجبريل تأييداً ﴿وآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهذا معناه أن الله كان ينزل عليه روح القدس جبريل وهو يقوم بالدعوة ويواجه بني إسرائيل، وكان جبريل عليه السلام يؤيده ويقوِّيه ويشجعه، وليس هذا خاصّا بعيسى عليه السلام، فكل أنبياء الله ورسله أيدهم الله وقوّاهم ونصرهم بروح القدس جبريل عليه السلام، وكان لرسولنا (ﷺ) نصيب كبيرٌ من تأييده

[560] محمود صافي، الجدول في إعراب القران وصرفه وبيانه، دار الرشيد، بيروت، ط1، 1411هـ، 1990م، 192/1.

[561] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 298/4.

به، حيث كان ينزل عليه معلماً موجهاً، وفي المعارك مع الكفار كان ينزل يقود الملائكة مدداً مساعداً معيناً، بأمر الله، كما حصل في بدرٍ وأُحد والأحزاب[562].

هذا وقد تحدث العلماء ـ حديثاً وقديماً ـ عن معجزات عيسى عليه السلام، التي أعطاها الله تعالى له شهادة له على نبوته ورسالته، وعبوديته لله عز وجل منها:

1 ـ ميلاده من أمٍّ بلا أب:

يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 59]**.

وقال تعالى أيضاً: ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ **[مريم: 21]**.

2 ـ تأييده بروح القدس:

روح القدس هو جبريل عليه السلام.

3 ـ ونطقه ببيان دقيق وهو لم يزل في المهد:

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ **[مريم: 33]**.

4 ـ تعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل:

بعد فقدان جميع الكتب السماوية السابقة، وفي مقدمتها (التوراة) و(الزبور) التي كان غلاة اليهود قد قاموا بتحريفها بعد ضياع أصولها، كما كانوا قد أجرَوا العديد من الحذف والإضافة لما كان قد بقي عندهم من ذكريات عن هاتين الرسالتين[563].

[562] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 299/4.

[563] زغلول النجار، من ايات الإعجاز الأنبائي والتاريخي في القران الكريم، المرجع السابق، 872/2.

5 . إبراء الأكمه والأبرص:

الأكمه هو الذي ولد أعمى، أي: لم يطرأ عليه العمى بعد ولادته، فالعمى نوعان: عمى أصليّ، وعمى عرضيّ، فالعمى العرضي يمكن علاجه، حيث إن العمى قد طرأ على المبصر لعلّة، فربما إذا زالت عاد البصر كما كان، وأما العمى الأصلي وهو الأكمه فصاحبه من المستحيل علاجه في عالم الأسباب، ومن هنا صار الإعجاز أيضاً، فلو أن القوم استطاعوا علاج رجل أعمى أصابه العمى بعد أبصارٍ فإنهم لو اجتمعوا لا يستطيعون علاج رجل أكمه وولد أعمى بلا عينين ليجعلوه مبصراً.

وكذلك البرص، وهو بياض يظهر في الجلد في بقع متناثرة في الجسد، وهو مرض صعب لم يكن باستطاعتهم علاجه، ولكن عيسى عليه السلام ـ بإذن الله ـ يستطيع شفاء هذا الأبرص من مرضه، ويعود إليه[564].

كانت هذه المعجزة في زمن اشتهر فيه الطب وتقدم، فكان من معجزات عيسى عليه السلام هذه المعجزة (إبراء الأكمه والأبرص) معجزة فيما لم يقدر عليه البشر حتى الان، وكأي معجزة من معجزات الأنبياء، تبقى هذه المعجزة خالدة أبد الدهر، لا يقدر البشر على الإتيان بمثلها، وحتى لو قدِّر للبشر معالجة الأكمه الذي ولد أعمى ولم يصب بداء فقدان بصره بأدوية يخترعونها، فلن يستطيعوا علاجه بمسحة من اليد على عينيه، فيقوم من لحظته مبصراً، وحتى لو قدِّر للبشر معالجة الأبرص الذي ابيضَّ جلده بأدوية يخترعونها، فلن يستطيعوا أن يعالجوه بمسحةٍ من اليد على جلده، فيقوم من لحظته مشافى معافى، وكانت هاتين المعجزتين موجهتان إلى أكثر الأمم نجاحاً في الطب، وهي الأمة التي كان فيها أكثر أتباعه[565].

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ **[آل عمران: 49]**. وقال تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ **[المائدة: 110]**.

فقد كان عيسى عليه السلام يمسح بيده على الأكمه، وهو الذي لم ير النور منذ ولادته،

---

[564] خالد عبد العليم، وقفات في حياة الأنبياء، دار ابن كثير، بيروت، ط1، 1425هـ، 2004م، ص203.

[565] عبد المجيد العرابلي، أحبك أيُّها المسيح، مطبعة أروى، الأردن، ط2، 1426هـ، 2006م، ص166.

فيُعيد الله له بصره، ويزول عنه عماه، ويكون مبصراً قويّ البصر، وإبراء عيسى عليه السلام للأكمه والأبرص بإذن الله، دليل على نبوته، لأن الكمه والبرص لا علاج لهما من قبل الأطباء، لأنه لا يقدر طبيب على علاجهما، فكان علاج عيسى لهذين المرضين، وإبراء المريضين بدون علاج، وهو غير طبيب، دليلٌ على أنه رسول الله، وأن الله أيده بهذه الآية والمعجزة، أن الله هو الذي أبرأ وشفى على يدي عيسى عليه السلام[566].

6 . إحياء الموتى بإذن الله:

. قال تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ **[آل عمران: 49].**

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ **[المائدة: 110].**

إنَّ إحياء عيسى عليه السلام الموتى هو بإذن الله جلت قدرته، والمحيي في الحقيقة هو الله العلي القدير، ولكن أجرى الإحياء على يد المسيح عليه السلام؛ ليكون ذلك برهان نبوته، ودليل رسالته[567].

وظاهر هذه الآية الباهرة أن عيسى عليه السلام كان يمرُّ بالموتى فيدعو الله أن يحييهم، فيستجيب الله دعاءه ويحييهم، فيخرجون من قبورهم أحياء.

إنَّ إحياء عيسى عليه السلام للموتى مظهر عمليّ لإرادة الله، فالله سبحانه هو الذي أحياهم في الحقيقة وهو المسبب والمقدّر والمريد، لأنه هو الذي يحيي ويميت، وما يفعله عيسى عليه السلام لإحيائهم هو سبب ظاهريّ، الله هو الذي مكّنه من ذلك وأقدره عليه، وجعل الحياة تدبُّ في ذلك الميت على يديه، فلا نقف عند السبب وننسى إرادة المسبب سبحانه وتعالى.

وإنَّ إحياء الموتى آية بينة دالّة على نبوة عيسى عليه السلام؛ لأن البشر جميعاً لا يستطيعون

---

[566] الخالدي، تفسير الطبري، تقريب وتهذيب، 274/2.

[567] محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط4، 1404هـ ص20.

إحياء ميت، فخروج الميت من قبره حيّاً بدعاء عيسى عليه السلام دليل على أن الله تعالى هو الذي أحياه وجعل حياته على يد عيسى عليه السلام ليكون ذلك آية بينة على أنه رسول من عند الله.

ومن لطائف تعبير القرآن الكريم عن آية إحياء عيسى للموتى أنه فيه نوع من التعاقب والمرحلية.

. في سورة آل عمران قال لبني إسرائيل: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ **[آل عمران: 49].**

. في سورة المائدة قال الله ممتنّاً عليه: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ **[المائدة: 110].**

فهو **أولاً** أحياهم بإذن الله، فدبّت فيهم الحياة، وصاروا أحياء، وهذا ما تكفلت بالإشارة له آية سورة آل عمران.

وهو **ثانياً** أخرجهم من قبورهم أحياء، فبعد أن دبت فيهم الحياة دعاهم إلى الخروج من قبورهم، فخرجوا منها بإذن الله، وهذا ما تكفلت بالإشارة له آية سورة المائدة.

فلا تكرار في إخبار القرآن عن الحالة الواحدة أكثر من مرة، وإنما هو التنوع في العرض، وإفادة جديد في كل مرة جديدة، وسبحان من أنزل القرآن[568].

إنَّ زمن عيسى قد سادهم إنكار الروح في أقوال بعضهم، وأفعال جميعهم، فجاء عليه السلام بمعجزة هي في ذاتها أمر خارق للعادة، مصدق لما يأتي به الرسول وهي في الوقت ذاته إعلان صادق للروح، وبرهان قاطع على وجودها.

فهذا طين مصور على شكل طير، ثم ينفخ فيه فيكون حياً، ما ذاك إلا لأن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه، فكانت معه الحياة، وهذا ميت قد أكله البلى، وأخذت أشلاؤه في التحلل، وأوشكت أن تصير رميماً، أو صارت يناديه المسيح عليه السلام، فإذا هو حي يجيب نداء من ناداه، وما ذاك إلا لأن روحاً غير الجسم الذي غيره البلى حلت فيه بذلك

[568] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 308/4.

النداء، ففاضت عليه الحياة، وهكذا.

لقد كانت معجزة عيسى عليه السلام من جنس دعايته، وتناسب أخص رسالته، وهو الدعوة إلى تربية الروح، والإيمان بالبعث والنشور، وأن هناك حياة أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، إن خيرًا فخير، وإن شراً فشر. وهل ترى أن معجزة إحياء الموتى تسمح لمنكر الاخرة بالاستمرار في إنكاره أو تسمح لجاحد البعث والنشور أن يستمر في جحوده. وقد أسلفنا لك القول إن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الاخرة. وعدم الإيمان باليوم الاخر. إن لم يكن بالقول فبالعمل. فكان إحياء الموتى صوتاً قوياً يحملهم على الإيمان حملاً. ولكنهم كانوا بآيات الله يجحدون[569].

7 . الخلق من الطين ونفخ الروح بإذن الله:

. قال تعالى: ﴿أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ **[آل عمران: 49]**.

كان يصنع من الطين تمثالاً على شكل طائر، وبعدما يجفّ التمثال وييبس، كان ينفخ فيه فيتحول هذا التمثال إلى طائر حيّ حقيقي، وكان هذا بإذن الله وإرادته.

وهذه المعجزة عبرت عنها سورة المائدة بلفظ آخر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ **[المائدة: 110]** .

والخلق: أصله التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع من غير أصل ولا احتذاء.

. قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ **[الأنعام: 1]** ودليل خلق السماوات والأرض بمعنى إبداعهما من غير أصل، هو قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ **[الأنعام: 101]** وهذا الخلق الذي هو الإبداع من لا شيء خاصٌّ بالله، ولهذا جعله الله

[569] محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص22.

فصلاً بينه وبين غيره سبحانه.

. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ **[النحل: 17]**. ويُستعمل الخلق في إيجاد الشيء من الشيء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ **[النحل: 4]**.

. وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ **[الرحمن: 14-15]**. وهذا الخلق الذي بمعنى التحويل قد جعله الله لغيره في بعض الأحوال، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ **[المائدة: 110]**.

فقد كان خلق عيسى للطير خلق تحويل، لا خلق إبداع، أي من النوع الثاني، إذن كان خلق عيسى عليه السلام، حيث أقدره الله عليه، وأَذِنَ له فيه فكان يصنع من التراب طيناً، ثم يحوِّل هذا الطين التمثال إلى طائر، بإذن الله سبحانه[570].

قال الإمام ابن كثير في قوله تعالى: أي: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك فيكون طائراً ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾، أي: فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً ذاً روح بإذن الله وخلقه[571].

- **ما الذي خلقه عيسى عليه السلام؟**

أخذ عيسى عليه السلام تراباً، فجعله طيناً، ثم أخذ هذا الطين فجعل منه تمثالاً على شكل وهيئة طير، ثم نفخ فيه فصار طيراً حياً بإذن الله تعالى.

ليس هذا إيجاد من العدم، ولا إبداع من لا شيء، وإنما هو تحويل أشياء خلقها الله من العدم وأوجدها في الأرض، فأخذها عيسى عليه السلام فحوّلها من حالة إلى حالة: تراب خلقه

[570] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 302/4.

[571] تفسير ابن كثير، 109/3.

الله، وماء خلقه الله، فأخذ عيسى هذين العنصرين، فمزجهما معاً، فصارا طيناً ثم جعلهما تمثالاً، فهل أوجد عيسى شيئاً من العدم؟

ثم هذا الخلق المنسوب إلى عيسى ـ الذي هو بمعنى التحويل ـ فعله عيسى بإذن الله، فالله هو المقدّر والمسبب والخالق في الحقيقة، وعيسى عليه السلام هو السبب الخارجي، والوسيلة العملية حقق الله على يده إرادته[572].

ولقد جاء التعبير القرآني عن خلق عيسى للطير من الطين حيث قال تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ﴾ **[آل عمران: 49]**.

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾، حيث ذكر المادة التي يخلق الطير منها، وهي (الطين).

فهو لم يخلق الطين، وإنما يخلق لهم من الطين، وكان هذا الأمر بإذن الله، فالله هو الذي أذن له بذلك، وهو سبب مباشر مادي، وهو التأكيد على إذن الله لتقرير الوحدانية وتفرُّد الله بالخلق، وهو الإيجاد والإبداع.

ومعنى على شكل صورة ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾، والتقدير: أُوجد وأضع لكم من الطين تمثالاً، وهذا التمثال يكون مصوراً على شكل الطائر.

وقول عيسى، يدل على أنه كان ﴿أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ في صنع هذه التماثيل المصورة والمجسمة، يتقن تشكيلها ويحسن إيجادها.

وبعدما يحسن صنع التمثال كان ينفخ فيه فيتحول عن تمثال جامد إلى طير حي، بإذن الله.

- ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ **[آل عمران: 49]** ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ **[المائدة: 110]**

---

[572] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 302/4.

- فالله هو الذي أذن لعيسى عليه السلام في النفخ في تمثال الطير.
- والله هو الذي شاء أن يوجد الحياة في التمثال.
- والله هو الذي جعله طيراً حياً وليس لعيسى عليه السلام دور في ذلك إلا النفخ فقط.

إنَّ نفخة عيسى في تمثال الطير هو سبب مباشر مادي، جعل الله الحياة فيه مترتبة على النفخة، فالمسبب والمقدر والمريد هو الله.

فواهب الحياة للطير وخالقه هو الله عزَّ وجل، وقد حرص القرآن الكريم على تأكيد هذه الحقيقة، حيث صرّح بأن قيام تمثال الطير طير حياً قد كان بإذن الله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ **[المائدة: 110]** حيث جاءت (إذن الله) مكررة مرتين؛ مرة في وضع تمثال الطير، ومرة في تحوُّل التمثال إلى طير حي بعد النفخة.

إن هذه المعجزة آية بينة لعيسى عليه السلام، تدل على أنه رسول الله، لأنها خارقة للعادة، لا يستطيع أحد القيام بها، إلا أن يكون نبياً أو رسولاً، وإلا فمن يقدر على جعل الروح في تمثال مجسَّم جامد، ويحوله إلى طير حتى يطير ويتحرك بمجرد النفخ فيه؟ لا يفعل ذلك إلا نبيّ أجرى الله آيته على يديه[573].

8. إخباره عن الغيوب:

أخبر عيسى عليه السلام بالعديد من الأخبار والأمور الغائبة عن حسه، والتي لم يسبق له معاينتها، وذلك من مثل إخباره بما أكلوا وبما يدخرون في بيوتهم. قال تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ **[آل عمران: 49]**.

والمعنى في الآية الكريمة، أي: أخبركم بما تأكلون مما لم أشاهده ولم أعاينه ولم أكن معكم وقت أكلكم، وأنبئكم أيضاً بما ترفعونه وتخبئونه وتدّخرونه في بيوتكم من أصناف الطعام، فإذا ما اجتمعت مجموعة على أصناف طعام، وكان عيسى عليه السلام في مكان اخر لم يشاهدهم،

---

[573] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 305/4.

فإنه يخبر من معه بأصناف الطعام التي على مائدة المجموعة، وكأنه جالس معهم يرى ما أمامهم، وإذا جاءه مجموعة فإنه يخبر كل واحد منهم بما في بيته من أصناف الطعام بالتفصيل، كأن يقول له: عندك من كذا وكذا كمية وعدد كذا وكذا، وإخباره بهذين النوعين معجزة من الله له، دالة على نبوته، تضاف إلى معجزاته الأخرى؛ لأن العلم بما يأكلون وما يدّخرون من باب العلم بالغيب، وهذه الأشياء من غيب الحاضر، الذي هو غائب عن عين البشر، مع أنه موجود في مكان اخر، وعلم عيسى بأصناف الطعام المأكولة والمدَّخرة، مما لم يشاهده، دليل على أن الله هو الذي أخبره بذلك، وأعلمه به، فمن المعلوم عندنا أن الله اختُصّ بعلم الغيب، وأنه يُعلِم منه ما شاء من عباده[574].

حرص القرآن الكريم على بيان أن ما قدمه عيسى عليه السلام من الآيات لهم هو آية من الله سبحانه، ولذلك تكررت كلمة (آية) في النص القرآني الذي أخبر عن تلك الآيات.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ **[آل عمران: 49-51].**

لقد تكررت كلمة (آية) ثلاث مرات:

- في ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾
- في ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾
- في ﴿جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾

إنَّ التركيز القرآني على آيات عيسى عليه السلام دليل على أهمية الآيات للأنبياء، ودليل

[574] المرجع نفسه، 310/4.

على أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله، كان يتلقى الآيات من الله، ويقدمها لبني إسرائيل، وبعدما قدّم عيسى عليه السلام آياته لبني إسرائيل أخبرهم أن رسالته استمرار لرسالة سلفه موسى عليه السلام، في أساسها وروحها، ولهذا فهو مصدِّق للتوراة . وقد تكلمنا عن هذا المعنى فيما ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾

وكان عيسى عليه السلام حريصاً على التأكيد على الفصل بين الألوهية والعبودية، وعلى أنه عبد الله ورسوله، وأن الله ربه وربّ العالمين، وكان يخبر بني إسرائيل المدعوين بذلك، ولذلك ختم بيانه الدعوي إلى بني إسرائيل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ **[آل عمران: 51].**

وهذا إبطال لما ادعته النصارى من تأليه عيسى عليه السلام، حيث أخبرهم أن الله هو ربه وربهم، وأن الله أرسله برسالته، وأنهم مطالبون بعبادة الله، وطاعته، وأن هذا هو الطريق المستقيم، تبرّياً من الذي يقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، واحتجاجاً من الله عليهم، ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *﴾[575].

9 . نزول المائدة من السماء لطلب حواريه:

تبقى الإشارة إلى معجزة المائدة النازلة من السماء في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ **[المائدة: 112-115].**

نلاحظ أن ما ذكره القرآن الكريم عن معجزات المسيح أنها كلها معجزات حسية؛ لتكون برهاناً علمياً على صدق نبوته، ومناسبة لأهل زمانه الذين طبعت حياتهم نزعة مادية متطرفة،

---

[575] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 312/4.

فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيَّداً من الله[576].

ويكمن دور المعجزة أساساً في تأكيد الدعوة أو الرسالة عند المبلّغ، ومن ثمّ تصديق الناس لها وطاعتهم لله وعبادته، ولا تكمن أهمّيّة المعجزة في الإبهار أو الإدهاش، بل في تحوّل القلوب وتوبة الناس عند مشاهدتها، وقد ساعدت المعجزات المؤيدة من الله المسيح عيسى عليه السلام في إرشاده للناس ووعظهم وردهم إلى طاعة الله، وإخلاص العبادة له، وإفراده بالوحدانية، والدلالة على عظمة الله وقدرته وحكمته وعلمه وسعة رحمته بخلقه.

ثالثًا: عيسى عليه السلام والحواريون والمائدة:

1 . الحواريون:

وردت كلمة الحواريون في القرآن خمس مرات، وكلها وصف لأتباع عيسى عليه السلام المؤمنين به وكلها واردة بصيغة الجمع، وتعددت الأقوال في سبب تسمية أنصار عيسى عليه السلام بالحواريين: والحواريون أنصار عيسى عليه السلام: كانوا قصّارين وقيل صيادين، وقال بعض أهل العلم: إنما سمّوا حواريين لأنهم كانوا يُطهرون نفوس الناس، بإفادتهم الدين والعلم . وحرصهم على تربية النفوس وتزكيتها .، وقال بعض العلماء: إنما كانوا صيادين لاصطيادهم نفوس الناس من الحيرة وقيادتهم إلى الحق[577].

وأورد الإمام الطبري ثلاثة أقوال في سبب تسميتهم بالحواريين ورجَّحَ الأول منها: اختلف أهل التأويل في سبب تسميتهم (الحواريين):

. فقال بعضهم: سُمّو بذلك لبياض ثيابهم.

. وقال آخرون: كانوا قصّارين يبيضون الثياب.

---

[576] عبد القادر نجوش، أديان العالم المقارن، دار الضياء، الكويت، 1435هـ، 2014م، ص198.

[577] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القران، ص263؛ صلاح الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 313/4.

ـ قال آخرون: هم خاصة أتباع الأنبياء وصفوتهم، والراجح هو القول الأول عند الطبري[578].

وأما الإمام ابن كثير فقد رجَّحَ أنهم سُمّوا حواريين لأنهم آمنوا بعيسى عليه السلام وأيّدوه ونصروه، وبين أن الحواري هو الناصر[579].

والراجح ما رجحه ابن كثير، ودليل ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي (ﷺ): من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب؟ فقال الزبير رضي الله عنه: أنا ثم قال: من يأتيني بخبر القوم؟ قال الزبير: أنا، فقال النبي (ﷺ): إن لكلّ نبيّ حواريًا وحواريّ الزبير[580].

فقد أراد الرسول (ﷺ) أن يقوم واحد من أصحابه لينظر ما يفعل المشركون يوم الأحزاب، فندبهم وخبرهم وكان الزبير بن العوام رضي الله عنه هو الذي يقوم في المرات الثلاث، وعلق رسول الله (ﷺ) على قيام الزبير في المرات الثلاثة بأن الله جعل لكل نبي حواريًا يؤيده وينصره، وإن حواريّه هو الزبير بن العوام رضي الله عنه، أي أن الزبير هو ناصر رسول الله (ﷺ) من البشر، ومؤيده ومتابعه وليس معنى هذا قصر النصرة على الزبير وحده ونفيها عمن سواه من المهاجرين والأنصار، وإنما معناه أنه كان أبرز حواري وناصر لرسول الله (ﷺ) في تلك الحادثة، وإلا فإن الصحابة كانوا جميعاً حواريّين لرسول الله (ﷺ) ونصروه واتّبعوه وأيدوه، وكانوا أفضل من الحواريين أتباع عيسى عليه السلام.

إن هذا الحديث الصحيح يدل على أن (الحواريين) ليسوا خاصين بعيسى عليه السلام، وأن لقب (الحواريين) ليس مقصورًا عليهم.

إن (الحواريين) هم أتباع كل نبي وإن هذا اللقب يطلق على كل من أيّدوا نبيًا ونصروه، فأتباع موسى عليه السلام حواريون، وأتباع عيسى عليه السلام حواريون، وأتباع محمد (ﷺ)

---

[578] تفسير الطبري، تقريب وتهذيب، 279/2 . 280.

[579] تفسير ابن كثير، 345/1.

[580] البخاري، رقم 2847، مسلم رقم 2415.

حواريون وهكذا[581]، والحديث صريح في هذا المعنى، وذلك في قوله: (إن لكلّ نبيّ حواريًا...)[582].

وإذا كان أتباع وأنصار كل نبي حواريّين له، فإن هذا يدلنا على أن سبب تسمية أنصار عيسى عليه السلام حواريون، ليس لأنهم كانوا قصّارين أو صيادين، أو ذوي ملابس بيضاء وإنما لأنهم آمنوا بعيسى عليه السلام وأيدوه ونصروه[583].

أ. عيسى عليه السلام يدعو الحواريين لنصرته:

وقد دعا عيسى عليه السلام أتباعه الحواريين إلى نصرته لما رأى كفر معظم بني إسرائيل قال الله تعالى:﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ **[آل عمران: 52-53].**

لقد أحسّ عيسى عليه السلام الكفر من بني إسرائيل وأصبح بارزًا وواضحًا وظاهراً، ولذلك أحسه عيسى عليه السلام ببدايته بعدما أراهم كل تلك المعجزات التي لا تتهيأ لبشر والتي تشهد بأن الله وراءها، وأن قوة الله تؤيدها وتؤيد من جاءت على يده، ثم على الرغم من أن المسيح جاء ليخفف عن بني إسرائيل بعض القيود والتكاليف عندئذ دعا دعوته.

. ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾: من أنصاري إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه[584]؟ أي من الذين رضوا أن يكونوا أنصاري لأواجه بهم الذين يحاربون دعوتي على أن يكون أولئك الأنصار منصرفين متجهين إلى الله تعالى يبغون غير رضاه، وهذا التخيير الكريم فيه إشارة إلى معان ثلاثة:

. المعنى الأول: أن الأكثرين لم يكونوا مؤمنين ولذلك عبر بقوله: فنسب الكفر إليهم وذلك

---

[581] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 315/4.

[582] البخاري، رقم 2847.

[583] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 315/4.

[584] في ظلال القران، 401/1.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ يكون إلا إذا كان الكافرون هم الكثرة الظاهرة، والمؤمنون هم القلّة المغمورة، حتى بحث عنهم السيد المسيح بقوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾

. **المعنى الثاني**: الذي يشير إليه النص الكريم: أن السيد المسيح عليه السلام أحس بأنه أصبح مقصودًا بالأذى وأن الدعوة الحق أصبحت مهاجمة من تلك الكثرة الساحقة، ولذلك طلب أن يكون له نصراء يجعلون الحق منعة وقوّة من جهة، ويكونون مدرسة الدعاية له والخلية التي تدرس فيها حقائقه من جهة أخرى.

. **المعنى الثالث**: الذي يشير إليه النص هو: أنّ النصرة الحقيقية في مثل هذا المقام أساسها إخلاص النية لله والاتجاه إليه وتفويض الأمور إليه، فإنهم إن كانوا قليلاً فهم بمعونة الله كثيرون: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ **[الحج: 40]**.

. ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾: الحواريون هنا هم أنصار عيسى عليه السلام أخلصوا له، وكانوا عونه في الدعاية إلى الحق بعد الله تعالى الذي أمده بنور من عنده وكان الحواريون من خاصة عيسى عليه السلام، وقد صفت نفوسهم وخلصت من أدران الدنيا وأهوائها بفضل الله ثم صحبتهم لعيسى عليه السلام، وقد أجاب الحواريون عيسى عليه السلام عندما أخذ يبحث عن النصراء.

. (نَحنُ أَنصارُ): وهم بذلك بيّنوا اهتداءهم لأمرين:

1 . الأمر الأول: أنهم علموا أنه يتكلم عن الله وأنه رسول أمين ولذلك اعتبروا إجابة دعوته هي من إجابة دعوة الله وأنهم إذا كانوا نصراءه فهم نصراء الله تعالى ولذا قالوا: (نَحنُ أَنصارُ اللَّهِ) ولم يقولوا: أنصارك.

2 . الأمر الثاني: أنهم فهموا أن نصرته تكون بإخلاص النية لله تعالى وتصفية نفوسهم من كل أدران الهوى حتى تكون خالصة لله تعالى، ولذلك أردفوا قولهم هذا بما حكاه سبحانه وتعالى عنهم بقوله تعالى[585].

---

[585] محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، 1237/3.

. ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ *﴾: فهذا النص الكريم يفيد مقدار إدراكهم لمعنى نصرة الله تعالى ونصرة رسوله عيسى عليه، قالوا أي: امنا بأنه الواحد الأحد الفرد ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وأنه خلق الأشياء بإرادته المختارة وبقدرته الفعالة، ولم توجد عنه الأشياء وجودَ المعلول عن العلة والمسبب عن السبب، كما يدعي بعض الفلاسفة في عصرهم، وأردفوا قولهم بما يدل على الإذعان المطلق لله تعالى وإخلاص نيتهم وقلوبهم له سبحانه بقولهم ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ *﴾ ، إنَّ الشهادة هنا بمعنى العلم المنبعث من المعاينة والمشاهدة، فهم يطلبون من سيدنا عيسى أن يعلم علم معاينة بأنهم مسلمون، أي: مخلصون قد أسلموا وجوههم لله رب العالمين وصاروا بتفكيرهم وقلوبهم وجوارحهم لله تعالى، وإن ذلك فوق أنه إعلام لحقيقة نفوسهم هو إشهاد من قبلهم بما خلصت به أرواحهم، وقد خاطبوا بهذا الخطاب نبي الله تعالى مجيبين دعوته ملبيين نداءه معلنين نصرته[586].

وقد جهروا بإيمانهم بالله وطلبوا من نبيهم عيسى عليه السلام أن يشهد لهم أمام الله بأنهم مؤمنون مسلمون أنصار الله، وقد طلبوا منه أن يشهد لأنهم يعلمون أن شهادته لهم عظيمة عند الله، ثقيلة في ميزان الله، لأن رسول الله الشاهد الشهيد عليهم وتصريحهم بأنهم مسلمون؛ لأنهم آمنوا بعيسى عليه السلام ودخلوا في دينه وبذلك يكونون قد استسلموا وخضعوا ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ *﴾، لأن الإسلام . في معناه العام . هو الخضوع المطلق لله، واعتبارهم مسلمين دليل على أن كل نبي جاء بالإسلام، وأن دين كل نبي هو الإسلام، وأن أتباع كل نبي مسلمون، وهذه الآية صريحة بأن عيسى عليه السلام جاء بالإسلام، وأن دينه هو الإسلام، وأن أتباعه هم المسلمون فها هم الحواريون يصرّحون قائلين ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ *﴾[587].

ثم اتجهوا بعد ذلك إلى الله تعالى ضارعين إليه قائلين:

. ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾: وقد صدَّروا ضراعتهم إلى الله تعالى بالاعتراف الكامل، وفي الاعتراف بالربوبية إحساس صادق بجلال النعم، وتقديم شكر المنعم، ثم الاعتراف بالربوبية الحق يطوي في ثناياه الاعتراف بالألوهية الحق، لأن كمال الخضوع لله لا يكون إلا

[586] محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، المرجع السابق، 1238/3.

[587] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 319/4.

بالإيمان بالربوبية، ووراء هذا كله الإفراد بالعبودية، ثم بعد الضراعة بلفظ الربوبية أعلنوا الخضوع والإذعان الكامل، فقالواَ ؛ أي: صدَّقنا تصديق إذعان وتسليم هداية بما ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾، وما أنزل الله تعالى على عيسى عليه السلام هو تكليفات، فالإيمان الصادق يقتضي العمل، لأن العمل يدل على كمال الإيمان، ولأن المخالفة من غفوة الإيمان، وقد تأكد ذلك المعنى وهو العمل بمقتضى ما أنزل لهم بعد ذلك في ضراعتهم: وهو عيسى عليه ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾، واتباع الرسول يكون بالعمل بهديه والأخذ بسنّته[588].

وإذا كانوا قد ضرعوا إلى ربّهم بهذا الإيمان تلك الضراعة، فقد اتجهوا مع ذلك إلى دعائه راجين بإجابته أن يقوي الله سبحانه وتعالى إيمانه وأن ينقلهم من الإيمان الغيبي إلى الإيمان الذي يصل إلى درجة تشبه المشاهدة، ولذا قالوا:

.﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ *﴾ أي: إذا كنا قد امتلأت قلوبنا، وألوهيتك وعبوديتك فارفعنا إلى مرتبة أعلى هي أن نكتب مع الشاهدين، ومن هم الشاهدون؟ هم الذين صفت نفوسهم وزكت مداركهم، حتى وصلوا إلى درجة العلم الذي يكون كعلم المشاهدة والرؤية، الذي قال في أمثالهم محمد (ﷺ): اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فهذه مرتبة من الإيمان والمعرفة أعلى من مجرد الإيمان، وإن النص الكريم يدل على وجود ذلك الصنف من العباد الأصفياء الأنقياء الأبرار، وأنهم في أعلى درجات اليقين، بدليل أن هؤلاء الأنقياء طلبوا أن يكونوا في هذا الصنف، وحكى العلي القدير للأجيال طلبهم الذي رشحهم له فرط ضراعتهم وتقواهم، وأولئك الشاهدون هم الأنبياء والصديقون والشهداء[589].

أحسَّ عيسى عليه السلام بحدة كفر الكافرين، وشدة نضالهم، ولذلك اتجه إلى أن يكون له دعاة مناصرون أطهار، تكون منهم مدرسة الحق، وأخذ يبث تعاليمه في تلاميذه، وينتقل في أراضي بيت المقدس وجبالها واكامها هاديًا مرشدًا باعثًا الأرواح إلى الإيمان بالحق، ولكنهم جحدوا بالحق بعد أن ظهرت أماراته وقامت بيناته، ثم أخذوا يحولون بينه وبين هدايته، ودعوة الحق التي يدعو بها، ولما رؤوا أن نور الحق يزداد انتشارًا، قرروا أنه لا بدَّ أن يقطعوا حركته نهائيًا

[588] محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، المرجع السابق، 1239/3.

[589] المرجع نفسه، 1239/3.

بتدبير الشر لشخصه، ويستفاد من الإشارات القرآنية أنهم حاولوا قتله، ولا يستغرب على اليهود عمل فاجر، فهم في ماضيهم كما نراهم اليوم في حاضرهم، ولذا قال تعالى بعد أن بلغت دعوة الحق أقصاها وأعلاها.

. ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾: أي أن هؤلاء الذين أحس عيسى عليه السلام منهم، وراه عيانًا منهم بعد أن كوّن فيهم مدرسة الهداية بالحواريين، وأخذوا يدبرون التدبير للقضاء عليه أو على دعوته، والمكر كما يظهر من عبارات القرآن: هو التدبير الذي يجتهد صاحبه في إخفائه عمن يمكر به، ولذا نسب المكر إلى الله تعالى، ولا يمكن أن يكون عمل لله تعالى إلا خيرًا، فمكر الفجار لإيذاء الأبرار لا يمكن أن يكون خيراً، ومكر الله تعالى لإحباط تدبير الأشرار لا يتصور إلا أن يكون خيرًا. وقد دبر أولئك قتل عيسى عليه السلام، والله دبر حمايته، وقد تمَّ ما أراد الله تعالى ولذا قال تعالى: والله من وراء كل من يدبر الشر للأطهار وهو الذي يحفظ بعلمه وقدرته الأبرار[590]

وفي قول الحواريين دعاء من الأعماق أن يكتبهم الله مع الشاهدين ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ*﴾، أي أن يوفقهم ويعينهم في أن يجعلوا من أنفسهم صورة حياة لهذا الدين، وأن يبعثهم للجهاد في سبيل تحقيق منهجه في الحياة، وإقامته مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج ولو أدّوا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من (الشهداء) على حق هذا الدين. وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل من يدعي لنفسه الإسلام، فهذا هو الإسلام كما فهمه الحواريون وكما هو في ضمير المسلمين الحقيقين[591].

لقد تحدثت الآيات الكريمة في القرآن الكريم عن أهم صفات الحواريين وهي:

- الإيمان بالله ورسوله.
- اعترفوا بالإسلام دينًا ورسالة إلى الناس.
- ثم أنهم كانوا مسلمين مستسلمين لله سبحانه مطيعين تعليماته مجيبين لنداءاته.

---

[590] أبو زهرة، زهرة التفاسير، المرجع السابق، 1241/3.

[591] في ظلال القرآن، المرجع السابق،402/1.

– ثم أنهم طلبوا من عيسى عليه السلام أن يكون لهم شاهدًا عند الله يوم تشخص فيه الأبصار ويقوم الناس ليوم الحساب.

إن هذه الصفوة تتلمذت على يد السيد المسيح وعرفت منه أحكام التوراة التي نزلت على موسى، وكذا تفاصيل ما جاء به الإنجيل، كما انتهلوا منه عليه السلام التقوى والزهد والجهاد والصبر والعزم، وانتشروا من بين الناس لنشر أحكام دين الله تعالى والتبليغ بشريعته الغراء.

إنَّ عيسى عليه السلام قد أعدّ هؤلاء النخبة ورعاهم بتربية خاصة، ومحّصهم وهيأهم للمهمات الدعوية، وجعلهم ذراعًا يتحرك بهم، وعينًا تسهر على رسالة الله سبحانه، ولسانًا يحاور ويجادل في سبيل الحق، ويدًا يضرب بها أعداءه، وإيمانا ورجالاً ربانيون يسيحون في الأرض ويتفقهون بحبل الله ومنهجه.

إنَّ بناء النخبة ضرورة رسالية وخاصّة عملية حركية وعدّة موضوعية لابد منها في كل زمان ومكان لقادة التغيير وأبطال الصراع من أجل المثل العليا، فهم نواة الحق، وخميرة الهدى، وعدّة أهل الإيمان، وهذا ما سبق أن اتّخذه موسى عليه السلام منهجًا من قبل عيسى، فقد كان الأصحاب في عهده، وكذلك رسول الهدى محمد (ﷺ)، فقد اتخذ الأنصار والأصحاب في عهده، ذلك أن الأبرار من النخب تعني المنتخبين من العامة وصفوتهم وعصارة المجتمع وأهل الرأي والتقوى والعزم والاجتهاد فيهم فضلاً عن الصلاح والاستقامة في كل المقاطع الدعوية، وتمثل النخب ذراع القيادة الرسالية وأداتها الضاربة في عملية التغيير والتبليغ، وحلقاتها الموصولة مع الأمة والعامة، ولذلك فإنها تشكل أداة فاعلة وعونًا أساسيًا لحملة مبادئ الحق في كافة المراحل ومختلف العصور.

إن من دواعي النجاح اعتمادُ هذا النهج قدوة، ونعني به الاقتداء بأنبياء الله ورسله واقتفاء بتجاربهم و تأسيًا بالقويم من الأساليب، وكل أساليب رسل الله قويمة تهدي إلى الرشد وإلى صراط مستقيم[592].

[592] عبود الراضي، في رحاب قصص الأنبياء والرسل، 556/2 – 558.

ب . الاقتداء بالحواريين:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ **[الصف: 14]** .

والحواريون هم تلاميذ المسيح عليه السلام قيل: الاثنا عشر الذين كانوا يلوذون به، وينقطعون للتلقي عنه، وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه، والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة، فنسير نحن معها في ظلالها المقصودة إلى الغاية من سردها في هذا الموضوع من سورة الصف.

. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾: إن الله يدعو المؤمنين من أمة محمد (ﷺ) إلى الاقتداء بالحواريين في موقفهم الإيماني، ويطالبهم أن يكونوا أنصارًا له، ينصرون دينه، ويعاونون رسوله، أن يفعلوا كما فعل الحواريون مع عيسى عليه السلام[593]، قالوا ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ سبب دعوة عيسى ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، منهم فلم ينقادوا ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾، فجاهد المؤمنون الكافرين ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾، أي قويناهم ونصرناهم عليهم عليهم وقاهرين ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ *﴾، فأنتم يا أمة محمد كونوا أنصار الله ودعاة دينه ينصركم كما نصر من قبلكم ويظهركم على عدوكم[594].

2 . ذكر الله تعالى لنعائمه على عيسى عليه السلام يوم القيامة ونزول المائدة:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ

---

[593] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، المرجع السابق، 318/4.

[594] تفسير السعدي، المرجع السابق، 1826/4.

إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 109-110].

يخبر الله تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام وأن الله يجمع فيه جميع الرسل، فيسألهم: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾، أي ماذا أجابتكم به أممكم فقالوا: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا﴾، وإنما العلم لك يا ربنا فأنت أعلم منا أي تعلم الأمور الغائبة ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ *﴾

. ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ أي: اذكرها بقلبك ولسانك وقم بواجبها شكرًا لربك حيث أنعم عليك نعمًا أنعم بها على غيرك.

. ﴿إِذْ أَيَّدْتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: إذ قويتك بالروح والوحي الذي طهّرك وزكّاك وصار لك قوّة على القيام بأمر الله والدعوة إليه، وقيل: إن المراد بروح القدس جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به وبملازمته له، وتثبيته في المواطن المشقية.

. ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾: المراد بالتكليم هنا غير التكليم المعهود الذي هو مجرد، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب وهو الدعوة إلى الله، ولعيسى عليه السلام من ذلك ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين، من التكلم في حال الكهولة بالرسالة

والدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، وامتاز عنهم بأنّه كلّم الناس في المهد فقال:﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: 30-31].

. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: فالكتاب: يشمل الكتب السابقة وخصوصًا، فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل بعد موسى بها ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه. والحكمة: هي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه وحسن الدعوة والتعليم ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

. ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: طيرًا مصورًا روح فيه فيه فيكون بإذن الله الذي ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ﴾ بصر له ولا عين، فهذه آيات بينات

ومعجزات باهرات يعجز عنها الأطباء ﴿وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾، أيد الله بها عيسى وقوّى بها دعوته.

. لما جاءهم الحق مؤيّدًا بالبينات الموجبة للإيمان ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾.

. ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ *﴾: وهمّوا بعيسى أن يقتلوه وسعوا في ذلك فكف أيدهم عنه وحفظه، فهذه مِنَن أمتنَّ الله بها على عبده ورسوله عيسى بن مريم ودعاه إلى شكرها والقيام بها فقام بها عليه الصلاة والسلام أتمّ القيام وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم[595].

. الحواريون والمائدة ثم الاستجواب الكبير يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ **[المائدة: 114-115]**.

أي: واذكر نعمتي عليك . يا عيسى . إذ يسرت لك أتباعًا وأعوانًا فأوحيت إليهم على لسانك، أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله فأجابوا لذلك وانقادوا وقالوا:

. ﴿آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ *﴾، فجمعوا بين الإسلام الظاهر والانقياد بالأعمال الصالحة، والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق، ومن ضعف الإيمان، والحواريون: هم الأنصار، كما قال تعالى، حكاية لقول عيسى بن مريم للحواريين ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ .

. ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ **[المائدة: 112]** ، أي: مائدة فيها طعام وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله واستطاعته على ذلك، وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم، ولما كان سؤال الآيات الاقتراح للانقياد للحق

---

[595] تفسير السعدي، 456/1.

وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك، فإن عيسى عليه السلام وعظهم فقال:

. ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ فإن المؤمن يحمله معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئًا، فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة إلى ذلك فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وهذا دليل على أنهم ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾، حين نرى الآيات العيانيّة، فيكون الإيمان عين اليقين، فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت.

. ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾، أي: نعلم صدق ما جئت به أنه حق وصدق.

. ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ *﴾: فتكون مصلحة لمن بعدنا نشهدها، فتقوم الحجة ويحصل زيادة البرهان بذلك.

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك وعلم مقصودهم، أجابهم إلى طلبهم في ذلك فقال: أي: يكون وقت نزولها عيدًا وموسمًا يتذكر به هذه الآية ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ﴾ **[المائدة: 114]**، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرّر السنين، كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكرًا لآياته، ومنبهًا على سنن المرسلين وطرقهم القويمة وفضله وإحسانه عليهم.

. ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *﴾ أي: اجعلها لنا، فسأل عيسى عليه السلام نزولها لهاتين المصلحتين: مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقًا[596].

وفي دعاء عيسى ابن مريم كما يكرر السياق القرآني هذه المناسبة: أدب العبد المجتبى مع إلهه ومعرفته بربّه، فهو يناديه: يا الله، يا ربّنا، إنني أدعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء، تعمّنا بالخير والفرحة كالعيد فتكون لنا عيدًا لأولنا واخرنا، وأن هذا من رزقك فارزقنا أنت خير الرازقين، فهو إذًا يعرف أنه عبد، وأن الله ربّه، وهذا الاعتراف يعرض على مشهد من العالمين، في مواجهة قومه، يوم المشهد العظيم، واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى بن مريم، ولكن

[596] تفسير السعدي، 457/1.

بالحد اللائق بجلاله سبحانه، لقد طلبوا خارقة، واستجاب الله، على أن يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذابًا شديدًا بالغًا في شدته لا يعذبه أحدًا من العالمين:

. ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ **[المائدة: 115]** ، فهذا هو الحد اللائق بجلال الله، حتى لا يصبح طلب الخوارق تسلية ولهوًا، وحتى لا ينتهي الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون أن يلقوا جزاءًا رادعًا. ومن المعلوم بأنه قد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسل بعد المعجزة، فأما هنا فإن النص يحمل أن يكون هذا العذاب في الدنيا، أو أن يكون في الاخرة[597].

بعد أن أخبر الله عز وجل عن جمعه للمرسلين وسؤالهم، وعددّ نعائمه على عبده ورسوله عيسى عليه السلام من معجزات وأتباع وأعوان وقبول الدعاء المتعلق بنزول مائدة من السماء، يستمر القرآن الكريم في الحديث عن مسألة الألوهية المدعاة لعيسى ابن مريم وأمه، في استجواب يوجه إلى عيسى عليه السلام في مواجهة الذين عبدوه، ليسمعوه وهو يتبرأ إلى ربه في دهش وفزع من هذه الكبيرة التي افتروها عليه وهو منها بريء[598].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **[المائدة: 116-120]**.

. في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ

---

[597] في ظلال القرآن، المرجع السابق،1000/2.

[598] المرجع نفسه، 10002/2.

مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾؛ هذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث، فيقول الله هذا الكلام لعيسى، فيتبرأ منه عيسى ويقول: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: عن هذا الكلام القبيح وعمّا لا يليق بك ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، أي: ما ينبغي لي ولا يليق أن أقول شيئًا ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين لا الملائكة المقرّبون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية، وإنما الجميع عبادٌ مدبرون وخلق مسخرون وفقراء عاجزون.

. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾: فأنت أعلم بما صدر مني وأنت علاّم، وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه فلم يقل عليه السلام: لم أقل شيئًا من ذلك، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذه من الأمور المحالة، ونزّه ربّه عن ذلك أتمّ تنزيه، وردّ العلم إلى عالم الغيب والشهادة[599]، ثم صرّح بذكر ما أمر به بني إسرائيل قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، فأنا عبد متبع لأمرك لا متجرئٌ على عظمتك أي: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أني عبد مربوب، فكما أنه ربكم فهو ربي أشهد على من قام بهذا الأمر ممّن لم يقم ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا﴾ .

. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: المطلع على سرائرهم

. ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *﴾: علمًا وسمعًا وبصرًا فعلمك قد أحاط بالمعلومات وسمعُك بالمسموعات وبصرك، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر.

. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾: وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم، فلولا أنهم عباد تمردوا لم تعذبهم[600].

. ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة، لا عمن

[599] تفسير السعدي، 458/1.

[600] المرجع نفسه، 459/1.

يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة.

. ﴿الْحَكِيمُ *﴾: حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب

. ﴿قَالَ اللَّهُ﴾: مبينًا لحال عباده يوم، ومن الفائز فيهم من الهالك ومن الشقي من السعيد.

. ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾: والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدي، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق إذا أحلّهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾، والكاذبون بضدهم سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم وثمرة أعمالهم الفاسدة.

. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك بحكمه القدري وحكمه الشرعي وحكمه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته ومسخرة بأمره[601].

رابعًا: المكر بعيسى عليه السلام ورفعه إلى السماء:

لم ترق تعاليم المسيح عليه السلام لكثير من اليهود الذين حقَّ عليهم قول الله تعالى في كتابه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ **[المائدة: 78-79]**.

ورأوا فيها خطرًا على مصالحهم وثرواتهم، ولقد ضاق الكهنة والفرسيون من دعوته . التوحيد والإيمان الصحيح، وعبادة الله عز وجل كما ينبغي . ودعوته إلى القناعة والعفة والزهد، ومن نهيه عن الربا والرشوة والفساد والظلم، فتمالؤوا عليه ووشوا به إلى الحاكم[602].

لقد خافوا على مصالحهم واتخذوا من تدينهم المزعوم بدين موسى والأنبياء من بعده، وزعموا

---

[601] تفسير السعدي، 459/1.

[602] عمر أحمد عمر، رسائل الأنبياء، 311/2.

أن لهم منزلة دينية لا يساميهم فيها أحد. اتخذوا من هذا ما يصح أن يسمى ارستقراطية دينية؟ فزعموا أن لهم المكانة السامية، ولغيرهم المنزل الدون، ولو اعتنقوا الديانة اليهودية وآمنوا برسالة موسى، فكانت هناك طائفة يقال لها السامرة، وكان الإسرائيليون يعاملون احادها كأنهم المنبوذون، فلما جاء عيسى عليه السلام وسوى بين بني البشر في دعايته أنكروا عليه ذلك وناصبوه العداوة.

ولقد كانوا يجعلون لأحبارهم وعلماء الدين فيهم المنزلة السامية والمكانة العالية بين الناس، فجاء المسيح وجعل الناس جميعًا سواء أمام الخالق العظيم ولا فرق بينهم إلا بالتقوى وحسن العبادة وتحقيق الإيمان بالله، لكل هذا تقدم اليهود لمناوأة المسيح، وقليل منهم من اعتنق دينه وآمن به، وأخذوا يعملون على منع الناس من سماع دعوته، فلما أعيتهم الحيلة، ورأوا أن الضعاف والفقراء يجيبون نداءه، ويلتفون حوله مقتنعين بقوله أخذوا يكيدون له ويوسوسون للحكام بشأنه ويحرضون الرومان عليه[603].

وقالوا للحاكم: إن هنا رجلاً يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه، وإنه ولد زنية، إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب، حتى تمكنوا من حمل الحاكم على أن يصدر الأمر بالقبض والحكم عليه بالإعدام صلبًا، وأرسل جندًا ليقبضوا عليه، فلما عثروا عليه وأحاطوا به واقتحموا بيته نجاه الله منهم ورفعه إليه، وألقى شبهَه على من تقدمهم إليه، فلما دخلوا وراءه قبضوا عليه وهم يحسبون أنه عيسى، فأخذوه وأهانوه وصلبوه، ووضعوا على رأسه الشوك، وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه، ورفعه من بين أظهرهم وتركهم في ضلالهم يعمهون ويعتقدون أنهم قد ظفروا به[604].

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ

[603] أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص53.

[604] عمر أحمد عمر، رسائل الأنبياء، 311/2.

أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 54-58].

- ﴿وَمَكَرُوا﴾: اليهود الكافرون، مكروا بعيسى عليه السلام مكرًا خبيثًا وتامروا عليه وأرادوا قتله.
- ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾: أبطل الله مكر اليهود، وأفشل كيدهم وحمى عيسى عليه السلام منهم.
- ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ *﴾: الله خير من ينصر أولياءه ضد، وخير من يبطل كيد أعدائه ويُحبط مؤامراتهم[605].

لقد أسندت الآية إلى اليهود مكرًا خبيثًا مذمومًا ضد عيسى عليه السلام وأرادوا قتله، ورسموا لذلك خطة دقيقة ومكروا به مكرًا شيطانيًا خبيثًا، وأسندت الآية إلى الله مكرًا طيبًا محمودًا وهو إبطال مكرهم السيء، وإنجاء عيسى عليه السلام من كيدهم، فأنقذه من بين أيديهم بأن ألقى شبهه على غيره فأخذوا شبهه وقتلوه، ظانين أنهم قتلوا عيسى، وبهذا مكر الله بهم وسخر منهم، وأخرجه الله من وسطهم حيًا وحفظه بحفظه وحماه بحمايته[606].

. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 110] ، وهذه الآية تحدثت عن حماية الله له بإجمال، فلما أراد اليهود إيذاءه وقتله كف الله أيديهم عنه[607].

1 . ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 55] .

أبطل الله مكر اليهود ضدّ عيسى عليه السلام بأن توفّاه ورفعه إليه وطهره منهم، وقد اتفق علماء المسلمين على نجاة عيسى من القتل والصلب، واختلفوا في قوله تعالى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ .

[605] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 347/4.

[606] المرجع السابق، 347/4.

[607] المرجع نفسه، 348/4.

. فقال بعضهم في الآية تقديم وتأخير، والتقدير: إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك وذلك بعد إنزالي إليك في آخر الزمان، وعلى هذا يكون معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾، وإماتته له عند نزوله قبيل قيام الساعة، فالوفاة على هذا القول بمعنى الموت.

. وقال آخرون: إني قابضك من الأرض، فرافعك إلي، قالوا: ومعنى «الوفاة» القبض، لما يقال: «توفيت من فلان مالي عليه»، بمعنى: قبضته واستوفيته. قالوا: فمعنى قوله: «إني متوفيك ورافعك» أي: قابضك من الأرض حياً إلى جواري، واخذك إلى ما عندي بغير موت، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك، ورجّح هذا القول الإمام الطبري[608].

. وقال آخرون: الوفاة هنا موت حقيقي، فالآية على ظاهرها، فالله أنقذ عيسى عليه السلام من اليهود عندما أرادوا قتله، ثم توفاه بعد ذلك وقبض روحه وأماته، ثم رفعه بعد موته[609].

. وقال آخرون: الوفاة هنا بمعنى النوم، فالله ألقى النوم على عيسى عليه السلام، ولما نام رفعه إليه ومعنى الآية: إني مُنيمك ورافعك إليّ في نومك.

. ورجح هذا القول ابن كثير إذ قال: رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان[610].

2 . معنيان للتوفي في القرآن: الموت والنوم:

أ . إنَّ إسناد التوفي إلى الله في القرآن أحيانًا يراد به الموت وقبض الروح، وهذا في موضعين من القرآن:

الأول: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ **[يونس: 104]**، أي: أعبد الله الذي يميتكم ويقبض

[608] صلاح الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 350/4. وتفسير الطبري، تقريب وتهذيب، ص456.

[609] صلاح الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 350/4.

[610] ابن كثير، البداية والنهاية، المرجع السابق، 91/12.

أرواحكم.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ **[النحل: 70]**، أي: الله هو الذي خلقكم وجعلكم أحياء تعيشون حياتكم على الدنيا، ثم يتوفاكم عند انتهاء أعماركم، ويقبض أرواحكم ويميتكم.

ب ـ أحيانًا يراد به النوم، حيث وردت آيات من القرآن تعتبر النوم توفيًا، وتسنده إلى الله، وهذا في موضعين في القرآن أيضًا:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ **[الأنعام: 60]** ، والمعنى: الله الذي يجعلكم تنامون بالليل ويتوفى أرواحكم أثناء نومكم ثم يعيد أرواحكم إلى أجسادكم في النهار: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، وضمير الهاء في (فيه) يعود على النهار.

الثاني: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **[الزمر: 42]**. وقد اعتبرت الآية النوم موتًا، **وقسّمت الناس بعد النوم إلى قسمين:**

- فهناك أناس ينامون ويموتون أثناء النوم، ويكون الله قد قدّر انتهاء آجالهم عند تلك (النومة) فيتوفاهم ويقبض أرواحهم أثناء النوم، ويمسك أرواحهم عنده ولا يعيدها إلى أجسادهم ويصبحون أمواتًا جثثًا هامدة، وهؤلاء هم الذين قال عنهم ﴿فَيُمسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيها الموتَ﴾.

- وهناك أناس ينامون، ويتوفى الله أرواحهم أثناء النوم، لكن تكون قد بقيت من أعمارهم بقية فيعيد الله أرواحهم إلى أبدانهم عند الاستيقاظ من النوم، ويصبحون أحياء يتحركون، وهؤلاء هم الذين قال الله عنهم: ﴿وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً﴾ .

وهذان الصنفان من الناس يتوفى الله أرواحهم عند نومهم، فالنوم موت ووفاة، لكن يعقبه

استيقاظ وبعث في الصباح، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾: الله يقبض أرواح الأنفس حين نومها، ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾: والله يتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، فيخرج أرواحها من أجسادها عند نومها

ويعيدها إلى الأجساد عند استيقاظها[611].

وهاتان الآيتان (الأنعام: 60، والزمر: 42) صريحتان في أن النوم وفاة صغرى، وأن الله يتوفى أرواح النائمين، ويخرجها من أجسادهم أثناء نومهم، ثم يعيدها لمن كتب لهم الحياة عند استيقاظهم، وقد أكد هذا المعنى ـ النوم وفاة والاستيقاظ بعث ـ رسول الله (ﷺ) في أدعية النوم والاستيقاظ، فقد كان النبي (ﷺ) إذا أوى إلى فراشه يقول: باسمك أحيا، وباسمك أموت. وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور[612].

والشاهد أنه توافق كلام رسول الله (ﷺ) مع الآية الكريمة، في اعتبار النوم وفاة وموت، والاستيقاظ بعثًا وحياة[613].

والنصوص السابقة تصرح بأن النوم موت ووفاة، وأن الاستيقاظ بعث وحياة، وهذا معناه أنّ التوفي والوفاة في القرآن الكريم ترد بمعنى الموت الحقيقي وخروج الروح من الجسد وقد تعني النوم وخروج الروح من الجسد أثناء النوم لتعود إليه عند الاستيقاظ[614].

3 ـ توفّى الله عيسى مرتين: وفاة نوم ووفاة الموت:

بعد هذا الاستعراض الموجز لإسناد (التوفي) إلى الله في القرآن، ننظر في حديث القرآن عن توفي الله لعيسى عليه السلام. وقد ورد هذا مرتين في القرآن:

المرة الأولى: عندما أراد اليهود صلبه وقتله ومكروا به فأنجاه الله منهم، وذلك بأن توفّاه

---

[611] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 354/4.

[612] البخاري، رقم 6312، وانظر: مسلم رقم 2711.

[613] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 355/4.

[614] المرجع نفسه، 355/4.

ورفعه إليه فأنجاه الله منهم، وقال له قبل توفيه ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، وهو توفي نوم، وذلك بأن ألقى الله النوم على عيسى عليه السلام، ولما نام رفعه إليه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ .

المرة الثانية: عندما سينزله الله قبيل قيام الساعة ليستكمل باقي عمره الذي حدّده الله له، حيث سيتوفاه الوفاة الحقيقية بقبض روحه وخروجها من جسده وموته كما يموت الناس، وذلك التوفّي هو توفّي موت أي لما أمتني وقبضت ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ .

ولا يمكن أن يكون التوفّي في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ورافِعُكَ إِلَيَّ﴾ توفّي موت، ثم رفعه الله إليه بعد موته لورود نصوص صحيحة صريحة في نزول عيسى عليه السلام في اخر الزمان وسنذكرها لاحقًا في محلها بإذن الله تعالى، فلو كان أماته من قبل، فلن يُنزله في اخر الزمان، لأن الله لن يجمع عليه موتتين في الدنيا[615].

4 . ألقى الله النوم على عيسى ثم رفعه:

إنَّ الخلاصة في معنى آية سورة آل عمران: يا عيسى إنني ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ **[آل عمران: 55]**، بأن ألقي عليك النوم عندما يأتي اليهود لقتلك، وسأرفعك إليّ في السماء عند نومك، وبذلك سأُطهرك من اليهود الذين كفروا، فلن تمتد أيديهم المجرمة إليك، ولن يؤذوك.

لقد أخبر الله عيسى عليه السلام بهذا قبل أن يأتي إليه اليهود لقتله ووعده بإنجائه منهم؛ وذلك ليُطمْئنه ويبشره ويسليه ويكون على يقين بأن الله معه.

وجاء الوعد بالنجاة في الآية بصيغة اسم الفاعل: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ففي الآية أربع كلمات كلها اسم فاعل: متوفيك، ورافعك، ومطهرك، وجاعل، والتعبير باسم الفاعل لتأكيد الوقوع وتحقيق الوعد، ولهذا دخل عيسى عليه السلام المواجهة الأخيرة مع اليهود، وواجه كيدهم ومكرهم،

[615] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 357/4. وانظر: تفسير الطبري، تقريب وتهذيب، 283/2.

وهو على يقين أن الله سينجيه منهم، بأن يتوفاه ويُنيمه ثم يرفعه إليه أثناء نومه، ولما هجم عليه اليهود مع الجنود: أنامَه الله، ثم رفعه إلى السماء رفع روحه وجسده وهو حيّ، بطريقة معجزة[616].

لقد علمنا من الكتاب والسنة أن الله قد رفع رسولين كريمين إلى السماء وهما حيّان غير ميتين، عيسى عليه السلام ومحمد (ﷺ) ليلة المعراج، فبينما لم يدم العروج بمحمد (ﷺ) أكثر من ساعات حيث أعاده الله إلى مكة قبل بزوغ فجر تلك الليلة، فإن الله عز وجل الحكيم شاء أن يبقى عيسى عليه السلام في السماء حتى قبيل الساعة[617].

خامسًا: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾

إنَّ القرآن الكريم تحدث عن محاولة اليهود قتل عيسى عليه السلام في ثلاث مواضع بثلاث سور:

- إشارة سريعة إلى كفِّ بني إسرائيل عنه لما جاءهم بالبينات، وذلك في سورة المائدة:﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ **[المائدة: 110]**.
- حديث مجمل في حماية عيسى عليه السلام منهم، بأن ألقى عليه النوم في رفعه إليه وذلك في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ **[آل عمران: 55]**.

والحديث أكثر تفصيلاً ـ لكنه ما زال مجملاً ـ عن نفي قتل اليهود وصلبهم لعيسى عليه السلام، لأن الله رفعه إليه وقيامهم بقتل وصلب شبيه له، وذلك في آيات سورة النساء والتي سنشرحها بإذن الله تعالى.

ـ قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا

---

[616] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 358/4.

[617] المرجع نفسه، 358/4.

جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ۝ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ **[النساء: 153-159].**

1 . من مسلسل جرائم اليهود:

تتحدث أول ايتين من هذه الآيات الثمانية عن بعض جرائم اليهود مع رسول الله (ﷺ) وبعض مخالفاتهم لنبيهم موسى عليه السلام.

. يذكر الله لرسوله محمد (ﷺ) سوء تعامل اليهود مع الأنبياء، فقد سألوه أن ينزل عليهم كتابًا من السماءَ ويواسيه على ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ يواجه من قبائح اليهود، مُخبرًا إياه بأن أسلافهم من بني إسرائيل قد سألوا موسى عليه السلام من قبل سؤالاً أكبر وأفظع، فقد طلبوا منه أن يروا الله جهرة عيانًا، وأن يقف أمامهم مجسّمًا ويقول أنا الله: وعاقبهم الله على ذلك السؤال ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾، فأخذتهم الصاعقة بسبب ذلك الظلم الفاجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.

. ومن جرائمهم مع موسى عليه السلام أيضًا أنهم اتخذوا العجل إلهًا لما غاب عنهم وذهب إلى جبل الطور لمناجاة الله . وقد أخذ الله عليهم الميثاق ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً *﴾، لما رفع فوقهم جبل الطور في حياة موسى عليه السلام:﴿الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾، وأخذ عليهم الميثاق الغليظ بعد وفاة موسى عليه السلام، عندما أمرهم أن يدخلوا باب الأرض المقدسة ساجدين شاكرين لله ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، وأخذ عليهم الميثاق الغليظ بعد ذلك عندما نهاهم عن الاعتداء على حرمة

يوم السبت ونهاهم عن صيد السمك فيه: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾، ولم يلتزموا بالميثاق الغليظ الذي أخذه عليهم عند جبل الطور، ولم يدخلوا باب الأرض المقدسة ساجدين، وإنما دخلوا محرفين يزحفون على أسْتاهم، ولم يلتزموا بحرمة يوم السبت فمسخهم الله قردة خاسئين[618].

. وسجلت الآيات التالية (155: 159) جرائم اليهود التي استحقوا بها لعنة الله وسخطه، ومن أفظع هذه الجرائم تصميمهم على قتل وصلب عيسى عليه السلام، ولولا أن الله رفعه إليه لقتلوه وصلبوه، وبدأت الآيات بذكر نقضهم الميثاق الغليظ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

2 . من أسباب لعنة الله لليهود:

تكلفت الآيات الانفة الذكر بتسجيل تلك الأسباب:

أ. ونقض الميثاق الغليظ يقود إلى لعنة ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾

ب. كفروا بالحق لما ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وهذا الكفر أوقع بهم اللعنة.

ج. اليهود قتلة ﴿وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وفعلوا ذلك بغيًا وعدوانًا بدون حق، ولا يمكن أن يقتل نبيّ بحق وهذا سبب في لعنتهم.

د. رفضوا قبول الحق الذي جاءهم به محمد ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾،وزعموا أن قلوبهم عليها أغطية سميكة، فلا تفقه ولا تعقل ما يقوله عليه الصلاة والسلام.

وقد كذبهم الله في قولهم هذا، فأخبر أنه هو سبحانه الذي طبع وختم عليها بسبب كفرهم، ولذلك لا تهتدي مهما جاءها من الهدى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، وبما أن الله طبع على قلوبهم بسبب كفرهم، فإنهم لم يؤمنوا الإيمان الصحيح الكامل الذي أوجبه الله عليهم، وإنما آمنوا إيمانًا (قَلِيلاً) وهو إيمان مزاجي (تجزيئي)، فهذا لا يقبل في الإيمان ﴿فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً*﴾، وإيمانهم التجزيئي القليل تمثل في إيمانهم ببعض كتب الله كالتوراة، لكنهم كفروا ببعض

[618] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 362/4.

كتب الله كالإنجيل والقرآن.

كما تمثل ذلك الإيمان القليل المرفوض في إيمانهم ببعض رسل الله، كموسى وهارون وداوود وسليمان عليهم الصلاة والسلام، لكنهم كفروا ببعض رسل الله، كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ومعلوم أن من كفر ببعض كتب الله فهو كافر بها كلها، ومن كفر ببعض رسل الله فقد كفر بها كلها، ولا ينفع في ذلك الإيمان التجزيئي القليل.

هـ. لعن الله اليهود بسبب ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾، وليس السبب الخامس هذا (بِكُفرِهِم) تكرارًا للسبب الثاني ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ لأنه لا تكرار في العرض القرآني، والسبب الثاني ذكر كفرهم مقيّدًا، وهو كفرهم بآيات الله، ومعلوم أن الكفر بآيات الله أو بعضها، كفر بالله، مخرج من دين الله.

وأما هذا السبب الخامس فقد أطلق كفرهم ولم يقيده (وبِكُفرِهِم) لكن عندما نربطه مع ما بعده من مكرهم بعيسى عليه السلام، فإنه يدل على أن المراد به كفرهم برسل الله، لأنهم أرادوا قتل أحد رسله، فكفر اليهود بآيات الله تسبب بلعنهم، وكفرهم برسل الله سبب اخر خاص للعنتهم.

و. موقف اليهود المجرمين من مريم العفيفة البتول عليها ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيمًا*﴾، سبب مستقل من أسباب لعنتهم يضاف للأسباب الأخرى619. والبهتان العظيم الذي قالوه عليها هو: فريتهم عليها واتهامها بالزنا وهي الطاهرة العفيفة، وتصريحهم بأن ابنها عيسى عليه السلام ابن زنا لعائن الله عليهم.

ز. ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ هذا القول الكبير الفاجر الذي قالوه يسجل جريمتهم الشنيعة التي أقدموا، وهي تصميمهم على قتل عيسى عليه السلام، بل قتلهم شخصًا يظنونه المسيح عيسى ابن مريم، وقد لعنهم الله بسبب هذا القول الفظيع، وقد جمعوا في هذا القول بين التفاخر فيما صمّموا عليه من قتل عيسى عليه السلام والتباهي به وبين السخرية بعيسى عليه السلام والتهكم عليه، والسخرية

[619] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 365/4.

في الصفات التي أطلقوها على عيسى عليه السلام.

﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ لقد عرّفوه بالكلمات الأربع التي أطلقوها، ومع أنها حقيقية في إطلاقها عليه، فهو المسيح، وهو عيسى، وهو ابن مريم، وهو رسول الله، لكنهم لم يطلقوها عليه من باب الإيمان بها، فلو كانوا مؤمنين بها لما صمّموا على قتله، إنما أطلقوها عليه ساخرين متهكمين[620].

قال الإمام ابن كثير: أي: هذا الذي يدّعي لنفسه هذا المنصب ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، وهذا كقول المشركين لرسول الله (ﷺ): ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ **[الحجر: 6]** [621].

3. اليهود ما قتلوا عيسى ولا صلبوه:

لما سجل الله تعالى عليهم جرائمهم السبعة الفظيعة التي استحقوا بها لعنته وغضبه وسخطه، كذّبهم في زعمهم قتل عيسى عليه السلام، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ **[النساء: 157-159]**.

فبيّن الله تعالى كذب اليهود فيما زعموه وأنهم لم يقتلوا اليهود عيسى ولم يصلبوه، ولكن قتلوا وصلبوا شبيهه، والصلب هو تعليق الإنسان للقتل، والصليب: أصله الخشب الذي يصلب عليه، والصليب الذي يتقرب به النصارى، وسُمي بذلك لكونه على هيئة الخشب الذي زعموا أنه صُلب عليه عيسى عليه السلام[622].

واليهود من مكر الله بهم لم يقتلوا عيسى، وإنما قتلوا الشبيه وصلبوه ظانين بأنهم قتلوا

---

[620] الخالدي، المرجع السابق، 365/4.

[621] تفسير ابن كثير، 543/1.

[622] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القران، ص499.

عيسى[623]، والذي شبه لهم هو الشخص المقتول، حيث ألقى الله شبه عيسى عليه السلام على الشخص الاخر، فأخذوه وقتلوه وهم يوقنون أنه عيسى، مع أنه لم يكن عيسى في الحقيقة[624].

4. ما الذي جرى ليلة القبض على الشبيه؟

إنَّ قضية قتل عيسى عليه السلام وصلبه قضية يخبط فيها اليهود، كما يخبط فيها النصارى بالظنون، فاليهود يقولون: إنهم قتلوه، ويسخرون من قوله: إنه رسول الله، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية. والنصارى يقولون: إنه صُلب ودفن ولكنه قام بعد ثلاثة أيام.

وما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين، فلقد تتابعت الأحداث سراعًا، وتضاربت الروايات وتداخلت في تلك الفترة، بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين، إلا ما يقصّه رب العالمين.

وتروي الأناجيل الأربعة قصة القبض على المسيح وصلبه وموته ودفنه وقيامته، كلها كتبت بعد فترة من عهد المسيح كانت كلها اضطهاد لديانته ولتلاميذه، يتعذر معه تحقيق الأحداث في جو السرية والخوف والتشريد، وقد كتبت معها أناجيل كثيرة، ولكن هذه الأناجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثاني للميلاد، واعتبرت رسمية واعترف بها، لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات[625].

وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبرًا يقينيًا عن تلك الواقعة التي حدثت في ظلام الليل قبل الفجر، ولا يجد المختلفون فيها سنداً يرجح رواية عن رواية ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾، وأما الله تعالى في كتابه العزيز فقد قرّر قراره الفصل: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ **[النساء: 157]**، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ **[النساء: 157-158]**[626].

---

[623] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 367/4.

[624] المرجع نفسه، 369/4.

[625] أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، نقلاً عن: في ظلال القران، 802/2.

[626] في ظلال القران، 802/2.

وقد اهتم مؤرخو الإسلام بهذه الحادثة، وخيرُ من لخص تلك الأحداث المفسر والمؤرخ الكبير ابن كثير (وهو من علماء بلاد الشام المطلعين على تاريخها)، وإليك ما فصله حول هذه الحادثة في تفسيره حيث قال:

وكان من خبر اليهود - عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه - أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما اتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرة، التي كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيي بها الموتى بإذن الله، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان - وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته اليونان - وأنهوا إليه أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويُضلهم، ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه على الناس فلما وصل الكتاب امتثل والي المقدس ذلك.

وذهب هو وطائفة من اليهود إلى البيت الذي فيه عيسى عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه، اثني عشر أو ثلاثة عشر - وقيل: سبعة عشر نفرًا - وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصروه هناك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيكم يلقى عليه شبهي، وهو رفيقي في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم، فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب - فقال: أنت هو - وألقى الله عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو، وفتحت روزنة من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سِنَةٌ من النوم، فرُفِع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى:﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ **[آل عمران: 55]**.

فلما رفع عيسى من سقف البيت، خرج أولئك النفر من البيت فلما رأى اليهود والجنود ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، وأظهر

اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلَّم لهم طوائف من النصارى ذلك، لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت.

وهذا كله من امتحان الله عباده، بماله في ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح الله الأمر وجلاّه وبيّنه وأظهره في القرآن العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم (ﷺ)، حيث بيّن أنهم ما قتلوا عيسى عليه السلام وما صلبوه، ولكن شُبِّه لهم، حيث ألقى الله شبهه على ذلك الشاب، فبدا لهم عيسى، فقتلوا الشاب وصلبوه ظانين أنه عيسى.

وأخبر الله الذين اختلفوا في عيسى عليه السلام من اليهود الذين ادعوا قتله والنصارى الجهال الذين سلَّموا لهم بذلك كلهم في شك وحيرة وضلال من ذلك، وأخبر الله أنهم ما قتلوه، متيقنين أنه هو، وإنما كانوا شاكين متوهمين، وأما عيسى عليه السلام فقد رفعه الله إليه، والله هو العزيز الحكيم[627].

وفي رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج عليهم من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة، بعد أن آمن بي. ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي، فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب، فقال: أنا. فقال: هو أنت. فألقي عليه شَبَهُ عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه، فكفر بعيسى بعضهم اثنتي عشر مرة، كما قال لهم.

. وافترق النصارى في عيسى ثلاث فرق:

- فقالت فرقة منهم: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء هم اليعقوبية.

[627] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 372/4، نقلاً عن تفسير ابن كثير 543/1 . 544 بتصرف.

- وقالت فرقة أخرى: كان ابن الله فينا ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء النسطورية.
- وقالت فرقة أخرى: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء هم المسلمون. فتظاهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المسلمة، فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا (ﷺ)، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس[628].

5 . ترتيب أحداث مسلسل تلك الليلة:

من خلال النظر فيما سبق، يمكننا تصوّر تلك الليلة وتصوير ما جرى فيها بإيجاز:

– نجح اليهود في إقناع الحاكم الروماني في إلقاء القبض على عيسى وقتله، حيث أمر الحاكم بتنفيذ ذلك.

– توجهت مجموعة من الجنود الرومان واليهود إلى المكان الذي يوجد فيه عيسى عليه السلام لتنفيذ أمر الحاكم.

– المكان الذي كان يقيم فيه عيسى كان في بيت المقدس، حسب سياق أحداث القتل والصلب ودرب الآلام بعد ذلك.

– كان عيسى عليه السلام في أحد بيوت القدس في تلك الليلة مع اثني عشر رجلاً من الحواريين .كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ..

– علم عيسى عليه السلام بقدوم الجنود واليهود لاعتقاله وقتله وصلبه، فلم يخف ولم يحزن ولم يقلق لأنه يوقن أن الله معه يحفظه ويحميه.

– أخبر الله عيسى عليه السلام أنهم لن يصلوا إليه ولن يؤذوه، وأنه سيلقي شبهه على أحد تلاميذه الحواريين وأنه سيرفعه إليه، وطلب منه أن يسألهم ليتبرع أحدهم ليلقي الله عليه شبه عيسى عليه السلام فيكون المصلوب الشهيد.

– أخبر عيسى عليه السلام الحواريين أن الله سيحميه من الجنود واليهود، وأنه سيرفعه إليه، وذلك ليطمئنهم عليه.

– عرض عيسى عليه السلام على الحواريين الاثني عشر أن يتبرع أحدهم ليفديه بنفسه، بأن يلقي شبهه عليه، فيؤخذ ويقتل ويُصلب ويموت شهيدًا، وضمن لذلك الفدائي أن يكون

---

[628] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 373/4. انظر: تفسير ابن كثير 544/1 . 545.

معه في الجنة.

– استجاب لعرض عيسى عليه السلام شاب، لعلّه كان من أصغر الموجودين سنًا، فاستصغره عيسى عليه السلام، وأراد من هو أكبر منه، ولكن لم يستجب له في المرات الثلاثة التي انتدبهم فيها إلا هو، فقال له عيسى عليه السلام: هو أنت!

– لم يذكر اسم ذلك الشاب المتطوع العظيم، الذي بذل نفسه وحياته وعمره لله، فهو من مبهمات القصة.

– أجرى الله على ذلك الشاب أمره، وأوقع عليه آيته الخارقة، حيث حوله الله من ملامحه الأصلية التي خلقه عليها، إلى ملامح عيسى عليه السلام، فما هي إلا لحظات حتى تحول الشخص إلى شبه عيسى، وكل من رآه لا يشك أنه عيسى ولا يعرف كيف فعل الله ذلك، لأننا لا نعرف كيفيات أفعال الله.

– نظر الحواريون الذين في البيت إلى ذلك الشخص فإذا هو عيسى، لأنه أشبهه شبهًا كاملاً وهم يعلمون أن الله ألقى شبه عيسى عليه.

– لما وصل اليهود والجنود إلى ذلك البيت كان فيه شخصان، كل منهما عيسى، عيسى الحقيقي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وعيسى الآخر المتقمص لشخصيته، الذي ألقى الله شبه عيسى عليه والحواريون يرون الشخصين.

– لما أراد اليهود والجنود دخول البيت، أجرى الله آية أخرى باهرة حيث فتح سقف البيت فتحة معجزة بأمره سبحانه وتعالى.

– ألقى الله على عيسى عليه السلام سنة من النوم، وهو بين تلاميذه وحوارييه، تمهيدًا لرفعه إلى السماء من الفتحة التي في سقف البيت، والحواريون الذين في المنزل ينظرون إليه ويلاحظون هذه الآية الباهرة من آيات الله وقد اطمأنوا على نجاة نبيهم وحبيبهم عيسى عليه السلام[629].

– دخل اليهود والجنود البيت، ورأوا أمامهم (عيسى) وهو في الحقيقة عيسى الثاني، عيسى المتحول شبيه عيسى النبي الذي رفع إلى السماء، ونظروا إليه وهم لا يشكون لحظة أنه عيسى.

– أخذ الجنود عيسى الشبيه المتحول لقتله وصلبه، ويبدو أنه لم يكلمهم واحدة، ولم ينف

---

[629] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 375/4.

أنه عيسى ولم يخبرهم أن عيسى الحقيقي النبي في السماء وأنهم فشلوا في القبض عليه وقتله، فإنه استعد للقتل والاستشهاد.

— لا نعرف ماذا جرى للحواريين الأحد عشر الآخرين الذين كانوا في المنزل، هل اعتُقلوا أم هربوا أم قُتِل بعضهم وأفرج عن الآخرين، فهذا من مبهمات القصة.

— أخذ الجنود واليهود عيسى الثاني الشبه، وصلبوه على الخشبة، وقتلوه على الصليب، وخرجت روح هذا الفدائي المؤمن ـ وهو على الصليب ـ ولقي الله شهيدًا، بينما كان عيسى النبي في السماء عليه الصلاة والسلام.

— كان الناس يأتون إلى الشاب المصلوب الشهيد ينظرون إليه، فإذا به عيسى، ولا يشكون لحظة أنه عيسى؛ لأن الله ألقى شبه عيسى عليه، وهم لا يعرفون المعجزة التي أجراها الله، وكانوا بين فرح شامت وبين حزين متألم، وبعد حين أنزلوا الشهيد المصلوب ودفنوا جثته.

— كانوا اليهود فرحين شامتين؛ لأنهم قتلوا عيسى وصلبوه – وهو في الحقيقة عيسى الشبه– وأذاعوا في الناس، وقالوا ساخرين: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله.

— لم تعلم النصارى ماذا جرى من معجزات ربانية في تلك الليلة، فأيقنوا أن الذي شاهدوه ميتًا على الصليب هو نبيهم عيسى ابن مريم، فصدقوا اليهود في تبجحهم في قتله، وقالوا: قتلوا وصلبوا نبينا عيسى[630].

— صبَّ اليهود والرومان العذاب على الحواريين، وعلى كل من آمن بعيسى عليه السلام، وقتلوا منهم وصلبوا وسجنوا وشرّدوا، ولم يلتقط النصارى أنفاسهم ليفكروا بتأن وتمهل فيما جرى في تلك الليلة، ووقع اختلاف شديد بين النصارى في أحداث الليلة المذكورة، فصدّقوا اليهود في ادعائهم أنهم قتلوا عيسى عليه السلام ودخل الشرك على النصرانية، فاختلفوا في عيسى عليه السلام، فمنهم من اعتبره إلهًا، ومنهم من اعتبره ابنًا لله.

— بقيت أحداث تلك الليلة الحقيقة خافية على اليهود والنصارى وكل ظنهم أن المقتول المصلوب هو عيسى ابن مريم رسول الله، حتى بعث الله محمدًا رسولاً (ﷺ)، وأنزل عليه القرآن، وذكر في آياته حقيقة ما جرى[631].

---

[630] صلاح الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 376/4.

[631] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 377/4.

6 . نظرات في الآيات التي تحدثت عن قتل الشبيه:

بعد تلخيص تلك الأحداث في النقاط السابقة المتسلسلة نفهم معنى قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ **[النساء: 157-159].**

. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾: لم يقتل اليهود عيسى عليه، ولم يصلبوه على الصليب.

. ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾: ألقى الله شبه عيسى ابن مريم على تلميذه، فصار ذلك التلميذ المشبّه أمام الناس المشبه به تمامًا، وأخذ اليهود والجنود عيسى الثاني الشبه وقتلوه وصلبوه، لكن عيسى بن مريم الحقيقي رسول الله لم يقتلوه ولم يصلبوه.

. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾: فهناك شخص مقتول، يشبه عيسى تمامًا، لكن من هو؟ أهو عيسى الحقيقي أم عيسى الشبه؟ اختلفوا في ذلك القتل والصلب على من وقع.

. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا﴾: ينطبق على الطائفتين: اليهود الذين قالوا: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول، والنصارى الذين قالوا: رسولنا عيسى قتله وصلبه اليهود. لقد كانت الطائفتان في شك من هوية المقتول المصلوب.

. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾: ليس عند اليهود والنصارى علم حازم يقيني في المقتول، هل هو عيسى أم غيره؟

. ﴿إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾: بعد نفى على اليهود والنصارى العلم بهوية المقتول، أثبت لهم الظن فيه، وأنكر عليهم اتباع ذلك الظن الذي لا يقود إلى اليقين، وإنما إلى الحيرة والشك، والمعنى: شاهد اليهود والنصارى شخصًا مقتولاً مصلوبًا يشبه عيسى شبهًا تامًا كاملاً، فاختلفوا في تحديد هويته، أهو عيسى أم غيره، ولم يحققوا في ذلك علمًا وصاروا في شك وحيرة، لأنهم اتبعوا

الظن، واتباع الظن يقود للشك، ولا يوصل صاحبه إلى علم[632].

. ومعنى قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً *﴾: بعدما نفى عنهم العلم بهوية، نفى عن اليهود القتل اليقيني لعيسى عليه السلام فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً *﴾، والضمير الهاء في يعود على عيسى عليه السلام: أي: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ قتلوا عيسى متيقنين أنه عيسى، بل كانوا في ذلك شاكين متوهمين.

لقد قتلوا شخصًا ظنوه عيسى، لكنهم ما قتلوا عيسى يقيناً، وإذا كانوا ما قتلوا عيسى ابن مريم رسول الله فأين عيسى إذًا؟ وماذا كانت نهايته؟ وماذا جرى له في تلك الليلة؟

الجواب في قوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ **[النساء: 158]**.

. ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾: بل: حرف إضراب، فقد تمّ فيها الإضراب عن الكلام السابق وإبطاله وإلغاؤه وهو مزاعم اليهود بقتل عيسى، وإن قوله: : إبطال وإلغاء لقول اليهود: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ **[النساء: 158]** ،﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ **[النساء: 157]** ، وهو صريح في أن الله رفعه بروحه وبدنه حيًا من سقف البيت إلى السماء.

لقد وعد الله عيسى قبل تلك الحادثة أن يتوفاه، ويرفعه إليه وذلك في قوله تعالى: أي: إني سألقي عليك ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ **[آل عمران: 55]**، ثم أرفعك إليّ، وبذلك أطهرك من الذين كفروا، ولما صار عيسى في الخطر وجاء اليهود والجنود لقتله وصلبه حقق الله له وعده، وتوفّاه وألقى عليه النوم، ثم جعل فتحة في سقف البيت ورفعه إليه في السماء، وكان رفعه بروحه وبدنه، رفعًا ربانيًا خاصًا، وهو آية بينة ومعجزة باهرة.

. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *﴾: عقبت الآية على رفع عيسى إلى السماء بالإشارة إلى عزّة الله، وهذا تعقيب يتناسب مع ما قبله، فالله عزيز قوي قادر قاهر، ينصر أولياءه ويحفظهم ويفرج عنهم ويحميهم من أعدائهم، كل ذلك بعزّته، ولذلك رفع عيسى عليه السلام إليه ونجاه من مكر اليهود بعزّته، والله حكيم في تدبيره وتقديره وقضائه وتصريف أمور خلقه ومن حكمته

---

[632] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 378/4.

إنجاء رسوله عليه السلام بتلك الطريقة الباهرة، وإيقاع أعدائه في الحيرة والظن والشك والوهم[633].

وعندما ننظر في حديث القرآن عن أحداث تلك الليلة فإننا نرى تأكيد اليهود على قتل عيسى، وذلك التأكيد الذي ظهر في قولهم: حيث جمعوا بين اسمه ولقبه ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾، للتأكيد على جزمهم بقتله. ونرى أيضًا تأكيد القرآن على كذبهم في تأكيدهم باستخدام ثلاث جمل منفية ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً*﴾، لقد نفى قتلهم له، ثم أكد ذلك بنفي صلبهم له، والنفيان متلازمان، فبما أنهم لم يقتلوه، فإنهم لم يصلبوه، والنفي الثالث ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً *﴾، وبما أن اليهود لم يقتلوا عيسى رسول الله، وإنما رفعه الله إليه، فهو حي عنده في السماء، لم يمت وسينزل في اخر الزمان بأمر الله ويعيش باقي عمره الذي قدره الله له، وسيؤمن به أهل الكتاب الذين يكونون أحياء عند نزوله على أنه عبد الله ورسوله، وقد أشار إلى هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ **[النساء: 159]** [634]. وسيأتي الحديث عن هذه الآية عندما نتكلم عن نزول عيسى عليه السلام في اخر الزمان.

7. اضطراب الأناجيل في أحداث تلك الليلة وأقربها إنجيل برنابا:

إنَّ الأناجيل الأربعة: (متّى، لوقا، مرقس، يوحّنا)، وهي المعتمدة عند النصارى اضطربت في حديثها عن تلك الليلة اضطرابًا كبيرًا، واختلفت اختلافًا بينًا وتناقضت تناقضًا واضحًا، حيَّر النصارى المؤمنين بهذه الأناجيل، وجعلهم في شك واضطراب لا يعرفون ماذا جرى في تلك الليلة.

وأقرب ما سجل في تلك الأناجيل من الحقيقة القرآنية التي عرضناها، هو ما ورد في إنجيل (برنابا) هو الإنجيل الذي لا يؤمن به النصارى، ولا يعتمدونه، حيث يرى (برنابا) ـ أحد حواريي عيسى عليه السلام ـ أن أحد الحواريين وهو (يهوذا الإسخريوطي) هو الذي وشى بعيسى وتامر

[633] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 381/4.

[634] المرجع السابق، 382/4.

عليه وخانه، واتفق مع اليهود للمجيء إليه واعتقاله، ولما جاء بهم ألقى الله شبه عيسى عليه، فأخذوا (يهوذا) وصلبوه على إنه عيسى، ويختلف برنابا في هذه النقطة مع ما سبق ذكره من قول ابن عباس وجمهور العلماء من أن المشبّه الفدائي هو أحد الحواريين الصالحين، تبرع وتطوع ليُقتل وينجو عيسى عليه السلام والله أعلم بالذي حصل.

ورد في الفصل الحادي عشر بعد المئتين من إنجيل برنابا أن عيسى عليه السلام أخبرهم قبل أيام من الحادثة، أنه حان وقت مغادرته لهذا العالم: «ولما كان يسوع في بيت (نيقوديموس) وراء جدول (قدرون) عزّى تلاميذه قائلاً: لقد دنت الساعة التي أنطلق فيها من هذا العالم، تعزَّوا ولا تحزنوا، لأنني أمضي ولا أشعر بمحنة»[635].

وورد في الفصل الثالث عشر بعد المئتين من إنجيل برنابا حوار بين عيسى عليه السلام والحواريين ومنهم يهوذا الإسخريوطي: «وقال يسوع أيضاً الحق أقول لكم: إن واحدًا منكم سيسلمني، فأباع كخروف، ولكن ويلٌ له، لأنه سيتم كل ما قال داود أبونا عنه أنه سيسقط في الهوة التي أعدّها للاخرين؟ فنظر من ثمّ التلاميذ بعضهم إلى بعض، قائلين بحزن: من سيكون الخائن.فقال حينئذ يهوذا: أنا هو يا معلم؟ أجاب يسوع: لقد قلت أنت لي من الذي سيسلمني» [636].

وخُصّصَ الفصل الخامس عشر والسادس عشر بعد المئتين في الإنجيل للحديث عن ليلة رفع عيسى والقبض على الخائن.

قال: «ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دنو جمع غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفًا، وكان الأحد عشر نيامًا، فلما رأى الله الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة، في صحبة الملائكة التي تسبّح الله إلى الأبد، ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أُصعد منها يسوع وكان

---

[635] إنجيل برنابا، تحقيق: سيف الدين أحمد فاضل، دار القلم، دمشق، ط1، 1393هـ، 1973م، ص284.

[636] إنجيل برنابا، ص284.

التلاميذ كلهم نيامًا، فأتى الله العجيب بأمر عجيب فتغيّر يهوذا في النطق والوجه، فصار شبهًا بيسوع، حتى اعتقدنا أنه يسوع، أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش، لينظر أين كان المعلّم، لذلك تعجبنا أجبنا: أنت يا سيد هو معلمنا، أنسيتنا الان؟

أما هو فقد قال مبتسمًا: هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفوا يهوذا الإسخريوطي، وبينما كان يقول هذا، دخلت الجنود، وألقوا أيديهم على يهوذا لأنه كان شبيهًا بيسوع من كلّ وجه، أما نحن فلما سمعنا قول يهوذا ورأينا جمهور الجنود هربنا كالمجانين، ويوحنا الذي كان ملتفًا بملحفة من الكتان ترك ملحفة الكتان وهرب عريانًا لأنّ الله سمع دعاء يسوع، وخلص الأحد عشر من الشر، فأخذ الجنود يهوذا، وأوثقوه، ساخرين منه، لأنه أنكر ـ وهو صادق ـ أنه يسوع.

فقال الجنود مستهزئين به: يا سيدي لا تخف لأننا قد أتينا لنجعلك ملكًا على بني إسرائيل، وإنما أوثقناك لأننا نعلم أنك ترفض المملكة. أجاب يهوذا: لعلكم جننتم: إنكم أتيتم بسلاح ومصابيح لتأخذوا يسوع الناصري كأنه لص، أفتوثقونني، أنا الذي أرشدتكم إليه» [637].

ويكمل برنابا سرد القصة إلى أن صلب يهوذا الإسخريوطي، ودفن على أنه عيسى؛ لأن الله ألقى شبه عيسى عليه[638].

وهذا العرض من برنابا ـ وهو شاهد عيان ـ يتوافق مع قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [639].

8 ـ فكرة الصلب والفداء، ومفهومها في عقيدة النصارى:

صُلب المسيح في معتقدهم للتكفير عن خطيئة البشر، هو الأساس الثاني في عقائد النصارى، بل هو الركن الأعظم الذي تدور حوله هذه العقائد، فمسألة النبوة والتأليه في نظرهم هذه علة لمسألة الصلب.

[637] المرجع السابق، ص288 ـ 289.

[638] إنجيل برنابا، ص289 ـ 293

[639] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 386/4.

وتقوم هذه العقيدة ـ كما تقول المسيحية ـ على أن الجنس البشري قد وُصم بوصمة المعصية، وأن هذه الوصمة قد نالته من جراء أكل آدم من الشجرة المحرمة، بإيعاز من الحية، فأصبح على ذلك مستحقًا للعنة الله، محكومًا عليه بالهلاك الأبدي في الجحيم[640].

ويقولون بجانب ذلك: إن رحمة الله شاءت تخليص هذا العالم، والتجاوز عن ذلك الذنب الفطري المورث له، فوجب تقديم الترضية اللازمة لله، ويقولون: إنه لما كان المحكوم عليه بالموت يجب تنفيذ الحكم عليه أو تقديم غيره أو تطوع سواه بدلاً عنه فقد سمح الله بتضحية ابنه على الصليب كفارة على الناس، لأن خطيئة آدم ظلت عالقة في ذريته حتى جاء يسوع الذي جمع بين الألوهية والبشرية، فهو ابن الله وابن مريم فصلب جسمه البشري ليمحوا الخطيئة عن أبناء آدم، وبالرغم من ذلك فإنهم يدّعون أنه لا ينجو من آمن بهذه الدعوى واتخذها له عقيدة[641].

وعليه فإن الفداء عند النصارى: هو الخلاص من الموت الناتج عن الخطيئة التي دخلت إلى البشرية بادم[642].

ويعتقد النصارى أن المسيح مات مصلوبًا فداء للخليقة وذلك أن الله ـ لشدة حبه للبشر ـ قد أرسل وحيده ليخلص العالم من الخطيئة التي ارتكبها آدم حينما أكل من الشجرة المحرمة، وأن عيسى قد صلب عن رضى تام، فتغلب بذلك عن الخطيئة، وأنه دفن بعد صلبه وأنه قام بعد ثلاثة أيام متغلبًا على الموت، ثم ارتفع إلى السماء، ومن لم يؤمن بقضية الصلب لا يُعد نصرانيًا، لذلك آدمجوا قضية الصلب في دستور إيمانهم الذي يجمع كل عقائدهم، وعلى هذا فالله كما يزعم النصارى نزل من السماء وتجسد في الروح القدس ومريم العذراء، وتأنس وصلب بإراقته دمه ليرفع عن البشر وزر خطيئة آدم[643].

وعقيدة الصلب هذه باطلة من أولها إلى اخرها؛ لأن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله لم يصلب، بل رفعه الله إليه، والمسيح عليه السلام لم ينسب إلى نفسه الخلاص، كذلك لم ينسب

[640] محمد علي عبد المعطي أحمد، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص536.

[641] محمد وصفي، المسيح والتثليث، المطبعة الرحمانية، مصر، ط1، 1937م، ص148.

[642] محمد علي عبد المعطي أحمد، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص537.

[643] أبو عبيدة الخزرجي، بين الإسلام والمسيحية، تحقيق: د. محمد شامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، ص72.

الحواريون إلى عيسى الخلاص، وإنما الذي نسب إلى المسيح أنه مخلص هو بولس، الذي كان من ألد أعداء المسيحية، ثم انقلب فجأة وبدون مقدمات إلى المسيحية وأصبح عقلها المفكر وراعيها المدبر، وكان أول إعلان له أن المسيح ابن الله، ونسب إلى المسيح أنه الإله المتجسد الذي نزل ليصلب ويخلص البشرية على غرار الالهة المخلصين الوثنين.

ولقد انتشرت عقيدة بولس في الخلاص بسبب الأسلوب الذي استخدمه لنشر دعوته، والطريقة التي سار عليها، إذ رأى أن يخرج بالمسيحية من دائرتها الضيقة في بيت المقدس إلى الميدان الواسع في البيئات غير اليهودية، ولكي تناسب دعوته هذا المجتمع الجديد أجرى بعض التعديلات للعقائد التي لا يرضى عنها هذا المجتمع الجديد.

إنَّ عقيدة الخلاص المسيحية، التي هي من وضع (بولس) قائمة على أسس باطلة، وهي أن آدم عليه السلام أخطأ، وهذه الخطيئة انتقلت بالوراثة إلى كل أبنائه والطريق الوحيد للخلاص منها هو ما زعموه من أن الله نزل وتجسّد في صورة بشرية ليصلب ويتغلب على الموت فيقوم، وبذلك ينال الناس الخلاص[644].

إننا نُنزِّه المسيح عليه السلام عمّا جاء في كتب النصارى من الصلب والإهانات التي تعرض لها، وما ذلك التنزيه إلا لأن المسيح عليه السلام واحد من رسل الله المصطفين الأخيار الذين اختارهم الله لتبليغ رسالته إلى خلقه، فكيف يهان هذه الإهانة وقد جعله الله مباركًا كما أخبر المسيح عن نفسه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ **[مريم: 31]**.

إنَّ النصارى استندوا في قولهم بالصلب على الأناجيل، وقد بينا أنها محرفة ومبدلة ومتناقضة وذلك بالدليل والبرهان وأنها لم تنقل عن طريق التواتر، فهي أخبار احاد مقطوعة الصلة بالمسيح؛ لانقطاع سندها فكل ما جاء فيها من أخبار مشكوك فيه، ولا يرقى أبدًا إلى درجة الصدق واليقين.

وقد أجمعت الفرق النصرانية المثلِّثة على أن المسيح صلب تكفيرًا عن خطيئة آدم التي ارتكبها

---

[644] أحمد علي عجيبة، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، دار الافاق العربية، القاهرة، 2006، ص755.

وتوارثها أبناؤه من بعده، ومن أجل أن تمحى الخطيئة لا بدَّ أن يتجسد الإله ويقتل، وأن يدخل نار جهنم ويعذب نفسه عذابًا أليمًا، ثم يصير الإله ملعونًا بذلك الصليب، كل ذلك فعله الإله في زعم ـ النصارى ـ ليمحو خطيئة آدم، فهل يعقل في حق الله سبحانه وتعالى[645]؟

ولا شك أن هذا الاعتقاد به جهل بالغ وفاضح، تنكره العقول السليمة والفطر المستقيمة، والعلوم الراسخة التي مصدرها هدايات السماء من الوحي المعصوم الذي من عند الله عز وجل والذي بيّناه في الصفحات السابقة.

ومن الردود التي ذكرها العلماء في هذا الباب:

أ ـ ليس عند الله خطيئة موروثة:

تحتاج إلى التكفير عنها بصلب نبي أو ابن الله، بل آمن المسلم أن كل إنسان مسؤول عمّا اقترفه ومحاسب عليه، والإنسان يولد مُبرأ من كل خطيئة ومن كل ذنب، وإنما يولد على الفطرة مهيئًا لقبول الحق، ذلك أن الفطرة هادية إلى الخير والحق، فالإنسان يولد نظيفًا لا يحمل شيئًا من أوزار من سبقه، وإذا كان الإنسان لا يحمل وزر غيره، فإن غيره لا يحمل وزره، وإنما كل إنسان مسؤول عن عمله.

— قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ **[الأنعام: 164]**

والشرائع السماوية اتفقت على هذا المبدأ.

— قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ **[النجم: 36-41].**

وإن القول الكريم ليصور لنا أخذ البريء بالمذنب لا على أنه مضاد للشريعة فحسب، بل هو مع ذلك غير متوافق مع الفكرة الأساسية للعدالة الإنسانية[646]، قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ

[645] محمد علي عبد المعطي أحمد، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص545.

[646] أحمد علي عجيبة، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، ص757.

اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ [يوسف: 79].

ب ـ إذا كان آدم عليه السلام قد أخطأ فما ذنب ذريته حتى يتوارثوا خطيئته من بعده:

هذا مبدأ قد نهت عنه كل الشرائع، وهل من العدل أن يضار البشر جميعًا بسبب خطيئة ارتكبها آدم، وكيف رضي الله أن يخلد موسى وإبراهيم وسائر الأنبياء والمرسلين في النار بسبب خطيئة آدم؟ ثم ما بال المسيح يتحملُ وزر وجريرة آدم ويلقى ذلك العذاب الذي استغاث عنه استغاثة شديدة، ويا ليته المسيح فحسب، بل الإله ـ في زعم النصارى ـ فالخطيئة لم تقتصر على النوع الإنساني بل تعدته إلى الإله فذاق مرارة العذاب ألوانًا[647].

إن أكل آدم من الشجرة، لا يعدُّ خطيئة يترتب عليها العقاب، ذلك آدم عليه السلام كان نبيًا والأنبياء معصومون من الخطأ، وما وقع منه من الأكل من الشجرة ـ إنما هو من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين التي لا يؤاخذ عليها آدم ـ على أن آدم أكل من الشجرة ناسيًا، والله سبحانه وتعالى أكرم من أن يؤاخذ عبدًا على ذنب فعله ناسيًا.

هذا إلى جانب أن آدم تاب، والتوبة تغسل الحوبة وتغفر الذنب، والله سبحانه وتعالى قبل توبته فهو سبحانه وتعالى التواب الرحيم، كل ذلك ينفي الذنب عن آدم، وبالتالي ينفي وراثته حيث إنه لا يوجد ذنب، كما أن إهباط آدم إلى الأرض ليس عقوبة كما يتوهم النصارى، بل تكريمًا وتشريفًا، حيث يباشر مهمة استخلافه في الأرض، كما وعد الله من قبل في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]

والله تعالى ما نزل بادم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله، ولقد أنزله إلى الأرض قبل أن يخلقه لقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال في الجنة ولا في السماء، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتشريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلمّا توافرت فيه العبوديتان استحقّ أن يكون خليفة[648].

---

[647] محمد علي عبد المعطي أحمد، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص547.

[648] أحمد علي عجيبة، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، ص756.

ويدل على ذلك أيضًا أن القرآن الكريم أشار إلى أن إهباط آدم إلى الأرض كان بعد التوبة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ۝ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ **[طه: 122-123]** ، وهذا يدل على أن إهباط آدم إلى الأرض كان تكريمًا وتشريفًا، إذ أن التوبة تمحو الذنب، فلا بدَّ أن يكون لإهباط آدم معنى اخر غير العقوبة على الذنب، وأقرب المعاني إلى الاجتباء هو التكريم والتشريف، هذا إلى جانب أن نزول آدم إلى الأرض ليكون خليفة في الأرض وليحصل على معيشته بالكد والتعب والمشقة، ولاشك أن الثواب مع المشقة والتعب أكثر، فثوابه وهو على الأرض أكثر، وهذا يدل على أن إهباط آدم إلى الأرض ليحصل على ثواب عظيم ولحكمة بالغة أرادها الله في خلقه وتعمير ملكه[649].

ج. إنَّ الأناجيل التي تحدثت عن الصلب تختلف اختلافًا شديدًا وتتناقض تناقضًا بيّنًا:

تختلف في ذكرها لقصة الصلب سواء كان حامل الصليب هو المسيح أم إنسان غيره، وسواء كان الشراب الذي شربه المصلوب خمرًا عادية أم خمرًا ممزوجة بمرارة[650]، وهل اللصان اللذان كانا مصلوبين معه كانا يعيرانه؟ أو واحد منهما هو الذي كان يعيره[651]، وهل وقع الصلب في الساعة الثالثة أو السادسة[652]؟ وهل صرخ المصلوب أم أنه أسلم الروح[653]. وهل النساء اللاتي شاهدن المصلوب كنّ كثيرات لا حصر لعددهن أو نساء معدودات معروفات[654]؟

اختلفت الأناجيل في كل جزئية من النصوص التي تحدثت عن الصلب، اختلفت حول حامل الصليب، وشراب المصلوب، وسبب الصلب، وموقف اللصين من المصلوب، ووقت الصلب، وصلاة المصلوب وصراخه، وغيرها من الأحداث التي أعقبت الصلب والشهود وغيرها، وهذا الاختلاف الشديد يكفي لرفض ما جاء في هذه الأناجيل، لأنه بتصديق بعضها

[649] أحمد علي عجيبة، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، ص756.

[650] مرقس (23/15)، ص59، لوقا (36/23)، ص35 . 36.

[651] مرقس (27/15 . 32)، ص59، لوقا (39/23 . 43)، ص35 . 36.

[652] مرقس، ص138؛ محمد علي عبد المعطي أحمد، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص549.

[653] محمد علي عبد المعطي أحمد، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص549.

[654] المرجع السابق، ص549.

يتعين تكذيب الباقي، وحيث إنه لا يعرف الصادق من الكاذب، فيترتب على ذلك تطرق الشك والكذب إليها جميعًا، ولم يقف اختلاف النصارى حول قضية الصلب عند هذا الحد، بل وصل بهم الأمر إلى أنهم اختلفوا في شكل الصليب الذي علق عليه المصلوب فقد ذكر في قاموس الكتاب المقدس أن للصليب ثلاثة أشكال وهي:

- الصليب (X)
- والصليب(T)
- والصليب (+) [655].

فإذا كان النصارى مختلفين في شكل الصليب فهذا يؤكد أنهم اشتبه عليهم كل شيء فيما يتصل بقضية الصلب، وأن الحقيقة قد غابت عنهم، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ **[النساء: 157]** لقد كان موقف القرآن الكريم واضحًا في ذلك الشأن، حيث نقض الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم دعوى الزاعمين قتل المسيح وصلبه، ونفى وقوع القتل والصلب، وإنما وقع على شخص اخر شبيه له، وهذا هو القدر الذي يتحتم الجزم به[656].

لقد اختلفت الأناجيل المعتمدة عند النصارى في ذكر أحداث الصلب اختلافًا كثيرًا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ **[النساء: 157-158].**

وإذا كانت عقيدة الصلب عند النصارى باطلة ولا أساس لها فإن ما يترتب عليها باطل وبذلك بطلت عقيدة قيامة المسيح من القبر، وبقدر ما أخذت مسألة صلب المسيح في العقيدة النصرانية من أهمية فقد أخذت قيامته الأهمية الأكبر في هذه العقيدة، حيث تأسست عليها قضايا عقيدية غاية في الحساسية وغاية في الخطورة، والسبب في ذلك ربط هذه القيامة بألوهية المسيح، وما يترتب على ذلك من رُؤى عقدية وفلسفية مسيحية، وشرع اباء الكنيسة الأسرار

---

[655] محمد علي عبد المعطي أحمد، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص549.

[656] محمد علي عبد المعطي أحمد، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص553.

الكنسية والتي لم تكن معروفة زمن المسيح عليه السلام ولم تكن من الأمور التعبدية ولا التشريعية التي جاء بها، واختلفوا في عددها وجعلوا لها طقوسًا تمارس عند أدائها وكان من أهمها، التمهيد والعشاء الرباني، وتقديس الصليب وحمله[657].

إنَّ الخلاص المسيحي تأثر بالعقائد الوثنية، فالتجسّد الإلهي من أجل الخلاص من المعتقدات الوثنية التي كانت منتشرة في البلاد اليونانية ثم الرومانية قبل ظهور المسيح بمئات السنين، وكان لظهورها في هذا البلاد أكبر الأثر في تأثر دعاة المسيحية بها، كما أن صلب وتعذيب الإله من أجل الخلاص صورة وثنية أخرى كانت سائدة في المجتمعات الوثنية قبل المسيحية، وقيامة المخلص من أجل الخلاص صورة وثنية ثالثة ظهرت بين الوثنيين قبل المسيحية، وعليه فالخلاص عقيدة وثنية انتقلت إلى المسيحية بفضل بولس وأتباعه، ولم يفعلوا شيئًا سوى وضع اسم المسيح عيسى ابن مريم بدلاً من هؤلاء الالهة المخلّصين الوثنيين[658].

. لقد ظلت التعاليم التي جاء بها المسيح عليه السلام على نقائها إلى أن دخل بولس النصرانية، فطمس معالم الديانة وصاغها صياغة جديدة من الخرافات الوثنية التي ورثها من الديانات القديمة، وضمنها رسائله التي تقارب نصف العهد الجديد الذي يقدسه النصارى، فجاء بعقيدة الصلب والفداء والخطيئة وألغى الختان وأحل لحم الخنزير، ويمكن القول بأن المسيحية الحالية هي مسيحية بولس وليست مسيحية عيسى عليه السلام.

. لقد كان لدخول الوثنيين في النصرانية أمثال الإمبراطور قسطنطين الأثر الأكبر على تلقيح النصرانية بالتعاليم الوثنية واقتباسها منها الكثير، وقد بيَّن الباحثون من أمثال الدكتور محمد علي عبد المعطي[659]، والدكتور أحمد علي عجيبة أستاذ العقيدة والأديان[660] أن ما يؤخذ من عقائد وشرائع في النصرانية لها ما يماثلها في الديانات الوثنية كالبوذية والزرداشتية، والمصرية القديمة[661].

---

[657] المرجع السابق، ص609.

[658] أحمد علي عجيبة، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، ص758.

[659] محمد علي عبد المعطي أحمد، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص607.

[660] يُنظر: كتاب الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه للمؤلف أحمد علي عجيبة.

[661] محمد علي عبد المعطي أحمد، مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص607.

. لقد تولدت عقيدة التثليث من قرارات المجامع المتعددة، وفي أزمنة مختلفة: فمجمع نيقية سنة (325م) قرّر ألوهية المسيح. ومجمع القسطنطينية الأول سنة (381م) قرّر ألوهية الروح القدس. ومجمع أفس الأول سنة (431م)

قرّر أن الالهة ثلاثة: أب، ابن، وروح القدس، ثم اختلفوا بعد ذلك في طبيعة المسيح هل هو:

- ذو طبيعة واحدة؟
- أم ذو طبيعتين؟
- هل هو منشق من الأب وحده، أم من الأب وروح القدس معًا؟

وبهذا يتضح أن عقيدة التثليث التي يؤمن بها النصارى لم يأتِ بها المسيح عليه السلام، ولم يأمر بها أتباعه[662].

ذلك لأنّ عيسى عليه السلام كما بين هذا الكتاب رسول الله، ما دعا الناس إلاّ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنه عليه السلام لم يدع لنفسه منصبًا أكثر من أنه عبد الله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ **[مريم: 30]**، وقال تعالى:﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ **[المائدة: 72]**.

ولقد بين القرآن الكريم أنه عليه السلام سيتبرأ من معتقدات النصارى الحالية يوم القيامة، وذلك حين سؤال الله له: قال تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ **[المائدة: 116-117]**. إن مغفرة الله للذنوب والخطأ لا تتوقف على الفداء، وإنما تأتي نتيجة الايمان الصحيح بالله عز وجل وتحقيق العبودية له سبحانه والتوبة إليه وعمل

[662] المرجع نفسه، ص608.

الصالحات ابتغاء مرضاته واجتناب الكبائر والمنكرات[663].

إن طريق الخلاص من عذاب الله والوصول إلى مرضاته سبحانه وتعالى ثم دخول جناته الواسعة يحتاج إلى توبة صادقة، فعلى العبد أن يتوب عن كل إثم ويمتنع عن كل عمل يبعده عن الله عز وجل، وعليه أن يخلص النية في هذه التوبة.

– يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ **[المائدة: 39]**.

– ويقول تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ **[مريم: 60]**.

– ويقول تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ **[طه: 82]**.

– ويقول تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ **[الفرقان: 70]**.

– وفي قوله: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، جاء في تفسير الآية أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا لأنه كلما مال وأذنب، ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار يوم القيامة، وإن وجده مكتوبًا عليه، فإنه لا يغيره وينقلب حسنة في صحيفته[664].

– وأما الايمان فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ **[البقرة: 285]**.

– وقال تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ **[النساء: 136]**.

إذًا فالإيمان هو أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر، والإيمان هوا الخطوة الثانية على طريق الخلاص القرآني، والمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد فرد صمد لا إله غيره

---

[663] أحمد علي عجيبة، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، ص758.

[664] صلاح أبو السعود، إزهاق الباطل والرد على شبهات القمص زكريا بطرس، مكتبة النافذة، مصر، ط1، 2009م، ص286.

ولا ربّ سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل، والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرّقون بين أحد منهم، فلا يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارّون راشدون مهديون هادون الى سبيل الله، ويؤمنون بوجود الملائكة ويؤمنون باليوم الاخر، وأن هناك يوم سيحاسب فيه الجميع فيثاب المحسن ويعاقب المسيء[665].

– قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ **[النساء: 40]**، ليس هذا فقط ولكن الله سبحانه وتعالى يضاعف الحسنة بعشر أمثالها، وأما السيئة فلا يجازى العبد إلا مثلها، قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ **[الأنعام: 160]**.

– وأما من ينفق أمواله في سبيل الله وابتغاء مرضاته فإن الحسنة تتضاعف الى سبعمائة ضعف، يقول الله عز وجلَّ : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ **[البقرة: 261]**.

– إن طريق الجنة كما رسمه الله تعالى في القرآن الكريم يكون عبر الإيمان الصحيح بالله عز وجل وأركان الإيمان الستة، الإيمان بالله واليوم الاخر، وكتبه ورسله وملائكته والقدر خيره وشره، والعمل الصالح من صلاة وزكاة، وحج وصيام وذكر وتلاوة وصدقة واستغفار وثناء وحمد على الله ...إلخ، حتى تكون الموازين ثقيلة يوم القيامة برحمة الله تعالى وتوفيقه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ **[القارعة: 6-7]**.

– والعمل الصالح الذي يثقل موازين العبد يوم القيامة هو كل طاعة أمر الله بها سبحانه وتعالى بالامتثال لأوامره واجتناب نواهيه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ **[النساء: 13]**[666].

سادسًا: نزول عيسى عليه السلام في اخر الزمان:

إنَّ الله عزَّ وجل رفع عيسى عليه السلام إليه، وأنه الان حيٌّ في السماء حياة طيبة، وقد التقى به رسولنا (ﷺ) في رحلة الإسراء والمعراج، التقى به أولاً في المسجد الأقصى، عندما

[665] المرجع السابق، ص286.

[666] صلاح أبو السعود، إزهاق الباطل والرد على شبهات القمص زكريا بطرس، ص286.

صلى رسول الله (ﷺ) بالأنبياء إمامًا، وكان عيسى عليه السلام مأمومًا خلفه، ثم التقى به ثانيًا لما عُرج به إلى السماء، حيث أخبرنا أنه قابل عيسى عليه السلام في السماء الثانية، ففي حديث الإسراء والمعراج: «فأتينا السماء الثانية، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد (ﷺ)، قيل: أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت على عيسى ويحي فقالا: مرحبًا بك من أخ ونبي»[667].

1 . صفة عيسى عليه السلام:

أخبرنا رسول الله (ﷺ) عن بعض صفات عيسى عليه السلام الخَلقية وهيئته الخارجية، فعن أبي هريرة، رضي الله عنهما، عن النبي (ﷺ) قال: «ليلة أسري بي رأيت موسى، فإذا هو رجل ضرب، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى، فإذا هو رجل ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس...» [668].

ومن خلال أحاديث صحيحة عديدة ذكرها رسول الله (ﷺ) نستطيع أن نشكل هذه الصورة لعيسى عليه السلام: قامته معتدلة، ولونه أبيض مُشرّب بالحمرة، وشعر رأسه سبط ممتد إلى منكبيه ولونه أسود، كأنه يقطر ماء ولم يُصبه بلل، وذلك من بهائه، وهو متدفق حيوية ونضارة وبهاء[669].

2 . أدلّة نزول عيسى عليه السلام من القرآن الكريم:

. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ **[الزخرف: 57-62]**، والشاهد في الآيات قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾، والهاء في (إنه)

---

[667] البخاري، رقم 3207، وانظر: مسلم رقم 164. وانظر: صلاح الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 399/4.

[668] البخاري رقم 3394، مسلم رقم 168.

[669] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 401/4.

تعود على عيسى عليه السلام، لأن الآيات تتحدث عنه، والمعنى: إن عيسى عليه السلام علم تُعلم به الساعة، أي: أن نزوله في اخر الزمان سيكون علامة من علامات الساعة، دالّة على قرب قيامها[670].

. قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ **[النساء: 159]**. والهاء في (موته) تعود على عيسى عليه السلام، والمعنى: كل واحد من أهل الكتاب سيؤمن بعيسى عليه السلام أنه عبد الله ورسوله وهذا يكون عند نزوله في اخر الزمان حيث يقتل الدجال ويكسر الصليب ولا يقبل من الناس إلا الإسلام. والمعنى: أهل الكتاب يؤمنون بعيسى عند نزوله في اخر الزمان ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيدًا، يشهد على من كذَّبه بالكفر، ويشهد لمن صدَّقه بالإيمان، وعلى هذا القول الراجح تكون الآية خبرًا عن نزول عيسى عليه السلام في اخر الزمان[671].

3 . أدلّة نزوله من السنة المطهرة:

وأما الأحاديث الصحيحة التي تحدثت عن نزول عيسى عليه السلام فهي كثيرة، بحيث خصص لها الإمام الكشميري كتابًا خاصًا سماه: (التصريح بما تواتر في نزول المسيح)، وسنذكر بعضاً منها:

— ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «والذي نفسي بيده، ليوشِكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها». ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم؛ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ **[النساء: 159]**[672].

— روى مسلم عن جابر رضي الله عنه، قال: سمعت النبي (ﷺ) يقول: «لا تزال طائفة

[670] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 403/4.

[671] المرجع نفسه، 405/4.

[672] صحيح البخاري، 490/6.

من أمَّتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: صلِّ لنا، فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»[673]. ولن أذكر جميع الأحاديث الواردة في نزوله خشية أن يطول البحث، وقد جاءت هذه الأحاديث في الصحاح والسنن والمسانيد وغيره من دواوين السنة، وهي تدل دلالة صريحة على ثبوت نزول عيسى عليه السلام في اخر الزمان[674].

– وقال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: اعلم أن أحاديث الدّجّال ونزول عيسى عليه السلام متواترة، يجب الإيمان بها ولا تغترّ بمن يدَّعي فيها أنها أحاديث أحاد، فإنهم جهّال بهذا العلم، وليس فيهم من تتبَّع طرقها؛ ولو فعل لوجدها متواترة، كما شهد بذلك أئمة هذا العلم كالحافظ ابن حجر[675].

– وقال القاضي عياض: نزول عيسى وقتله الدّجّال حق وصحيح عند أهل السنّة للأحاديث الصحيحة في ذلك، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله فوجب إثباته[676].

4 . الحكمة في نزول عيسى عليه السلام دون غيره:

ذكر العلماء بعض الحكم من نزوله عليه الصلاة والسلام، من هذه الحكم:

الحكمة الأولى: الردُّ على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه وصلبوه وتبجحهم بذلك: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ **[النساء: 157]** ، فنزوله في اخر الزمان تكذيب من الله لهم، وسيقوم هو بقتلهم وقتل ملكهم المسيح الدجال، فهو الذي يقتلهم، وليسوا هم الذين قتلوه.

الحكمة الثانية: يُنزله الله في اخر الزمان ليستكمل باقي عمره الذي قدره له، ثم يموت، ويدفن في الأرض، إن عيسى عليه السلام مخلوق، وهو حيٌّ في السماء حياة غيبية خاصة طيلة هذه القرون، ولا بد أن يموت، لأن البقاء لله الباقي وحده، ولا يموت في السماء ولا يدفن في

---

[673] مسلم، 194/2، شرح النووي.

[674] يوسف عبد الله الوابل، أشراط الساعة، دار ابن الجوزي، السعودية، ط2، 1411هـ، 1990م، ص349.

[675] الألباني، تمام المنة في التعليق على فقه السنة، دار الراية، الرياض، ط3، 1409هـ، ص79.

[676] شرح صحيح مسلم، 75/18.

السماء، لأن السماء ليست مكانًا لموت البشر ولا مقبرة لهم، فالله خلق الإنسان من تراب الأرض، ودفنهم في تراب الأرض ويبعثهم من تراب الأرض، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ **[طه: 55]**، حيث ينزل الله عيسى إلى الأرض ليموت على الأرض ويدفن فيها، فالسماء ليست قبرًا له.

الحكمة الثالثة: تكذيبهم للنصارى في ادعاءاتهم حوله، وغُلُوِّهم فيه، فيدعوهم إلى عبادة الله وحده ويرفض ما قامت عليه النصرانية من أباطيل وأكاذيب بكسر الصليب وقتله الخنزير ونزوله حيًا في اخر الزمان ردًّ لأباطيل النصارى في أنه قُتل وصُلب ومات، وخرجت روحه على الصليب[677].

الحكمة الرابعة: شهادته العملية لخاتم النبيّين محمد (ﷺ) وللإسلام بأنه الشريعة الخاتمة وإلغاؤه لما قبله من الديانات المنسوخة، كاليهودية والنصرانية، وهذا تكذيب اخر منه لليهود والنصارى، الذين لم يعترفوا بنبوة ورسالة محمد (ﷺ)، فيشهد بأعماله وجهاده أن محمدًا (ﷺ) هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن رسالته خاتمة الرسالات[678].

5 . بماذا يحكم عيسى عليه السلام:

يحكم عيسى . عليه السلام . بالشريعة المحمَّدية، ويكون من أتباع محمد (ﷺ)، فإنه لا ينزل بشرع جديد لأن دين الإسلام خاتم الأديان وباق إلى قيام الساعة لا ينسخ، فيكون عيسى عليه السلام حاكمًا من حكام هذه الأمة، ومجددًا لأمر الإسلام، إذ لا نبي بعد محمد(ﷺ)[679].

6 . انتشار الأمن وظهور البركات:

جاء في حديث النوّاس بن سمعان الطويل في ذكر الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج

[677] محمد أنور شاه الكشميري، التصريح بما تواتر في نزول المسيح، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط4، 1402هـ، 1982م، ص 93 . 94.

[678] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، المرجع السابق، 425/4.

[679] يوسف عبد الله الوابل، أشراط الساعة، ص358.

ومأجوج في زمن عيسى ـ عليه السلام ـ ودعائه عليهم وهلاكهم[680]، وفيه قول الرسول (ﷺ): «ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منهُ بيتُ مدرٍ ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة[681]، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردِّ بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرِّسل[682]، حتى إن اللَّقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللَّقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللَّقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس»[683].

ومن أهم مظاهر البركة بعد نزوله: زوال التحاسد والتباغض والشحناء في قلوب الناس، ومضاعفة حجم الثمار بحيث تكفي الرمانة الواحدة المجموعة من الناس وكذلك عنقود العنب، والبركة في اللبن بحيث يكفي لبن الناقة الجماعة الكبيرة ويكفي لبن الشاة القبيلة، وزوال العداوة بين الحيوانات بحيث يمشي الذئب مع الغنم وانتشار السلم والأمن بين الناس وانتشار الغنى بينهم[684].

7 ـ من أهم أعمال عيسى عليه السلام بعد نزوله:

من خلال حديث رسول الله (ﷺ) الذي رواه النواس بن سمعان في مسلم وغيره من كتب السنة[685]، نلخص ما جاء في الحديث الفقرات المتعلقة بعيسى ـ عليه السلام ـ في النقاط الاتية:

- ينزل عيسى عليه السلام في عنفوان قوة وطغيان المسيح الدجال.
- ويكون نزوله من السماء عند المنارة البيضاء، شرقيّ مدينة دمشق المعروفة.
- وعندما ينزل يكون لابسًا (مهرودتين)، وهما حلتان جميلتان فيهما لون أصفر خفيف جميل فيجمع بين جمال الخِلقة والهيئة وجمال اللباس والزينة.
- ويصاحبه في النزول اثنان من الملائكة، ينزلان من السماء معه حيث يكون بينهما واضعًا كفيه على أجنحتهما.

---

680 المرجع نفسه، ص361.

681 الزلفة: المراة شبَّه الأرض بها لصفائها ونظافتها.

682 الرِّسل: اللبن.

683 صحيح مسلم مع شرح النووي، 63/18 ـ 70.

684 الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 427/4.

685 رواه مسلم رقم 937، سنن الترمذي رقم 2341.

- ويكون رأسه يقطر ماء، وهذا الماء عليه من السماء، فإذا طأطأ عليه السلام رأسه وخفضه نحو الأسفل، نزل منه الماء على شكل قطرات كثيرة متتابعة، وإذا رفع رأسه إلى أعلى نزل منه الماء بطيئًا وتكون قطراته كبيرة كحبات اللؤلؤ.
- ونزوله والماء يقطر من رأسه ليوافق الحالة التي رفعه الله فيها إلى السماء، حيث مرَّ معنا كلام ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه السلام قبل أن يرفعه الله إلى السماء وكان رأسه يقطر ماء، فينزل ورأسه يقطر ماء ليكون نزوله على نفس الحالة التي رفعه الله عليها.
- وعندما ينزل عيسى عليه السلام يُقوّي الله نفسه، ويزيد الله في مدى تأثيره، فَيَصلُ مفعول أنفاسه إلى نهاية بصره، وأيُّ كافر يشمُّ نفسه يموت مباشرةً، قبل أن يصله عيسى عليه السلام، وهذه معجزة لعيسى عليه السلام يُجريها الله على يديه.
- واللطيف أن نفس عيسى عليه السلام جعل الله فيه معجزةً باهرة، فلمّا كان نبيًّا في بني إسرائيل كان ينفخ في التمثال الذي على هيئة الطير، فيجعله الله طيرًا حيًا، أي نفسه كان سببًا مباشرًا في إحياء التمثال الجماد، وعند نزوله في اخر الزمان يكون نفسه سببًا في موت الكفار الأحياء، والله هو المحيي في الأولى والمميت في الثانية.
- ويلحق عيسى ـ عليه السلام ـ المسيح الدجال، فيهرب الدجال منه، ويتوجه إلى فلسطين، فيدركه عيسى عليه السلام في مدينة (اللّد) فيقتله فيها، وهي مدينة فلسطينية بجانب الرملة، وقريبة من بيت المقدس، وبقتله المسيح الدجال يُنهي فتنته الكبرى ويريح الناس من شرّه.
- ويتجمع حول عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ المؤمنون الصالحون، الذين عصمهم الله من فتنة المسيح الدجال، ويفرحون بالتخلص منه، ويسعدون بالحياة مع عيسى عليه السلام، فيمسح على وجوههم ويبشرهم بالفوز ويخبرهم بدرجاتهم في الجنة.
- وبينما هم كذلك في غاية السعادة والسرور يخرج الله قوم يأجوج ومأجوج من جهة الشرق، ويتوجَّهون نحو فلسطين[686].
- ويخبر الله عيسى عليه السلام أنه لا قدرة لأحد على قتال يأجوج ومأجوج، لأنهم أقوى قوة بشرية على وجه الأرض، ويأمر الله عيسى عليه السلام أن يتحصن مع أتباعه المؤمنين في جبل الطور، وهو الجبل الذي في سيناء الذي ناجى موسى عليه السلام ربّه عليه، فإن الله

[686] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 410/4.

سيحميهم من يأجوج ومأجوج.

- يتحصَّن عيسى عليه السلام مع أتباعه المؤمنين على جبل الطور، ويغزو يأجوج ومأجوج البلاد، وهم كثيرون كثرة عجيبة، يملؤون السهول والجبال وينسلون ويسيرون مسرعين في جميع البلدان.
- مما يدل على كثرتهم أن أولهم يمرُّ على بحيرة طبرية المعروفة الواقعة في الجولان، والتي يخرج منها نهر الأردن ليصبَّ في البحر الميت، فيشربون ماءها وما أن يأتي اخرهم عليها حتى يروها جافّة لا ماء فيها لأن من سبقوهم استنزفوها وشربوها فيقولون: علمنا أنه كان هنا بحيرة، وأنه كان فيها ماء، فأين يذهب ماؤها؟
- يحاصر يأجوج ومأجوج عيسى عليه السلام وأتباعه على حبل الطور، حيث يكون المؤمنون محصورين على الجبل، وتكون جموع يأجوج ومأجوج محيطة به.
- يشتد الحصار على المؤمنين، وتضيق عليهم الأمور ولا يجدون ما يأكلون، حتى يكون رأس الثور خيرًا من مائة دينار، لأنهم لا يجدونه.
- ويُقبل عيسى عليه السلام ومن معه على الدعاء، فيدعون الله ويتضرعون إليه، ويطلبون منه إهلاك يأجوج ومأجوج.
- ويستجيب الله دعاء نبيّه وأوليائه المحصورين ويرسل على يأجوج ومأجوج المرض والوباء، ويكون على شكل (النَّغف) في رقابهم، والنغف هو دود يكون في أنوف الإبل والغنم، ويكون هذا وباءً عامًا يقضي عليهم في ليلة واحدة، وإهلاكهم بالدود الصغير لهوانهم على الله ومكره سبحانه بهم، حيث يقضي عليهم ويهلكهم بأهون شيءٍ وأحقره.
- وفي الصباح يُصبحون جميعًا أمواتًا، ليس فيهم إنسان حي.
- وينزل عيسى عليه السلام والمؤمنون عن جبل الطور، فيجدون أرض سيناء حول الجبل مغطاة بجثث يأجوج ومأجوج ويتأذّون بروائح جيف الهالكين الكفار ويطلبون من الله أن يُريحهم من هذه الجيف النتنة.
- يستجيب الله سبحانه وتعالى دعائهم بايةٍ واضحةٍ من آياته، فيرسل طيوراً من عنده، هذه الطيور كبيرة ضخمة، الواحد منها بحجم الجمل الكبير، فتحمل الطيور تلك الجيف وتطرحها بعيدًا.

- ويُتمُّ الله إنعامه على المؤمنين فيرسل مطرًا شديدًا قويًا يعمُّ المنطقة ويَصلُ كل مدنها وقراها وبيوتها وخيامها، ويغسل هذا المطر الأرض من اثار ونتن الكفار ويطهرها ويعقمها فتصبح نظيفةً نقيةً معقمةً.
- ويقيم عيسى عليه السلام والمؤمنون في الأرض المقدّسة، ويحمدون الله على الخلاص من الدجال وجيشه، والخلاص من يأجوج ومأجوج، ويعيشون حياة من أسعد الحياة على وجه الأرض في تاريخ الأرض كله منذ آدم عليه السلام.
- و يأمر الله الأرض أن تُنبت ثمرها، وأن تُعمَّ بركتها، فقد زال الكفر الذي كان يمحق البركة، ويهلك الثمرة، ويكرم الله المؤمنين بالخصب والرفاه والبركة.
- وتكبر ثمار الأشجار كثيرًا ويبارك الله فيها، فإن حبة الرمان الواحدة تكفي الجماعة من الناس بحيث يشبعون منها، وإذا قشّروها وأكلوها، فإنهم يستظلّون بقشرها لكبر حجمه وكأنه خيمة كبيرة، أي أن حجم الرمانة الواحدة يكون بحجم الخيمة.
- وتدرُّ الأنعام من الإبل والبقر والغنم ويبارك الله في حليبها فيزيده زيادة كبيرة، بحيث إذا حلبوا الناقة فإنَّ حليبها يكفي المجموعة الكبيرة من الناس الذين هم أكثر من القبيلة، وإذا حلبوا البقرة فإن حليبها يكفي القبيلة ويُشبعها، وإذا حلبوا الشاة فإن حليبها يكفي الفخذ من القبيلة ويشبعهم[687].
- ويسعد المؤمنون مع عيسى عليه السلام بهذه الحياة الإيمانية السعيدة، وهذا الخصب والرخاء الاقتصادي، ويموت عيسى عليه السلام موتًا طبيعيًا، ويدفنه المؤمنون، وبعد فترة يُنهي الله أعمارهم و يأتيهم باجالهم، فيرسل عليهم ريحًا طيبة، تأخذهم تحت اباطهم، فيموتون جميعًا بهدوء ويسر.
- ولا يبقى إلا شرار الناس وسفهاؤهم، ويستحوذ عليهم الشيطان ويكونون عبيد الشهوات والفواحش، ويتهارجون كما تتهارج الحمير، بحيث يسير الرجال والنساء عراة ويجامع الرجل المرأة ويزني فيها علانية على مرأى من الاخرين، وعلى هؤلاء السفهاء تقوم الساعة[688].

---

[687] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 4/411 . 412.

[688] المرجع نفسه، 4/412.

وهذا معنى الجزء المتعلق بعيسى عليه السلام عند نزوله في اخر الزمان[689].

8 . بقاء عيسى عليه السلام بعد نزوله أربعون سنة:

أخبرنا رسول الله (ﷺ) أن المسلمين الصالحين سيسعدون بالحياة مع عيسى عليه السلام بعد نزوله أربعين سنة، ونصَّ على أنَّ عيسى سيعيش أربعين سنة، يقوم فيها بالأعمال العظيمة، وبعد ذلك سيُنهي الله أجله، فيموت موتًا طبيعيًا، ويدفنه المسلمون بعد أن يُصلّون عليه، (روى أبو داود وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «ليس بيني وبين عيسى نبيّ وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، ينزل بين مُمصرتين، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقاتل النّاس على الإسلام فيدقُّ الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله في زمانه المِلل كلّها إلاّ الإسلام ويهلك المسيح الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنةً ثم يُتوفَّ، فيصلّي عليه المسلمون») [690].

ولقد مرَّت بنا صفات عيسى ـ عليه السلام ـ وأفعاله بعد نزوله في أحاديث سابقة، والجديد في هذا الحديث تحديده المدّة التي سيعيشها عيسى عليه السلام بعد نزوله، حيث سيعيش أربعين سنة، ولا يتعارض هذا التحديد مع بعض الروايات التي فيها تحديد المدّة بسبع سنين، ومنها رواية في صحيح مسلم، (روى مسلم عن عبد الله عن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله (ﷺ) أنه قال من جملة حديث عن ظهور الدجال ونزول عيسى عليه السلام ومجيء أشراط الساعة: .... فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبُه فيهلِكُه، ثم يمكث في الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوةٌ، ثم يرسل الله ريحًا باردةً من قِبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرةٍ من خيرٍ أو إيمانٍ إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبلٍ لَدَخَلَتْه عليه حتى تقبضه) [691].

وعروة بن مسعود الذي شبّه رسول الله (ﷺ) عيسى به، صحابيّ ثقفي كان سيّد ثقيف

---

[689] المرجع نفسه، 412/4.

[690] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 412/4. وانظر: سنن أبي داود، كتاب الملاحم، رقم 4324.

[691] صحيح مسلم رقم 2940.

رضي الله عنه، والسبع سنين المذكورة في الحديث ليس لمدة لبث عيسى في الأرض، فإنّه سيلبث أربعين سنة كما في الحديث الصحيح السابق، وإنما هي لمدة حياة الناس بدون شحناء ولا بغضاء ولا عداوة (ثم يمكث الناس سبع سنين) و«الناس» فاعل، فالحديث عن الناس وليس عن عيسى عليه السلام.

والراجح أن السبع سنين في حديث ابن عمرو للتكثير، والدليل على أنها للتكثير وليست للحصر، مجيئها في بعض آيات التكثير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ **[لقمان: 27] .**

هذه أهمّ وأصحّ الأحاديث التي أخبرنا فيها رسول الله (ﷺ) عن نزول عيسى عليه السلام في اخر الزمان، ويجب علينا أن نقول بما قالت هذه الأحاديث، وأن نعتقد نزوله عليه الصلاة والسلام، وقد لاحظنا من تلك الأحاديث أنَّه ينزل بالإسلام ويطبق رسالة محمد رسول الله (ﷺ)، ولا ينزل برسالة جديدة، بل يتبرّأ من النصارى، ويُلزمهم بالدخول في الإسلام ويقضي على اليهود، ويُهلك المسيح الدجال[692].

* * *

[692] الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 424/4.

المبحث الرابع

نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة

ذكرت كُتب السيرة والدلائل أن وفدًا من نصارى نجران قدِموا على النبيّ (ﷺ) وجادلوه وناظروه في أمر المسيح وألوهيته، وقد رويت هذه الواقعة بأسانيد متعددة وروايات كثيرة وألفاظ متقاربة في بعض الأحيان، ومختلفة في أحيان أخرى، وتسهيلاً للأمر، وتوضيحًا له، ومحاولة لاستقراء ما فيه من قواعد وأساليب للحوار والمناقشة، بل والمجادلة والمناظرة، ولرصد أهم المعطيات لممارسة الحوار والجدال بالتي هي أحسن[693].

أولاً: موقف نصارى نجران من دعوة النبي (ﷺ):

عندما وصل كتاب رسول الله (ﷺ) إلى أهل نجران يدعوهم فيه إلى الإسلام ووصل إلى الأسقف الكتاب وقرأهُ، خاف خوفًا شديدًا، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له «شرحبيل بن وداعة» وكان من أهل همدان، ولم يكن أحد يدعى إذا نزلت معضلة قبله، لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب، فدفع الأسقف كتاب رسول الله (ﷺ) إلى شرحبيل فقرأهُ، فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك؟، فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذريّة إسماعيل من النبوّة، فما يُؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل، ليس لي في النبوّة رأي، لو كان أمر من أمور الدنيا أشرت عليك فيه وجهدت لك، فقال له الأسقف: تنحَّ فاجلس. فتنحّى شرحبيل فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له عبد الله بن شرحبيل، وهو من ذي أصبح من حمير، فأقرأه الكتاب، وسأله الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل. فقال له الأسقف: فاجلس، فتنحى فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له جبّار بن فيض من بني الحارث بن كعب، أحد بني الحماس، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله، فأمره الأسقف فتنحّى فجلس ناحية، فلمّا اجتمع الرّأي منهن

---

[693] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، دار الافاق العربية، القاهرة، ط1، 2004م، ص11.

على تلك المقالة جميعًا أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، ورفعت النيران في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنّهار، وإذا كان فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس، ورفعت النيران في الصوامع، فاجتمعوا حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح أهل الوادي أعلاه وأسفله، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله (ﷺ)، وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الوادي منهن على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي، وجبّار بن فيّاض الحارثي، فيأتوهم بخبر رسول الله (ﷺ)[694].

ولقد استقرَّ الرأي بعد حوارات ومناقشات، ومشاورات بين زعماء نصارى نجران على إرسال وفد منهم لرسول الله (ﷺ) لمعرفة أمره وتثبت القوم عن حقيقة هذا النّبي[695].

وفود بعض نصارى نجران إلى رسول الله (ﷺ)، واعترافهم بنبوَّته:

توجَّه وفد إلى رسول الله (ﷺ) من نجران، حيث جلس أبو حارثة[696] على بغلة له متوجهًا إلى رسول الله (ﷺ) وإلى جنبه أخ له يقال له (كوز بن علقمة)، فعَثرت بغلة أبي حارثة فقال كوز: تعس الأبعد ـ يريد رسول الله (ﷺ) ـ فقال أبو حارثة: بل أنت تعست، فقال: ولمَ يا أخي؟ قال: والله إنه النّبي الأمي الذي كنّا ننتظره، فقال له كوز: فما يمنعك من إتّباعه وأنت تعلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم ـ يعني ملوك الروم ـ شرفونا، ومولونا، وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى، فأضمر عليها منه أخوه كوز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك[697].

وكان رؤساء نجران يتوارثون كتبًا عندهم، فكلما مات رئيس منهم وأفضت الرئاسة إلى غيره ختم على تلك الكتب خاتمًا مع الخواتم التي كانت قبله ولم يكسرها، فخرج الرئيس الذي كان

---

[694] البيهقي، دلائل النبوة، 385/5 – 386. وانظر: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، ط1994،27م، 631/3 ـ 632؛ أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص21.

[695] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص22.

[696] أبو حارثة بن علقمة: أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات، لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

[697] البيهقي، دلائل النبوة، 383/5. وانظر: أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، المرجع نفسه، ص23.

على عهد النبي (ﷺ) يمشي فعثر، فقال له ابنه: تعس الأبعد ـ يريد رسول الله (ﷺ) ـ فقال له أبوه: لا تفعل، فإنه نبي واسمه في الوضائع ـ يعني الكتب ـ فلما مات لم تكن لابنه همة إلا أن شد فكسر الخواتم، فوجد في الكتب ذكر النبي (ﷺ)، فأسلم فحسن إسلامه وحجَّ[698].

وبالنظر في هذا المقطع من الروايات الخاصة بوفد نصارى نجران، يمكننا أن نقف عند بعض الموضوعات كما يلي:

الموضوع الأول:

إنَّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا على علم ببعثة النبي (ﷺ)، وأنهم عرفوه بصفته، وتحققوا مما في كتبهم من الإشارات وموافقتها وانطباقها على شخصه (ﷺ)، ومن حكمة الله أن يبشر الأنبياء السابقون برسالة النبي محمد (ﷺ)، ليكون ذلك دليلاً على صِدقه، وحجّة على أقوالهم، وحثًّا لهم على الإيمان به، والإذعان لدعوته والإقرار برسالته، ونصرة دينه[699].

وإليك شاهد على ذلك: هرقل ملك الروم حين اعترف بصحة نبوّة النبي (ﷺ) ومات على الكفر، فقد اعترف ببعثة النبي (ﷺ)، وأنه بُشِّر به في الكتب السابقة، وقال هرقل لدحيّة الكلبيّ حين قدم عليه بكتاب رسول الله (ﷺ): «ويحك، والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته، فاذهب إلى ضغاطر الأسقف، فاذكر له أمر صاحبكم، فهو أعظم في الروم مني، وأجوز قولاً مني ندهم، فانظر ما يقول، فجاء دحية فأخبره بما جاء به من رسول الله (ﷺ) فقال له ضغاطر: صاحبك، والله نبي مرسل، نعرفه في صفته ونجده في كتابنا باسمه، ثم ألقى ثياباً كانت عليه سوداً، ولبس ثياباً بيضاً، ثم أخذ عصاه، ثم خرج على الروم وهم في الكنيسة، فقال: يا معشر الروم، إنه قد جاءنا كتاب أحمد، يدعونا فيه إلى الله، وإنني لأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن أحمد رسول الله، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، فضربوه فقتلوه، فرجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر، فقال: قد قلت لك: إنا نخافهم على أنفسنا، وضغاطر كان والله أعظم

---

[698] ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، 1979م، 376/2 ـ 377.

[699] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص24.

عندهم مني»[700].

وفي الحديث المطوّل الذي ذكره البخاريّ ومسلم وغيرهما أن هرقل حينما جاءه كتاب رسول الله (ﷺ) طلب من جنوده أن يأتوه بأحد من قومه ليسألهم عن رسول الله (ﷺ) فجيء له بأبي سفيان الذي كان في تجارة إلى الشام، وكان لا يزال على شركه، فسأله عدة أسئلة وأجاب عنها أبو سفيان، ثم قال هرقل: وهذه صفة نبي قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أعلم أنه منكم، وإن يكُ ما قلت حقًّا فيوشك أن يملك موضع قدميَّ هاتين، ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه[701].

وفي رواية ابن إسحاق أن هرقل حينما جاءه كتاب رسول الله (ﷺ) وقرأه، أخذه فجعله بين فخذته وخاصرته، ثم كتب إلى رجل من أهل روميّة كان يقرأ العبرانية ما يقرأ بخبره مما جاءه من رسول الله (ﷺ)، فكتب إليه أنّه النّبيّ المنتظر لا شك فيه فاتبعه، فأمر بعظماء الروم فجمعوا له في دسكرة[702] ملكه، ثم أمر بها فأسرجت عليهم واطلع عليهم من عليّة[703] له وهو منهم خائف، فقال: «يا معشر الروم إنه جاءني كتاب أحمد، وإنه والله للنّبيّ الذي كنّا ننتظره، ونجد ذكره في كتبنا نعرفه بعلاماته، فأسلموا واتّبعوه تسلم لكم دنياكم واخرتكم، فنخروا نخرة رجل واحد، وابتدروا أبواب الدسكرة، فوجودها مغلقة دونهم، فخافهم فقال: كرُّوهم عليَّ فكرّوهم عليه، فقال لهم: يا معشر الروم إني إنما قلت لكم هذه المقالة أغمزكم لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فلقد رأيت منكم ما سرَّني فوقعوا له سُجدًا، ثم فتحت لهم أبواب الدسكرة فخرجوا» [704].

لقد عرف زعماء الروم نبوَّته (ﷺ) القادة السياسيّين والدينيّين، ولكنهم انحازوا إلى مصالحهم ومتاع الفانية والحرص على المناصب.

---

[700] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص27.

[701] البخاري، رقم 2941.

[702] الدسكرة: بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم، فيها الشراب والملاهي، ويكون للملوك.

[703] العُليّة: الغرفة من الطبقة الثانية من الدار وما فوقها.

[704] البيهقي، دلائل النبوة، 384/5.

الموضوع الثاني:

إنَّ اعتراف أهل الكتاب بنبوّة النبي (ﷺ) لا يدخلهم في دين الإسلام، إذ لا يكفي للإيمان الاعتراف بنبوّته ولا تكفي المعرفة بها، بل يجب الانقياد له فيما أمر وتصديقه فيما أَخبر[705].

فقد أقرَّ هرقل عظيم الروم بنبوّته، ولكنه لم ينقاد وبقي على دين قومه، وكذلك عمّ النبيّ (ﷺ) أبو طالب، فقد شهد للنبي بالصدق للنبي (ﷺ) وشهد أنّ دينه خير الأديان إلاّ أنه لم يدخل في الإسلام، وقال في ذلك شعرًا:

والله لـــن يَصــلوا إليــكَ بجمعهـــم	حــــتَّى أُوسَّـــدَ في الـــترابِ دفينـــا
فاصـدع بأمـركَ مـا عليـك غضاضـة	وابشــر بــذاك وقــرَّ منــك عيــونا
ودعــوتني وزعمــتَ أنّــك ناصــحي	فلقــد صــدقتَ وكنــت قبــلُ أمنيــا
وعرضــت دينًــا قــد عرفــت بأنّــه	مـــن خـــير أديان البريّـــةِ دينـــا
لـــولا الملامـــة أو حـــذار مســـبّة	لوجــدتني سمحًــا بــذاك يقينــا[706]

وهذا يدلّ على أنّ الاعتراف بصدق النبي (ﷺ) وصحّة نبوّته لا يعني الدخول في الإسلام، ولذلك يقول ابن القيم: ومن تأمّل ما في السّير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له (ﷺ) بالرسالة وأنه صادق، فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أنّ الإسلام أمر وراء ذلك وأنّه ليس هو المعرفة فقط ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهرًا وباطنًا[707].

الموضوع الثالث:

وهو خاص بالحديث عن سبب امتناع هؤلاء عن الدخول في الإسلام رغم علمهم ومعرفتهم بالنّبيّ (ﷺ)، ففي الرّواية التي مرّت معنا في هذا المبحث أنّ كوز قال لأبي حارثة: فما يمنعك من اتّباعه وأنت تعلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرّفونا وموّلونا وأكرمونا وقد أبوا

[705] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص30.

[706] عجيبة، المرجع السابق، ص33.

[707] ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، 3/ 638. 639.

إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا منّا كلّ ما ترى.

إنَّ الذين منعتهم الرّياسة والسّيادة والمأكل والسلطان من اختيار الهدى كثيرون، وقد صرّحوا بهذا لخاصّتهم وعامّتهم، ولا أدلّ على ذلك موقف هرقل الذي عرف الحقّ، وهمّ بالدخول في الإسلام فلم يطاوعه قومه وخافهم على نفسه، فاختار الكفر على الإسلام بعد ما تبيّن له الهدى ولذلك يقول الخفاجي عن هرقل: وكان يعرف أمره (ﷺ) في الكتب، ولكن أحبَّ الملك فحكم بشقائه مالك الملك[708]، كما أنّ الحسد كان من أكبر وأعظم الأسباب المانعة من دخولهم الإسلام واتباعهم شريعة النّبيّ محمد (ﷺ)، فإن أهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يعرفون النّبيّ (ﷺ) وصرّحوا بذلك، بل وأقرّوا بصحّة نبوّته وصدق دعوته، منهم من آمن ودخل في دين الإسلام ومنهم من أعرض عنادًا وحسدًا، وقد اعترف بهذا العناد والحسد كثيرون[709].

ثانيًا: هيئة الوفد النجراني:

لما قدموا ـ رؤساء نجران ـ على رسول الله (ﷺ) فدخلوا عليه مسجده حين صلّى العصر، عليهم ثياب الحبرات، جبب وأردية في جمال ورجال بني الحارث بن كعب، يقول بعض من راهم من أصحاب النّبيّ (ﷺ) يومئذ: ما رأينا وفدًا مثله، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله (ﷺ) يصلّون، فقال رسول الله (ﷺ): دعوهم فصلّوا إلى المشرق[710].

وفي رواية للبيهقي: أنهم قاموا يصلّون في مسجده فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله (ﷺ): دعوهم فاستقبلوا المشرق فصلّوا صلاتهم[711]، ثم أتوا النّبيّ (ﷺ) فأعرض عنهم ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان بن عفان رضي الله عنه: ذلك من أجل زيكم هذا، فانصرفوا من يومهم ذلك ثم عادوا عليه بعد أن وضعوا حللهم وخواتيمهم ولبسوا زي الرهبان، فسلّموا عليه فردَّ السلام، ثم قال رسول الله (ﷺ): والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرّة الأولى وإن إبليس

---

[708] أحمد شهاب الدين الخفاجي، نسيم الرياض في شرح الشفاء، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ط1، 267/3.

[709] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص37.

[710] البيهقي، دلائل النبوة، 382/5؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 51/5.

[711] البيهقي، دلائل النبوة، 382/5.

لمعهم[712]. وقد أعرض النّبيّ (ﷺ) عنهم ولم يرد السلام عليهم لما رأى منهم التعاظم والتكبّر من خلال ما يلبسون من حلل وخواتيم وذهب، وحينما رجعوا ولبسوا ملابس متواضعة ردَّ عليهم السلام وبدأ حديثه معهم[713].

ثالثًا: مجالس الجدل والمناظرات:

1 . أمر الله لرسوله بجدال أهل الكتاب:

دعا النّبيّ (ﷺ) الناس إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له وإلى تصديقه فيما يدعو إليه من دين الله وشريعته، مبيّنًا أنه خاتم الأنبياء والمرسلين وأنّ شريعته ناسخة للشرائع السابقة.

والإيمان بالله وبالرّسل يقتضي الإيمان بالأنبياء والرّسل السّابقين ومن فرّق بين رسل الله فآمن ببعض وكفر ببعض كان كافرًا، ولذلك دعا النّبيّ (ﷺ) أهل الكتاب إلى الإيمان بدعوته وتصديقه وجادل وناظر أهل الكتاب واندفع اليهود لمجادلة النبي (ﷺ) وسائر المسلمين وناقشوهم مناقشة دينيّة أخذت أولاً دورًا دينيًّا هادئًا .كما يقول الشيخ أبو زهرة . ثم أخذت من جانبهم سبّاً واستهزاء وخيانة، حتى اضطرّ النّبيّ (ﷺ) إلى إجلاء بعضهم ومحاربة الاخرين، وفي دور المجادلة

كانت المجادلة واسعة النّطاق غير محدودة لأن النبي (ﷺ) كان يخاطب أقوامًا يقرّون بكتاب ويؤمنون برسل، فالنّبيّ كان يلزمهم بما جاء في كتبهم وينفي عليهم مخالفتهم لما جاءت به رسلهم، وهم كانوا لعلمهم بالكتاب يوجهون أسئلة فيها شيءٌ من الدقّة والمعرفة وإن كانوا ضالّين[714].

وقد أمر الله نبيّه (ﷺ) أن يدعو أهل الكتاب إلى دين الله وأن يجادلهم إن استدعى الأمر ذلك، وأرشده إلى الجدل بالحسنى، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ **[النحل: 125]**، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ

---

[712] المرجع نفسه، 386/5 . 387.

[713] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص43.

[714] محمد أبو زهرة، تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1980م، ص89.

إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46] [715]، لذا فقد قام رسول الله (ﷺ) بمناظرة ومجادلة أهل الكتاب خير قيام، وممن ناظرهم رسول الله وفد نجران.

2. حضور أطراف عديدة مجالس المناظرة:

لم تكن مجالس المناظرات بمعزل عن الناس، حيث حضرها أطراف عديدة من المسلمين واليهود والنصارى وكانت جلسات المناظرة حاشدة، إذ شهدها أعضاء الوفود، وشهدها فريق كبير من المسلمين أو كبارهم، وحضرها بعض سكان المدينة من اليهود وجادلوا النصارى في بعض مسائل العقيدة[716].

قال ابن إسحاق: ولما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله (ﷺ) أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله (ﷺ)، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيءٍ وكَفَر بعيسى والإنجيل، فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيءٍ وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله تعالى في ذلك:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: 113][717].

وتنازعوا أيضًا في إبراهيم عليه السلام، فاليهود يدّعون أنّه يهودي وأنهم على دينه، بينما يدّعي النصارى أن إبراهيم عليه السلام ما كان إلا نصرانيًا، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 65-68].

---

[715] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص66.

[716] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص70.

[717] ابن هشام، السيرة النبوية، 356/2.

ويبدو أيضًا أن اليهود تدخلوا في بعض المناظرات التي كانت بين رسول الله (ﷺ) ونصارى نجران، فقد قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله (ﷺ) ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟، فقال رجل من أهل نجران نصراني . يقال له الربيس[718] . أوذاك تريد منّا يا محمد وإليه تدعونا؟ أو كما قال، فقال رسول الله (ﷺ): معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غيره وما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ **[آل عمران: 79-80]** [719].

رابعًا: موضوعات الجدل:

جادل نصارى نجران رسول الله (ﷺ) في موضوعات عديدة تتعلّق بالعقيدة النصرانيّة، من أهمها:

1 . ادعاؤهم أُلوهية المسيح لولادته من غير أب:

ناقش رسول الله (ﷺ) نصارى نجران فيما يعتقدون بأن ولادة المسيح من غير أب هي دليل على ألوهيته، وقد رُويت روايات عديدة بشأن المناظرات حول هذه الشبهة، نذكر بعضًا منها فيما يلي:

روى ابن جرير الطبري عن الربيع في قوله تعالى: ﴿الم ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ **[آل عمران: 1-2]** ، قال: إن النصارى أَتوا رسول الله (ﷺ) فخاصموه في عيسى بن مريم وقالوا من أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

---

[718] الربيس: كبيرهم، ويروى: (الريس، والرئيس).

[719] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص72.

فقال لهم النّبيّ (ﷺ): ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟

قالوا: بلى. فقال: ألستم تعلمون أن الله حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟

قالوا: بلى. وقال: ألستم تعلمون أن ربنا قيّمٌ على كل شيءٍ يكلأه ويحفظه ويرزقه؟

قالوا: بلى. ثم قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا؟

قالوا: لا. فقال: أفلستم تعلمون أن الله عز وجل لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؟

قالوا: بلى. فقال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا إلا ما عُلِّم؟

قالوا: لا.

قال: فإن ربنا صوّرَ عيسى في الرحم كيف شاء فهل تعلمون ذلك؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربَّنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يُحدِث الحَدَث؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمّه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غُذِّي كما يغذّى الصبي، ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب، ويُحدث الحدث؟

قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟

قال: فعرفوا، ثم أَبوا إلاّ جحودًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿الم ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ

﴿الْقَيُّومُ﴾ **[آل عمران: 1-2]** [720].

وواضح من الرواية السابقة أن محور هذه المناظرة كان هو الحديث عن بشريّة عيسى عليه السلام، وقد ساق لهم النبي (ﷺ) الدلائل والبراهين الواضحة على كون عيسى عبد الله ورسوله، وفنّد النّبيّ (ﷺ) لهم شبهة أنه إله أو ابن إله لكونه ولد من غير أب، ويبدو أن هذا الموضوع أخذ حيّزًا كبيرًا من المناقشات والمناظرات؛ لأنه أساس عقيدتهم النصرانيّة.

وقد نزلت الآيات القرآنية تردُّ على عقائد النصارى في صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية اشتملت على الحجج الدامغة لبطلان شبه النصارى[721].

2 . ادعاؤهم ألوهية المسيح بسبب معجزاته:

روى ابن جرير الطبري عن ابن جريج عن عكرمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 59]**، قال: نزلت في العاقب والسيد من أهل نجران، قال ابن جريج: بلغنا أن نصارى أهل نجران قدم وفدهم على النّبيّ(ﷺ) فيهم السيّد والعاقب، وهما يومئذٍ سيدا أهل نجران، فقالوا: يا محمد، فيم تشتم صاحبنا؟ قال: من صاحبكما؟ قالا: عيسى ابن مريم، تزعم أنه عَبد. قال رسول الله (ﷺ): أجل، إنه عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فغضبوا وقالوا: إن كنت صادقًا، فأرنا عبدًا يُحيي الموتى ويُبرئ الأكمه ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه، لكنه الله. فسكت حتى أتاه جبريل فقال: يا محمد: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 59]**، قال: نزلت في العاقب والسيد من أهل نجران، قال ابن جريج: بلغنا أن نصارى أهل نجران قدم وفدهم على النّبيّ (ﷺ) فيهم السيّد والعاقب، وهما يومئذٍ سيدا أهل نجران، فقالوا: يا محمد، فيم تشتم صاحبنا؟ قال: من صاحبكما؟ قالا: عيسى ابن مريم، تزعم أنه عَبد. قال رسول الله (ﷺ): أجل، إنه عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فغضبوا وقالوا: إن كنت صادقًا، فأرنا عبدًا يُحيي الموتى ويُبرئ الأكمه ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه، لكنه

---

[720] الطبري: جامع البيان في تأويل القران، تحقيق: محمود شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م، 154/6.

[721] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص78.

الله. فسكت حتى أتاه جبريل فقال: يا محمد: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ **[المائدة: 72]**[722].

ونزل القرآن الكريم وأوضح حقيقة هذه المعجزات كما بيّنتها في الصفحات السابقة، فالمسيح عليه السلام لم ينسب المعجزة إلى نفسه بل نسبها إلى الله، كما هو واضح في الآيات السابقة في قوله: (بِإِذنِ اللَّهِ)، أي بتكوين الله وتخليقه، فالخالق والمحيي في الحقيقة هو الله ولذلك لم ينسب المسيح إلى نفسه أي قدرة في فعل هذه المعجزات[723].

إن هذه المعجزات قد بينّا في حديثنا عنها أنها تدلُّ على نبوّته ورسالته لا على ألوهيته، فمن أراد التوسع فليرجع إلى ما فصّلنا.

3 . تأويلاتهم لوصف المسيح بأنه كلمة الله وروح منه:

ناقش النصارى رسول الله (ﷺ) وجادلوه في معنى وصف الله لعيسى بأنه روح الله وكلمته، حاجّوه وخاصموه وقالوا: ألست تزعم أنّه كلمة الله وروح منه؟

قال: بلى. قالوا: فحسبنا، وتأولوا في ذلك ما يقولون فيه من الكفر[724].

فأنزل الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ **[آل عمران: 7]** ، ثم إن الله جلّ ثناؤه أنزل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ **[آل عمران: 59].**

بيّنت الآية الأولى أن سؤالهم فيه مغالطة، وردّت عليهم مفنّدة، إذ قرّرت أن هناك آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب، وفيها جوهر الدعوة وأسسها التي لا تتحمل تأويلاً، وهناك آيات متشابهات فلا يتمسّك بهذه ويتجاهل ذلك، أو يريد أن ينقض تلك بهذه على تأويل خاطئ، إلا من في قلبه زيغ.

---

[722] عجيبة، المرجع السابق، ص81.

[723] عجيبة، المرجع نفسه، ص83.

[724] المرجع السابق، ص83.

لقد أورد النّبيّ (ﷺ) لهم الآيات المحكمة التي تقرّ بجلاء ووضوح وحدانية الله بحيث لا يجوز في حقه سبحانه أبوّة ولا نبوّة ولا تعدد ولا تجزّؤ، ولا انفصال، وعليه إذا جاء في القرآن الكريم أنّ عيسى كلمة الله ومن روحه الذي أريد به بالتنويه بالمعجزة الربانيّة التي تمت بولادته بلا أب، فلا يصح أن يحاول بهذه نقض تلك الآيات المحكمة، فوحدانيّة الله أمرٌ محكم لا يتحمل أي كلام أو تأويل[725].

فعيسى عليه السلام مخلوق ويدلّ على ذلك قول الله تعالى:﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 45-47]**.

فهذه الآيات تبيّن أنّ عيسى عليه السلام ليس كما يقول النصارى أنّ قوله تعالى: نكرة في الإثبات يقتضي أنه كلمة من كلمات الله وليس هو كلامه كما يقول ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾، وبيّن سبحانه مراده بقوله: (بِكَلِمَة مِّنهُ) حيث قال في الآيات التالية:

. قال تعالى: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 47]**.

.كما قال في الآية الأخرى:﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[آل عمران: 59]**.

. وقال تعالى في سورة مريم: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[مريم: 34-35]** ، فهذه الآيات كلها تبيّن أنه سبحانه وتعالى قال له (كُن فَيَكُونُ)، وهذا تفسير كونه كلمة منه[726].

---

[725] محمد عزت دروزة، سيرة الرسول ((ﷺ))، المؤتمر العالمي للسيرة النبوية، مطابع الدوحة، ط3، 1400هـ، 243/2.

[726] ابن تيمية، دقائق التفسير الجامع، جمع وتقديم وتحقيق: محمد السيد الجليند، سلسلة التراث الفلسفي، دار الأنصار، القاهرة، ط1، 1398هـ، 1978م، 82/2 . 83.

وأما قول الله تعالى عن المسيح في سورة النساء: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ **[النساء: 171]**، فقد بيّن مراده أنه خلقه بـ (كُن) من غير واسطة الأب، فالمراد بها كلمة التكوين، فكلمة كُنْ تدلّ على التكوين وقدرة الله عند إرادته إيجاد الشيء، وقد خلق المسيح بهذه (كُن) فكان عيسى، فالكُن من الله وعيسى بالكن كان ولذلك هو مخلوق[727].

وأمّا وصف المسيح بأنّه (وَرُوح مِّنهُ)، فلا يوجب أن يكون منفصلاً من ذات الله:

- كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ **[الجاثية: 13]**.
- وقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ **[النحل: 53]**.
- وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ **[النساء: 79]**.
- وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ **[البينة: 1-2]**.

فهذه الأشياء كلها من الله وهي مخلوقة، وأبلغ من ذلك روح الله التي أرسلها إلى مريم وهي مخلوقة[728]. وليست للتبعيض؛ لأنّ روح الله ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ تتبعض ولا تتجزأ ولا تنقسم إلى أبعاض وجزيئات وأقسام، وإنّ (منه) هنا لابتداء الغاية، فهي من عند الله سبحانه وتعالى[729].

وفي قوله تعالى إضافة الروح إلى الله هي إضافة أعيان منفصلة عن ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، فهي إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه، لكنها تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميز به المضاف عن غيره، يعني أنها روح خيريّة مطيعة لله تعالى[730].

4 . من مناقشات القرآن الكريم للموضوعات المشارة في الجدال

ولم يقتصر القرآن الكريم إضافة المسيح فقط إلى الله، بل إنه أضاف إلى الله الأمور الآتية،

[727] في ظلال القران، 817/2.

[728] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص83.

[729] أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 739/2.

[730] الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق، ص184 . 186.

وكلها إضافات إليه تعالى إضافة تشريف:

- روح آدم عليه السلام في قول الله تعالى للملائكة عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ **[الحجر: 28-29]**.
- الناقة إضافتها إلى الله وهي معجزة صالح عليه السلام إلى قومه ثمود، على بطلان قول النصارى في التثليث[731].

وبعد هذه الدلائل الباهرة حذرهم الله سبحانه وتعالى من العذاب الشديد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ **[آل عمران: 4]**، وفي قوله تعالى أي هم الذين جحدوا آيات ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهي أعلام الله وأدلّته حججه[732].

يقول الطبري: إنّ الذين جحدوا أعلام الله وأدلّته على توحيده وأُلوهيته، وأنّ عيسى عبد الله واتخذوا المسيح إلهًا وربًا، أو ادّعوا لله ولدًا، لهم عذاب من الله شديدٌ يوم القيامة[733].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ **[آل عمران: 5]**، يعني بذلك جلّ ثناؤه: إنّ الله لا يخفى عليه شيء هو في الأرض ولا شيء هو في السماء، أي قد علم ما يريدون وما يكيدون وما يضاهون في عيسى، إذ جعلوه ربًّا وإلهًا، وعندهم من علمه غير ذلك غرَّةً بالله وكفرًا به[734].

وبعد أن بيّن الله بالبراهين بطلان عقيدة النصارى وفسادها، بتقرير أنّ عيسى ما كان إلهًا، وما ينبغي له أن يكون إلهًا ولذلك لا يستحق العبادة، وشرع في الرد على شبههم التي يتمسكون بها والتي من أهمها تلك الشبهة المتعلقة بولادة المسيح من غير أب. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **[آل عمران: 6]**، يعني بذلك جلّ

---

[731] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، 129/7.

[732] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص89.

[733] تفسير الطبري، تقريب وتهذيب، 164/6.

[734] عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص89.

ثناؤه: الله الذي يصوركم فيجعلكم صورًا في أرحام أمهاتكم كيف شاء وكيف أحب، فيجعل هذا ذكرًا وهذا أنثى، وهذا أسود وهذا أحمر، يعرّف عباده بذلك أن جميع من اشتملت عليهم أرحام النساء، وأن عيسى ابن مريم ممن صوّره في رحم أمّه وخلقه فيها كيف شاء وأحب، وأنه لو كان إلهًا لم يكن ممن اشتملت عليه رحم أمّه؛ لأن خلاّق ما في الأرحام لا تكون الأرحام عليه مشتملة وإنّما تشتمل على المخلوقين.

لقد كان عيسى ممَّن صُوِّر في الأرحام، لا يدفعون بذلك ولا ينكرونه، كما صوّر غيره من بني آدم، فكيف يكون إلهًا وقد كان بذلك المنزل[735]؟

وذكرت الآيات في سورة آل عمران: أنّ حبّ الشهوات من الأموال والأولاد والجاه هو المانع لهم من اتباع الحق بعد معرفتهم به، مع أنّ ما عند الله خيرٌ وأبقى وأعظم للمؤمنين المستغفرين الصابرين، وذكرت الآيات وجوهًا من الدلائل القاطعة على فساد قول النصارى بألوهية المسيح، وأتبعها بذكر الجواب عن جميع شبههم على سبيل الاستقصاء التام، فلم يترك شبهة من شبههم إلا وناقشها ودحضها، وأورد الدلائل والآيات والحجج والبراهين على فسادها وبطلانها، وختم بما يدل على فساد كلامهم بالمباهلة[736].

وأمر الله نبيّه بأن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى عليه السلام بعد ظهور البيان[737].

خامسًا: المباهلة الحد الفاصل في الجدال:

إنَّ معنى المباهلة هو: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا لعنة الله على الظالم منّا، وأن يخلص كلا الطرفين في الدعاء واللعن على الكاذب منهم[738].

وعندما فصل الله سبحانه وتعالى بين نبيّه محمد (ﷺ) وبين الوفد من نصارى نجران بالقضاء الفاصل والحكم العادل . أمره . إن هم تولّوا عما دعاهم إليه من الإقرار بوحدانية الله، وأنّه لا

[735] تفسير الطبري، تقريب وتهذيب، نقلاً عن أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص101.

[736] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص101.

[737] تفسير ابن كثير، 452/1.

[738] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص114.

ولد له ولا صاحبة، وأنّ عيسى عبده ورسوله، وأبَوا إلا الجدل والمخاصمة أن يدعوهم إلى الملاعنة[739].

ولذلك قال الله لرسوله (ﷺ):﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ **[آل عمران: 61].**

- ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ أي: جادلك يا عيسى.
- ﴿فِيهِ﴾ في المسيح عيسى ابن مريم.
- ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الذي بيّنه الله لك في عيسى أنّه عبد الله .
- ﴿فَقُلْ﴾ لهم قولاً يظهر علمك الحق وارتيابهم .
- ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ منّا ومنكم في أنّه عيسى عبد الله ورسوله[740] .

أي فإن استمروا على مُحاجّتهم إيّاك مكابرةً في هذا الحق أو في شأن عيسى فادعهم إلى المباهلة، والملاعنة، ذلك أنّ تصميمهم على معتقدهم بعد هذا البيان مكابرة محضة بعد ما جاءك من العلم وبيّنت لهم، فلم يبقَ أوضحُ مما حاججتهم به، فاعلم إنما يحاجّوك عن مكابرة وقلة يقين، فادعهم إلى المباهلة بالملاعنة الموصوفة في الآية السابقة[741].

ولذلك قال لهم رسول الله (ﷺ): إنّ الله تعالى أمرني إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم، فقالوا: يا أبا القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك[742].

وبعد مشاورات بين وفد نصارى نجران كان القرار النهائي رفض المباهلة بأي حال من الأحوال، فأتوا رسول الله (ﷺ) فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك على

---

[739] تفسير الطبري، تقريب وتهذيب، نقلاً عن أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص114.

[740] محمد رشيد رضا، تفسير المنار (تفسير القران الكريم)، 264/3.

[741] محمد الطاهر عاشور، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، 264/3.

[742] الالوسي، روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني، 188/3.

دينك ونرجع على ديننا[743].

1 . لماذا امتنعوا عن المباهلة:

لقد امتنعوا عن المباهلة خوفًا من عذاب الله لما يعلمون من صدقه (ﷺ) وصحّة نبوّته، فقد أكدت الروايات الواردة عنهم اعتراضهم بأنّه النبيّ الذي بشّرت به الكتب.

. حيث قال عبد المسيح . العاقب . لهم: لقد علمتم ما لاعن قوم نبيًّا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم.

. وقال السيد للعاقب: قد والله علمتم أنّ الرجل لنبيٌّ مرسل ولإن لاعنتموه إنه لاستئصالكم.

. ولما رأى وفد نصارى نجران رسول الله (ﷺ) ومعه فاطمة والحسن والحسين وعلي، قالوا: هذه وجوه لو أقسمت على الله أنّ يزيل الجبال لأزالها ولم يباهلوا[744].

إنَّ امتناعهم عن المباهلة برهانٌ واضح على نبوّته (ﷺ)، فما الذي كان يمنعهم من المباهلة لولا أنّهم عرفوا يقينًا أنّه نبي، وأنهم عرفوا صحّة نبوّته بالدلائل وبما وجدوا من نعته في كتب الأنبياء المتقدمين.

وإذ كان امتناعهم عن المباهلة يدل على صحّة نبوّته (ﷺ) فإنّه أيضًا يدل بالضرورة على صحّة ما جاء به من أنّ عيسى عبد الله ورسوله وأنّه ليس كما يقول النصارى إله أو ابن إله، ولذلك لو كانوا متيقنين من صحّة ما يقولونه في عيسى لما خافوا من المباهلة والدعاء باللعنة على الكاذبين.

إنّه قد ظهر بالدعوة إلى المباهلة انقطاع حجج المكابرين، ودلّ نكولهم عنها على أنهم ليسوا على يقين من اعتقادهم ألوهية المسيح، وفاقد اليقين يتزلزل عندما يدعى إلى شيءٍ يخاف

[743] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 162/2.

[744] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص139.

عاقبته[745].

2. طلب وفد نجران الصلح:

رفض القوم المباهلة وأرادوا صلحًا يدفعون بسببه الجزية، ووافق رسول الله (ﷺ) على الصلح، وحدّد لهم الجزية وكيفية تأديتها، وشرح لهم فيه الحقوق والواجبات، وأسس التعامل بينهم وبين المسلمين[746].

وقالوا لرسول الله (ﷺ): إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أمينًا ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال (ﷺ): «لأبعثن معكم رجلاً أمينًا حق أمين»، فاستشرف له أصحاب رسول الله (ﷺ) فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجرّاح»، فلما قدم قال رسول الله (ﷺ): «هذا أمين هذه الأمّة»[747].

وفي قولهم: (إنّا نعطيك ما سألتنا) أي ما صالحكم عليه النبي (ﷺ) ألف حلّة في رجب وألف حلّة في صفر[748].

وقد أكّد الكتاب الذي كتبه رسول الله (ﷺ) لأهل نجران عدالة الإسلام وسماحته في التعامل مع غير المسلمين، وفيه أيضًا التأكيد على حقوقهم وعلى التزام الدولة الإسلامية بحمايتهم وتوفير الأمن لهم، وعدم التدخل في شؤونهم الدينيّة بالتغيير أو خلافه، فلا يغير أسقف ولا راهب، ولا كاهن، ولا حق من حقوقهم ولا سلطانهم، لهم جوار الله ورسوله وأمانه وحمايته ما داموا ملتزمين بالصلح[749].

3. الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى:

عندما بين الله سبحانه وتعالى القول الحق في شأن عيسى عليه السلام وأقام الحجج والدلائل

---

[745] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص150.

[746] المرجع نفسه، ص152.

[747] البخاري، رقم (4380).

[748] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، 118/7.

[749] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص168.

على الغالين فيه ـ بجعله ربًّا وإلهًا ـ ثم إلزامهم عن طريق الوجدان بما دعاهم إلى المباهلة، لم يبقَ إلا أن يأمر نبيّه بأن يدعوهم إلى الحق الواجب اتّباعه في الإيمان، ويدعوهم إلى أصل الدين الذي اتفقت عليه دعوة الأنبياء والرسل[750].

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ **[آل عمران: 64].**

إنّ النّبيّ (ﷺ) كان حريصًا على هداية القوم، وأورد على نصارى نجران أنواع الدلائل وأقام الحجة عليهم، ودعاهم إلى المباهلة كما أمره ربّه، ثم بعد الصّلح أمره بدعوتهم إلى كلمة سواء، والوصول إلى الحقيقة الإيمانية المجرّدة من الهوى والتعصّب، والتقييد الأعمى.

فالإيمان بالله وحده لا شريك له هو هدف الرسالات السماويّة، ولذلك دعاهم النّبيّ إلى هذا الإيمان الذي هو الأساس والأصل الذي يربط بين الرسالات السماويّة كلها.

لقد دعاهم النّبيّ (ﷺ) إلى الالتقاء عند هذا الأصل المشترك الذي يؤمن به كل أتباع الرّسل ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ **[آل عمران: 64].**

ولذلك كان النّبيّ (ﷺ) يدعو بهذه الآية أهل الكتاب إلى الإسلام كما ثبت في كتبه إلى هرقل، والمقوقس، وغيرهما، ولولا أن هذه الآية الكريمة أساس الدين وعموده لما جعلها آية الدعوة إلى الإسلام[751].

سادسًا: المرسلون دعوا إلى توحيد الله عزَّ وجل:

دعا الأنبياء والمرسلين عليهم السلام إلى توحيد الله وعبادته وطاعته، وعَرَّفوا الناس من هو خالقهم، وحقائق الكون والحياة والموت والجنة والنار والشياطين والملائكة وطبيعة الإنسان من

---

[750] محمد رشيد رضا، تفسير المنار (تفسير القران الكريم)، 3/267 ـ 268.

[751] أحمد علي عجيبة، نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، ص179.

خلال هدايات السماء التي نزلت عليهم من الله عزَّ وجل.

وقد حفظ لنا القرآن الكريم ـ كتاب الله العزَّيز ـ سيرهم وتاريخهم وأصول دعوتهم ومن بينهم عيسى عليه السلام، وهذا الكتاب تحدث عن عيسى عليه السلام من خلال الرؤية القرآنية الصادقة والمحكمة التي قدمت سيرة عيسى عليه السلام وأمه في أبهى صورة وأروع بيان.

* * *

شرح أعظم آية في كتاب الله عز وجل

وفي ختام هذا الكتاب رأيت أن أختمه بشرح أعظم آية في كتاب الله عزَّ وجل، وكيف عرّف نفسه سبحانه وتعالى لخلقه، وذلك من خلال آية الكرسي لعل الله أن يهدي بهذا الكتاب أقوامًا وينتفعون به في الوصول إلى الحقيقة الكاملة عن عيسى عليه السلام، وما دعا إليه من التوحيد وعبادة الله عزَّ وجل.

تعدُّ آية الكرسي من أعظم الآيات في كتاب الله، إذ كل ما فيها متعلق بالذات الإلهية العليّا وناطقة بربوبيته تعالى، وألوهيته وأسمائه وصفاته الدالّة على كمال ذاته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه[752].

وهذه الآية تملأ القلب مهابة من الله وعظمته وجلاله وكماله، فهي تدل على أن الله تعالى منفرد بالألوهية والسلطان والقدرة، قائم على تدبير الكائنات في كل لحظة، لا يغفل عن شيء في السماوات والأرض[753].

وهذه الآية لها شأن عظيم، فقد صحّ الحديث عن رسول الله (ﷺ)، بأنها أفضل آية في كتاب الله[754].

[752] أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية، ط5، 2003م، 245/1.

[753] وهبة الزحيلي، التفسير المنير، دمشق: دار الفكر، ط1، 1411هـ، 1992م، 18/3.

[754] تفسير ابن كثير، 377/1؛ صالح علي العود، السر القدسي في فضائل ومعاني اية الكرسي، دار ابن حزم، ط1، 2010م، ص65.

قال تعالى:﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ **[البقرة: 255]** وإليك شرح هذه الآية العظيمة التي تحدّث الله فيها عن نفسه عزَّ وجل:

1 . ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾

أي: لا خالق ولا معبود بحق وصدق إلا (الله) عزَّ وجل وكل ما سواه باطل أصلاً، وهذه الآية أصل في التوحيد: واحد ليس له شريك، ولا نظير ولا وزير ولا مشير، ومعناه: النهي عن أن يعبد شيء غير الله[755].

فهو الإله الحق الذي نتمنى أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأليه له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقًا أن يكون عبدًا لربه ممتثلاً أوامره متجنبًا نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقًا ناقصًا مدبرًا فقيرًا من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئًا من أنواع العبادة[756].

. (الله): الله دال على كونه مألوهًا معبودًا، تؤلهه الخلائق محبةً وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب[757].

. (الله) هو اسم علم دال على ذات الله تعالى رب العالمين، الإله المعبود حقًا متصف بجميع الكمالات المطلقة التي لا تعد ولا تحصى ولا تحد ولا تستنقص، ومتنزهًا عن جميع العيوب والافات ولم يتسم بهذا الاسم غيره سبحانه[758].

. (الله) هذا الاسم الجليل، تعلقت به جميع العوالم بذاتها وبأنواعها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ **[فاطر: 15]**، فجميع العباد يقولون: يا الله،

---

[755] صالح علي العود، السر القدسي في فضائل ومعاني اية الكرسي، ص78.

[756] السعدي، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 112/1.

[757] ابن قيم الجوزية، تفسير الفاتحة، ص47.

[758] حول تفسير الفاتحة أم القران، ص19.

دعاءً أو سؤالاً، نداءً أو ذكرًا أو مناجاة[759].

. (الله) هذا الاسم هو جامع الأسماء الإلهية: الظاهرة والباطنة، على الوجه الذي لا نهاية له كما هو أهله سبحانه؛ لأنَّه أسماءه تعالى هي على حسب صفاته كماله وصفات كماله ما لها نهاية، فأسماؤه ما لها نهاية، ولهذا الاسم الجليل خصائص وفضائل كثيرة مذكورة في كتب المطولات[760].

إنّ معرفة الله تعالى أجلُّ المعارف، وإرادة وجهه أجلُّ المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال[761].

2. ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

مدح الله تعالى نفسه بصفتين جليلتين جميلتين فقال: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

. (الحي) الذي لا يموت: الحي في صفة الله تعالى، وهو الذي لم يزل موجودًا وبالحياة موصوفًا، لم تحدث له الحياة بعد الموت، ولا يعتريه الموت بعد حياة، وسائر الأحياء سواء، يعتريهم الموت والعدم، فكل شيءٍ هالك إلاّ وجهه سبحانه وتعالى[762].

. (الحي): من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع (صفات الذات) كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك[763].

والحياة التي وصف بها الإله الواحد هي (الحياة الذاتية) التي لم تأتِ من مصدر اخر، كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق، ومن ثم ينفرد الله سبحانه بالحياة على هذا المعنى كما أنها هي الحياة الأزليّة الأبديّة التي لا تبدأ من مبدأ، ولا تنتهي إلى نهاية[764].

---

[759] السعدي، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 1810/4.

[760] صالح علي العود، السر القدسي في فضائل ومعاني اية الكرسي، ص79.

[761] ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، 208/2.

[762] صالح علي العود، السر القدسي في فضائل ومعاني اية الكرسي، ص80.

[763] السعدي، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 112/3.

[764] في ظلال القران، 266/1.

. (القيوم) أي: دائم القيام بجميع شؤون الخلق، وهو القائم على كل شيء، فالله عزَّ وجل قائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وجميع ما يحتاجون إليه[765].

. (القيوم): هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم بجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين، من فعله ما يشاء، من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري[766].

إن صفة (الحياة) متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها، وصفة (القيومية) متضمنة لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، هو اسم (الحَيُّ القَيُّومُ). ويكون التوسل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء، وهو أسماؤه وصفاته ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات (الحَيُّ القَيُّومُ)، والمقصود: أن لاسم (الحَيُّ القَيُّومُ) تأثيرًا خاصًا في إجابة الدعوات وكشف الكربات، ولهذا كان النبي (ﷺ) إذا اجتهد في الدعاء قال: يا حيُّ يا قيوم[767].

3. ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾

هذا من تمام حياته وقيوميته، أنه تبارك وتعالى ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾، أي: لا يعتريه نعاس ولا نوم؛ لأنهما من أعراض البشرية، والله بخلاف ذلك.

. (السِنة): ابتداء النعاس، ثم يصير نومًا، و(النوم) أقوى من السِنة، وإذا كان ذلك كذلك فإن: نفي استيلاء السنة والنّوم على الله تعالى تحقيق لكمال (الحياة) ودوام التدبير وإثبات لكمال (العلم)، والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا يدركه خلل ولا يلحقه ملل بحال من الأحوال[768].

والخلاصة: إن هذه الجملة مؤكدة لما قبلها، مقررة لمعنى الحياة والقيومية على أتمّ وجه، إذ

[765] صالح علي العود، السر القدسي في فضائل ومعاني اية الكرسي، ص82.

[766] المرجع السابق، ص82. وانظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 112/3.

[767] المرجع نفسه، ص83.

[768] صالح علي العود، السر القدسي في فضائل ومعاني اية الكرسي، ص86.

من تأخذه السنة والنوم يكون ضعيف الحياة، ضعيف القيام بشؤون نفسه وبشؤون غيره[769].

4 . ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾

لما كان الله سبحانه وتعالى دائم القيام في ملكه، وليس لأحد معه تعالى فيه شركة ولا لأحد عليه سلطان، قرّر عزَّ وجل قيوميته هذه بقوله ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ، أي: جميع من فيهما وما فيهما ملكه، يتصرّف وحده بحكمته وقدرته وعنايته[770]، وأن جميع عبيده وملكه تحت قهره وسلطانه[771].

5 . ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾

أي: ليس لمخلوق كائنًا من كان، لا مَلَكَ مقرّب ولا نبيّ مرسل شفاعة ولا ضراعة عند الله عزَّ وجل إلا برضاه وبعد إذنه، فإن (الشفاعة) كلها لله وحده وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عزَّ وجل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنه له من الله في الشفاعة[772].

إن الله تعالى لا يشفع عنده أحد بحق وإدلال؛ لأن المخلوقات كلها ملكه، ولكن يشفع عنده من أراد هو أن يظهر كرامته عنده، فيأذن له بأن يشفع فيمن أراد[773].

6 . ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

أي: إنَّ الله عزَّ وجل عالم بكل ما في السماوات وما في الأرض من شؤون خلقه؛ ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ومن أمر الدنيا والاخرة، والمقصود من ذلك: عموم العلم بسائر الكائنات في الأرض وفي السماوات[774].

وإنَّ الله عزَّ وجل عالمٌ بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه حتى

---

[769] العود، المرجع السابق، ص86.

[770] المرجع نفسه، ص88.

[771] المرجع نفسه، ص88.

[772] المرجع نفسه، ص91.

[773] محمد الطاهر عاشور، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، 21/3.

[774] صالح علي العود، السر القدسي في فضائل ومعاني اية الكرسي، ص94.

بعلم دبيب النملة السّوداء في الليلة الظّلماء على الصخرة الصّماء تحت الأرض الغبراء، وحركة الذرة في جو السماء والطير في الهواء والسمك في الماء[775]، فلا تخفى عليه غائبة في الأرض ولا في السماء ولا ما بينهما، فهو عالم بخفايا وأسرار ملكه ومخلوقاته سبحانه وتعالى.

7. ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾

أي: لا يدركون من العلم أو المعرفة إلا بقدر ما عرّفهم به أو منه رب العالمين، الذي علّم الإنسان ما لم يعلم[776]، فآتاهم الله من علمه ما شاء وكما شاء، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب[777].

لا يطّلع أحد من علم الله على شيء إلا بمشيئة الله وتعليمه، فما عَرفه الإنسان من عالم الغيب وما عرفه الإنسان من عالم الشهادة وقوانين هذا الكون وكيفية تسخيره إلا بمشيئة الله وتعليمه، فهو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، وهو الذي علّم كل شيء ما علم[778].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على سعة علم الله عزَّ وجل، وأنه محيط بكل شيء قَلَّ أو أكثر صغر أو عظم، كما جاء تحديدًا في آية سورة يونس: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ **[يونس: 61]** إنَّ علم الله تعالى محيط بتفاصيل الأمور؛ متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء، ولا من العلم مثقال ذرة إلا ما علّمهم الله تعالى[779].

8. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾

إنَّ الكرسي هو كناية في الآية عن عظم العلم وشموله واتساعه وتفسيره بعظم السلطات يتناسب مع قوله تعالى بعد ذلك: وتفسيره بمعنى شمول العلم يتناسب مع قوله سبحانه قبل

---

[775] أبو الطيب محمد صديق البخاري القِنَّوجي، فتح البيان في مقاصد القران، صديق حسن خان القنوجي. تقديم ومراجعة: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصريَّة للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، 1412 هـ 1992م، 423/1.

[776] صالح علي العود، السر القدسي في فضائل ومعاني اية الكرسي، ص96.

[777] الشافعي، الرسالة، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، مصر، ط1، 1358هـ/1940م، ص485.

[778] سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، ط1، 1405هـ، 1985م، 596/1.

[779] السعدي، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 112/1.

ذلك، ولذلك يصح أن تقول إن قوله تعالى: كناية عن عظم قدرته ونفوذ إرادته وواسع علمه وكمال ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾، وقد فسر ذلك عبد الله بن عباس بأن (كرسيه) علمه، هو كناية عن سعة الملك وسعة العلم[780].

وهذه الصورة تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقًا وثباتًا، فالكرسي يستخدم عادة في معنى الملك، فإذا وسع كرسيه السماوات والأرض فقد وسعهما سلطانه، وهذه هي الحقيقة من الناحية الذهنية، ولكن الصورة التي ترتسم في الحس من التعبير المحسوس أثبت وأمكن[781].

تأتي لتقرير ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ تضمنته (الجمل) كلها من عظمة وكبرياء وعلم وقدرة في حق (الله) عزَّ شأنه وجل في علاه، ولبيان عظمة خلقه في مخلوقاته المستلزمة عظمة شأنه، أو إظهار سعة ملكه[782].

9 . ﴿وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾

أي: إنَّ الذي خلق ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقات كثيرة، لا يشق عليه عزَّ وجل حفظها ولا يعجز عن رعاية ما أوجده فيهما ولا يثقله تعالى تسيير شؤونهما حسبما قضاه وقدّره فيهما[783]، فسبحان من تقوم السماء بأمره وتدور الأرض بوحيه، رفع الجبال وأجرى الأنهار وحّرك الهواء وشقّ الحب وأخرج الثمار، والوجود قبضته وكل ما فيه إنما إرادته، لا تعصيه سماء ولا تخرج عن طاعته أرض ولا سحاب[784].

10 . ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ *﴾

أي: الله تعالى فوق خلقه، فلا يعلو إلى مقامه الرفيع أحد، وهو أيضًا الكبير ذو الهيبة والجلال المتعالي بعظمته جل جلاله على كل عظيم.

---

[780] محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، 940/2 . 941.

[781] في ظلال القران، 290/1.

[782] التحرير والتنوير، 11/5.

[783] صالح علي العود، السر القدسي في فضائل ومعاني اية الكرسي، ص101.

[784] العود، المرجع نفسه، ص102.

. (العلي): الذي علا عن كل عيب وسوء ونقص، أو المتنزه عن صفات المخلوقين [785].

. (العلي): يفسر بأنه أعلى من غيره قدرًا، فهو أحق بصفات الكمال، ويفسر بأنه العالي عليهم بالقهر والغلبة فيعود إلى أنه القادر عليهم وهم المقدرون، وكأن النبي (ﷺ) يستفتح دعائه: سبحان ربّي العليّ الوهّاب، فكان النبي (ﷺ) إذا سجد . أي في صلاته . قال: سبحان ربي الأعلى (ثلاث).

. (العظيم): الذي قد كمل في عظمته [786]، فهو عظيم في ذاته وصفاته، فذاته العليّة جَلَّت عن المشابهة وهو الخالق القاهر القادر، وهو وحده الإله المعبود بحق، وهو الذي يسبح كل شيء في الوجود بحمده، فهو العظيم وحده، والمعبود وحده المعظم وحده، وإذا كانت غواشي الحياة قد أضلت الأكثرين فلم يدروا عظمته في الفانية فستنجلي لهم عظمة ذي الجلال في الباقية [787].

هذان هما الوصفان الشاملان ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ *﴾ لكل الأوصاف السابقة، فالله سبحانه وتعالى هو العلي العظيم.

إذن هذه آية الكرسي، أعظم آية في كتاب الله، كما ورد في بعض الاثار المثبتة في الصحاح، وإنها لتدل على وحدانية الله بكل شعبها، فقد دلّت على:

. وحدانية الألوهية بقول الله تعالى ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾.

. وحدانية الخلق والتكوين، فلا خالق مع الله تعالى، ولا إرادة تمنع إرادته وقد دلّ على ذلك بأكثر ما في الآية الكريمة كقوله سبحانه: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾.

. وحدانية الذات والصفات، بمعنى أن الله لا يشبهه شيء، أو أحد من خلقه، قال تعالى

---

[785] عيسى السعدي، دلالة الأسماء الحسنى على التنزيه، كليّة التربية بالطائف، قسم الدراسات الإسلاميّة، السعودية ص102.

[786] صالح علي العود، السر القدسي في فضائل ومعاني اية الكرسي، ص103.

[787] محمد أبو زهرة، 942/2.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقد أشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾، وبقوله تعالى: تعالى الله رب العالمين علوًا كبيرًا تولانا الله سبحانه بعنايته وتوفيقه وهدايته.

سابعًا: إثبات صفات الكمال لله تعالى:

ورد في القرآن الكريم وصف الله بصفات الكمال، وأنه المنفرد بها وحده دون ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ **[الإخلاص: 1-4]** وصف الله سبحانه وتعالى ـ في هذه السورة ـ نفسه بأنه أحد صمد، فهذان الوصفان يدلان على اتصاف الله بغاية الكمال المطلق[788] [789].

وجاء معنى الصمد: أنه المستغني عن كل أحد والمحتاج إليه كل أحد [790]، ويدل هذا المعنى للصمد على الإثبات والتنزيه، فالإثبات بوصفه سبحانه بأنه هو الذي يصمد إليه، أي: يرجع إليه في كل أمر؛ وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال فهو القادر على كل شيء، والفعّال لما يريد، والذي بيده الخلق والأمر والجزاء، وما من قوة لغيره تعالى إلا بهيمنة منه إذا شاء أبقاها ومتى شاء سلبها فالمرجع والمرد إليه سبحانه[791].

وأمّا التنزيه: فبوصفه تعالى بأنه غنيّ عن كل شيء، فلا افتقار فيه بوجه من الوجوه، لا في وجوده فإنه الأوّل، الذي ليس مثله شيء، وهو الذي لم يلد ولم يولد، ولا في بقائه فإنه الذي يُطعِم ولا يُطعَم ولا في أفعاله فلا شريك له ولا ظهير [792].

ويدل وصفه سبحانه وتعالى بأنه أحد صمد على اتصافه بالكمال المطلق، فـ (أحد صمد) يدلاّن على معنى اخر وهو نفي الولادة والتولّد عن الله سبحانه، فإن الصمد جاء في بعض الأقوال بأنه الذي لا جوف له، ولا أحشاء فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ

[788] محمد أبو زهرة، 942/2.

[789] أبو الحسن خوجلي إبراهيم عمر، إثبات علو الله على خلقه، ص28. بتصرف.

[790] تفسير الطبري، تقريب وتهذيب، 245/20.

[791] أبو الحسن خوجلي إبراهيم عمر، إثبات علو الله على خلقه، ص28 . 29. بتصرف.

[792] المرجع السابق، ص28 . 29. بتصرف.

أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ وقال تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ **[الذاريات: 56-58]**.

فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له ولا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة، والتولد إنما يكون من شيئين: قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ **[الأنعام: 101]**.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ **[الإخلاص: 4]**. وفي هذا نفي عن المخلوق مكافأته أو مماثلته للخالق، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ **[الأنعام: 1]** أي يعدلون به غيره فيجعلون له من خلقه عدلاً ونظيرًا، ومثال هذا قوله تعالى : ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ **[مريم: 65]**، أي لا شيء يساميه، لا ندّ، ولا عدل، ولا نظير له يساويه، فأنكر التشبيه والتمثيل، وبهذا يتبين لنا أن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته، كما دلّت على ذلك سورة الإخلاص[793].

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **[الصافات: 180-182]**.

* * *

[793] أبو الحسن خوجلي إبراهيم عمر، إثبات علو الله على خلقه، ص29. بتصرف.

خاتمة

1. ولد عيسى عليه السلام بأرض الجليل من مناطق فلسطين أو (جليل الأمم)، كما سمّاها الإسرائيليون فيما بعد؛ لأنها كانت إقليماً مفتوحاً لجميع الأمم الشرقية والغربية . في مدينة بيت لحم . والتي تبعد قرابة 10 كم جنوبي مدينة القدس.
2. مرّت حياة بني إسرائيل في فلسطين بثلاث عهود؛ عهد القضاة، وعهد الملوك، وعهد الانقسام.
3. تعرض بنو إسرائيل لغزو بختنصر (حاكم بابل الكلداني)، واحتل منطقة الشام وفلسطين، وطرد الفراعنة وزحف على دولة يهوذا التي تمرّدت عليه فدمَّرها، ودمَّر معبد أورشليم، وساق شعبها مسبيّاً إلى بابل، وهو ما يسمى بالسبي البابلي.
4. سقطت دولة بابل في يد الفرس في عهد ملكهم قورش سنة (538 ق.م) الذي سمح لليهود بالعودة إلى بيت المقدس وبناء هيكلهم، وعيَّن عليها حاكماً منهم من قبله.
5. زحف الإسكندر المقدوني اليوناني إلى بلاد الشام وفلسطين، واستولى عليها وأزال حكم الفرس، ودخلت منطقة اليهود تحت حكم اليونان من نهاية القرن الرابع (ق.م) إلى منتصف القرن الأول ق.م.
6. في منتصف القرن الأول (ق.م)، زحف القائد الروماني بومبي إلى بلاد الشام وفلسطين سنة (64ق.م)، وأزال حكم اليونانيين عنها، ودخل اليهود تحت حكم الرومان وسيطرتهم، وفي زمانهم ولد المسيح عليه السلام.
7. خضعت فلسطين للسياسة الرومانية وانتهجت في أول الأمر نظام الحماية، وأوكلت ظاهر السلطة إلى ملك محلي من اليهود لضمان ولائه.
8. في عصر أغسطس إمبراطور روما (ت: 14م) أحاطت الإمبراطورية الرومانية في تلك الفترة بالبحر المتوسط كله، وببلاد أوروبا الواقعة غرب نهر الراين إلى البحر الأسود، وحكمت الأناضول (تركيا) وبلاد الرافدين والشام ومصر والشمال الأفريقي كله، أي أن المجتمع النصراني ولد في مكان التقى فيه عالمان: الشرق والغرب، والساميون والرومان، والإغريق، واليهود وغير اليهود.

9. تولى الحكم في منطقة فلسطين رجل متهوِّد هو (هيرودوس الأكبر) فحكم من (37 ـ 40 ق.م) ثم ما لبثت رومة من سنة 6م أن أخضعت البلاد كلها للحكم المباشر، فضمت مقاطعتي اليهودية من الجنوب والسامرة في الوسط ضمن ولاية واحدة.
10. كانت الحالة السياسية في عصر المسيح من أسوأ ما يكون، وأبلغ منها في السوء الحالة الاجتماعية، فبسبب السلطة المطلقة التي كانت بيد الحكام ضاع النظام مع القانون، فحدث تفاوت كبير بين الحكّام والمحكومين، فكانت الثروة والترف والطغيان من ناحية، والفقر والهوان من ناحية أخرى، إضافة إلى الضرائب التي كانت تجبى لحساب روما، وانحصر هدف رجال الدين في جمع الأموال، وخلا المجتمع من الترابط والتالف، وانتشرت العصبية بين الناس وظهرت الفوارق الطبقيَّة.
11. إنَّ التعاليم الإلهية التي جاء بها عيسى عليه السلام كانت مناسبة لهذه البيئة، وجاءت علاجاً لمشكلاتها، فبينما كانت تسيطر الأجواء المادية في ذلك المجتمع جاءت تعاليم عيسى عليه السلام روحية سامية لتعالج ذلك الاستغراق المادي.
12. إن الأفكار والمعتقدات السائدة في تلك البيئة وما حولها كان لها أثرٌ في تلوين المسيحية ـ بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ـ بألوان مختلفة، وهذا العصر أو تلك البيئة كانت تتنازعها عوامل ثلاثة: هي (الحضارة الإغريقية) التي شكلت عقل الإنسان، و(الدولة الرومانية) التي حددت له مؤسساته التي يعيش بينها، ثم (الدين اليهودي) الذي جاءت المسيحية أساساً لإصلاحه بعد أن صار عامل تخريب في العقل وفي أُطُر الحياة معاً.
13. خلَّف الرومان من بعدهم إلى جانب ما خلفه الإغريق فكرة (تأليه الإنسان)، وإلى ما خلفه الإغريق من المؤسسات، والهياكل والتنظيمات التي صارت تنظم الحياة الدينية الرومانية والتي انتقلت إلى الحياة الدينية المسيحية مع الانحراف الكبير والخطير عن الديانة النصرانية التي بعث الله بها عيسى عليه السلام.
14. إن من أهم فرق اليهود في هذه الفترة ـ فترة مبعث المسيح عليه السلام ـ لدى الباحثين هي: السامريون، الصدوقيون، والفريسيون، والقمرانيون، والاسانيون، وكلها باستثناء السامريين فرق ظهرت في الفترة الوسيطة بعد الأسر البابلي.
15. تعرض الهيكل الذي هو مقرُّ العبادة عند اليهود للهدم على يد البابليين، ثم أمر (قورش)

الفارسي بإعادة بنائه، وجاء الملك (هيرودوس) وجدّد بناءه، وتم ذلك أو كان في عصر الميلاد.

16. إن أصدق كتاب موجود لدينا اليوم هو كتاب الله عز وجل، ولذلك اعتمدته في حديثي عن المسيح عيسى عليه السلام، فهو محفوظ بحفظ الله له، وهو ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42] ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾، وهو مصدِّق لما قبله من الكتب السماوية ومهيمن عليها.

17. ومن الناحية التاريخية نجد أن التاريخ لا يسعفنا بالمعلومات الأساسية المؤكدة عن دعوة المسيح عليه السلام، وذلك لأسباب عدّة منها: بُعد العهد واضطراب الروايات التاريخية، بل من المؤكد أن لتدخّل العنصر البشري دوراً في هذا حتى اختلط الحابل بالنابل، وتعسّر وتمييز الطيب من الخبيث والحق من الباطل.

18. إن الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام لا وجود له اليوم حتى في الأوساط النصرانية، فكيف نعدل عن وحي سماوي ـ وهو القرآن الكريم ـ إلى مؤلفات بشرية وهي الموسومة اليوم بالأناجيل؟

19. إن القرآن الكريم مع السنة النبوية الصحيحة في الحقيقة وحدهما المصدران –علميّاً وتاريخيّاً– اللذان صورا لنا بدقة عالية تاريخ الرسالات الإلهية كلها، من أول الأنبياء آدم عليه السلام حتى اخرهم وخيرهم محمد (ﷺ).

20. إن القرآن الكريم له مكانته العلمية حتى في الأوساط النصرانية فنجدهم يقرُّون ـ مع كفرهم به ـ بجودة مصدريته، ودقة أخباره وبتواتره المنقطع النظير، وخلوِّه مما اتسمت به كتبهم من التناقض والأخطاء والتعبير والتبديل والإضافة والحذف.

21. لا يوجد كتاب على وجه الأرض منح السيد المسيح عليه السلام وأمه البتول وعائلته الكريمة، تكريماً وتبجيلاً أعظم من القرآن الكريم.

22. إن تكريم القرآن الكريم للمسيح وأمه وعائلته يفوق بلا ريب تكريم كل من التوراة والإنجيل الموجودين حالياً، وكان القرآن الكريم بالإضافة إلى هذا التكريم هو المصحح للأخطاء والاتهامات والافتراءات الباطلة التي كانت توجّه إلى السيد المسيح وأمه الطاهرة على ألسنة اليهود والمسيحيين أنفسهم.

23. في القرآن الكريم توجد سورة آل عمران، وهي اسم عائلة المسيح عليه السلام، ولفظة (آل) كلمة تخاطب بها العائلات الكريمة الطيبة، وهذه السورة هي ثاني أطول سورة في القرآن الكريم، وهناك سورة باسم سورة (مريم)، وهو اسم السيدة مريم العذراء والدة المسيح عليهما السلام، على حين لا يوجد في القرآن الكريم اسم لعائلة نبي الإسلام محمد (ﷺ)، إذ لا توجد سورة تحمل اسم (بني هاشم) أو (بني عبد المطلب)، ولا توجد سورة تحمل اسم (امنة بنت وهب) والدة الرسول (ﷺ).

24. إن الوثيقة التاريخية الوحيدة الصادقة التي لا يعتريها اللُّبس ولا الغموض ولا التحريف، وتتمتع بمصداقية مطلقة (100%) ما جاء من حديث واضح وقصة صادقة عن عيسى عليه السلام وأمه وعائلته وعقيدته ودعوته وأنصاره وقومه، وحقيقته في القرآن الكريم.

25. إن حديث القرآن الكريم عن سيرة عيسى عليه السلام دليل على الإعجاز التاريخي والتي يشهد أنه لا يمكن أن يكون القرآن الكريم صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، كما يشهد لرسول الله (ﷺ) بأنه لا يمكن أن يكون قد استقى هذه الحقائق من كتب العهدين القديم والجديد، وذلك للاختلاف الكبير بين ما جاء عن حقيقة هذا العبد الصالح في تلك المصادر، وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن هناك من الوقائع القرآنية ما لم يرد له ذكر في أي من كتب العهدين القديم والجديد، وذلك من مثل معجزة كلام المسيح عليه السلام وهو في المهد ونطقه للعبودية الكاملة لله تعالى، وتنزيهه للخالق العظيم عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله وغير ذلك.

26. ورد اسم عيسى عليه السلام خمساً وعشرين مرة في القرآن، وورد اسم أمه مريم عليها السلام أربعاً وثلاثين مرة في القرآن، وثلاثاً وعشرين مرة مقرونة باسم عيسى ابن مريم، وإحدى عشر مرة مجردة عن عيسى.

27. تحدث القرآن الكريم عن أسرة عيسى عليه السلام من ناحية أمه عن جده من أمه، وجدَّته من أمه، وبيَّن عظمة هذه الأسرة في الصلاح والتقوى والعبادة.

28. ذكر الله عز وجل نشأة عيسى عليه السلام ببيان نشأة أمه بياناً لبطلان ما يعتقده النصارى فيه من أنه ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ، فعيسى له أم، وأمُّ عيسى لها أم وأب، ولهما أمهات واباء إلى آدم.

29. ذكر الله الأحوال التي اكتنفت الحمل بالبتول مريم، وولادتها وتربيتها، ويلاحظ القارئ أن العبادة والنسك أظلاها وهي جنين في بطن أمها إلى أن بلغت مبلغ النساء، واصطفاها الله لأمرٍ جليل خطير، فأمها وهي حامل بها نذرت ما في بطنها لما تحرك الحمل في أحشائها أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى، منقطعاً لعبادته وخدمة بيت المقدس، والمحرر هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، ولا يشغله شاغل عن عبادة الله.

30. كان دعاء امرأة عمران دليلاً على إخلاصها وقوة إيمانها وحسن عبادتها لربها والظن فيه، ولذلك استمرت في نذرها، وسألت الله أن يتقبله منها، ودعت الله عز وجل أن يحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم.

31. تقبل الله عز وجل مريم عليها السلام بقبولٍ حسن، وأنبتها نباتاً حسناً، وجعل لها من يقوم بشأنها ويعنى بأمرها ويهتم بإصلاحها، وقيَّض لها نبياً من الأنبياء وهو زكريا عليه السلام.

32. عاشت مريم طفولتها وشبابها عند زكريا عليه السلام، واقتبست منه العلم والمعرفة واقتدت به في العبادة والذكر، واستفادت منه الخلق والسلوك فنشأت نشأة إسلامية صالحة، وكانت عابدة ذاكرة زاهدة مقبلة على الله متصلة به.

33. كانت مريم عليها السلام سبباً في دعاء زكريا لربه بالذرية الصالحة لما رأى أفضال الله وكرامته على مريم، وذكرته أن رزقها من عند الله.

34. استجاب الله دعاء زكريا عليه السلام وكتب له الولد برحمته، وأجرى له معجزة خارقة، فامرأته عاقر لا يمكن أن تنجب في المنطق البشري القائم على الأسباب والعادات، ولكنها حملت، ووضعت بأمر الله وإرادته وكرمه وجوده.

35. كان زكريا ويحيى عليهما السلام من اخر أنبياء بني إسرائيل، ولم يأت نبي بعدهما لبني إسرائيل إلا عيسى ابن مريم عليه السلام.

36. لما ذكر الله تعالى قصة ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام من عجوز عاقر وشيخ قد بلغ من الكبر عتياً، وذلك بمقتضى السنن الكونية شيء خارق للعادة، لعقم المرأة وهرم الشيخ، أعقبها بما هو أبلغ وأروع في خرق العادات، فذكر ولادة عيسى عليه السلام من غير أب، وهي شيء أعجب من الأول بكثير.

37. إن الله اصطفى مريم على نساء العالمين، وانتقاها من بين النساء ونشّاها نشأة حسنة، وأنبتها نباتاً حسناً، وأسبغ عليها نعمه وتوفيقه ورعايته، وألهم أمها أن تنذرها له وهي في بطنها ليجعلها خالصة محررة له، وهيأ لها الحياة والعيش تحت كنف ورعاية نبي كريم هو زكريا عليه السلام وقدَّم لها الرزق المنوَّع الشامل وهي في المحراب تكريماً لها، ولم تتوفر هذه الأمور لأي امرأة غيرها، مهما بلغت من الصلاح والتقوى، وهذا هو الاصطفاء الأول لها القائم على الانتقاء والاجتباء، وبما أن الله اصطفاها وانتقاها، فقد صفّاها وخلَّصها من الشوائب، وطهرها من الأدناس والأرجاس ﴿وَطَهَّرَكِ﴾، واصطفاها الله على نساء العالمين، وفضلها عليهنَّ جميعاً في إنجابها الولد بدون أب، حيث خصّها وحدها بهذه الآية الباهرة والمعجزة الخارقة.

38. وصفت السيدة مريم عليها السلام بالصدِّيقة لكمال إخلاصها وانقيادها لله عز وجل ظاهراً وباطناً، والتعبُّد بطاعته سبحانه في حركة وسكون مع إخلاصٍ عظيم في القصد لله عز وجل. وصفت بالصديقة، لكثرة تصديقها بآيات ربها، وتصديقها ولدها فيما أخبرها به، ووصفت بصدق وعد ربها وهو ميثاق الإيمان.

39. كانت حياة مريم عليها السلام طاعة وعبادة وخشوع وركوع وحياة موصولة بالله تمهيداً للأمر العظيم الخطير وهو مولد عيسى عليه السلام من غير أب.

40. إن الآيات التي تحدثت عن آل عمران والسيدة مريم وزكريا عليهم السلام في سورة آل عمران من أنباء الغيب، ودلالة واضحة على نبوة النبي(ﷺ)، وأن تلك الأخبار من وحي الله إليه، لأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعلمون أن محمداً(ﷺ) أميّ لا يقرأ ولا يكتب، وهذا معناه أنه لم يعلم بهذه الأخبار من الكتب ولم يصاحب أحبار ورهبان أهل الكتاب فكيف علم بهذه الأخبار الخفية التي لا يعلمها إلا عدد قليل من الأحبار والرهبان، ولذلك لا شك بأن الله هو الذي أوحى إليه بها، فهو رسول الله.

41. إن ما ورد من الأناجيل في شأن عيسى عليه السلام وفي شأن مريم متضارب متناقض، بعيد عن الحقيقة منحرف عن الصواب، حتى شرّاح الأناجيل قد أصابتهم الحَيرة ووقعوا في أخطاء وتناقضات وهم يشرحون الأناجيل.

42. بشّرت الملائكة مريم بعيسى عليهما السلام وذكرت جملة من أوصافه، وتحققت فيما

بعد، ومن أهم تلك الأوصاف كونه وجيهاً في الدنيا والاخرة، ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلاً، ومن الصالحين.

43. ذكر القرآن الكريم الحوار بين جبريل ومريم عليهما السلام بدقةٍ متناهية لا توجد إلا في كتاب الله عز وجل.

44. معنى كون عيسى (كلمة الله) في قوله تعالى فهي كلمة الله التي يخلق بها المخلوقات وهي (كن) وتفسير هذه العبارة أنه سبحانه خلق عيسى بالأمر الإلهي الكوني ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ **[النساء: 171]**، الذي يقول عنه في مواضع شتى من القرآن الكريم إنه (كن فيكون)، فقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم، فخلق عيسى في بطنها من غير نطفة أب .كما هو المألوف في حياة البشر غير آدم . والكلمة التي تخلق كل شيء من العدم، لا عجب في أن تخلق عيسى عليه السلام في بطن مريم من النفخة التي يعبر عنها . إن عيسى عليه السلام بالكلمة ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، وليس هو عين الكلمة، فالكلمة التي ألقاها الله عز وجل إلى مريم حين قال له: (كن) فكان عيسى ب(كن) وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكُن كان، فالكُنْ من الله قوله: ليس مخلوقاً، وعيسى بالكن كان ولذلك فهو مخلوق من الله تعالى.

45. في قوله تعالى ليست ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، لأن روح الله لا تتبعّض ولا تتجزّأ ولا تنقسم إلى أبعاض وجزئيات وأقسام، إن (من) هنا لابتداء الغاية أي من عند الله سبحانه، وإضافة الروح إلى الله هي إضافة أعيان منفصلة عن الله فهي إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه وهي تقتضي تشريفاً وتخصيصاً يتميز بها المضاف عن غيره، يعني أنها روح خيرية مطيعة لله تعالى كمثل ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ *﴾، فالروح مخلوق من عند الله تعالى.

46. جاءت تفاصيل مولد عيسى عليه السلام في سورة مريم، بدقة متناهية، وأوصافٍ محكمة للمكان والحالة النفسية التي مرت بها مريم عليها السلام، ابتداء من أخذها للمكان البعيد ومجيء المخاض وآلامها عند الوضع وتمنيها الموت ومناداة ابنها لها من تحتها، وما صاحب ذلك من نفحات وبركات.

47. جعل الله صوم مريم وصمتها عن الكلام آية لها ودليلاً على براءتها وطهارتها فبينما صامت

هي عن الكلام وهي القادرة عليه فقد أنطق الله وليدها عيسى عليه السلام الذي لم تمض على ولادته إلا فترة يسيرة، وهو في المهد، فكان كلامه أقوى وأبلغ في إزالة التهمة عنها، كما أن السكوت عن السفهاء وعدم الرد عليهم من أخلاق الصديقة العفيفة الطاهرة المطهرة.

48. عندما نطق عيسى عليه السلام في المهد أخرس كل من اتهم والدته وبين معجزته الخالدة في كون الله خلقه من دون أب، وبين رسالته في الحياة وأنه عبد الله اتاه الكتاب وجعله نبياً وأوصاه بالصلاة والزكاة، وبرّه بوالدته وقدم نفسه لقوم أمه، وذكر عبوديته لله الواحد، وذكر ما سيؤتيه الله من النبوة الكتاب، ومن السمات والمزايا الإيجابية القائمة على بره بأمه وتواضعه وعدم تجبره، أو تكبره، وما سيضفيه عليه من السلام والأمان في حياته، وتوقف عرض القرآن لقصة ميلاد عيسى عليه السلام عند هذا الحد.

49. بعدما ذكر الله عز وجل سيرة مريم وابنها عليهما السلام بشفافية عالية ومصداقية لا يوجد مثيل لها علّق على القصة بتبيانه ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ **[مريم: 34-35]** .

50. إن القرآن الكريم ذكر قصة عبد الله ورسوله المسيح عيسى ابن مريم بقدر هائل من الدقة المتناهية بعد أن كانت كل من سيرته الشريفة ودعوته الكريمة قد شابها الكثير من التحريف والتشويه، ويعتبر ذلك بحق وجهاً من أوجه الإعجاز التاريخي في هذا الكتاب العزيز، يشهد له بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة والرسالة.

51. تأثر ملك الحبشة النجاشي بعدما قرأ جعفر بن أبي طالب عليه سورة مريم وأسلم في ختام المطاف.

52. ليس في القرآن الكريم سورة باسم امرأة سوى سورة مريم عليها السلام لا امنة أم رسول الله محمد ولا خديجة زوجه ولا فاطمة ابنته.

53. شبَّ عيسى عليه السلام وعاش صباه وشبابه طاهراً تقياً يحفظه الله ويحميه ويرعاه ويبعد عنه الشيطان ووساوسه حتى أنزل عليه الوحي وجعله نبياً رسولاً وبعثه إلى بني إسرائيل وأنزل عليه كتابه الإنجيل، وكانت بعثة عيسى عليه

54. بيّنت الآيات الكريمة أن أصول الشرائع ووحدة الدين عند الله حقيقة دلت عليها النصوص كالأمر بالصلاة والزكاة والصيام والقصاص والجهاد... إلخ.
55. اتفقت جميع الرسالات السماوية على أصول الإيمان على امتداد دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام ولم تختلف هذه الرسالات في تقرير أصول الإيمان قبل أن ينال منها التحريف والتبديل؛ لأنها تتحدث عن مقررات ثابتة لا يقوم الإيمان إلا بها فهي حقائق ثابتة لا تتطور ولا تتغير، ولا يدخلها النسخ كما يدخل فروع الشرائع، وقد جاءت النصوص القرآنية تؤكد هذه الحقيقة.
56. كان همُّ عيسى عليه السلام أن يدعو الناس إلى طاعة الله، وتقديم العبادة له دون سواه، وتحقيق التوحيد تحقيقاً حقيقياً مبنياً على إيمانٍ عميق، ومعرفة راسخة، ومن أصول دعوته الإيمان بالله واليوم الاخر، والملائكة، والكتب السماوية، والأنبياء والمرسلين والإيمان بالقدر.
57. اتصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأفضل الصفات وأنبل الأخلاق والفضائل، وفي مقدمتها الصدق والأمانة والفطانة والبيان وغيرها، وقد تحدث القرآن الكريم عن أصول الدين وأخلاقه الجامعة التي اتفقت عليها الرسل في كل الديانات السماوية والمقررة في كل الشرائع العادلة كالوصايا العشرة المذكورة في سورة الأنعام.
58. إنَّ الإسلام هو دين الله الخالد الذي لا يقبل الله سواه، وأن هذا الدين هو الدين الذي فرضه الله على البشرية، منذ خلقهم، جاء به آدم، وإدريس ونوح وإبراهيم، وآل إبراهيم، وآل عمران، وأنه تم برسالة خاتم النبيين، وأن هذا الدين جاء به النبيون، لأنه هو الدين الوحيد الذي يدعو إلى الوحدانية الخالصة التي لا يشوبها أدنى شرك، وهو الدين الذي يشمل العقائد الصحيحة والأحكام العامة التي لا تتغير بتغير الزمان أو المكان، أو بتغير أحوال الناس في سلسلة حياتهم الإنسانية على وجه الأرض، مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم، ومهما تغيرت مهنهم وحرفهم وثقافتهم في الحياة الدنيا.
59. أرسل الله تعالى المسيح عيسى ابن مريم برسالة الإسلام، فكان يدعو بني إسرائيل إلى اعتناق هذا الدين المؤسَّس على الاعتراف بالخالق ووحدانيته.
60. أخبر الله بأن عيسى عليه السلام مصدِّق لما بين يديه من التوراة في مواضع مختلفة من كتابه العزيز، فدعوة عيسى مكمِّلة لشريعة موسى عليه السلام، وموضحة لها وامتداد لها

ومصححة لما طرأ عليها من انحرافات وضلالات مع توالي الحقب والأزمان، كما أنه عليه السلام قد أتى ببعض التخفيفات والتسهيلات لبني إسرائيل، ولهذا كان المفهوم الطبيعي للنصرانية أن تحكم شريعة التوراة مع مراعاة التعديلات الواردة في الإنجيل.

61. وصف القرآن الكريم التوراة بصفات إيجابية، حيث مدحها وأثنى عليها، واعترف بفضلها، وهذا أمر طبيعي؛ لأن القرآن من عند الله والتوراة أيضاً من عند الله أنزلها على عبده موسى عليه السلام، ولذلك وصفت بالهدى والرحمة والنور والضياء والفرقان وهذا الوصف للتوراة الربانية.

62. لقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن أحبار اليهود قد قاموا بتحريف التوراة، وأنهم أضافوا إليها، وأنقصوا منها الشيء الكثير، وقد فضحهم الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في مواضع عديدة

63. لا يعترف القرآن الكريم بالتوراة المحرّفة التي ألّفها وصاغها أحبار اليهود وحاخاماتهم على مدار التاريخ اليهودي الطويل، وأظهروها للناس، وسمَّوها (العهد القديم) بأسفارها الكثيرة، والتي فيها من الأخطاء والأكاذيب والأباطيل الشيء الكثير، والصواب والصحيح فيها قليل جدّاً لا يكاد يذكر.

64. لم يكن حظّ الإنجيل خيراً من حظّ التوراة، فبعدما رفع عيسى عليه السلام، اختفت معه صحائف الكتاب الذي أنزل عليه، ولم يجد أحد أثراً لها إلى يومنا هذا.

65. إنَّ الفوضى الواسعة التي أعقبت غياب عيسى عليه السلام، ترجع إلى سطوة السلطة الرومانية وإلى أثر اليهود بين طبقات الشعب، فقد تعاون الفريقان على مطاردة من آمن بعيسى ومصادرة ما يشير إلى تعاليمه، وظل هذا الاضطهاد أكثر من ثلاث قرون اختلف المسيحيون خلالها اختلافاً كبيراً.

66. ظهر اختلاف في الكتب التي قيل فيها إن تلاميذ عيسى ألقوها متضمنة تعاليمه، وقد سميت هذه الكتب كلها (أناجيل)، وقد اختلفت فيما بينها اختلافاً واسعاً بلغ حد التناقض، والمرويّ أنها بلغت سبعين إنجيلاً وقيل أكثر.

67. إنَّ الأناجيل الحالية عبارة عن مصنفات تاريخية حول قضية حياة مريم وابنها عيسى وما جرى له منذ ولادته حتى نهاية حياته في الأرض حسب معتقداتهم، ولم يكتب شيء من

هذه الأناجيل في حياة عيسى عليه السلام وإنما كتبت بعد رفعه إلى السماء.

68. إنَّ وجود التحريف في الأناجيل الأربعة واضح بيّنٌ ظاهر بأنواعه الثلاثة؛ تحريف بالتبديل، وتحريف بالزيادة، وتحريف بالنقصان، كما ورد الإخبار بتحريفها في آيات كثيرة في الذكر الحكيم.

69. تدخلتِ العوامل السياسية في القرن الرابع الميلادي في تشكيل المسيحية وبنائها بالصورة التي تعرف بها اليوم، فالإمبراطور قسطنطين حاول توحيد كلمة النصارى تحت سلطانه خشية على إمبراطوريته من الانقسام والفرقة، فجمع القساوسة في مؤتمر نيقية، وتامر هو وبطريرك الإسكندرية واتفقا على القول بوجود ثلاثة الهة، وحاربت السلطات الحاكمة كل من كان يقول بغير تلك المقالة، كما أن الإمبراطور قسطنطين كان وثنياً قبل أن يعتنق المسيحية، فلا غرابة أن يؤيد المقالة التي تنادي بوجود ثلاثة الهة، لأن ذلك يتوافق مع هواه وعقيدته السابقة الوثنية.

70. بشّر عيسى عليه السلام برسول الله (ﷺ)، وذكرت صفاته في التوراة والإنجيل، وسطعت بشارته في كتب أهل الكتاب، وأثبت ذلك علماء من أهل الكتاب من أشهرهم عبد الأحد داود في كتابه (محمد في الكتاب المقدس).

71. شاء الله عز وجل أن يجعل عيسى عليه السلام آية، ولذلك جعل معجزاته عديدة في حياته، وصاحبته منذ خلقه إلى موته قبل قيام الساعة، ومن أشهر معجزاته، ميلاده من غير أم بلا أب بقدرة الله، وتأييده بروح القدس، وتعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، والخلق من الطين ونفخ الروح بإذن الله، وإخباره عن الغيوب ونزول المائدة من السماء بدعائه.

72. الحواريون هم أنصار عيسى عليه السلام، فقد استجابوا لدعوة عيسى عليه السلام وأصبحوا أنصار الله، آمنوا بالله، وبما أنزل، واتبعوا رسوله.

73. تعرض عيسى عليه السلام لمكر اليهود وحاولوا قتله، ولكن الله حماه ونجّاه ورفعه إليه.

74. من معاني التوفّي في القرآن الكريم: الموت والنوم، فأحياناً يرد بمعنى الموت وقبض الروح، وأحياناً يراد به النوم.

75. توفى الله عيسى مرتين: وفاة نوم ووفاة موت:

. المرة الأولى: وفاة نوم عندما أراد اليهود صلبه وقتله ومكروا به فأنجاه الله منهم، وذلك بأن توفاه ورفعه إليه وقال له قبل توفيه: وهو توفي ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾**[آل عمران: 55]**، وذلك بأن ألقى الله النوم على عيسى عليه السلام، ولما نام رفعه إليه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾

. المرة الثانية: عندما سينزله الله قبيل قيام الساعة ليستكمل باقي عمره الذي حدده الله له، حيث سيتوفّاه الوفاة الحقيقية بقبض روحه، وخروجها من جسده وموته كما يموت الناس، وذلك التوفي موت: أي لما أمتّني وقبضت ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ **[المائدة: 117]** تحدث القرآن الكريم عن محاولة اليهود قتل عيسى عليه السلام في ثلاثة مواضع بثلاث سور:

— إشارة سريعة إلى كف بني إسرائيل عنه لما جاءهم بالبينات وذلك في سورة المائدة ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ **[المائدة: 110]**.

— حديث مجمل في حماية عيسى عليه السلام منهم بأن ألقى عليه النوم ثم رفعه إليه وذلك في سورة آل عمران ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ **[آل عمران: 55]** .

— وحديث أكثر تفصيلاً عن نفي قتل اليهود وصلبهم لعيسى عليه السلام لأن الله رفعه إليه، وقيامهم بقتل وصلب شبيه له وذلك في آيات سورة النساء ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ **[النساء: 157-158]**.

76. إن الأناجيل الأربعة (متى، ولوقا، ومرقس، ويوحنا) وهي المعتمدة عند النصارى، اضطربت في حديثها عن أحداث تلك الليلة الأخيرة من حياة عيسى عليه السلام على الأرض اضطراباً كبيراً، واختلفت اختلافاً بيناً، وتناقضت تناقضاً واضحاً.

77. إن عقيدة الخلاص المسيحية التي هي من وضع بولس قائمة على أسس باطلة، وهي أن آدم عليه السلام أخطأ وهذه الخطيئة انتقلت بالوراثة إلى كل أبنائه، والطريق الوحيد

للخلاص منها هو ما زعموه من أن الله نزل وتجسّد في صورة بشرية ليصلب ويتغلب على الموت فيقوم، وبذلك ينال الناس الخلاص.

78. إن تنزه المسيح عما جاء في كتب النصارى من الصّلب والإهانات التي تعرض لها قد استدل النصارى على قولهم بالصّلب على الأناجيل، وقد بيّنا أنها محرّفة ومبدلة ومتناقضة بالدليل والبرهان.

79. ليس عند الله خطيئة موروثة تحتاج إلى التكفير عنها بصلب نبيٍّ أو ابن الله ـ تعالى عما يقولون علوّاً كبيراً ـ بل إن كل إنسان مسؤول عمّا اقترفه، ومحاسب عليه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ **[الأنعام: 164].**

80. إنَّ الخلاص المسيحي تأثر بالعقائد الوثنية، فالتجسد الإلهي من أجل الخلاص من المعتقدات الوثنية التي كانت منتشرة في البلاد اليونانية ثم الرومانية قبل ظهور المسيح بمئات السنين، وكان لظهورها في هذه البلاد أكبر الأثر في تأثر دعاة المسيحية بها، كما أن الصلب وتعذيب الإله من أجل الخلاص صورة وثنية أخرى كانت سائدة في المجتمعات الوثنية قبل المسيحية، وقيامة المخَلِّص من أجل الخلاص في صورة وثنية ثالثة ظهرت بين الوثنيين قبل المسيحية بفضل بولس وأتباعه، ولم يفعلوا شيئاً سوى وضع اسم المسيح عيسى ابن مريم بدلاً من هؤلاء الالهة المخلصين الوثنيين.

81. لقد كان لدخول الوثنين في النصرانية أمثال الإمبراطور قسطنطين الأثر الأكبر على تلقيح النصرانية بالتعاليم الوثنية، وتولدت عقيدة التثليث من قرارات المجامع الكنسية المتعددة، وفي أزمنة مختلفة:

- مجمع نيقية سنة 325م قرر ألوهية المسيح.
- ومجمع القسطنطينية الأول سنة 381م قرر ألوهية روح القدس.
- ومجمع افس الأول سنة 431م قرر الالهة ثلاث: أب وابن وروح القدس.

ثم اختلفوا بعد ذلك في طبيعة المسيح: هل هو: ذو طبيعة واحدة؟ أم ذو طبيعتين؟، هل هو: منبثق من الأب وحده، أم من الأب والروح القدس معاً؟ وبهذا يتضح أن عقيدة التثليث التي يؤمن بها النصارى لم يأت بها المسيح عليه السلام، ولم يأمر بها أتباعه، ذلك لأن عيسى

عليه السلام ـ كما بين هذا الكتاب ـ رسول الله ما دعا الناس إلا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنه عليه السلام لم يدع لنفسه منصباً أكثر من أنه عبد الله ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ **[مريم: 30].**

82. استمرت المسيحية المؤمنة بنبوة عيسى عليه السلام وبشريته منذ العصور الأولى للمسيحية وتعرضت للاضطهاد من قبل السلطة الدينية القائلة ببنوّة المسيح مدعومة بالسلطة السياسية كثيراً من الاضطهاد من الموحدين النصارى كالقتل والحرق والسجن.
83. كان من أشهر الدعاة إلى بشرية عيسى عليه السلام اريوس الذي ولد في ليبيا وقد لاقت دعوته قبولاً من جموع غفيرة من شعب الإسكندرية، وجماعة من الشمامسة والقساوسة، وحتى في فترات السيطرة الأرثوذكسية كان للآريوسية تواجد واضح بمصر وسائر بلدان الإمبراطورية البيزنطية.
84. يوجد حالياً الكثير من النصارى الموحدين بدليل كثرة كنائسهم وتزايد أعدادهم في أوروبا وأمريكا وبعض دول اسيا، واعتنقت شخصيات متميزة في عطائها الفكري عقيدة التوحيد المسيحية فكان منهم الساسة والأدباء والأطباء، بل كان منهم عدد لا يستهان به من رجال الدين المسيحي، وقد اهتم رسولنا محمد (ﷺ) بتوجيه الدعوة إلى الآريوسيين، فقد ورد ذكرهم في كتابه إلى هرقل عظيم الروم لدعوته إلى الإسلام.
85. إن الله عز وجل رفع عيسى عليه السلام إليه، وإنه الان حيٌّ في السماء حياة طيبة قد التقى به رسولنا (ﷺ) في رحلة الإسراء والمعراج، التقى به أولاً في المسجد الأقصى عندما صلى رسول الله (ﷺ) بالأنبياء إماماً وكان عيسى مأموماً خلفه، ثم التقى به ثانياً لما عرج به إلى السماء، حيث أخبرنا أنه قابل عيسى عليه السلام في السماء الثانية.
86. هناك أدلة من القرآن الكريم والسنة المطهرة تدل على نزول عيسى عليه السلام قبل قيام الساعة ونزوله من علامات يوم القيامة الكبرى والتي منها خروج يأجوج ومأجوج، والخسوفات الثلاثة، والدخان وطلوع الشمس من مغربها، والنار التي تحشر الناس.
87. يحكم عيسى عليه السلام بالشريعة المحمدية ويكون من أتباع محمد (ﷺ) فإنه

لا ينزل بشرع جديد، لأن دين الإسلام خاتم الأديان وباق إلى قيام الساعة لا ينسخ، فيكون عيسى عليه السلام حاكماً من حكام هذه الأمة ومجدداً لأمر الإسلام إذ لا نبي بعد محمد (ﷺ).

88.حدثت مجادلة عظيمة خلدت في القرآن الكريم في سورة آل عمران بين نصارى نجران والنبي (ﷺ) وكانت من أهم موضوعات الجدل بيان القرآن الكريم من خلال رسول الله (ﷺ) بطلان ألوهية المسيح.

89.امتنع نصارى نجران عن المباهلة خوفاً من العذاب، لما يعلمون من صدقه(ﷺ) وصحة نبوته، فقد أكدت الروايات الواردة عنهم اعترافهم بأنه النبي الذي بشرت به الكتب السماوية، وقد طلبوا الصلح مع النبي (ﷺ) واستجاب لهم رسول الله (ﷺ).

90. ثار العقل الأوروبي على تعاليم الكنيسة البعيدة عن وحي السماء وهدايات الله عز وجل، والخطاب العقلاني والمنطقي والوجداني الذي يلبّي أشواق الروح، وقد قاد رجال الإصلاح البروتستانتي الثورة على الكنيسة، وعارضوا مظاهر الطقوس الدينية واحتكار رجال الكنيسة للسلطة الدينية وسلطة البابا المطلقة، كما أن العقل الأوربي ثار على المسيحية المحرفة كدينٍ يعوق الفكر ويقف أمام التقدم العلمي، وحجره أمام البحث العلمي المستقل القائم على العقل والمنطق، وكان لهذا أثره في الخروج على تعاليم الكنيسة.

91.إن الخطاب القرآني هو الأقرب للعقل الأوروبي المتحرر ووجدانه المتلهف للحقائق الإيمانية ومنطقه الذي ضاع في عالم الماديات والشهوات وغاب عن عوالم المعاني والقيم الروحية.

92.إن القرآن الكريم بيّن حقيقة عيسى عليه السلام وكونه لا يعدو إلا أن يكون عبداً ورسولاً لله تعالى من أولى العزم.

الله ولي التَّوفيق

قائمة المصادر والمراجع

1.آباء وأبناء ملامح تربوية في القرآن الكريم، د. فاروق حمادة، دمشق: دار القلم، ط1، 1418هـ، 1997م.

2.أثر الكنيسة على الفكر العربي الأوربي، د. أحمد علي عجيبة، دار الافاق العربية، ط1، 2004م.

3.الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي القرافي، شركة سعيد رأفت للطباعة، ط2، 1407هـ 1987م.

4.الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء، إبراهيم العلي، دمشق: دار القلم، ط1، 1416هـ، 1995م.

5.أحبك أيُّها المسيح، عبد المجيد العرابلي، الأردن: مطبعة أروى، ط2، 1426هـ، 2006م.

6.إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي الطوسي ت (505هـ)، بيروت: دار المعرفة.

7.أديان العالم المقارن، د. عبد القادر نجوش، الكويت: دار الضياء، 1435هـ، 2014م.

8.الأديان في كفة الميزان، محمد فؤاد الهاشمي، دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر، 1986م.

9.آراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية عرض وتقويم في ضوء عقيدة السلف، محمد بن عبد العزيز الشايع، مكتبة دار المناهج، ط1، 1427 هـ.

10.الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، د. محمد وصفي، دار ابن حزم، ط1، 1418هـ، 1997م.

11.الاريوسية في مصر البيزنطية، د. عبد الباقي السيد عبد الهادي، مصر: دار الافاق العربية، ط1، 1437هـ، 2006م.

12.إزهاق الباطل والرد على شبهات القمص، زكريا بطرس صلاح أبو السعود، مصر، الجيزة: مكتبة النافذة، ط1، 2009م.

13.الأساس في التفسير، سعيد حوى، القاهرة: دار السلام، ط1، 1405هـ، 1985م.

14.أشراط الساعة، يوسف عبد الله الوابل، السعودية، الأحساء: دار ابن الجوزي، ط2، 1411هـ، 1990م.

15.أضواء على المسيحية، متولي يوسف، ط2، الكويت: الدار الكويتية، 1393هـ، 1973م.

16.إظهار الحق، رحمة الله الهندي العثماني، تحقيق: أحمد حجازي السقا، طبعة دار التراث، الطبعة القطرية.

17.إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية، المملكة العربية السعودية الرياض: مكتبة المعارف.

18.إنجيل برنابا، تحقيق: سيف الدين أحمد فاضل، الكويت: دار القلم، ط1، 1393هـ، 1973م.

19. إنجيل متى: الكتاب المقدس، بيروت: دار الكتب المقدس، ط1، 1993م.
20. إنصاف غير المسلمين، د. سرين محمد أحمد صعيدي، الأردن: دار الفتح، ط1، 1438هـ 2017م.
21. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري، المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الخامسة، 1424هـ/2003م.
22. الإيمان بالرسل والرسالات للصلابي، علي محمد محمد الصلابي، تركيا: دار الروضة استنبول، ط1، 2017م.
23. البداية والنهاية، الحافظ إسماعيل بن كثير، بيروت: مكتبة المعارف، ط2، 1974م.
24. البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، عباس بن منصور السكسكي الحنبلي، تحقيق: د. بسام العموش، ط1، الأردن: مكتبة المنار، 1418هـ.
25. بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق: د. محمد شامة، القاهرة: مكتبة وهبة، ط2.
26. تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ 1988م.
27. تاريخ الأقباط، زكي شنودة، دون بيانات النشر، 1998م.
28. تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، القاهرة: دار الفكر العربي، ط2، 1980م.
29. تاريخ الفكر المسيحي، القس حنا الخضري، ط1، القاهرة. دار الثقافة.
30. التاريخ اليهودي، يوسيفوس اليهودي، دون بيانات نشر.
31. تاريخ مختصر الدول، العلامة غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري، ط1، بيروت: المطبعة الكاثوليكية.
32. تأملات في سورة مريم، د. عادل أحمد الرويني، ط1، 1432هـ، 2011م، جائزة دبي الدولية للقران الكريم.
33. التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، دون تاريخ.
34. تحريف رسالة المسيح عبر التاريخ، بسمة أحمد جستنية، دمشق: دار القلم، الطبعة الأولى 1420هـ، 2000م.
35. التحريف والتناقض في الأناجيل، د. سارة العبادي، مكة المكرمة: دار طيبة الخضراء، ط1، 1424هـ، 2003م.
36. التصريح بما تواتر في نزول المسيح، محمد أنور شاه الكشميري، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط4، 1402هـ، 1982م.
37. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، إسماعيل بن كثير الدمشقي، القاهرة: دار الحديث، 1415هـ،

1994م.

38.تفسير الرازي (التفسير الكبير)، محمد عمر الرازي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط2.

39.تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، الرياض: دار العبيكان، ط1، 1437هـ، 2016م.

40.تفسير السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الدمام: دار ابن الجوزي، ط4، 1435هـ.

41.تفسير الطبري: تقريب وتهذيب، صلاح الدين الخالدي، دمشق: دار القلم، ط1، 1418هـ، 1997م.

42.تفسير القرآن الكريم، د. عبد الله شحاتة، القاهرة: دار غريب، ط1، 2000م.

43.تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990م.

44.التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي، دمشق: دار الفكر، ط1، 1411هـ، 1992م.

45.تفسير إنجيل لوقا، ترجمة: مكرم نجيب، القاهرة: دار الثقافة المسيحية.

46.تفسير إنجيل مرقس، وليم باركلي، تعريب: د. فهيم عزيز، بيروت: دار الجيل.

47.التفسير والبيان لأحكام القرآن، د. عبد العزيز الطريفي، الرياض: مكتبة دار المنهاج، ط2، 1439هـ.

48.جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1992م.

49.الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دمشق: مؤسسة مناهل العرفان، مصورة عن الطبعة المصرية.

50.الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، محمود صافي، بيروت: دار الرشيد، ط1، 1411هـ، 1990م.

51.الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: سفر الحوالي، مجلة البيان، ط1، 1432هـ.

52.حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، صلاح الدين الخالدي، الأردن، عمّان: دار النفائس، ط1، 1438هـ، 2017م.

53.حقيقة المسيح والتثليث، منصور تميم نتشة، الأردن، عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، ط1، 2008م.

54.الحوار الإسلامي المسيحي، د. بسام داود عجك، دمشق: دار قتيبة للطباعة، ط2، 2008م،

1429هـ.
55.حياة محمد، واشنطن إيرفنغ، ترجمة وتعليق د. علي حسن الخربوطلي، مصر: دار المعارف، ط1، 1960م.
56.حياة محمد (ﷺ)، إميل درمنغم، تحقيق عادل زعيتر، القاهرة: دار العالم العربي، ط3، 2016م.
57.خصائص الأمة الإسلامية الحضارية، د. إبراهيم زيد الكيلاني، الأردن: منشورات جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط1، 2004م.
58.الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، د. أحمد عجيبة، القاهرة: دار الافاق العربية، 2006.
59.الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد يوسف (السمين الحلبي)، تحقيق: د. أحمد الخراط، دمشق: دار القلم، ط1، 1406هـ، 1986م.
60.دراسات في الأديان، د. سعود بن عبد العزيز الخلف، المدينة المنورة: مكتبة جامع العلوم والحكم، 1414هـ.
61.دراسات في التفسير الموضوعي للقران الكريم، د. زاهر بن عوض الألمعي، السعودية، ط2، 1422هـ، 2001م.
62.دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية، د. محمد علي البار، دمشق: دار القلم، ط2، 1432هـ، 2011م.
63.دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية، سليمان الرومي، الرياض: مكتبة الرشد، ط1، 1428هـ، 2007م.
64.دقائق التفسير الجامع، ابن تيمية، جمع وتقديم وتحقيق: محمد السيد الجليند، القاهرة: سلسلة التراث الفلسفي، دار الأنصار، ط1، 1398هـ، 1978م.
65.دلالة الأسماء الحسنى على التنزيه، عيسى بن عبد الله السّعدي، السعودية: كليّة التربية بالطائف، قسم الدراسات الإسلاميّة.
66.دلائل النبوة، أبو بكر أحمد بن الحسين، تحقيق، د. عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط، 1985م.
67.رسالات الأنبياء، عمر أحمد عمر، دمشق: دار الحكمة، ط1، 1997م، 1418هـ.
68.الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، مصر: مكتبه الحلبي، الطبعة الأولى، 1358هـ،1940م.
69.روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، باكستان: مكتبة إمدادية ملتان.

70.زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين بن الجوزي، بيروت: المكتب الإسلامي، ط، 1385هـ.
71.زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر، المعرف بـ(ابن قيم الجوزية) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، ط27، 1414هـ، 1994م.
72.زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، القاهرة: دار الفكر العربي، 2008م.
73.السرُّ القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، صالح علي العود، لبنان: دار ابن حزم، ط1، 1430هـ، 2010م.
74.سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، عمان: المكتبة الإسلامية، 1403هـ، 1983م، الكويت: الدار السلفية.
75.سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، بعناية أحمد محمد شاكر، مصر: شركة مصطفى الحلبي، ط2، 1398هـ، 1978م.
76.سيرة الرسول (ﷺ)، محمد عزت دروزة، الدوحة: المؤتمر العالمي للسيرة النبوية، مطابع الدوحة، ط3، 1400هـ.
77.السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، القاهرة: دار التراث العربي، 1979م.
78.الشخصية النسائية في القصة القرآنية، هدى عبد اللطيف عريان، دمشق: دار غار حراء، ط1، 1426هـ، 2005م.
79.شرح العقيدة الطحاوية، علي بن علي بن أبي العز الحنفي، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، ط4، 1391هـ.
80.شرح صحيح مسلم، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط2، 1392هـ.
81.شرعة الله للأنبياء، محمد الزحيلي، لبنان، دمشق: دار ابن كثير، ط1، 1439هـ، 2018م.
82.صحيح البخاري، محمد إسماعيل البخاري، الرياض: بيت الأفكار الدولية.
83.صحيح الأنباء المسند من أحاديث الأنبياء، أبو أسامة سليم عبد الهلالي السلفي الأثري، بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1429هـ، 2008م.
84.صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، 1403هـ، 1983م.
85.صيحة تحذير من دعاة التنصير، محمد الغزالي، دمشق: دار القلم، ط1، 1421هـ، 2000م.
86.قراءة تأصيلية في سير وقصص ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، عثمان محمد الخميس، الكويت: دار إيلاف

الدولية، ط1، 1431هـ، 2010م.
87.فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق وتصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، 1379هـ.
88.فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق حسن البخاري القِنَّوجي، تقديم ومراجعة: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، بيروت: المكتبة العصريَّة للطباعة والنشر، 1412 هـ، 1992م.
89.فقه دعوة الأنبياء، أحمد الأميري، دمشق: دار القلم، ط1، 1420هـ، 2000م.
90.الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، عبد المجيد الشرفي، تونس: الدار التونسية للنشر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م.
91.الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، د. حسن ظاظا، دمشق: دار القلم، بيروت: دار العلوم والثقافة، ط2، 1407هـ.
92.في رحاب قصص الأنبياء والرسل، عبود الراضي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1435هـ، 2014م.
93.في ظلال القرآن، سيد قطب، القاهرة: دار الشروق، ط 38، 1430هـ، 2009م.
94.قاموس الكتاب المقدس، د. بطرس عبد الملك ورفيقاه، القاهرة: دار الثقافة، ط10، 1995م.
95.قصة الحضارة، ول ديورانت، تقديم محيي الدين صابر، ترجمة زكي نجيب محمود، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، لبنان، بيروت: دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، د.ت.
96.قصص الأنبياء، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دمشق: دار الفيحاء، ط1، 1421هـ، 2001م.
97.قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، بيروت: دار الجيل للطباعة والنشر، ط1، 2009م.
98.قصص التوراة والإنجيل في ضوء القرآن والسنة، د. عمر سليمان الأشقر، الأردن، عمان: دار النفائس، ط1، 1432هـ.
99.القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، د. صلاح الدين الخالدي، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ط1، 1419هـ، 1998م.
100.قصص أولي العزم، ليلى بلخير، دمشق: دار طيبة، ط1، 1432هـ.
101.قوانين النبوة، موفق الجوجو، دمشق: دار المكتبي، ط1، 1423هـ، 2002.
102.الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1407هـ، 1987م.
103.مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، دمشق: دار القلم، ط1، 1410هـ، 1989م.
104.مجادلة أهل الكتاب، د. نور الدين عادل، الرياض: مكتبة الرشد، ط1، 1428هـ، 2007م.

105.محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، المملكة العربية السعودية، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط4، 1404هـ.

106.محمد الرسالة والرسول، د. نظمي لوقا، ط2، مصر: وزارة التربية والتعليم، 1959م.

107.محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد، بيروت: دار المنار، 1409هـ ـ 1989 م.

108.محمد في الكتاب المقدس، البروفيسور عبد الأحد داود، طبع على نفقة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، ط4، 1421هـ، 2000م.

109.المدخل إلى العهد الجديد، د. القس فهيم عزيز، القاهرة: دار الثقافة.

110.المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، محمد البار، دمشق: دار القلم، ط2، 1432هـ، 2011م.

111.المرأة في القصص القرآني، د. أحمد الشرقاوي، القاهرة: دار السلام، ط1، 1421هـ، 2001م.

112.مريم والمسيح، محمد متولي الشعراوي، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، ط2، 1421هـ، 2000م.

113.المستدرك على الصحيحين، الإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1422هـ، 2002م.

114.مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.

115.مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرناؤوط واخرين، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 2008م.

116.المسيح في الإسلام ومحاورة مع قسيس حول ألوهية المسيح، أحمد ديدات، القاهرة: دار الفضيلة.

117.المسيح في الإسلام، أحمد ديدات، ترجمة وتحقيق: محمد مختار، المملكة العربية السعودية، الرياض: دار الفضيلة للنشر، 1988م.

118.المسيح والتثليث، محمد وصفي، مصر: المطبعة الرحمانية، ط1، 1937م.

119.المسيح والمسيحية والإسلام، عبد الغني عبود، ط1، دار الفكر العربي، 1984م.

120.المسيحية الحق كما جاء بها المسيح، علاء أبو بكر، القاهرة: مكتبة وهبة، ط1، 1418هـ، 1997م.

121.المسيحية المؤمنة بنبوة عيسى عليه السلام، أميمة بنت أحمد جلاهمة، السعودية: جامعة أم القرى، ط1، 1430هـ، 2009م.

122.المسيحية في الأحاديث النبوية، عبد الرزاق الدغري، تونس: دار مسكيلياني.

123.مصادر النصرانية، د. عبد الرزاق بن عبد المجيد، الرياض: دار التوحيد، 1428هـ، 2007م.

124.مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد علي عبد المعطي، مكتبة عباد الرحمن، ط1، 1431هـ، 2010م، القاهرة.

125.مع الأنبياء وجهادهم، محمود عبد الحميد، دمشق: دار الفكر، ط1، 2003م.
126.المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، مصر، القاهرة: دار الفكر العربي.
127.معجم الحضارات السامية، هنري س عبودي، لبنان: جروس برس، ط2. 1411م.
128.المعجم الوسيط، أحمد حسين الزيات ورفاقه، القاهرة: مجمع اللغة العربية، تركيا: دار الدعوة، 1410هـ، 1989م.
129.المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ط1، 1412هـ، 1992م.
130.مقارنة الأديان المسيحية، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط9، 1990م.
131.مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، بيروت: دار الفكر، ط1، 1415هـ، 1994م.
132.من أنباء الرسالات السماوية، د. محمد عبد المجيد لاشين، القاهرة: دار الافاق العربية، ط1، 1430هـ، 2009م.
133.من آيات الإعجاز الأنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، لبنان: دار المعرفة، 1434هـ، 2013م.
134.من قصص التنزيل، محمد الحجار، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط1، 1419هـ، 1999م.
135.مناظرة بين الإسلام والنصرانية، مجموعة من رجال الفكر من الديانتين الإسلامية والنصرانية، الشارقة: مكتبة الصحابة، ط1، 1427هـ، 2007م.
136.منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل، د. عزية علي طه، لبنان: مؤسسة الرسالة، ط2، 1417هـ، 1996م.
137.مواجهة الصدمات النفسية من خلال تدبر قصة مريم عليها السلام، فوزية الخليفي، الرياض: دار الحضارة، ط1، 1436هـ، 2015م.
138.مواقف الأنبياء في القرآن، صلاح الدين الخالدي، دمشق: دار القلم، ط1، 2010م.
139.الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية، عبد المنعم الحفني، ط1، بيروت: دار السيرة، 1400هـ.
140.موقف اليهود والنصارى من المسيح عليه السلام وإبطال شبهاتهم حوله، د. سارة بنت حامدين محمد العبادي، الرياض: مكتبة الرشد، ط1، 1426هـ، 2005م.
141.موكب النبيين، سيد أحمد الكيلاني، دمشق: دار القلم، ط1، 1404هـ، 1984م.
142.الميزان في مقارنة الأديان، المستشار محمد عزت طهطاوي، دمشق: دار القلم، ط2، 1423هـ، 2002م.

143.نبوة محمد بين الشك واليقين، د. فاضل صالح السامرائي، مكتبة القدس، بغداد . دار البشائر، عمان، 1971م.

144.نسيم الرياض في شرح الشفاء، أحمد شهاب الدين الخفاجي، المطبعة الأزهرية، ط1.

145.نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، د. أحمد علي عجيبة، القاهرة: دار الافاق العربية، ط1، 2004م.

146.النصرانية في ميزان العقل والإسلام، محمد سليم القاضلي، الأردن، إربد: دار الكتاب الثقافي، ط1، 1424هـ، 2003م.

147.النصرانية من التوحيد إلى التثليث، محمد أحمد الحاج، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ط1، 1413هـ، 1992م،

148.نقض دعوى عالمية النصرانية، د. فرج الله عبد الباري، القاهرة: دار الافاق العربية، ط1، 2004م.

149.هل بشر الكتاب المقدس بمحمد (ﷺ)؟، د. منقذ محمود السقار، مصر: دار الإسلام، ط1، 1428هـ، 2007م.

150.الهيكل المزعوم بين الوهم والحقيقة، د. عبد الناصر قاسم الفرا، مجلة علوم سياسية، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين.

151.وقفات في حياة الأنبياء، خالد عبد العليم، بيروت: دار ابن كثير، ط1، 1425هـ، 2004م.

152.ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، الرياض: دار طيبة، ط3، 1430هـ، 2009م.

153.اليهودية، شلبي، أحمد شلبي، ط8، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1988م.

* * *

الفهرس

كتب صدرت للمؤلف

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القرآن الكريم.
13. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبد الله بن الزبير.
17. عصر الدولة الزنكية.
18. عماد الدين زنكي.
19. نور الدين زنكي.
20. دولة السلاجقة.
21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
23. الشيخ عمر المختار.
24. عبد الملك بن مروان وبنوه.
25. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
26. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27.وسطية القرآن الكريم في العقائد.
28.فتنة مقتل عثمان.
29.السلطان عبد الحميد الثاني.
30.دولة المرابطين.
31.دولة الموحدين.
32.عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.
33.الدولة الفاطمية.
34.حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.
35.صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.
36.استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ((ﷺ))، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.
37.الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.
38.الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.
39.المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.
40.سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.
41.الشورى في الإسلام.
42.الإيمان بالله جل جلاله.
43.الإيمان باليوم الاخر.
44.الإيمان بالقدر.
45.الإيمان بالرسل والرسالات.
46.الإيمان بالملائكة.
47.الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.
48.فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.
49.المعجزة الخالدة.
50.الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.
51.البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.
52.التداول على السلطة التنفيذية.
53.الشورى فريضة إسلامية.
54.الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55.العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56.المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57.العدل في التصور الإسلامي.

58.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59.الأمير عبد القادر الجزائري.

60.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

61.سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

62.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

63.أعلام التصوف السُني «ثمانية أجزاء».

64.المشروع الوطني للسلام والمصالحة

65.الجمهورية الطرابلسية (1918 . 1922) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر

66.الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

67.المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام . الحقيقة الكاملة ..

* * *

د. علي محمَّد محَّمد الصَّلاَّبي

مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م
- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.
- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

. زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.
- سير الخلفاء الراشدين.
- الدولة الحديثة المسلمة.
- الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.
- فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.
- وسطية القرآن الكريم في العقائد.
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
- تاريخ كفاح الشعب الجزائري.
- العدالة والمصالحة الوطنية.
- الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
- المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الحقيقة الكاملة.